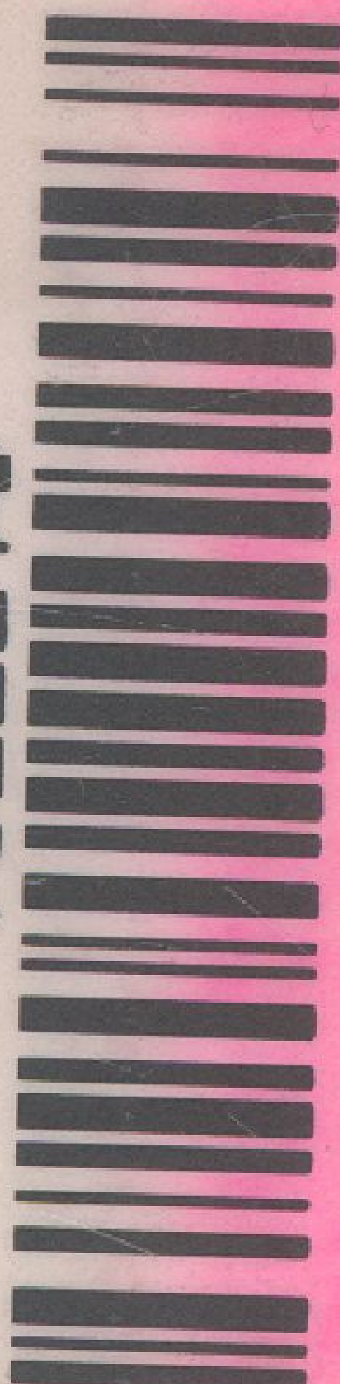
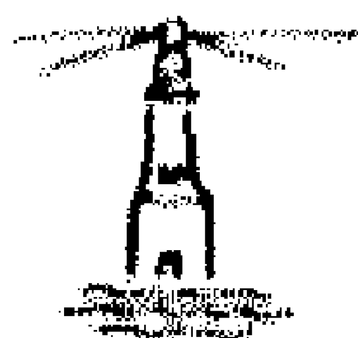



اقرأ

عبد الحليم عباس

أبو نواس



دار المعارف

اقرأ

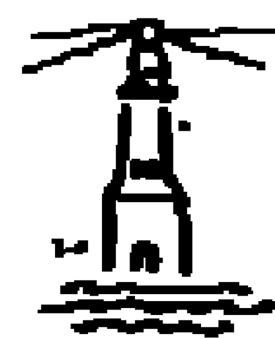
[٢١]

أبو نواس

عبد الحليم عباس

أبو نواس

الطبعة الثالثة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بغـــــداد

عن يونس بن عبد الأعلى قال : قال
لى الشافعى يا يونس هل دخلت بغداد
قلت لا . قال « إذن ما رأيت الدنيا »
(تاريخ بغداد الجزء الأول)

فى عام خمسة وأربعين ومائة بعد الهجرة ، انحدر من الهاشمية قرب الكوفة فتى أسمر نحيف القامة مهيب الطلعة ، ثم أصعد فى السهل الممتد بين دجلة والصّراة ، وجاس خلاله يتنسم الأرياح ، ويسائل ساكنى البِيَع فى هذه الأمكنة عن موضع صالح يبنى فيه مدينة .

لم تبخل عليه الريح ، ولم يضن عليه ساكنو البيع ، فدلوه على خير مكان فى هذا السهل العريض . فأمر أن تخط على هذه الأرض خطوط من رماد ، ثم يوضع على هذا الرماد حبُّ النفط ، ولما التحمت النار وصارت طرائق نظر إليها وقال : هكذا يجب أن تكون مدينتى .

هذه المدينة هي بغداد ، وهذا الفتى هو رجل بني العباس المنصور ، أما الخطوطُ من رماد ، فهي بعد حين القصور الرحبة ، مدارجها من مرمر ، وسرُرها من عاج ، وستورها من ديباج .

وفي هذه السنة أيضاً — على حدّ بعض الأقوال — ولد في قرية من قرى الأهواز ، لرجل مهاجر من دمشق وفتاة فارسية طفلٌ أسمياه « الحسن » .

قامت مدينة المنصور ، وجيء من الشام وواسط بالأبواب التي توضع على الأسوار كما جيء بأبواب « مدينة الزندور التي بنتها الشياطين[1] » فنعم الخليفة وقرّت عينه ، بعد أن أخافته الهاشمية . فهو الآن بين أنهار لا يأتيه عدوه منها إلا على جسر أو قنطرة كما قال له البطارقةُ أصحابُ البيع . ولكن الأنهار تحمل غير الميرة ، تحمل السنديات والهنديات والجواري الروميات . والعدو قد لا يجيءُ على جسر أو قنطرة ، فقد يكون في قلب المدينة . وقد يجيءُ مع الجواري الآتيات فلا تستعصي عليه أبواب الشياطين ولا تهدم من تحته القنطرات والجسور .

نما الطفل الذي ولد بالأهواز وترعرع ولكنه لا يزال

(١) تاريخ بغداد الجزء الأول

حائراً بين البصرة والكوفة ومضارب الأعراب . تفيض أنهار بغداد فإذا الأرض مخضرة ، و إذا الجنائن مونقة ، والميرة لا تزال ترد ومعها الجليبات من الجوارى ، فتزيد النفوس تهالكاً على الترف وحباً للاستمتاع . ولقداستوفت بغداد كل غناها و بذخها. ولبست حدائقها منتهى حسنها وجمالها . ومشى المترفون إلى أقصى غايات الترف واللهو . فجاءها — فى زمن الرشيد — الطفل الذى ولد بالأهواز بعد أن تبدل اسماً باسم فهو أبو نواس . جاءها ليأخذ مما تأخذبه طبقة المترفين التى يلتصق بها ، و يحرص على أن تكون له بها صلة ، ولما لم يكن به تعفف ولا حشمة ، فقد انطلق مع المنطلقين ، ولها مع اللاهين . وكان به سعار إلى اللذة ،فلم تبخل عليه بغداد بلذة تشتهيها نفسه ، أو يصورها خياله . افتنت فى تقديم هذه اللذائذ فافتن فى التغنى بها حتى كاد يلحق أمره وأمر هذه المدينة — لغرابته وطرافته وبالغ ترفه ومجونه — بحديث الأساطير ... أمضى عمره سادراً لا يرعوى ، ومخموراً فى حدائق القفص وقطربل لا يفيق ، والناس من حوله لا ينكرون من أمره كبير شىء ، ولكنهم يعذلونه أن صرح بحديث هذا اللهو والمجون . وأبت عليه ملكته الفنية ، و إيثاره للصدق ، وكرهه

للرياء ، إلا أن يجهر به و يصوره على حقيقته وواقعه .

ودع التستر والريا ء فما هما من شانيه

لم يكن هذا الفتى بدعاً فى عصره ، ولكن عصره كان بدعاً فى العصور . فلم ير العرب لهم من قبل مملكة كهذه تمتد غرباً فتضم فى طريقها الشام ومصر ، ثم تلتهم شمال افريقية حتى المحيط ، ويظلل جناحها الممتد إلى الشرق ممالك ودولاً حتى الهند والصين ، ويدين لها فى الشمال والجنوب أجناس مختلفة وعروق متباينة . . . وتتضافر هذه الدنيا على إسعاد مدينة بغداد فترسل إليها ذهبها وفضتها ، ومن ترفها ومجونها ألواناً جديدة لم يسمع بحديثها الناس ، والناس فى هذه المدينة عجيبة من العجائب . فليسوا إلى أمة واحدة وإنما هم إلى أمم مختلفة المشارب ، متباينة العادات . فهم فرس وعرب وكرد وترك وسريان وهنود . وهم بيض وصفر وسمر وسود . وهم مسلمون ونصارى ويهود ومجوس . وهم غير هؤلاء أجناس وطوائف وأديان لا تدخل تحت حصر . . . وكل هؤلاء تضمهم المدينة المسوّرة التى قال بُناتها : لا يأتيها العدو على جسر أو قنطرة « بين دجلة ودجيل تقع المدينة التى تجبى لها كنوز الأرض وتجمع إليها كل إنسان ،

وهى أسرع ذهاباً فى الأرض من الحديدة المحماة [١] » .

هل استوفت المدينة كل حظها ؟ ؟ لا ، فلا يزال فى نفوس أهليها الفرس والعرب بقية من ورع ، وفضلة من تعفف وخلق محتشم . فليجئها مع كل هذا آراء وأفكار ، وكتب مخطوطة تهون أمر الورع ، وتحل من قيد الخلق المحتشم . . ثم توفى — الرشيد — وجاء الأمين « وكان الترف فى القصور إغراقاً فأصبح شذوذاً وانحرافاً » ، فتفتحت أبواب القصر لطائفة أخرجتها الغواية عن كل عرف ، وحلتها من كل قيد . وكان من بينها رجلنا المخمور فى حانات بغداد ومنازه دجلة والفرات ، فشدا مع الشادين ولها مع الماجنين العابثين .

ولكن الخمر التى أدمن شربها صرفاً وممزوجة قد فعلت بصحته فعلها . وشهرته السيئة قد جعلت سيده رب القصر يتحاشاه ، بل يضيق عليه ، ويباعد ما بينه وبينه . وكأنما أحس أن مرابع لهوه ستأخذ من بهجتها الفتنة ، وتأتى على جمال بغداده الحرب المنطلقة فأغمض عينه فى عام سبعة وتسعين ومائة ومات [٢] .

---

(١) حديث ضعيف

(٢) ماورد بهذا الفصل من أساطير وحقائق فعن تاريخ بغداد للخطيب

جوار وخمور وأشياء بينهما

قد يثرى العصر، وتصح سياسته ، وتنشط فيه الحركة العلمية والأدبية ويمد لها فى الحرية ، ولكنه ليس بالعصر العباسى إذا لم يدخل في حسابه حديث الجوارى ومجالس الشراب ، وما يتصل بهما وما يمت إليهما من غناء وطرب ، وما يتبع الغناء والطرب . فلقد كثرت الجوارى فى هذا العصر ، وكثرت الخمر وازداد شاربوها وشاع الغناء وافتتن الناس فيه . وقارىء أدب هذا العصر لا يزال يقع على مجالس شراب ، ويهفو سمعه لغناء مستطاب ، وتطالعه فى كل حين وجوه جوار سافرات أو منتقبات ، والشراب والغناء من مستلزمات الترف والثراء . أما الجوارى فهن يتبعن هذين ولكن لا بد من أن يمهد لهن سبب آخر . فما هو ؟ ؟

جاءت الجوارى وعرفهن العرب مع الفتح . وساعدت حالة الثراء والاستقرار فى عهد الرشيد على الإكثار منهن حتى بلغن فى قصره « ألفين » كما روى صاحب الأغانى . وغالوا بهن حتى بذلوا فيهن عشرات الألوف من الدنانير فقد اشترى الرشيد واحدة

بمائة ألف دينار . وأوقر الأمين زورق عمه جعفر الهادى ذهباً ثمناً لجاريته « بذل » التى لم تطب نفسه عنها هبة أو بيعاً ، فأخذها الأمين مع هذا الثمن على حال تشبه الغصب . والجارية تقوم بما لا تقوم به «الحرة» . فقد يكفى هذه محتدها ونجارها ، أما تلك فلا بد من صفات وخلال تعلو بها . وهذه الصفات والخلال ترجح فى الميزان على صفات « الحرة » وخلالها . فأول ما يطلب من الجارية الحذق فى الغناء ، وإذا حذقت الغناء فقد اتصلت بالأدب ، وروت الأشعار . وقد يصل التثقيف بالجوارى إلى حد أن ينظمن الشّعر ، ويجارين بعد ذلك فحوله كما كانت تصنع عنان جارية الناطفى . فلها مساجلات مع شاعرنا النواسى ، ومروان ابن أبى حفصة . وقد ذكرت كتب الأدب أنه دخل عليها هذا مرة ومولاها يضربها فارتجل قائلا :

بكت عنـان فجرى دمعها ‏ ‏ ‏ كالدر إذ ينسل من خيطه

فأجابته على البديهة :

فليت من يضربها ظالمـاً ‏ ‏ ‏ تجف يمناه على سوطه

ويظهر أنه كان لعنان هذه ما يشبه الصالون يجتمع فيه رجال الفكر والشعر ، ورواد اللهو والاستمتاع ، وتجرى فى ندوتها

مطارحات في الأدب . . . . وفى الغزل مجمجمة حيناً ، سافرة أحياناً . وحديث هذه المجالس يذاع و ينشر حتى يصل إلى قصر الرشيد فيرغب إلى مولاها فى شرائها ولكنه يشتط فى الثمن . ومثل عنان هذه فى الثقافة ورواية الشعر «عُريب» جارية المأمون، و «دنانير» جارية يحيى بن خالد ، وعشرات مثلهن حذقاً فى الغناء و براعة فى الشعر . وألوف دونهن فى هذا و إن لم يكنّ دونهن فى الظرف والحسن ولين الكلام .

حدث محمد بن مزيد عن أحمد بن صدقة قال : « دخلت على المأمون فى يوم الشعانين و بين يديه عشرون وصيفة رومية مزنرات قد تزينّ بالديباج الرومى ، وعلّقن فى أعناقهن صلبان الذهب ، وفى أيديهنّ الخوص والزيتون . فقال لى المأمون : ويلك يا أحمد قد قلت فى هؤلاء أبياتاً فغنّنى بها ثم أنشدنى :

ظبـاء كالدنانير ... مـلاح فى المقاصير
جلاهن الشـعانين ... علينـا فى الزنانير

فحفظتها وغنّيته فلم يزل يشرب والجوارى يرقصن بين يديه أنواع الرقص من « الدستبند إلى الايلا » حتى سكر فأمر لى بألف دينار ، وأمر بأن ينثر على الجوارى ثلاثة آلاف دينار . »

هذا مجلس ومثله عشرات المجالس .

وأصبحت التجارة بهؤلاء الجوارى شيئاً رابحاً . فعمل أصحاب هذه التجارة على جلبهن من سائر أطراف المملكة متعددات الأجناس والألوان . وكان منهن الجوارى اللاتى نشأن فى البصرة والكوفة والحجاز ، وعرف الناس والشعراء خاصة لكل جنس جماله الذى يمتاز به . فهاك ما يقوله النواسى فى جارية رومية .

أبصرت فى بغداد روميه ... تقصر عنها كل أمنيه
قصرية الطرف وشامية ال ... خلوة فى نكهة زنجيه
صفدية الساقين تركية ال ... ساعد فى قد طخاريه
هندية الحاجب نوبية ال ... فخذين فى زهو عباديه
حيرية الحسن كيانية ال ... أرداف فى لية عاجيه

ودخلت هؤلاء الجوارى الخدمة العامة . وفى أشعار النواسى ورفاقه ما يدل على أن تلك الحانات التى كانت تفتح لهم أبوابها فى أنصاف الليالى كان يقوم على الخدمة فيها جوار يحسن مع بيع الخمر بيع الصبابة والغزل .

فما عسى أن تصنع هذه المغريات فى أعصاب أبى نواس ، الذى لم تعنه النشأة الأولى على سلوك الطريق الوسط فى الحياة ، لقد تغزل بالجوارى ، وذكر منهن فوق العشر ،

وشبب بدنانير، وأحب جنان، وتغزل — ولم يسم — بكثير غير هؤلاء. ويقال إن عنان غلبته في مجال الأدب المكشوف. ولم يستغرب الناس ولم يستكثروا من جارية أن تغلب شاعراً خليعاً في أدب عار مفضوح..

أما الخمور فقد عرفها العرب وافتنّوا فيها — في الجاهلية والإسلام — وذكر صاحب نهاية الأرب أن أنس بن مالك قال: « حرمت الخمر ولم يكن للعرب عيشٌ أعجب منها وما حرم عليهم شيء أشد من الخمر » ولما أنزل التحريم امتنع العرب عن شربها. وكان شاربها يتستر في أمره، فإن ظهر حُدّ، وبقي الأمر كذلك حتى جاءت الدولة الأموية فشربها بعض خلفائها، واشتهر بشربها الوليد ويزيد. ولكن أمرهم في شربها بقي يروح بين التستر والظهور ويحمل — دوماً — على محمل الغرابة والاستهجان، حتى جاء الدور العباسي. فلها عنها المنصور بإقامة الدولة ثم شربها الهادي. أما المهدي فإنه وإن لم يشربها فقد عفا عمن شربها. ذكر صاحب العقد « أن ابراهيم بن هرمة سأله أن يجعل جائزته كتابته إلى عامله على المدينة أن لا يحده على شراب. فاستهول تعطيل حد من حدود الإسلام ثم كتب لعامله « من جاءك

بابن هرمة فاجلده مائة واجلد ابن هرمة ثمانين » . . فكان ابن هرمة يقول : أين من يشترى الثمانين بمائة .

شغف الناس فى هذا العصر بالخمر، ثم شغفوا معها بأ كثر من ذلك فقد أغرموا بالنقاش فى تحريمها أو عدمه . والأدباء والشعراء وإن لم يجيزوا لأنفسهم ما أجازه ابن قتيبة بعد ذلك من القول فى كتابه الأشربة « من أن المحرم بالسنة فيه فسحة كالقليل من الديباج والحرير ومن الخمر غير خمر العنب لم تمسه نار » . أجازوا لأنفسهم شربها والجهر بالوله بها . . . بعد أن تعطل أمر إقامة الحد فيها .

ومع الخمر والجوارى يجىء الغناء . فقد ملأ القصور والدور وأحكمته الصنعة البارعة ولون الشعر المعجز الذى يتغنون به . فأخرج الوقور عن وقاره . وهل جاء بعد الغناء شىء ؟ ؟ لكم كنا نتمنى أن نقول لا ، ولكن لا هنا غير مستطاعة . فقد جاء الشذوذ الجنسى والميل المنحرف . شاع حب الغلمان . وقد يكون هذا الشذوذ موجوداً بكل مكان وكل زمان ، ولكن الجهر وعدم التستر منه وأن لا يرى فيه صاحبه عاراً ، فتلك حالة لا نقول إنها مقصورة على هذا العصر ، ولكنها أشيع فيه منها

فى غيره من الأعصر. أخرجهم الشذوذ أو أخرج الكثير منهم إلى أن يقيسوا جمال الجارية إلى القدر الذى يشبه فيه جمالها جمال الغلام.

أفديك خذها من يدى وهات عذبنى حب غلاميات

وتغزل بالغلمان غزلاً مكشوفاً جلّ شعراء هذه الفترة ومهما افتنوا فى الغزل بهم فشاعرهم فى هذا الضرب من المنكر « أبو نواس ».

النـــاس

هم الذين يعنيهم الفضل بن يحيى « زبدٌ جفاء ، وسيلٌ غثاء ، همُّ أحدهم طعامه وشرابه» . فأين مكانهم فى دنيا بغداد ؟

يمرُّ التاريخ العربى بالعصور التى يؤرخها ، فلا يصف إلا ملوكها وقوادها ووزراءها ، وذوى الجاه فيها . وليس هؤلاء أهل العصر ، بل هم جزء ضئيل منه . إن الذين لا يؤرخهم هم أهله الذين يكدّون ألوان الكد ، ليدفعوا ما عليهم من مال ، ويوفوا بما عليهم من خراج ، ليهيئوا لسادتهم العيش المونق ، والحياة الرغدة .

وسبيل الباحث عن هؤلاء الناس أن يقف عند اللمحة التى تمرُّ عرضاً فى كتب التاريخ ، والطرفة التى ترد فى معرض الفكاهة والتندر فى كتب الأدب ، ثم يضم هذه اللمحات ، والفكاهات ،

فيخرج بصورة لهم إن لم تك صادقة الأجزاء ففيها الملامح التى تدل على هذا المخلوق « الذى هو الناس » فكيف كانوا فى هذا العصر الذهبى بين العصور ؟ !

كانوا جهلة فى عهد النهضة العلمية ، وليست هذه الحال بالمستغربة فى عهد لم تنشأ فيه المدارس العامة . فقد روى الطبرى ، أن المأمون أراد أن يلعن معاوية ، فقال له يحيى بن أكثم : إن العامة لا تحتمل هذا ، فركن إلى رأيه ، وحدث به ثمامة أحد المعاصرين فقال له : والعامة فى هذا الموضع الذى وصفها يحيى ، والله لو وجهت إنساناً على عاتقه سواد ، ومعه عصا لساق إليك بعصاه عشرة آلاف منها ، والله مارضى الله أن سواها بالأنعام (إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً) ثم ذكر أنه مرّ بشارع الخلد ، فإذا إنسانٌ يبيع أدوية وهو ينادى : هذا الدواء لبياض العين ، والعشا والغشاوة ، والظلمة ، وضعف البصر ، والناس قد انثالوا عليه ، فقلت له : يا هذا إن عينك أحوج اليه فلم لا تستعمله ؟؟ فقال : أنا فى هذا الموضع منذ عشر سنين ، ما مرّ بى أجهل منك ، ثم قال : أين ياجاهل اشتكت عينى ؟؟ قلت : لا أدرى . قال : بمصر . فأقبلت علىّ جماعة فقالت : صدق الرجل . أنت جاهل ، وهمت بى ،

فقلت : لا واللهِ ما علمت أن عينه اشتكت بمصر ، فتخلصت بهذه الحجة . وليست هـذه الحكاية بالمتخيرة من بين تلك الحكايات التي تبين مقدار جهل الناس فى هذا العصر . فقد ذكر فى الجزء الثانى من كتابه حكاية الذى كان يظن أن فاطمة رضوان الله عليها هى زوجة النبي صلى الله عليه وسلم . وذكر الجاحظ عشرات مثل هذه الطرف .

وكانوا فقراء ، يتعيشون بالنهب ، والسرقات . وثرت الفتنة فى زمن الأمين ببغداد فاذا آلاف العيارين العراة .

واحد منهم يشد على ألـــفين عريان ماله من إزار
ويقول الفتى إذا طعن الطعـــنة خذها من الفتى العيار

ويقول فيهم عمرو الوراق :

عريان ليس بذى قميص يغـدو على طلب القميص

وتكشفت بغداد المترفة عن آلاف مؤلفة من السفلة الرعاع . وآلاف مؤلفة من الشطار الذين لا يملكون من أسباب العيش غير أدوات الجريمة .

ليس له مال سوى مطرد مطرده فى كفه رأس مال

أين كانت هذه الآلاف ؟ كانت ببغداد ذات الخمور والقيان والكواعب والغلمان ، إن هؤلاء الناس حجزتهم الحكومات

القوية وزواهم الجهل والفقر عن أعين المؤرخين فى غير أوقات الحروب التى يساقون فيها للذبح ويقدمون قرابين رخيصة أو غالية على مذبح المرّيخ .

يقولون إن الأديب يمثّل عصره . فهل مثّل شاعرنا النواسى هؤلاء وهو من أكابر أدباء هذا العصر ؟ لم يمثّلهم هو ولا مثّلهم غيره . لم يعرف النواسى من الناس فى عصره إلا من هم « على رأس الهرم » كما يقولون . أما الناس الآخرون فلم يعرفهم فلندعهم فحديثهم يطول ، ولنسر مع شاعرنا المفتون ببغداد غير بغداد الناس من مجلس قينة إلى ظل جارية إلى حديث شراب .

نسب الشاعر ونشأته الأولى

ولد فى عام خمسةٍ وأربعين ومائة ، وإن شئت ، نزلت بهذا العام إلى ستة وثلاثين أو صعدت به قليلاً إلى تسعة وأربعين بعد المائة ، ولك فى هذا حجتك من أقوال المعاصرين وغير المعاصرين ممن كتب عنه . ولا تستطيع أن ترجح روايةً على روايةٍ لأن أكثر من روى عاماً روى غيره ولم يرجح . وكما تختلف السنة التى ولد فيها ، تختلف البلدة . وقصارى ما يستطيع الباحث أن

يقول إنها فى الأهواز . وهو يأخذ بهذا القول لا على سبيل التحقيق، ولكن برأى الكثرة التى كتبت عنه ، و إن كان هنالك من يقول إنه ولد فى البصرة . وسيان ولد بهذه أم بتلك ، فلم يعرف له موطناً إلا هذه الأخيرة . والذين يقولون إنه ولد فى غيرها يذكرون أنه جاء اليها مع أهله طفلاً فى الثانية أو السادسة من عمره . ففى البصرة أمضى سنى الطفولة والشباب ، وأقام بها حتى الثلاثين من عمره . يقول ابن قتيبة : « وكان بصرياً » و يقول هو :

وإن أك بصرياً فان مهاجرى دمشق ولكن الحديث شجون

وأمّه جُلَّبان « امرأة فارسية » لا اختلاف فى اسمها و عُجمتها . و إن اختلفوا فى صنعتها . فهى تصنع الخيزران، وهى تحوك الثياب. ومن هنا نعلم أنها صَنَاع اليد . وأبوه هانىء أو هنىء من دمشق من جند مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية . جاء الأهواز للرباط ورأى جُلَّبان على ضفة نهر من الأنهار ، فأعجبته ملاحتها فتزوجها. ولا سبيل إلى معرفة أى عمل آثر هذا الدمشقى بعد انحلال جند مروان ، وانتقال الملك إلى بنى العباس . ولكن صناعة الحياكة ورعى الغنم تتردد فى جُملٍ مبهمةٍ ، وعلى ألسنة شانئى فضل ولده .

وحفظ هذا الجندى من جملة ماحفظ من أخبار أهله فى الشام أنهم من أصل يمنى ، ومن قبيلة الحكم بن سعد العشيرة ، إحدى أفخاذ قبيلة مذحج ، ولعله ذكر أيضاً أن جده من رجال الأمير الجراح ، فقال الناس إنه مولًى لهذا الرجل الكبير الذى يصفه التاريخ بالصلابة والشدة وحُسن الاستقامة فى ولايته . ولم يعينوا نوع هذا الولاء ، والأرجح فيه أنه من الولاء الذى يتقرب فيه العرب بعضهم من بعض بالجوار أو الحلف أو الإحسان . وقد دعا النواسى نفسه مولى للفضل بن الربيع حينما أحسن اليه وأطلقه من السجن .

أصبحت غير مدافع مولاكا والحظّ لى فى أن أكون كذاكا

ولا شىء يمنع من تصور هذا . فالجراح كان فى الشام قبل أن يغادرها والياً على أرمينية ، ومقاتلاً فى بلاد الترك ، حيث استشهد . فليس من المستبعد أن يكون أهل هذا الجندى تقربوا اليه باليمنية ، ولازموه ليتقووا به ، وليكونوا منه بموضع بره وإحسانه .

ولم يك هانىء بحاجةٍ الى أن يكثر من حديث هذه اليمنيةِ والفخر بها . وليس مضطر به فى الحياة مما يحتاج إلى ذلك . ولكن الابن اضطرَّ الى جعلها من المتممات فهو الحسن بن هانىء الحكمى وله يقول والبة :

يا شقيق النفس من حكم نمت عن ليـلى ولم أنم

وضاقت الأهواز بهذا الدمشقى فجاء البصرة العامرة ، يحمل هـذه الأسرة التى هى جُلبـان وابناه الحسن وأبو معاذ ، واستوطنوها دار إقامة . ولما كبر طفله الحسن وأصبح بحاجة إلى التعليم ، لم يضن عليه به وأخذه إلى من يقرئه القرآن ، فحذقه ومهر فيه حتى أصبح موضع إعجاب مقرئيه . غير أن الدهر لم يدعه ينعم بطفولته . فقد توفى فى غضونها أبوه ، وكانت الأسرة من رقة الحال بحيث احتاجت إلى معونة ولدها بعد أن تعدى دور الطفولة فوضعته أجيراً عند عطارٍ فى أسواق البصرة .

هذا هو النواسى فى أسرته . لا تستطيع أن ترتفع بها ، ولكنك تستطيع أن تنزل بها دركات ، وهى — كما ترى — أسرة فقيرة ربة الأسرة فيهـا فارسية وربُّها عربىٌّ أصله من دمشق وقبيلته يمنية . وأبو نواس يعرف أن مثل هـذه الأسرة لا يستطيع أحد التحدث عنها بَلهَ الفخر والمباهاة بها . فقد ذكروا أنه أمضى عمره يتستر على نسبه . فإذا لزّه « أبان » فى الهجاء من ناحية أمه وأبيه وقال له :

هائىء الجون أبوه زاده الله هـوانا
سائل العباس واسمع فيـه من أمك شانا

وإذا أوجعه الرقاشي من ناحية نسبه بمثل قوله :

نبطيٌّ فاذا قيل له أنت مولى حكم قال أجلْ

هجاهما بمثل ما هجواه به ، وأوجعهما كما أوجعاه ، ولكنه لم يجد في باب الفخر أكثر من قوله :

إن تهجني تهج فتىً ماجداً لا يرفع الطرف الى مثلكا

وتمرُّ بديوانه فلا تجد فيه ذكراً لأمه وأبيه ، والفخر بهما أو بأبيه كما يصنع غيره من الشعراء . وهو إما أن يكون آثر الصدق فسكت ، أو خشى الفضيحة فلم يجر لسانه بشيء من ذلك . وأبو نواس بطبعه يكره الفخر والتعاظم بالجدود . وقد يكون من جملة البواعث على هـذا الكره عدم قدرته على الفخر ، لأننا نجده يفخر باليمنية ويعتز بها :

وقال أمن تميم قلت كلا ولكني من الحي اليماني

بلى فازدهتني للصبا أريحية يمانية إن السماح يمانِ

بل نحن أرباب ناعط ولنا صنعاء والمسك من محاربها

ونحن إذ فارس تدافع بهْـــــرام قسطنا على مرازبها

فافخر بقحطان غير مكتئبٍ فحاتم الجود من مناقبها

ويفخر بنفسه قليلاً :

وما حامت عن الأحساب إلا لترفع ذكرها بأبي نواس

ولو لم أرث فخراً لكانت صيانتي فمي عن سؤال الناس حسبي من الفخر
فلا يطمعن في ذاك مني سوقة ولا صاحب التاج المحجب في القصر

والفخر بالقبيلة هو فخر عام . والقحطانية ليست بأسرة و إنما هي عصبية . والذي يفخر بها و بنفسه يلذ له — ولو في وقت الحاجة — أن يفخر بأسرته . على أن هنالك من يدفعونه عن اليمنية و يوردون تأييداً لدعواهم هجاءه إياها . ولا شك أن الذين يدفعونه عن هذا النسب هم المضريون الذين أوجعهم هجاء ، و إلا فهجاؤه لليمن وحده لا يكفي إذا فُهم على حقيقته ، ونظر فيه إلى طبيعة النواسي الساخرة ، فهو قد مدح هاشم بن حديج اليمني ، وجاءه راغباً فخيب ظنه وزاد بأن فخر بقبيلته كندة :

رأيتك عند حضور الخوان شديداً على العبد والعبده
وتحتد حتى يخاف الجليس شذاك عليه من الحده
وتختم ذاك بفخر عليه بكندة فاسلح على كنده

وكندة ليست كل قبائل اليمن ، و إنما هي واحدة من كثيرات . فلو هجاها رجل من مذحج ومن قبيلة الحكم بن سعد العشيرة أيبرأ من يمنيته ؟؟ ثم عير ابن حديج بقتل محمد بن أبي بكر فذكر قبيلة مضرية هي قريش

وما كان إيمانكم بالرسول سوى قتلكم صهره بعده
فلو شهدته قريش البطاح لما مخشت ناركم جلده

وليس فى هذا ما يجعله متذبذباً فى نسبه .

ويظهر أن هاشم بن حديج أخرجه الهجاء عن طوره فأخذ يشتم قبيلة النواسى واحدة بواحدة :

أأشتم خير ذى حكم بن سعد لقد لاقيت داهية نآدا

ويفىء النواسى إلى رضاه فيعتذر إلى ابن حديج الاعتذار المخلص الذى فيه أكبر الدلالة على أنه كان يمنيًّا حقاً ، وأنه إن أخرجه الغيظ فشتم كندة ، لا يلبث أن يرعوى ويعود إلى رشده ، فيعلم أن كندة ومذحج وإن بعدت ، كلتاهما من اليمن . فما كان ليحسن مثل هذا الاعتذار لو لم يكن يمنياً :

أهاشم خذ منى رضاك وإن أبى رضاك على نفسى فغير ملوم
فأقسم ما جاوزت بالشتم والدى وعرضى وما مزقت غير أديمى .

وهى المرة الواحدة التى يذكر فيها والده . ولعله لو أسعفته القافية لترحم عليه ففى البيت رقة تستدعى ذلك . ثم يقول فى هاشم وأهل اليمن :

إذا امتازت الأحساب يوماً بأهلها أناخ إلى عادية وصميم
إلى كل معصوب به التاج مقول إليه أتاوى عامر وتميم

على أن المهم فى حديث الأسرة والأرومة أثرها فى تكوين الشاعر . ولا ريب فى أن شاعرنا قد ورث عن أبويه صفات

وخصائص خلقية . ولكن من الإسراف — فى غير طائل — البحث فى شعره ومذهبه فى الحياة ، ورد شىء أو أشياء فيهما إلى خصائص العرق الفارسى أو العربى . ذلك لأن النواسى قد طغى عليه مؤثر البيئة . فهو شاعر أسرف فى المجون فى بيئة أسرفت فيه ، وتهتك جلّ شعرائها . ومن الصعب القول كما قال القدامى : إن أبا نواس هان عليه العرب وتغنى بعيش الترف وعيش الفرس ، لمكان خؤولته منهم . فلهذا أسباب ليست من هذه ، سيراها القارىء مبسوطة فى بحث العصبية .

وإذا كان النواسى فقد والده صغيراً ، فلعله لم ينعم بصحبة أمه طويلا . فهم يذكرون أنها تزوجت رجلا اسمه « العباس » ، ومن العبث البحث عن هـذا العباس من هو ، ومتى تزوج بجلبان . فلقد هان على التاريخ ، فلم يذكره إلا حينما ذكر أنه تزوج بأم الشاعر . ولولا هذا الزواج لما ذكر . ويذكر ابن منظور أن له أختا تزوجت بشخص اسمه « خرج القصار » . ويسمون له إخوة . والراجح أنه لم يكن له غير « أبى معاذ الذى كان عطلا من كل شىء ، إلا أنه أخو النواسى » . وليس يضير أبا معاذ أن يسقطه النواسى من الحساب إذ يوجه الخطاب إلى جنان :

لا تفجعى أمى بواحـدها   لن تخلفى مثـلى على أمى

فهو موجود على الرغم من هذا .

وحديث الأخت والأخ قريب من أن يكون صدقاً . فالنواسى فى بغداد يذكر أن له ذوى رحم وأنه مكلف إيثارهم و برهم ، وأنه مضطر إلى هذا الإيثار والبر ولو كلفه أن ينتعل قدميه بدل ركوب الدابة الفارهة وأن يزهد فى الثوب الثمين والملبس النفيس :

تقول لى الركبان مالك راجلا   وكنت ركوباً عصر نحن رجال

فقلت عدانى عن ركوب وملبس   ذوو رحم آثرتهم وعيال

فمن هم هؤلاء ذوو الرحم أأسرة أبى معاذ ؟ ربما ، وربما كان معها أسرة شقيقته . وفى شعره يذكر الأعمام والأخوال :

لو أن هذا كان فى بلدى   أرضيت أعمامى وأخوالى

وذوو الرحم على أية صورة كانت قرابتهم للشاعر ، منهم جزء من البيت والجزء الآخر هم العيال ، فمن أين جاء بهم الشاعر ؟

أحب أن أزعم هنا أن النواسى تزوج — على شكل ما — ورزق أطفالاً

وأنه كان يسكن إلى أسرة فى بغداد — الأسرة التى كونها هو — وهو زعم لا سبيل إلى تحقيقه من ناحية التاريخ . فالذين كتبوا عنه ينفون و يثبتون ، و يمرون بهذا الجانب من ناحيته

سراعاً موقنين أن هذه الحياة العابثة المسرفة فى المجون والخلاعة ، لا تحتمل عيش الأسرة . وأوفى ما كتبه عن هذه الناحية ابن منظور قوله إن أبا نواس تزوج وطلق فى ليلته . ثم يضعف الرواية إذ يذكر أن هناك من يزعم أنه لم يتزوج مطلقا ، وما السبيل إلى تأييد هذا الزعم إلا النظر فى أشعاره . فهو يذكر فى ديوانه أن له ابنتين إحداهما اسمها « برّة » والثانية « لباب » ويقول عن برّة « إنها الابنة التى لم ير أبوها غيرها » :

ألا إن مثى بنت من لم ير ابنـة ولا ابناً سواها قد تبر وتؤنس
فيا « بر » بريني الحياة وإن أمت فلا تدخريني دمعـة حين أرمس
فذاك ابن سوء لا يرى لعشيرة صلاحاً ولا يعطى اللواء فيرأس
تحب أباها حب من لا أبا له وتذكره فى الصدر وحشى فتأنس

ويذكر « لباب » وهو فى مصر :

لبـاب تـكبرى فوق الحوارى فان أباك أعتبـه الزمان
متى أجمـع أبا نصر ومصرا فما للدهر بينكما مـكان

ولا سبيل إلى الزعم بأن هذه الأبيات قد تكون مدخولة على أشعاره . فالذى أدخل على شعره ليس من هذا وإنما هو من أشعار الخمر والمجون . ولعل « لباب » هى التى يذكرها فى قصيدته التى يمدح بها الخصيب فى مصر :

أبشرى يا ابنتى بغيرة مصر وتمى وأسرفى فى الأمانى

وما أظن مجالس الخصيب يحتمل أو يفرض على النواسى أن يكذب ويختلق ، ويدعى أن له ابنة .

وقد كان يكنى بأبى على وكان يناديه بذلك الخليع الشاعر والخصيب ، ولقد حمل هذه الكنية حتى موته .

فهل كان له ولد ذكر ؟ لقد رثى فى بيتين ولداً له :

لعمرك ما أبقى لنا الموت باقياً نقر به عيناً غداة نؤوب
كأنى وترت الموت بابن أفاده على حين حانت كبرة ومشيب

ويقول فى قصيدة ثانية :

تقول التى عن بيتها خف محملى عزيز علينا أن نراك تسير
ذرينى أكثر حاسديك بزورة إلى بلد فيه الخصيب أمير

فمن هذه التى خف عن بيتها مركبه ، وهو يرق لها فيطلب إليها أن تدعه وشأنه ، ليكثر حاسديها ؟ لعلها «لباب» أو «برة» ابنتاه ، ولعلها جارية من هؤلاء الجوارى اللائى كثيراً ما كن يهدين إليه .

ويقول وهو منصرف من السجن ، بعد أن شفع له الفضل ابن الربيع لدى الأمين :

إنى أتيتكم من القبر والناس مجتمعون للحشر
لولا أبو العباس ما نظرت عينى إلى ولد ولا وفر

ويكرر لفظة الولد كرة أخرى :

لو أن دون الموت واقية لفديتها بالمال والولد

وإذا كان من الممكن أن تنصرف كلمة الولد فى البيت الأخير إلى غير مدلولها الحقيقى مما يحتمله الشعر ، فلا أظن أنه من الممكن أن تنصرف إلى غير معناها فى البيت الأول ، ويبقى بعد ذلك المعنى سليما . فالسجين الذى يقول لمنقذه لولاك لم أستطع أن أنظر إلى ولدى لا يستطيع أن يقول ذلك إذا لم يكن له ولد .

وإذا أردنا أن نؤرخ عيال النواسى قلنا إنه ذكر إحدى ابنتيه فى مصر وذلك بعد عام ١٨٧ للهجرة . ثم ذكرهما بعد خروجه من السجن . فإذا كان بعد خروجه من سجن الرشيد ، ففى عام ١٩٣ . وإن يكن من سجن الأمين ، ففى عام ١٩٥ هـ . ثم رثى ابناً له ، ويحتمل أن تكون ابنة ، فاللفظ هنا لا يقصد به التحقيق ، وإنما هو لبيان مقدار الإعزاز والتفجع ، بعد أن حانت منه كبرة ومشيب . ولعل ذلك بعد السنين التى ذكرناها .

وحكى « الصولى »[١] عن محمد بن نافع — فى معرض حكاية عن الشاعر بعد موته ، أن الله غفر له بأبيات قالها ، فأتى أهله

---

(١) وفيات الأعيان — ترجمة الشاعر

وسألهم عن غرفة الشاعر فلما رأوه أجهشوا بالبكاء ، ودلّوه على الغرفة ؛ ويهمنا من الحكاية كلمة الأهل ؛ والنواسى يردد كلمة أسرتى « وتفديك أسرتى » ، وهى أبيات لا نستطيع أن نوردها سنداً لما نذهب إليه ، إذ كانت مما يجوز أن يقوله الشاعر ثم لا يقصد مدلوله . ولكنّ هذه الكلمة إذا جاءت بعد الذى أوردناه كانت خليقة أن تحمل على معناها الحقيق ، وهذا ما نرجحه فهل سكن الشاعر إلى زوجة ؟؟ أكثر الظن أن النواسى لم يتزوج كما تزوج الناس ، وإنما كان يسكن إلى هؤلاء الجوارى اللاتى يهدين اليه ، أو يشتريهن إذا قدر ، وهو زعم « مقبول » بالنسبة الى ذلك العصر ، عصر الجوارى والإماء .

وتزيَّد الناس عليه فى هذا الباب ، ونحلوه أشعاراً لا يستقيم أمرها إلاَّ اذا لم يتزوج . فلم يزوجوه ، وضنوا عليه ببنت أو ولد . ولا سبيل لباحث إلاَّ أن يحسب حساب هذه الزيادة على هذا الشاعر فى باب المجون ، وكل ما يتصل به .

علمٌ ولهوٌ

من حسن حظ النواسى وحظ العربية أن كانت البصرة فى ذلك الحين مركزاً من مراكز الثقافة والعلم ، لا ينافسها فى موضعها منهما إلا حاضرة الملك «بغداد» . ففى البصرة من يحدث فيجيد الحديث ، ومن يروى عن العرب فيكون الحجة فى الرواية وصحة الاطلاع كالأصمعى وأبى عبيدة الذى استطاع أن يقول — كما يروى صاحب الفهرست — ما التقت فرسان فى جاهلية أو إسلام إلا عرفت الفارسين والفرسين . وفيها النحاة المجيدون ، والقراء الأعلام ، ومن انقطع إلى غريب اللغة كأبى زيد الأنصارى. وفيها شباب فى سن فتانا النواسى ، يغدون على هؤلاء المبرزين يأخذون عنهم ويتعلمون منهم ؛ وقد بدأ بعض هؤلاء الشباب يشدون فى الأدب ويقرضون شعراً ، ولا نعرف بأى إغراء — غير إغراء العبقرية والإلهام — هفت نفس النواسى إلى أن يغدو مع هؤلاء الشباب ليأخذ مما يأخذون . فقد سمع الحديث عن جملة من رجاله كحماد بن زيد ، ويحيى بن سعد القطان وغيرهما . ونظر فى نحو سيبويه ، وتتلمذ على أبى عبيدة ، وخلف

الأحمر . واختلف إلى أبى زيد النحوى قبل أن يرتحل هذا الحجة إلى بغداد فى أيام المهدى ، وكان أشد هؤلاء الجهابذة تأثيراً فى نفسه أبو عبيدة وخلف الأحمر . فقد تعدى الأمر بينهما و بينه إلى شيء يشبه الصداقة . فهو يكبرهما وهما يكبرانه . يقول عن خلف : إنه جماع العلم ، وعن أبى عبيدة معمر بن المثنى إنه أديم طوى على علم ؛ و يقول عنه أبو عبيدة : ذهبت اليمن بجد الشعر وهزله ، امرؤ القيس بجده ، والنواسى بهزله . وذكروا أن خلفاً الأحمر لم يأذن له بنظم الشعر حتى أحفظه جملة صالحة من أشعار العرب ، ثم طالبه بنسيانها . وهى طريقة بارعة فى الدرس اهتدى إليها هذا الشيخ المنقطع له . فقد أراد أن يتمثل تلميذه الشعر الذى حفظه ليرد إليه معناه من وراء العقل الواعى ، بعد أن يعمل فى هذا المعنى عمله الخاص . فإذا جاءت هذه المعانى أو شبيهاتها فى أشعار النواسى فهى له بعد أن جرت فى لحمه ودمه . وقد عرف لأستاذيه فضلهما فرثاهما كليهما .

ولم يكتف النواسى بما وعى من علم يتصل بما هو مقبل عليه من قول الشعر وتعاطيه ، بل راح يطلب كل علم ، و يتذوق كل معرفة . يروى ابن خلكان فى تاريخه أن اسماعيل بن نوبخت قال :

« ما رأيت قط أوسع علماً من أبي نواس ، ولا أحفظ منه مع قلة كتبه . ولقد فتشنا منزله فما وجدنا إلا قمطراً فيه جزاز مشتمل على غريب ونحو لا غير » .

ويقول ابن قتيبة فى كتابه الشعر والشعراء : « وكان النواسى متفنناً فى العلم قد ضرب فى كل نوع منه بنصيب ، ونظر بعد ذلك فى علم النجوم » . وأورد هذه الأبيات وهى لأبى نواس فى هجاء مغنٍ اسمه زهير :

قل لزهير إذا حدا وشدا أقلل وأكثر فأنت مهذار
سخنت من شدة البرودة حـــــتى صرت عندى كأنك النار
لا يعجب السامعون من صفتى كذلك الثلج بارد حار

ثم عقب عليها بقوله : « إن هذا الشعر يدل على نظر فى علم الطبائع » . ومعاصرو النواسى ومن تلاهم لا يمترون فى أنه قد أخذ من علوم عصره بحظ ، ويدل شعره على أنه كان له مثل هذه المشاركة ولا سيما فى علم النجوم .

غير أن البصرة لم تكن كلها خالصة لحديث العلم والمعرفة ، فقد كان فيها أماكن للهو ، ومواطن للمجون ، وفيها جوار مولدات وجليبات ، وفيهـا غير الجوارى ، الخمر وما هو شر من

الخمر . . . . وقد خلت حياة هذا الفتى من كل ما من شأنه أن يحدّ من نزوات الصبا الطائشة . فلا أب يحجزه بأوامره ونواهيه . وأكبر الظن أن أمه أصبحت « للعباس » . وإذا خلت حياة الفتى — فى المدينة — من رقابة الأسرة فليست الغرابة أن تصير لهواً ، وإنما الغرابة أن تصير إلى لهو معه كلف بالنحو وغريب اللغة ، ورواية الشعر ، ونظر فى علم النجوم. وتساعد المدينة حالة العصر فهو عصر الترف والمجون فيخرج الفتى فى لهوه عن حدود الاعتدال .

وقد يخلو عيش الفتى من رقابة الأسرة ولا يعدم مغريات المدينة والعصر . ولكنه لا يصير إلى عيش النواسى ولهوه ، فلا بد من علة تجىء مع هذه أو قبلها — تلك علة الأعصاب ، وحال المزاج . فأعصاب النواسى ومزاجه لا يساعدانه إلا على الإغراق فى الشئ والإفراط فيه ، هى أعصاب شاعر مستوفزة مستعدة لإجابة أول داع .

مع وَالِبـة

ليس فى سيرة النواسى ما هو أوضح وأغمض فى الوقت نفسه من حكايته مع والبة . فإن شئت أخذتها على عجل وعلى علاتها كما رواها أبو الفرج الأصفهانى ، وهو أقدم رواتها ، وكما أخذها الذين تلوه بتحريف قليل لا يمس جوهرها . رآه فاستملحه وسار به إلى الكوفة . ومن ثم نشأت بينهما علاقة مريبة .

ويضطرب مكان تلاقى النواسى بوالبة بين الأهواز والبصرة والكوفة . ويضطرب زمان هذه اللقيا ، بين سن الصبا ، وبين سن هى فوق الصبا . كان فى السن الأولى أجيراً فى الأهواز ، أو فى أسواق البصرة ، ولكنه لم يلتق بوالبة إلا حينما استقدم أبو بجير الأسدى هذا الصبى مع من استقدمهم إلى الأهواز ، ليصنعوا له عطراً . وفى السن التى هى فوق سن الصبا لم يتلاق بوالبة مصادفة واتفاقاً ، وإنما هو يسعى إليه فى الكوفة ليصحبه وليخرج إلى بادية بنى أسد ليقوِّم أدبه ، وليطلع على لهجات العرب .

على أن مسألة الذهاب إلى بادية بنى أسد تكاد تعين تاريخ

هذه اللُّقيا . فهو بعد أن أقام بها سنة — كما ترجح الرواية — ارتحل ووالبة إلى بغداد . ولا يضعف الرواية هنا أن ورد بها بعض المرات أن النواسى جاء البصرة منصرفه من الكوفة . إذ كان لا بُدَّ له من أن يعرج عليها لأنه نوى أن يرحل منها إلى غير رجعة . وإذا صحَّ هذا ، وليس فى عرض الرواية على أشكال مختلفة ما يمنع من قبوله ، فيكون النواسى حينما التقى بوالبة أو ارتحل لصحبته قد شارف العقد الثالث من عمره ؛ لأنه قدم دار السلام وهو ابن ثلاثين ، أو كان قريباً من هذه السن ، كما يفهم من سياق حكاية حياته ، وكما يرجح من كتب عنه . وإذا ما ثبت ذلك فقد انتفت العلاقة المريبة بينهما فما سن الثلاثين بالسن التى تساعد عليها .

إن ذهاب النواسى إلى بادية بنى أسد أمرٌ يكاد يكون غير مشكوكٍ فيه . وقد اعتاد شباب العرب الذين يرغبون فى التمكن من الغريب والقول الفصيح ، أن يلموا بهذه البادية ، فى سنٍ مبكرة . ولكن النواسى لم يرسله أبوه إليها ولم يكن فى وفرةٍ من الغنى ليذهب إليها متى أراد . فالأقرب إلى المنطق أنه لم يذهب إليها إلا بعد أن عزم على الخروج إلى بغداد ، ولقاء رجال البيان

فيها . فأراد التحوُّطَ للأمر، والتمكّن من اللغة لينفى عن نفسه كل شكٍ فى قدرتها على الوقوف على صعيد واحد مع أعلام الشعر فى مدينة الرشيد .

وذهاب فتىً فقير من البصرة ، لا أهل له يستطيع الاعتماد عليهم فى تهيئة أمر سفره، يحتاج إلى من يأخذ بيده ، ويعينه على هذه الرحلة التى قد تمتدُّ الى سنة . فليس ما يمنع أن يكون قد ذُكر له أبو أسامة والبة وهو شاعرٌ وظريفٌ ومن رجال بنى أسد . فسار إليه يسأله العون ، وكان عند حسن ظنه فيه . فبعث به الى البادية مع وفدٍ من بنى أسد . ولما عاد سار وإياه الى بغداد ، فلم يقو والبة على الصمود لرجال الشعر فيها ، ولم يكن صاحبه من الوفاء أو من الشهرة والقوة فى الشعر بحيث يستطيع نصرته ، فلم يصنع شيئاً وعاد والبة الى الكوفة ولم يُعد .

هذا احتمال من جملة احتمالات تقال فى علاقته بوالبة . وهو وإن لم يك بأقواها فليس بأضعفها ، يضاف إليه أن والبة كان شاعرا معروفا فى الكوفة ، لا مثيل له فى البصرة . لأن الذين نبغوا فى هذه المدينة بعد كانوا لدات النواسى فى السن. والنواسى

لا يثق بخلف الأحمر وأبى عُبيدة فى نقد الكلام وتمييزه تمييزاً صادقاً فنياً كما يقول .

يزيد هذا الاحتمال قوة أننا نجد النواسى ينظم الشعر فى الكوفة ، ونحن نعلم أن النواسى لم يستعجل النظم . فقد رُوى أنه قال : « إننى لم أنظم إلا بعد أن رويت لستين امرأة » . وإن لم يكن هذا القول صادقاً بتمامه ، فالذى نستخلصه منه صادق بتمامه ، وهو أن النواسى لم يستعجل النظم وأنه لم يذع شعره إلا بعد أن شبَّ عن الطوق وتمكن من اللغة وأكثر من رواية الأشعار . وقد ذكروا أنه جارى والبة فى الارتجال عند ما قصدا الحيرة . وهذه قصيدة بعث بها من الكوفة إلى رجل اسمه « العباس » فى البصرة :

قولا لعباس لكى يدرى لغلام عك قوة الصبر
هذا وتذكرنى لكل أخ يغشاك ذكر المادح المطرى
لتزيننى والشين ذكرك لى فاذكر هناك والهعن ذكرى
واقطع بسيف صارم ذكر أسباب كتب بيننا تجرى
ما ذاك إلا أنى رجل لا أستخف صداقة البصرى
ذهبت بنا كوفان مذهبها وعدمت عن ظرفائها صبرى

وهذه القصيدة تدلُّ على تمكنٍ من القريض ، وتصرُّفٍ به

وهى بعد — أى القصيدة — تدل على شىء آخر وهو تألمه من البصريين لأنهم ينحتون فى أثلته ، ويذكرون هناته « فاذكر هناتك واله عن ذكرى» وهو خطاب واحد ولكنه عمم البصريين بقوله إنه لا يستخف صداقتهم .

ويعود النواسى مرة أخرى إلى ذكر البصريين فى قصيدة أخرى قالها وهو فى بغداد . وهى قصيدة تنضح بالألم من أصدقائه فى البصرة :

أيا من كنت فى البصر ة أصفى لهم الودا
ومن كانوا موالى ومن كنت لهم عبدا
ومن قد كنت أرعاه وإن مل وإن صدا
شربنا ماء بغداد فأنسانا كم جدا
فلا ترعوا لنا عهدا فما نرعى لكم عهدا
ولا تشكوا لنا فقدا فما نشكو لكم فقدا
كلانا واجد فى النا س ممن مله ندا
قطعنا حبلكم عمدا كما أعرضتمو عمدا

وقد تكون هنالك أسباب ومسببات قوية حملت الشاعر على قطع عهود رفاق الصبا عامداً . ولكن ألا يقارب الصواب من يفترض أن من هذه الأسباب والمسببات تقول أهل البصرة ، ورفاق البصرة ، وقدحهم فى عرضه ؟ لقد شارى النواسى فى بغداد

طائفة من الشعراء والناس . ولا مشاحة أنهم كانوا يتلقفون حديث أصله ونسبه وأنباء طفولته وشبابه من أهل البصرة المقيمين بها أو ببغـداد . وكان من هذه الأحاديث والأنباء اجتماع الشاعر بوالبة . ويكفى أن يروى حديث هذا الاجتماع حتى يصدق كل ما يقال فيه ، فالنواسى متهتك فى حياته ، جميل الصورة فى صباه . وذكر له صاحب زهر الآداب فى الجزء الأول من كتابه صورة رائعة هى أو فى صورة ذكرت له فى كتب الأدب فقد وصف عبد الله بن الجماز أبا نواس فقال : « كان أظرفهم منطقاً ، وأغزرهم أدبا ، وأقدرهم على الـكلام ، وأسرعهم جواباً ، وأكثرهم حياء . وكان أبيض اللون ، جميل الوجه ، مليح النغمة والإشارة ، ملتف الأعضاء ، بين الطويل والقصير ، مسنون الوجه ، قائم الأنف ، حسن العينين والمضحك ، حلو الصورة ، لطيف الكف والأطراف . وكان فصيح اللسان ، جيد البيان ، عذب الألفاظ ، حلو الشمائل ، كثير النوادر . وأعلم الناس كيف تكلمت العرب ، راوية للأشعار راوية للأخبار » . ولقد كان والبة متهماً بدينه ، مغرقاً فى فحشه وفجوره . وقد رسم له أبو العتاهية فى أهاجيه صورة لخلقه ليست دون صورة خلقه . فهو خفيف الحاذ ، أقيشر الخدين ،

أشقر فى وجهه حمرة كحمرة الرئة . وقد ذكر أبو الفرج أن المهدى سأل عمارة بن حمزة (والى الأهواز عام ١٥٨ هـ) عن أرق الناس شعراً . فقال هو والبة . ثم سأل عمارة المهدى لم لا ينادمه ؟ ؟ فذكر له بيتين قالهما والبة نخجل من روايتهما ، مآلهما أنه يدبُّ إلى كل جليس من جلسائه . وأردف المهدى قائلاً : « أو تريد أن نكون من جلاسه على هذا الشرط ؟ » فأية تهمة تلصق بالنواسى إذا ما ذكر خبر مجالسته وصحبته له ، فلم يحجم أعداء أذكياء خبثاء كأعداء النواسى ، عن أن يستغلوها إلى أبعد حدود الشناعة ؟ .

أتمّ النواسى دراسته فى البصرة ، وأقام عاماً بالبادية . ولما وثق من نفسه ومن أدبه ، عقد النية على الذهاب إلى بغداد والإقامة بها ، ليجرِّب حظه فى دار الحظوظ . وما كان له أن يعدو هذا الحلم الباسم ، والأمنية المشرقة ، أن ينزح إلى بغداد حيث المال والجمال ، والحياة المونقة السعيدة .

فى دنيا الرشيد والأمين

نزح « أبو نواس » إلى بغداد ، ولم يكن له معدًى عن النزوح إليها ، فقد كانت الحاضرة التى ينفق فيها الشعر وتجزل لأصحابه فيها الهبات . ولم تعين الرواية تاريخ هذا النزوح . وكل ما تذكره أنه كان فى خلافة الرشيد وخلافة الرشيد فترة طويلة تمتد من عام سبعين ومائة إلى عام ثلاثة وتسعين ومائة . ففى أية سنة كان هذا النزوح ؟ ؟ وهل قدر على مدح الخليفة إثر مقدمه ؟ و بأى البيوتات كان أول اتصاله ؟ ؟ هذه أسئلة لا بُدّ من الجواب عنها ، ولكن الجواب لا يستند إلى كتب التاريخ ولا إلى كتب الأدب ، وإنما سبيله الظنّ والترجيح واستنطاق الحوادث وعسى أن نقدر .

قال شاعرنا الشعر — فى البصرة — واشتهر بين أهلها به و بمجونه . ومن الممكن أن يكون قد وصل شىء من هذا الشعر إلى بغداد — إلى ندوات الأدب الخاصة — ولكن شهرته لم تستفض إلا بعد أن أقام ببغداد ، واشتهرت طريقته فى الشعر ، ومذهبه فى الحياة . ولهذا فلا نُدحة عن الترجيح بأنه لم يكن

يطمع فى الوصول إلى خليفة فى جلال الرشـيد — يمدحه وينصرف — إلا بعد أن يجيزه عليه ذو جاهٍ قريب من الخليفة .

وإذا كان مدح الخليفة غير متيسر له ، فلينزل بآماله درجة أو درجات . ولعل فى تقربه من هؤلاء الأكابر والعظماء القريبين من الخليفة ، والذين يهبون الهبات التى لا تقلُّ عن هباته ، ما يعوضه عن هذه الأمنية التى يهفو إليها قلب كل شاعر يردُ بغداد — فى ذلك الحين — وهى مدح الرشيد وإنشاده والأخذ من نائله الغمر ، فهل عدا بآماله البرامكة ، وهم ألمع رجال ذلك العصر ، وأسخاهم يداً ، وأكثرهم تقديراً للشعر ، وتفطناً لمواطن الجمال فيه ؟ لا نظن ! فما كان لشاعر أن يعدو عنهم برضاه . فقد مدحهم النواسى وأطال . ولا شك أنه ضاع كثير من هذا المديح . فهو يذكر غير مرة فى معرض هجائه جعفراً أنه قد مدحه كثيراً ، ثم لا يذكر رواة شعره وجامعو ديوانه شيئاً من ذلك ، وأخذ من عطاء البرامكة ولكنه كان عطاء مصرَّداً لم ينقع غلته . فانقلب عليهم يهجوهم الهجاء المقذع ، ويناصبهم العداء المؤلم .

وتذكر كتب الأدب حادثتين وقعتا له مع البرامكة ، إن لم يكن فيهما كل السبب لهذه الجفوة بينه وبين القوم ، فقد زادتا

في توسيعها ، وتمكين الشنآن في القلوب . أولاهما أن يحيي ابن خالد البرمكي — ومن الروايات ما تذكر أنه الفضل — وكل إلى أبان اللاحقي تصنيف جوائز الشعراء الذين يمدحونه فصنَّف جائزة لأبي نواس لم يرضها . هكذا ذكر صاحب الأغاني ، وزاد ابن عبد ربه في الجزء الثالث من العقد أن أباناً بعث للنواسي بدرهم زائف بعد أن أعطاه الفضل أموالاً ليفرقها على الشعراء كلٌّ على قدره . والثانية تشبه هذه ولعلها هي بعد تحريفها قليلاً رواها الجهشياري ، وهي « أن الفضل بن يحيي فوّض إلى أحمد بن سيار تقدير جوائز الشعراء بعد أن أذن لهم الرشيد بمدحه ، عند منصرفه من ولاية خراسان ، فمشى إلى أحمد بن سيار هذا جماعة من الشعراء والأدباء منهم أبان ، وأشجع السلمي ، وداود ابن رزين ، وغيرهم . وتحملوا عليه بغلام كان يحبه ليضع من شعر النواسي ولا يلحقه بنظرائه منهم . فلما عرض النواسي شعره عليه رمى به ، وقال هذا لا يستحق قائله درهمين . فهجاه النواسي واتصل الخبر بالفضل فأرضى النواسي وصرف الجرجاني » .

فهل كانت هاتان الحادثتان سبباً لتباعده عن البرامكة . أو أن تباعده عنهم هو الذي حمل عليهما ؟؟ لعلّ الصواب

هو فى مزج الحالتين . فتباعده عن البرامكة أغرى به شعراءهم ، وتعرمُ شعرائهم عليه باعد بينه و بينهم . و يلوح لى أن النواسى رشّح نفسه لأن يكون شاعر البرامكة . وليس لدىّ من دليل أقدمه غير استكناه الحالة النفسية التى يلمحها القارئ فى هجائه أباناً شاعرهم .

لزم أبان باب الفضل مدة طويلة وقدّم العريضة التى يطلب بها « وظيفة شاعر الأمير الشاغرة » وكانت العريضة قصيدة منها.

أنا من بغية الأمير وكنز ... من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب حاسب خطيب أريب ... ناصح راجح على النصاح

فعارضه النواسى هاجياً وكان مما قال :

أنت أولى بقـلة الحظ مـى ... يا مسمى بالبلبـل الصـداح
قد رأوا منه حين غنى لديهم ... أخرس الصوت غير ذى إفصاح
فيـك ما يحمل الملوك على الخر ... ق وبزرى بالسيد الجحجاح

فما معنى قوله أنت أولى بقلة الحظ منى ؟ ؟ أليس من معناه أن لو أنصف الزمن لكنت أنا لا أنت عند هؤلاء القوم الذين لا تجيد الغناء لديهم .

ولم يكتفِ النواسى بهجاء أبان بل عمّ بالهجاء كل شعرائهم فقد هجا الخاسر ، والرقاشى ، وأشجع السلمى . ولعله لم يعفُ

عن ابن مناذر وإن لم يُروَ هجاؤه فيه ، فقد كان ابن مناذر سيء الرأى فيه لا يكاد يطيق سماع شعره .

ويقول ابن رشيق فى كتابه العمدة الجزء الأول : « ومن قبيح ما وقع لأبى نواس الذى أساء به أدبه وخالف فيه مذهبه أن بعض بنى برمك بنى داراً استفرغ فيها جهده وانتقل إليها ، فصنع النواسى فى ذلك أو قريباً منه قصيدة يمدحه فيها ويقول فى مطلعها :

أربع البلى إن الخشوع لباد　　　عليك وإنى لم أخنك ودادى

وختمها أو كاد يختمها بقوله :

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم　　　بنى برمك من رائحين وغاد

فتطير منها البرمكى (وهو الفضل — لورود اسمه فى هذه القصيدة) ، واشمأز حتى كلح ، وظهرت الوجمة عليه . ثم قال له : «نعيت إلينا أنفسنا يا أبا نواس» . فما كانت إلا مُديدة حتى أوقع بهم الرشيد وصحت الطيرة وزعم قومٌ أن النواسى قصد التشاؤم لشىء كان فى نفسه من جعفر » .

يئس من البرامكة ومن أن يكون شاعرهم ، فانصرف إلى بيتٍ ينافس البرامكة ، وينفس عليهم دولتهم ، ويراها فارسية وهو

بيت آل الربيع — وعميده الفضل بن الربيع الذى يتزعم الحزب العربى . وإذا كان من المتعذر تعيين السنة التى انصرف إليه بها فلا شك أنها تقع فى أيام زهو الدولة البرمكية . يقول النواسى :

قولا لهرون إمام الهدى   عند احتفال المجلس الحاشد
نصيحة الفضل وإشفاقه   اخلى لهُ وجهك من حاسد
بصادق الطاعة ديانها   وواحد الغائب والشاهد
أنت على ما بك من قدرة   فلست مثل الفضل بالواجد

وهى أبيات يُرجح أنها قيلت لمّا تولى الفضل بن الربيع الحجبة . وقد وقع ذلك فى عام ١٧٩ هـ بعد أن عزل الرشيدُ محمدَ بنَ خالد البرمكى . ولا أظن أنها قيلت فى غير هذا الظرف . فالفضل تولى الحجبة فى هذا العام وتولى الوزارة فى عام ١٨٣ هـ بعد أن نُكب البرامكة ، وبعد أن أُخلى له وجه الحاسد . والتهنئة بالوزارة لا تكون بمثل هذه الأبيات ، والسرور البادى عليها يقسر الباحث على ردّ صلة الشاعر بهم إلى ما قبل هذا التاريخ ، بل هو قبل هذا التاريخ باعتراف الشاعر نفسه

ولا تفسدوا بى ود عشرين حجة   ولا تفسدوا ما كان منكم من الفضل

كتب إليهم بهذه القصيدة التى منها هذا البيت وهو بسجن الأمير عام ١٩٥ للهجرة . فتكون معرفته إياهم وصلته بهم فى عام

١٧٥ هـ . ولعلّ هذا هو تاريخ قدومه بغداد . مَدَح البرامكة فلما لم ينفق عندهم كما يشتهي ، تقرّب من هذا البيت ، وهو بيتُ جاهٍ وغنى ومكانة مرموقة عند الناس . ولعميده بعض الحظوة لدى الخليفة . نقول هذا ولا نرجحه كل الترجيح ، وإنما هو رأى نستمسك به حتى يتبين خلافه

يقول ابن الطقطقي في كتابه الفخرى: « إن الفضل بن الربيع لما صارت إليه الوزارة تهوّس بالأدب وجمع إليه أهل العلم فحصّل منه ما أراد في مدةٍ يسيرة. وكان أبو نواس من شعرائه المنقَطِعين إليه . فهو شاعر آل الربيع ومادحهم قبل الوزارة ، والمنقطع إليهم بعدها . وجلة قصائده المُبرزة في المديح هي فيهم .

آل الربيـع فضلتم فضل الخميس على العشير
من قاس غيركم بكم قاس الثماد إلى البحور
أين النجـوم التـاليا ت من الأهلة والبـدور
أين القليـل بنو القليـــل من الكثير بني الكثير
أدركتم جزر الخـلا فة وهي شاسعة المصير
لولا مقامكم بهـا هوت الرواسي من ثبير

وفي تقرب النواسي من بيت الربيع بل في عدم ازوراره عنه ما يزيد الجفوة ويباعد كثيراً بينـه وبين البرامكة . فقد

كان العداء مستحكما أليما بين هذين البيتين . وذكر صاحب كتاب الوزراء والكتاب « وعن عبدان بن سليمان أن من أسباب زوال دولة البرامكة تقصيرهم بالفضل بن الربيع »

ولا بأس هنا من كلمة فى بيت الربيع الذى أصفاه النواسى وده ، وانقطع إلى مدحه . فهو بيت ليس بالعريق ، يبدأ مجده من الربيع أبى الفضل الذى استوزره المنصور لما رأى فيه من النبل والجلال . وبقى وزيره طوال أيام المنصور ، ثم تولى حجاب المهدى ، ودس له الهادى السم فمات . أما ولده الفضل فقد تولى حجاب المنصور والهادى . ويذكرون أنه تولى حجاب المهدى ، فيكون تناوب العمل فى هذه الوظيفة ووالده . وفى خلافة الرشيد تولى ديوان النفقات فى عام ١٧٢ هـ ، ثم الحجبة ، ثم الوزارة . هذا هو تاريخ الأسرة « من وجهة رسمية » ، ومنزلتها الرفيعة عند الخلفاء . وقد استفادت من ذلك مالا كثيراً . فقد ذكروا أن الربيع تناول من يعقوب بن داود مائة ألف دينار ليعمل له عند الخليفة فيتخذه وزيراً ؛ وقد تم ذلك فى خلافة المهدى ، هذه صفقة رواها التاريخ ومثلها لم يرو كثير ، أما تاريخ الأسرة فيما عدا الحجبة والوزارة فتاريخ الدهاء والفطنة والبصر بمواقع الأهواء ،

ومواطن رضى الساسة والأمراء ، وانطواء على الضغن ، وإجادة في الدس والوقيعة .

استطاع الربيع أن يوغر صدر المهدي على وزيره الداهية معاوية بن يسار . وما زال يلح عليه ويراوحه ويغاديه بالنميمة حتى طلب المهدي إلى وزيره أن يقتل ابنه بيده تقرباً إلى الله بعد أن استطاع الربيع إقناعه بزندقته . لم يقتل الوالد ولده ، ولكن الخليفة أمر غيره بقتله . ولم يكتف الربيع بهذا فما زال بالخليفة حتى أمر وزيره أن يقيم ببيته ولا يأتيه .

قال صاحب الفخري : « دخل معاوية يوما على المهدي وهو وزيره يعرض عليه كتباً وردت من بعض الأطراف . فطلب من المهدي إخلاء المجلس ، فخرج كل من به إلا الربيع . فلم يعرض أبو عبيد الله شيئاً من تلك الكتب ، وطلب أن يخرج الربيع . فقال له المهدي : « ياربيع اخرج » ، فتنحى قليلا . فقال المهدي : « ألم آمرك بالخروج؟» قال: «يا أمير كيف أخرج وأنت وحدك ، وعندك رجل من أهل الشام اسمه معاوية وقد قتلت بالأمس ولده ، وأوغرت صدره ، فكيف أدعك معه على هذه الحال وأخرج ؟ » فثبت هذا المعنى في نفس المهدي ، إلا أنه قال :

« يا ربيع إنى أثق بأبى عبيد الله . أعرض يامعاوية ما تريد فليس دون الربيع سرّ » وأدل من هذا على خلق الربيع و بصره بمداراة الرجال ، ومسايرة الزمن ، ثم انطواء نفسه على الضغينة والحقد أن نعلم أسباب هذه الخصومة . فقد روى صاحب الفخرى — أيضاً — أنه لما توفى المنصور وأخذ الربيع البيعة للمهدى ، قدم من الحجاز وحضر من ساعة وصوله إلى باب الوزير المذكور فقال له ابنه الفضل : أقبل منزل الخليفة ومنزلنا ؟؟ فقال : « نعم يا بنى هو صاحب الرجل ، والغالب على أمره ؛ فلما وصل وقف ساعة حتى خرج الحاجب . فلما دخل لم يقم له ثم سأله عن سيره وحاله ، فأخبره ، وشرع الربيع يحدثه بما جرى فى مكة حتى موت المنصور ، واجتهاده فى أخذ البيعة للمهدى . فسكّته وقال: « قد بلغنى الخبر فلا حاجة إلى إعادته » فاغتاظ الربيع ولكنه آثر السكوت ، ثم قام وخرج وقال لابنه : « علىّ كذا وكذا إن لم أبذل مالى وجاهى فى مكروهه و إزالة نعمته » وما زال حتى فعل .

وكأنما انحدرت هذه الفطنة والدهاء والميل إلى الوقيعة والمعرفة بمواقع الدسيسة إلى ابنه الفضل فورثها فى جملة ما ورث عن أبيه . فمهما اختلفت الأسباب وتعددت الأقوال فى العوامل التى دعت

إلى نكبة البرامكة من إدلال على الخليفة ، إلى العمل بغير إذنه وما لا يوافق هواه ، إلى حكاية العباسة إلى حسد الخليفة ، إلى غير هذه ، فلا مراء فى أن للفضل يداً فى هذه النكبة . فقد كانت له عيون عليهم وهو الذى أنمى إلى الرشيد خبر إطلاق جعفر البرمكى يحيى بن عبد الله بن الحسن الثائر الطالبى . وقد قيل إن هذا هو السبب الذى قتل من أجله جعفر ؛ وكان بينه و بينهم ملاحاة فى مجلس الرشيد

تلك هى الأسرة التى كاد ينقطع إليها النواسى فى بغداد وقد أكثر من مدحها ، والتى لا ريب فى أنه استفاد من معروفها وخيرها الشيء الكثير . . . . . . فهل قدر الفضل على إيصاله إلى الرشيد ؟ لا مُشاحة فى أنه لم تكن له مثل هذه القدرة فى زمن البرامكة ، و إذا كانت فأحر بها أن تكون بعد توليه الوزارة .

ذكر الطبرى فى تاريخه أن الرشيد جدد البيعة لولديه المأمون والقاسم بعد أخيهما الأمين ، وسمى القاسم بالمؤتمن عام ١٨٩ وذكر أن النواسى قال فى ذلك قصيدته التى منها :

تبارك من ساس الأمور بعلمه ... وفضل هروناً على الخلفاء
نعيش بخير ما انطوينا على التقى ... وما ساس دنيانا أبو الأمناء

وحادثة تجديد البيعة تأتى بعد وزارة الفضل بسنتين ، فهل مدح الرشيد قبل ذلك ؟ من المرجح أن تكون قصيدته التى يقول فيها :

يلقى جميع الأمر وهو مقسم بين المناسك والعدو الموفق
حتى إذا أمضى عزيمة رأيه أخذت بسمع عدوه والمنطق
إنى حلفت عليك جهد ألية قسماً بكل مقصر ومحلق
لقد اتقيت الله حق تقاته وجهدت نفسك فوق جهد المتقى
وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التى لم تخلق

قيلت بعد نصرة الرشيد على نقفور فى عام ١٨٧ هـ فقد كان هذا الانتصار موسماً للشعر والشعراء تباروا فى مدح الرشيد بالقصائد الجياد . مدحه أبو العتاهية بقصيدتين ذكرهما الطبرى فى حوادث هذا العام ، ومدحه محمد التيمى بقصيدة وأشجع السلمى بالقصيدة التى ذكر منها صاحب الأغانى هذا البيت :

لا تبعد الأيام إذ ورق الصبا خضل وإذ غض الشباب نضير

وللنواسى قصيدة ثالثة فى مدح الرشيد وهى التى يقول فيها :

فى كل عام غزوة ووفادة تنبت بين نواها الأقران

ومن النظر فى أبياتها يرجح أنها قيلت بمناسبة القلنسوة التى لبسها الرشيد وكتب عليها « غاز حاج » . وهى بعد تاريخ

القصيدة الثانية بثلاث سنوات ، فتكون قصيدة عام ١٨٧ للهجرة هى أول قصيدة قالها فى مدح الرشيد ؛ وهو العام الذى تولى فيه الفضل الوزارة ؛ ولعله لهذا هو العام الذى طمع فيه بالوصول إلى سدته . فهل وصل إليها ؟؟ وكيف كان موقف الخليفة منه وما مقدار جائزته ؟ ؟ الأرجح أن النواسى وصل إلى الرشيد ، ولا شىء يمنع ذلك .

كان الرشيد يسمع شعر النواسى و يتذوقه و يعجب ببعضه . وما كان ليصح غير ذلك من خليفة كهرون ، له ذوقه الرفيع فى الشعر ، وتقدير شعراء عصره الذين كاد النواسى يتغلب عليهم .

روى أبو الفرج فى أغانيه « عن المفضل بن اليزيدى قال : حدثنا إسحق الموصلى قال دخلت على الرشيد يوماً وهو يخاطب جعفر بن يحيي بشىء لم أسمع ابتداءه وقد علا صوته . فلما رآنى مقبلاً قال لجعفر : أترضى باسحق ؟ قال جعفر : والله ما فى علمه مطعن إذا أنصف . فقال : أى شىء تروى للشعراء المحدثين فى الخمر ؟ أنشدنى أفضل ما عندك ، وأشده تقدماً . فعلمت أنهما كانا يتماريان فى تقديم أبى نواس فعدلت عنه إلى غيره لئلا أخالف أحدهما فقلت : لقد أحسن أشجع بقوله :

ولقد طعنت الليل فى أعجازه بالكأس بين غطارف كالأنجم
يتمايلون على النعيم كأنهم قضب من الهندى لم تتثلم -

فقال لى الرشيد : قد عرفت تعصبك على أبى نواس وانك عدلت عنه متعمداً . ولقد أحسن أشجع ولكنه لا يقول أبداً مثل قول النواسى :

يا شقيق النفس من حكم نمت عن ليلى . ولم أنم[1]

فقلت له : ما علمت ما كنتما فيه يا أمير المؤمين ، وإنما أنشدت ما حضرنى .

فقال : حسبك قد سمعت الجواب . . »

وهذه الحكاية تدلُّ على شيئين ، أولهما أن الرشيد كان يستطيب شعر النواسى ويفضله على غيره ، ويرى أنه صاحب طريقةٍ فى وصف الخمر لا تعلو عليها طريقة ؛ والثانى وهو أكثر من هذا أهمية هو ميل جعفر عنه ، وتعصبه عليه . فلا جرم أن الرشيد كان يماريه وقد علا صوته — كما ذكر إسحق — ليقنعه بخطل رأيه

وذكر ابن منظور فى كتابه بعد أن أورد نوادره مع الرشيد واتصاله به ما يلى « وقال بعض المترجمين ممن يحيط علماً بأحوال

---

(١) نرجح رواية ابن قتيبة فى أن هذه القصيدة لوالبة وقد ذكر أبو الفرج أيضاً — فى غير هذا الموضع — أنها لوالبة

أبي نواس إن هذه الحكايات والنوادر عنه وعن الرشيد موضوعات وإن أبا نواس ما دخل على الرشيد قط ، ولا رآه ، وإنما دخل على محمد الأمين وما ملك النواسي عشرين ألف نواة ، فكيف بعشرين ألف درهم » أما أن هذه النوادر موضوعة فما لا شك فيه . وأما أنه لم يدخل على الرشيد ولم يره ، ففيه كل الشك ، ولا يثبت عند تحقيق . فالرشيد البصير بمنزلة النواسي الأدبية وأنه إن لم يكن أعظم شعراء عصره فهو أوسعهم شهرة ، لا يغتفر له إن أغفل مدحه ، ولم يأت إلى بابه مع الشعراء ، يجيز هذا المنطق ويُجيز أكثر منه قليلاً . ولكنه لا يُجيز بحال أن يقبله شاعراً له ، متصلاً به . فقد اشتهر النواسي واشتهرت معه طريقته الفاجرة بالحياة ، وتغنت بغداد بها .

عند الخصيب

من الرواة من يذكر أن الخصيب استزاره لأنه كان يعرفه ببغداد . وليس ما يمنع ذلك . فولاية الخصيب في زمن وزارة الفضل بن الربيع ويذكر ابن منظور أن النواسي دخل عليه في زي الشطار ، وأن الخصيب ازدراه لذلك . وهي رواية ساقطة .

فما كان للنواسى أن يفعلها وقد أمضى أيامه ببغداد يتقلب فى غدواته بين دور البرامكة ، وآل الربيع ، وقصور الأمراء ، مثل أبى عيسى والعباس وغيرهما . ويعرف ما يجب عليه أن يفعل فى مجالسهم . ولم يتعلقوا به بغلطةٍ مثل هذه . ولا يجوز أن يكون استخف بالخصيب ، وقد ارتحل من بغداد و بينها و بين مصر شقةٌ بالغة . وقد ذكر النواسى الطريق التى سلكها إلى مصر فمن « عقرفوت » وهى قرية على نهر دجيل ، تبعد عن بغداد ستة فراسخ ، إلى « عين أُباغ » وهو مكان وراء الأنبار . ثم اتبع طريق الفُرات حتى النقيب، فتدمر ، فالشام . ومنها إلى الجولان فبيسان ، فالرملة . ومن هذه إلى غزة هاشم ، فالعريش ، ففسطاط مصر ، وذلك تفسير قوله[١] :

رحلن بنا من «عقرفوت» وقد بدا ... من الصبح مفتوق الأديم شهير
فما نجــدت بالمــاء حتى رأيتهــا ... مع الشمس فى عينى أُباغ تغور
وغمرن من ماء النقيب[٢] بشربة ... وقد حان من ديك الصباح زمير
ووافين إشراقاً كنائس تدمر ... وهن إلى وعن المدخن صور
يأمن أهل الغوطتين كأنما ... لها عند أهل الغوطتين ثؤور

(١) رجعنا لتحقيق هذه الأسماء إلى معجم البلدان

(٢) ذكر صاحب معجم البلدان أن النقيب موضع بين تبوك والشام وليس هذا نقيب النواسى

وأصبحن بالجولان يرضخن صخرها ولم يبق من أجراحهن شطور
وقاسين ليلا دون بيسان لم يكد سنا صبحه للناظرين ينير
وأصبحن قد فوزن من نهر فطرس وهن عن البيت المقدس زور
طوالب بالركبان غزة هاشم وفى الفرما من حاجهن شقور
ولما أتت فسطاط مصر أجارها على ركبها أن لا تزال مجير

ومن الجولان إلى بيسان أية طريقٍ سلك ؟ فلا بُدَّ له من المرور بوادى الأردن . فهوأقرب طريق من الجولان إلى بيسان. ومن يدر ينا ! فلعلَّ جبال عجلون المُطلّة على هذا الوادى الخصيب شاقته بمنظرها . والظاهر أنها لم تكن مشهورة بشجرة الكرمة شهرتها فى زمن اسرائيل ، أو فى الزمن الحاضر . فلم تستوقف نظره ليتغنى و يصف . ومدينة بيسان نفسها كانت من مدن الأردن فى ذلك الحين . وقد طالت إقامته بمصر — بعض الشىء — فهو يحنُّ إلى بغداد .

ليس لى مسعد بمصر على الشو ق إلى أوجه هناك حسان
إذ لباب الأمير صدر نهارى ورواحى إلى بيوت القيان

وتختلف الرواية مرة ثانية فى المنزلة التى وصل إليها النواسى عند الخصيب . فمنها ما تذكر أنه نادمه ؛ على أن الواضح أنه استطاب مجلس النواسى ومدحه ؛ بدليـل أن هذه الزَّوْرَة طالت ولو بعض الشىء كما أسلفنا . وما كان له أن يفرط فى مثله

وهو يعرف قوته الأدبية فى العاصمة التى يأتمر بأمر رجالاتها . وهو يعرف – أيضاً – صلته بوزير الدولة الفضل . ولا يعنى ذلك أنه كان يتحسب منه من ناحية سياسية ، ولكنها عوامل تزيد قيمته .... ولندع حديث الرغبة والرهبة ، فالمدح البارع ، والذكر الحسن ، أشياء تشتاقها الأنفس ، ولا سيما أنفس الولاة والحكام . ومن هو الخصيب لولا النواسى ؟؟ هو والٍ للرشيد على مصر ، وكم للرشيد من والٍ عليها ، فمن يذكرهم ؟ لقد مررت على أسمائهم كلهم ، وها أنا أكاد أنساها ، ولما أفرغ من البحث الذى مررت بأسمائهم بسببه . أما الخصيب فهيهات أن ينساه قارئ أدب . إنه إن همَّ ذكرته إياه القصيدة التى منها :

إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا فأى فتى بعد الخصيب نزور

لقد ابتنى فى مصر بلدة « مُنية » ، وما تعدل فى عالم الشهرة والخلود أية بلدةٍ هى بجانب قصيدة النواسى أو قصائده فيه .

ولم تستطع مصر فى ذلك الحين أن تشبع رغائب الشاعر المفتون بالمجون ، الشره للجمال . فقفل راجعاً إلى البلد الزاخر به ، والذى يعِجُّ بكل ما هو جميل . عاد ليواصل سيرته ، ويقسم ساعات يومه . فصدر النهار لباب الأمير ، وعلّه الفضل بن الربيع ،

فقد كان يلقب الوزير بذلك ، وفى الليل يروح على بيوت القيان .

عاد لينقطع إلى الفضل وليشرك معه بعض الحين أمراء منهم العباس الذى مررنا بذكره ، و يهمنا مما قاله فيه بعد عودته من مصر قصيدته التى منها :

حلفت يميناً برة لا يشوبها فجار وما دهرى يمين فجار
لقد قوم العباس للناس حجهم وساس برهبانية ووقار
وأطعم حتى ما بمكة آكل وأعطى عطايا لم تكن بضمار

هذه الأبيات تعيننا على تعيين تاريخ نحن حريصون على تحقيقه . فقد ذكر المسعودى أن العباس بن عبيد الله بن أبى جعفر بن المنصور حج فى الناس عام ١٩٢ هـ . ونرجح أن أبا نواس يشير إلى حجه فى هذه السنة . ولم الترجيح و إنما هو التأكيد . فقد رجعنا إلى الطبرى فى أسماء الذين حجوا فى الناس فى خلافة الرشيد فلم يكن من بينهم العباس إلا فى هذه السنة . وكان أبوه أمير الحج فى عام ١٨٨ هـ ، وتحقيق هذا يفيدنا أكبر فائدة فى تأريخ سجن الشاعر فى زمن الرشيد كما سيرى القارىء .

انتهت فترة خلافة الرشيد ، وكان حظ النواسى منها الاتصال الوثيق بالفضل وأبنائه ، ومن ولاته بالخصيب . وليس هو

بالاتصال ، و إنما هو انتجاع للرفد وعودة ، واتصال قليل بطائفة من الأمراء، وقد غلبه حسين الضحاك الشاعر على صالح وأبى عيسى ولدى الرشيد فراح يسعى للاتصال بولى العهد الأمين .

مع الأمين

مدح النواسى الأمين غير مرة وهو ولى عهد :

مد الإله عليــه ظل مملكة ... يلقى القصى بها والأقرب الدانى
إن يمسك القطر لا تمسك مواهبه ... ولى عهد يداه تستهــلان

ولكنّ هذا المديح لا يعين مقدار هذه الصلة . فقد مدحه كثير غيره من الشعراء « حتى شكا الرشيد إلى على بن العباس أن الشعراء قد أكثروا من ذلك لمكانه منه ومن أم جعفر وكادوا ينسون المأمون » . ولا يعين هذه الصلة أيضاً إطلاقه إياه من سجن أبيه . فقد تم ذلك بوساطة الفضل وشفاعته المقبولة عنده . ولعلّ فيما ذكره ابن قتيبــة فى كتابه « الشعر والشعراء » ما يعينها ، ويبين درجتها ، أكثر من ذلك .

قال : « إن الرشيد أمر إبراهيم بن عثمان بن نهيك أن لا يأوى النواسى إلى عسكره من ليلته . فقال الأمين لإبراهيم : والله لئن

حصصت منه شعرة لأقتلنك . فأقام عند ابراهيم حتى مات هرون وأخرجه محمد الأمين . » والسبب الذى أمر الرشيد بسجن الشاعر من أجله معروف وإن لم يذكره ابن قتيبة ، وما هو إلا القصيدة التى هجا بها مضر ، والكاتب يروى عن أناس عاصروا الشاعر فهو ثقة . والحكاية دليلٌ على بلوغه لدى الأمين (ولى العهد) منزلة رفيعة يتهدد من أجلها رئيس شرطة أبيه بالقتل إن جرى أو جَرؤَ عليه بمكروه . بيد أن هذه المنزلة ما كان لها أن تتحوّل — فى زمن الرشيد — إلى أكثر من علاقة شاعر يمدح ولى عهد المسلمين لرفده وعطائه . وبعض الروايات تتزيدُ فى هذه العلاقة حتى تجعل من الشاعر — ابن المدينى — مرة ثانية . لا فى قصر الأمين ولى العهد ، ولكن فى قصر الأمين الخليفة .

طمع النواسى فى أن يكون شاعر الأمين — حينما أصبح خليفة — وأن يختص به ويصل منه إلى مرتبة النديم ، وكل الظروف تساعده على ذلك .

فإن لم يقدر الفضل بن الربيع على الوصول بشاعره إلى سدة الرشيد ، فهو قادر على الوصول به إلى مجالس لهو الأمين ،

قد ذكره له وأطراه . ولما جاء الشاعر ليقابل الخليفة ، قال ابن جرير الطبرى : « وقال له الأمين كن من ندمائى » بلغ أمله ، وأدرك أمانيه ، ووصل إلى المنزلة التى تتطالُّ إليها الأعناق ، وتتقطع دونها قلوب الشعراء . شاعر الخليفة ونديمه ! لقد كاد يجن بهذه الحظوة « رضينا بالأمين عن الزمان » وأى رضى ! ليس بعده ولا قبله من رضى يدانيه . صار نديمه وصار شاعره . فهو يقبل عليه بالمدح مسرعاً ، لا يتأنق فيه كما اعتاد . وأكثره من الشعر الذى ترغمه على قوله الحوادث . فإذا اتخذ الخليفة سفينة على هيئة الأسد ، أو الدلفين، أو الحية ، أو العقاب سارع إلى أن يقول فى هذا شعراً ، إن لم يرض رجال الأدب ، فقد أرضى به خليفته وحسبه هذا :

قد ركب الدلفين بدر الدجى ... مقتحماً الماء قد لججا
فأشرقت دجلة من نوره ... وأسفر الشطان وابتهجا

عجب الناس إذ رأوك على صو ... رة ليث يمر مر السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه ... كيف لو أبصروك فوق العقاب

وهو من فرط جنونه بهذه المنزلة يسرف فى مدح الأمين ، ويبالغ كثيراً . وقد رَووا له أبياتاً فى هذا المعرض أوشكت أن

ترديه فى هاوية من الإلحاد ، وما زال نديم الخليفة وشاعره . فمن تحصيل الحاصل القول إنه اكتسب جاهاً ضخماً ، ومكانة مرموقة عند الناس . فقد جاء فى الأغانى وصف لهذه المنزلة فإن لم يذكر أن هذه الحادثة وقعت للنواسى فى زمن الأمين ، فلا سبيل إلى حملها على غير عهد الأمين : « عن الحسن بن على بإسناد عن هرون بن سعدان قال : كنتُ مع أبى نواس قريباً من دور بنى نيبخت بنهر طابق ، وعنده جماعة ، فجعل يمر به القواد والكتاب و بنو هاشم فيسلمون عليه وهو ممدود الرجل لا يتحرك لأحدٍ منهم .... حتى مرَّ به أبو العتاهية فوقف له » . ولكن كم دامت عليه هذه النعمة ؟ أقصرت مدتها أم طالت ؟ الأرجح أنها لم تدم أكثر من سنتين . فقد انبعثت الفتنة بين الأخوين ، وسُيِّرت الجيوش لتقطيع الأرحام ، وتواترت الروايات على أنه ترامى للأمين الكلمة التى فاه بها الحسن بن سهل فى خراسان ، وهى: كيف لا يحل قتال الأمين وشاعره ونديمه يقول:

ألا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر ... ولا تسقنى سراً إذا أمكن الجهر

فغضب على شاعره ، واتهمه بالزندقة ، ووجد من بنى هاشم من يغريه عليه ، فزجَّ به فى السجن ، ثم أطلقه . ولكنها الفتنة ،

صيرت أمر الأمين إلى انتكاس فجيوشه تهزم وتحطم، وجنده يشغب به.

يذكر ابن قتيبة أن الأمين وصله بعشرة آلاف درهم حينما بعثه من قبره، كما يقول النواسي في نعت سجنه. وهي عطيةٌ ليست بالبالغة، بل إنها دون ما اعتاد أن يعطى. فهل عاد إلى مدحه ومنادمته بعد السجن؟؟ يتفرد الطبري في تاريخه بهذه الرواية وهي «ذكر يعقوب بن اسحق عمّن حدّثه عن كوثر خادم المخلوع أن محمداً أرق ذات ليلة وهو في حربه مع طاهر، فطلب من يسامره فلم يقرب إليه أحدٌ من حاشيته. فدعا حاجبه وقال له: ويلك قد خطرت بقلبي خطرات فأحضرني شاعراً ظريفاً أقطع به بقية ليلتي. فخرج الحاجب فاعتمد أقرب من بحضرته فوجد أبا نواس، فقال له: أجب أمير المؤمنين. فقال له: لعلّك أردت غيري. قال: لم أرد أحداً سواك. فأتاه به فقال: من أنت؟ قال: خادمك الحسن بن هانيء، وطليقك بالأمس. قال: لا ترع. عرضت بقلبي أمثالٌ أحببت أن تجعلها في شعر، فإن فعلت ذلك أجزتُ حكمك فيما تطلبه. فقال: وماهي يا أميرالمؤمنين؟ قال: قولهم «عفا الله عمّا سلف» و «بئس والله ماجري فرسي» و «واكسرى

عوداً على أنفك » و « تمنعى أشهى لك » قال فقال أبو نواس: حكمى أربع وصائف مقدودات . فأمر باحضارهن فقال :

فقدت طول اعتلالك وما أرى فى مطالك
لقد أردت جفائى وقد أردت وصالك
ماذا أردت بهذا تمنعى أشهى لك

وأخذ بيد وصيفة وعزلها وقال :

قد صحت الأيمان من حلفك وصحت حتى مت من خلفك
بالله سقى فاحتسى مرة ثم اكسرى عوداً على أنفك

ثم عزل الثانية وقال :

فديتك ماذا الصلف وشتمك أهل الشرف
صلى عاشقاً مدنفاً قد اعتب مما اقترف
ولا تذكرى ما مضى عفا الله عما سلف

ثم عزل الثالثة وقال :

وباعثات إلى فى الغلس أن ائتنا واحترس من العسس
حتى إذا نوم العداة ولم أخش رقيباً ولا سنا قبس
ركبت مهرى وقد طربت إلى حور حسان نواعم نعس
فجئت والصبح قد نهضن له فبئس والله ما جرى فرسى

فقال له : خذهن لا بارك الله لك فيهن » . وليس فى هذه الرواية ما يمنع من قبولها وتصديقها . فأربع جوارٍ لا قيمة لهن ، يمنح مثلهن حاجب الخليفة ووزيره . وأبو نواس وإن لم يكن

يجرى مع أبى العتاهية فى البديهة والارتجال ، إلا أنه قادرٌ عليه . وله مع رفاقه الشعراء مساجلات ومطارحات هى عفو الساعة وأجود من الأبيات المروية . والأمثال التى أراد الخليفة نظمها شعراً تجرى مع شبه الحال التى هو فيها ، فهو يرى أن أمره صائرٌ إلى الزوال . فلعله فكر فى ذلك فلام جدَّه العاثر وتمثل « بئس والله ما جرى فرسى » . ثم تمنى أن يعود حاله وحال أخيه إلى ما كان عليه و « عفا الله عما سلف » . ثم إن المثلين الآخرين لايبعدان عن وصف ماهو فيه فهما فى حديث الخيبة والإخفاق ... بقى شىء آخر دخل الحكاية فأضعفها ، وهو سؤال الأمين لأبى نواس من أنت ؟ . إن هذا السؤال لا يمكن أن يحمل على محمل الاستفهام ، إلا إذا افترضنا أن الخليفة لم يكن يسمر فى قصره ، بل فى إحدى شرفاته . وفيما عدا هذا فهو استخفافٌ وإنكار . أيسأل الأمين النواسى من أنت ، ويجيبه بالحسن ابن هانىء ، وأين المدح العالى ، وأيام المنادمة ولياليها ، وأحاديث السمر الفكه ؟ وإذا جوزنا هذا الافتراض وهو أن الخليفة كان يسمر فى شرفة ولم يتبينه ، أو استخفَّ به ، وأخذنا بهذه الحكاية وهى مقبولة رغم نقطة الضعف فيها ، بقى جواب الخليفة وهو

« لا ترع » — وهى كلمة تدلُّ على أن النواسى لا يزال يتحسب من الخليفة ، وأن الخليفة يقدر هذا . وهى حالٌ لا تعين على أن يكون النواسى قد عاد إلى موضع حب الخليفة و إيثاره ، وسابق مكانته عنده . ومن العبث القول بعد هذا إنه لم يعد إلى منادمته. فقد أخذ يشتدُّ فى نهيه عن شرب الخمر . وأبو نواس يقول فى هذا شعراً ويذيعه . ولعلَّ الخليفة يؤثر هذا الشعر و إذاعته ، ليسمع به الناس ولتنقله الركبان إلى فارس فيكون فيه الرد الكافى على كلمة الحسن بن سهل :

أيها الرائحان باللوم لوما ... لا أذوق المدام إلا شميما
نالنى بالملام فيها إمام ... لا أرى لى خلافه مستقيما
فاصرفاها إلى سواى فانى ... لست إلا على الحديث نديما

إلى غير ذلك من القصائد التى تصف نهى الأمين له عن الشراب ، وتأوهه على ذلك ، و إطاعته له فيه .

ومما يزيد فى هذا الترجيح ، وهو أن النواسى لم يعد إلى سابق مكانته عند الخليفة ، أننا نرى فى هذه الفترة من حياة الأمين غلبة شاعر آخر عليه ، هو الحسين الخليع الذى أخلص له وتفانى فى حبه ،

حتى موته ، وأكثر من هجاء المأمون حتى أشفق عليه أبو العتاهية فنهاه

ولعل فى حديث غلبة هذا الشاعر على الأمين ، وسجن الخليفة للنواسى ، ما يفسر لنا الأبيات التى نقع عليها فيما روى الأدب لأبى نواس وفيها تعريض بمحمد الأمين ، حتى قال المأمون إنى لأتوقع أن يهرب إلينا .

غنى بين الحقيقة والخيال

تقول الأساطير الموروثة وليالى « ألف ليلة وليلة » إن النواسى شاعر الخليفتين الرشيد والأمين ، وإنهما استطابا مجلسه وفكاهته فهو يدخل متى شاء وينصرف متى أراد .

ويقول التاريخ إن هذين الملكين — الرشيد والأمين — يعطيان بغير حساب من هذه الأموال التى تتدفق عليهما بغير حساب . فمن لحظاه برضى فقد أغنياه . فهو فى نعم وآلاء ، له الجوارى والغلمان ، وله إن أعقب الرضى رضى القصور ذات الرياش ، والضياع العامرة الفساح .

وتقول أساطير « ألف ليلة وليلة » وكأنها «تتمنطق» : ومازال

النواسى النديم المصطفى ، والمهرج الذى يخف على قلب الملكين ، فله الحظ الأوفى من هذه النعم ، وأيسر أعطياته ما شاءت ساعة الرضى ، من ذهب وجوهر . و يأتى التاريخ ليصحح الأسطورة فى موضع ، ويقرّها فى مواضع . فالخليفتان كلاهما أخرق المنحة مسرفٌ فى العطية ، ومنها الذهب والجوهر . ولـكن النواسى لم يكن بالموضع الذى وصفت من الرشيد . نادم الأمين مُديدة كانت فى أخريات أيامه . ولم يكن حظه منه ما أمل وهو القائل له :

أقصـيته ولسيته ولعهـده بك غـير ناس
قـد كنت آمل غـير ذا لو كنت تنصف فى القياس

فصححى يا أسطورة هذا الموضع من الـكتاب . فتقول الأسطورة : ولـكنه أمتع ما فى الـكتاب . . فامض يا تاريخ لوجهتك وسأمضى أنا ، وسترى أينا الأقوى . إن حقائقك تعيش فى أذهان بعض الناس . أما أوهامى ففى أذهان كل الناس . ولئن كانت حكاياتك فى أذهان هذه الفئة من أصحابك عرضة للشك ، ومظنة للارتياب ، إنّ أوهامى فى أذهان أصحابى فوق الشك وفوق كل ارتياب .

فإذا ذكر النواسى ذكر الرشيد وذكر الأمين ، وذكر الثراء والنعم الموصولة السابغة ، فهل هذا هو الصحيح ؟

قدم النواسى بغداد ، لا يملك من الأداة التى تعين على العيش فى العاصمة ذات التكاليف إلا الشعر ، وهو نعم الأداة — فى ذلك العصر — يستطيع صاحبها أن يعيش بها ويدرك الجاه والثراء إن واتاه الحظ ، وأسعفته المقادير ، وكأنه وهو يجتاب ما بين البصرة وبغداد يتغنى بأبياته ، أو يزوِّر معناها فى خلده إن لم يك نظمها بعد .

سأبغى الغنى إما جليس خليفة	يقوم سواء أو مخيف سبيل
بكل فتى لا يستطار جنانه	إذا نوه الجمان باسم قتيل
نخمس مال الله من كل فاجر	أخى بطنة للطيبات أكول
ألم تر أن المال عون على التقى	وليس جواد معدم كبخيل

وأسعفه الدهر ، فمدح خليفة هو الرشيد ، وجالس خليفة هو الأمين . فهل أدرك المال الذى يقول (إنه عون على التقى) لو كان التقى يدرك به فحسب لكان من أتقى خلق الله . فقد أخذ من الذين مدحهم مافيه الكفاية وفوق الكفاية . وعاش دهره هذه العيشة المرفهة الموسعة مع أن ما أخذه من هذا المال

هو دون قدره — فى عالم الشعر — ودون حظ رفاقه من الشعراء ومن يعلو عليهم درجات .

فقد ذكرت كتب الأدب أن سلماً الخاسر خلّف ثروة طائلة تقدر بخمسين ألف دينار عدا الضياع . ومثله بل يزيد عليه مروان ابن أبى حفصة الذى تناول من يد الرشيد على قصيدته التى يقول فيها :

وشدت بهرون الثغور فأحكمت ... به من أمور المسلمين المرائر
أبوك ولى المصطفى دون هاشم ... وإن رغمت من حاسديك المناخر

جائزة قدرها خمسة آلاف دينار ، وخلعة، وعشرة من الرقيق الرومى ، و برذوناً من خاصة مركبه[1]

وذكرت أن أباناً اللاحقى أخذ منه جائزة قدرها عشرون ألف درهم على قصيدته التى منها :

نشدت بحق الله من كان مسلماً ... أعم بما قد قلته العجم والعرب
أعم رسول الله أقرب زلفة ... لديه أم ابن العم فى رتبة النسب[2]

ولا يقلُّ عن هؤلاء بل يزيد عليهم حظُّ العتاهى . وإذا كانت قصيدتا ابن أبى حفصة وأبان قيلتا لغرض سياسى ،

(١) الطبرى الجزء السادس صفحة ٥٢

(٢) الأغانى جزء ٢٠ صفحة ٧٥

فتكافأت جوائزهما مع مقدار التشيع للبيت العباسى ، والنفاق لرجاله بالزراية على البيت العلوى ، فقد ذكرت كتب الأدب أن غيرهما أخذ من الرشيد جوائز لا تقل عن هذه . ذكروا أنّ الشاعر العمانى أخذ من الرشيد جائزة قدرها ثلاثون ألف دينار(١) على قصيدته التى وصف بها مناعم بغداد وسلك فيها جانب الفكاهة حيث يقول :

ثم أتوهم بالدجاج الدجج بين شواء وقديد منضج

فماذا أخذ النواسى من الرشيد ، وقد مدحه فى ثلاث قصائد أو أكثر ؟ ؟ لم تذكر كتب الأدب شيئاً من ذلك . ولا مرية فى أنه أخذ — لو أنّه وصل إليه — فما كان لشاعر أن ينصرف من لدن الخليفة الرشيد ، بدون هبة ؛ ولا مرية أيضاً فى أنه إذا وصل إليه وأخذ شيئاً فقد كانت الهبة دون تلك ، لأنها لو كانت وافرة لذكرتها الروايات . على أن عطايا الخليفة ليست هى المورد الرئيسى للشعراء ؛ فهناك الأمراء والوزراء . فما هو حظُّ النواسى منهم ؟

هناك البرامكة وأعطياتهم البالغة . جاءهم النواسى وهم كما

---

(١) الأغانى جزء ١٧ صفحة ٨٢

يصف فى مدح الفضل بن يحيى (ترى الناس أفواجاً إلى باب داره)

وهو وإن ظل يقبل ويدبر مع هذه الأفواج الساعية إلى رفدهم، فلم يكن له منهم كبير حظ. وكان أشد ما يكون نقمة على جعفر، صاحب الأمر والنهى. والناظر فى هجاء النواسى لا يشك فى أنه كان يحرمه ولا يكافئه على مدحه. وليس أدل على ذلك من هذه الأبيات التى نرويها. وقد جاءت كأنها «قصة»:

فأنشدته مدحى البرمكى — أبا الفضل أعنى الفتى جعفرا
فأعجبنى ظرفه إذ يقول — مديحك در فهل دررا
فقلت مقال امرىء شاعر — أدافع عنه لكى يعذرا
إذا ماامدحت امرءاً من (خـ...) — أليس جزائى أعطى (الخـ...)

وهذا هجاء موتور، ولا سيما البيت الأخير، وفيه الدلالة على أنه كان يحرمه. ثم يخرجه الغيظ عن حد المنطق والصواب فيرمى جعفراً بالبخل:

أرى جعفراً يزداد بخلا ودقه — إذا زاده الرحمن فى سعة الرزق

ثم يعم البرامكة فى الهجاء:

هذا زمان القرود فاخضع — وكن سامعاً مطيعا
كأنهم قد أتى عليهم — ما غال اسماعيل والربيعا

إذاً فقد يئس من البرامكة نخسر بهذا مورداً للمال ، ورجالاً يهبون من المال ما لا يقل عن هبات الخليفة ، فلو أسعفه الحظ وتولوا أمره ، لصدقت الأساطير فيما تروى عنه من البذخ والترف .

فهل عوضه آل الربيع الذين صار إليهم ما يهون عليه ألم هذه الخسارة ؟ إن الوظائف التي تقلدها الفضل بن الربيع هي ديوان النفقات عام ١٧٢ هـ ، وهي الوظيفة التي كان يتقلدها حين قدوم النواسي دار السلام ، ثم الوزارة عام ١٨٩ للهجرة وهو العام الذي نكب فيـه البرامكة . فأين ديوان النفقات من وزارة البرامكة ، وأين مقدرة الفضل بن الربيع من مقدرة جعفر ورجال البرامكة وقدرتهم على النفع والضر والهبات ؟ لم يكن الفضل ابن الربيع رجل اليوم وإنما هو رجل الغد المرموق .

لم تذكر الروايات الأدبية هبات آل الربيع وعطاياهم لشاعرهم المقبل عليهم بمدائحه ، والذي سينقطع إليهم بعد حين . ولكننا نتكهن أنه لم ينل منهم خيراً ينقع الغلة قبل أن يتولى الفضل الوزارة ، ويصبح واسع الحول والطول ، قادراً على النفع والضر . ولا شك في أن هذه القصيدة التي يسأل فيها العباس بن الفضل مركباً برذوناً ، أو بغلا ، أو حماراً ، قيلت قبل وزارة أبيه .

عنيت بمركب البرذون حتى أضر الكيس إغلاء الشعير
فحلت إلى البغال فأعوزتنى فحلت من البغال إلى الحمير
فأعيتنى الحمير فصرت أمشى أزجى الرجل كالرجل الكسير

ومثلها القصيدة التى يصف فيها حاله ، وأنه بلا نشب قد خف ظهره وقل زواره ، وماتت أوطاره ، وأنه :

من نظرت عينه إلى فقد أحاط علماً بما حوت دارى
خبرى من البيت كامن وعلى مدرجة الطريق أسرارى
إنى انتجعت العباس ممتدحاً وسيلتى جوده وأشعارى
إنى حرى بأن يبدلنى جود يديه يسراً باعسار

وهى قصيدة شاكية موجعة بالغة فى الشكوى والتوجع .

ولقائل أن يعترض بأن الشاعر يهول فى وصف حاله ليحتال على هذا الفتى فيستدر معروفه . وهو اعتراض وجيه . فلا شك أن النواسى أراد التهويل ، وبالغ فى الشكوى ليصل إلى معروف صاحبه ، فلم يعسر ولا ضاقت ذات يده — فى يوم — بالقدر الذى وصف . ولكن يبقى شىء آخر ، وهو أنه لم يكن قادراً على قول هذا لو كانت أعطيات القوم له بالغة ، وإلا فإنهم يعدون مثل هذه الشكوى منه كفراناً بالنعمة .

لم تكفه أعطيات آل الربيع ولا استطاعت أن تقوم بأمره . فغدا على غيرهم من الأمراء كما أسلفنا ، وارتحل إلى مصر .

وإذا كانت هنالك عطية حرية أن تجزُل وتعظم ، فهى عطية الخصيب لما يتجشم لها من مشاق ، فمنَّى النفس وأسرف فى الأمانى والخصيب بعد والٍ على مصر :

أنت الخصيب وهذه مصر فتدفقا فكلاكما بحـر
لا تقعدا بى عن مدى أملى شيئاً فما لكما به عـذر

فهل قعد به الخصيب عن مدى أمله ؟

إنى لآمل يا خصيب على يدك اليسارة آخر الدهـر
وكذاك نعم السوق أنت لمن كسدت عليه تجارة الشعـر
فانقع بسيبك غـلة نزحت بى عن بلادى وارتهن شكرى

فهل نقع الخصيب غلته ، وهل قدر على أن يرتهن شكره ؟ ؟

وقبل أن نجيب عن هذا السؤال نقف قليلاً عند هذا الشطر من الشعر « كسدت عليه تجارة الشعر » لنسائل أنفسنا : أكان أبو نواس منصفاً فى وصف سوق الشعر ببغداد ؟ ؟ والجواب : نعم ، ولا . نعم ، فما كان سوق شعره رائجاً عند «صيارفة المال» ببغداد كما كانت الحال عند غيره من الشعراء الذين هم أقلُّ قيمة فيما يعرضون من بضاعة . فليس له من الرشيد حظ ولو دون حظ النميرى والعتاهى وابن أبى حفصة بعشرات الدرجات . وباعدت الظروف بينه وبين البرامكة ، وغلبه الخليع على صالح

وعيسى ولدى الرشيد . والجواب : لا ، لأن هؤلاء الأمراء والعظماء الذين كان يتردد على قصورهم بالمديح ، لم يكن ينصرف من لدنهم بدون أعطيات ؛ وإلا فكيف كان يستطيع أن يعيش هذه العيشة اللاهية العابثة المترفة بين الخمور والقيان وفي حدائق بغداد ؟ .

قطربل مربعى ولى بقرى الـــكرخ مصيف وأمى العنب
ترضعنى درها وتلحظنى بطلها والهجير يلتهب

ونعود إلى حديث الخصيب ونجيب : إنه لم يقدر على أن يرتهن شكره ، فقد هجاه واتهمه بالبخل والكزازة :

جعل الطعام على بنيه محرما قوتاً وحلله لمن لم يسغب
فاذا هم رأوا الرغيف تطربوا طرب الصيام الى أذان المغرب

وقال فيه وأفحش :

نفس الخصيب جميعه كذب وحديثه لجليسه كرب
تبكى الثياب عليه معولة أن قد يجر ذيولها كلب

يقول ابن منظور إن النواسى ذكر له أن الخصيب لم يهب له سوى مائة دينار .

وقد أراد النواسى أن يظفر من مصر بالثراء فأقبل على سراة القوم يمدحهم فلم يحظ منهم . فأقبل على أهل مصر يعمهم

بالهجاء مستثنياً واحداً منهم هو « ابن جوى »

يا أهل مصر لقد غبتم بأجمعكم لما حوى قصب السبق المساميح
أموالكم جمة والبخل عارضها والنيل مع جوده فيه التماسيح

هذا هو حديث النواسى من ناحيته « المادية » وما أكثر ما كرّر مثل هذه الشكوى :

يا عمرو ما للناس قد كلفوا بلا ونسوا نعم
أترى السماحة والندى رفعا كما رفع الكرم

وقوله وهو أبينُ وأفصحُ فى الإعراب عن الشكوى :

ذهب الناس فاستقلوا وصرنا خلفاً فى أراذل النسناس
كلما جئت أبتغى الفضل منهم بدرونى قبل السؤال بياس
وبكوا لى حتى تمنيت أنى مفلتٌ عند ذاك رأساً برأس
فى أناس تعدهم من عديد فاذا فتشوا فليسوا بناس

وأكثر من مثل هذا القول :

إن دام إفلاسى على حاله هجرت إخوانى وأصحابى
وبعت أثوابى وإن بعتها بقيت بين الدار والباب

وقوله :

الحمد لله ألم تنهنى تجربة الناس عن الناس
فامنع عن النفس هواها فقد أذلنى للناس إفلاسى

وهى أبياتٌ تعين الباحث على معرفة حال النواسى المادية كثيراً . فكلمة الإفلاس تتردد كثيراً فى شكواه . والإفلاس

لا يعنى حالة موجعة مطردة ، وإنما يعنى حالتين — حالة يسار أو شبهها كان بها المفلسُ ، ثم الحال التى صار إليها بعد أن فقد اليسار . وأفلس من معناها فى اللغة أصبحت دراهم الرجل فلوساً. وهذه هى الحال مع أبى نواس، فيا شدّ ما أصبحت دراهمه فلوساً، فهو يشرب الخمر ويلهو ويغدو على القيان والغلمان . وهى أحوالٌ ترضى معها الدنانير وتدع الدراهم بمرتبة دون مرتبة الفلوس . وأبو نواس يعلمُ أن الخمر هى التى تصنع به ذلك، تقللُ فضله عند القوم السَّراة فيطففون هباته وينفق فى سبيلها هذه الهبات .

والراح أهواها وإن رزأت بلغ المعاش وقللت فضلى

وهناك سبلٌ أخرى غيرها للافلاس. فقد كان الرجل مسئولاً عن ذوى رحم — وهذه طريقة ثانية للانفاق . وهو بعد زعيمُ طريقة فى الأدب والحياة ، له رفاقه ومريدوه ، يقبلون عليه ليغدوا معه على حانات بغداد ، وحدائق القفص إن لم يكن ذهابه إلى الأخيرة فى ركاب أمير . وهؤلاء الرفاق والمريدون يقبلون عليه ما وسعهم يساره فإن أفلس فقد جذّوا حبله :

صل من صفت لك فى الدنيا مودته ولا تصل باخاء حبل جذاذ
يعوذ بالله إن أصبحت ذا عدم وليس منك إذا تثرى بمعتاذ

وهى طريقةٌ ثالثةٌ للانفاق لعلها أكثر من غيرها التهاماً للمال ، وتضييعاً له . يضاف إلى هذه خلق أبى نواس السمح الذى يرى فى المكاس ضراعة ، وفى مساومة الخمار عاراً .

أعاذل ما فرطت فى جنب لذة ولا قلت للخمار كيف تبيع
أسامحه إن المكاس ضراعة ويرحل عرضى منه وهو جميع

ويأتى من وراء هذا كلّه مذهبه فى الحياة وليس من شأنه أن يعين على ثراء .

فاشرب وجد بالذى تحوى يداك لها لا تحذر اليوم شيئاً خوف فقر غد

فعاش عمره يراوحه اليسار ، ويغاديه بعض الحين الإفلاس . ومات ولم يخلف شيئاً .

معيشةٌ ومذهب

لم يك تردد النواسى على هؤلاء العظماء والوزراء وأكابر الناس ببغداد ، وحبُّه فى أن يحسب على بعضهم ويعد من مواليهم إلاّ لأنهم السبب الذى يعينه على العيش . فهو محتاج إليهم لهذا . ولو أسعفته المقادير ، واستقلت ثروته بلذته كما يقول لما غدا على باب أحد منهم ، ولآثر عليهم وعلى أبوابهم،

أبواب الحانات يقرعها وقد ترفعت الثريا ، وحياة يقضيها كما يشتهى « صريع غزلان وكاسات » فى حدائق القفص ، وقُرى الكرخ . فالتردد عليهم ومدحهم ضرورة قسرته عليها الأيام

وقد كانت الخمر كثيرة وميسورة ببغداد ، يشربها جلّ طبقة النواسى ويصفونها ويصورون كلفهم بها . ولكنه أربى عليهم فى هذا الوصف والتصوير . وظنى أنه أربى عليهم بشربها

فشربنا شرب قوم عطشوا من عهد عاد

وكان عشق الغلمان معروفا لا يكاد يكون مستنكراً ، ولكنه زاد على من تلا ولحق . وكان العصر سوق جوار وإماء . فطربت لهن النفوس ، وتغزل بهن الشعراء ، وكلف بهن النواسي كلفاً شديداً . ولم يقصر عن غيره بل ربما زاد عليهم . أخذ بهذه الحياة فى البصرة فتى لم يطرّ شاربه ثم تفرغ لهذه الحياة ببغداد وقد رضى بها عن كل مطمح .

رضيت من الدنيا بكأس وشادن تحير فى تفصيله فطن الفكر

فإذا ساعفته الدراهم والدنانير سار إلى هذه الخمارات المبثوثة فى أطراف العاصمة ، أو فى القرى المجاورة ، والتى يقوم عليها كما يقول النواسى دهاقين من المجوس أو اليهود أو اليهوديات ، أو

من أصحاب الملل الأخرى التى تبيح لمعتنقيها شرب الخمر والمتاجرة بها ، وكان أبو نواس ومن على شاكلته يطرقون أبواب هؤلاء الناس فيفتحون لهم ، بعد أخذ ورد قليل ، ليتعرفوا وجوه القوم ، ويظهر من ذلك أن بيع الخمر لم يكن ليتم للمسلمين إلاّ باحتراس قليل . لأن الحد فيها وإن تغوضى عنه وأهمل ، لم يكن قد أبطل . فكان أصحاب الخمارات يتوجسون من السعايات .

فقزع من إدلاجنا بعد هجعة | وليس سوى ذى الكبرياء رقيب
تناوم خوفاً أن تكون سعاية | وعاوده بعد الرقاد وجيب

ويتوجسون أيضاً من أن يكون هؤلاء المدلجون من الذين تكثر عربدتهم ويماكسون وقد لا يدفعون . ولكن هؤلاء الدهاقين يعرفون صاحبنا حتى كلابهم تألفه فلا تهر عليه :

إلى بيت حان لا تهر كلابه | على ولا ينكرن طول ثوائى

ويعرفون جماعته فهو لا يصحب إلا السراة الأماثل :

وأصطحب القوم السراة كأنهم | نجوم تراءت من مطالعها الزهر

وفتية كمصابيح الدجى غرر | شم الأنوف من الصيد المصاليت
صالوا على الدهر باللهو الذى وصلوا | فليس حبلهم منه بمبتوت
نادمتهم قرقف الإسفنط صافية | مشمولة سبيت من بيت تكريت

ونديمى كل خرق زانه عتق نجاره

ويعرفون منه غير ندمانه ورفاقه ، سرفه وعدم مماكسته وأنه

يدفع فوق ما يطلب منه ، وتلك سجية ترغمهم على الترحيب به ، وإظهار البشاشة والإعزاز له . وخلة أُخرى وهى كرهه للعربدة ، وأنه لا يطيقها فى مجلسه حتى لكأنه يتفقد رفاقه قبل الشرب هل فيهم عربيد ، ثم يقول لهم قبل البدء فى الشرب : إن هذه الكأس مشغلة بلذاتها ، فاتركوا الحديث فيما عداها لئلا يؤدى الأمر إلى مُلاحاة :

فى الكأس مشغلة وفى لذاتها ... فاجعل حديثك كله فى الكاس
صفو التعاشر فى مجانبة الأذى ... وعلى اللبيب تخير الجلاس

ثم يُريهم أن الأخلاق السائغة ، وتجنب المشاكسة والعربدة صفاتٌ يدلّ بها صاحبها ويفتخر :

لمثلى من الفتيان حلت أخى الخمر ... وطابت له اللذات واسترخص السكر
إذا كان سكرى لا يكدر مجلسى ... ولا يعترى فيه خصام ولا هجر

وغريبٌ أن ينشد هذا الخلق « الابتعاد عن الخنا » :

خلتـا شر تشينان الفتى ... حيثما حل ، الخنا والعربدة

ثم يردد هذا مرة ثانية :

ندامای طول الدهر خرس عن الخنا ... وعمى عن العوراء نزه عن الكبر

وهو يفرق فرقاً شديداً من أن يصيره الشراب هُزأة للناس :

إنى بعينى أن أراك جنية ... بعد العشاء تقاد بالأشطان
وأراك قدام الصغار كبومة ... عمياء وسط جماعة الغربان

وإذا نزل الربيع السهل ، وأورقت البساتين ، واخضرت الكروم سار إليها يتخيرُ موضعاً لشرابه :

على خزاماها وحوذانها ومشكل من حلل الزهر
يا حبذا الصيحة فى العمر وحبذا نيسان من شهر

وهو يشربها فى غير الربيع وغير الشتاء ، فى كل فصل وفى كل حين . ولعله إذ يذهب إلى الحدائق المونقة ، والسهول المرعة نهاراً ، لا ينسى أن يسير إلى الحانات ليلا ، فإن له ولعاً فى الشرب فى سواده ، إذ هو أعون على الملاهى . وإذا أعوزه النديم ولم يستطع السير إلى هذه الحانات ، والغدو إلى الحدائق المونقات ، لسبب من الأسباب ، شربها وحده . ونادراً ما كان يفعل فهو لهذا كاره :

نادمتها إذ لم أجد مسعداً أرضاه أن يشركنى فيها
شربتها صرفا على وجهها فكنت ساقيها وحاسيها

ولا بُدّ مع الكؤوس فى هذه المجالس من نقر على العود ، ذلك أقدح للصفاء وأتم للسرور :

فاستنطق العود قد طال السكوت به لن ينطق اللهو حتى ينطق العود

وهو يرى ذلك شيئاً لازماً :

ولا تشرب بلا طرب ولهو فان الخيل تشرب بالصفير

أمضى النواسى عمره أو أكثره فى هذه المجالس وهو القائل :

كفيت الصبا من لا يهش إلى الصبا ... وضيعت منه ما أضاع مضيع
أعاذل ما فرطت فى جنب لذة ... ولا قلت للخمار كيف تبيع
أعاذل خليني أرو شبيبتى ... فان بان لى رشد فسوف أريع

فهو دهره مفتون بالخمر ، وما يتبع الخمر من لهو . ولم يك هو وحده فكثير أدركتهم هذه الفتنة . وانظر إليه يصف بغداد غبَّ شهر من أشهر الصيام :

فليس يسمع إلا صوت غانية ... مجهودة جددت عهداً لمقترح
والخمر قد برزت فى ثوب زينتها ... فالناس ما بين مخمور ومصطبح

ولا ريب فى أن الناس لم يكونوا كلهم كما وصف ما بين مخمور ومصطبح، ولكن أكثر الناس الذين عرفهم كانوا كذلك . وهم الطبقة العليا فى سلم الاجتماع .

ولِمَ كل هذا ؟ أو بالحرى لِمَ استوفى هذا العصر كل هذه المناعم والمباهج بين العصور ؟ ولِمَ شُدت أعصاب النواسى ورُكزت على هذا النحو ؟ وهى أسئلة لا تلقى جواباً ، لأنه فى السؤال الأول يحتاج إلى الإطالة ، والثانى هو للمجهول وللغيب . وقد ألح الناس على النواسى فى هذه الأسئلة ، فأجابهم بأجوبة مختلفة متفرقة ، ولم يصدق إلا مرة .

قال إنه يشرب الخمر ليلهو بها عن همومه :

صفراء تنسيك الهموم إذا بدت وتعير قلبك حلة السراء

وخال أن الناس خليقون أن يصدقوه فردد هذا العذر مرات :

أديرا على الكأس تنكشف البلوى وتلتذ عينى طيب رائحة الدنيا

لست أرى لذة ولا فرحا ولا نجاحا حتى أرى القدحا
نعم سلاح الفتى المدام إذا ساوره الهم أو به جمحا

وهو غير مُطالبٍ بأن يبوح للناس بمآتى همومه ، ولكنه يذكر بعضها أحياناً ، فإذا هى همومٌ على أحبة لم يفوا ، وشوادن لم يسعفوا ، وآلافٍ نزحوا .

دعت الهموم إلى شغاف فؤادى وحمت جوانب مقلتى ورقادى
ورق بتفجعة تنوح أليفها غلس الدجنة فى ذرا أعواد
ولقد أزجِّى الهم حين ينوبنى والشوق يقدح فى الحشا بزناد
بعدامة ورث الزمان لبابها عن ذى الأوائل من أكابر عاد

وأجاب ثانية بأنه يشربها لينعم بها شبابه :

نعم شبابك بالخمر العتيق ولا تشرب كما يشرب الأغمار من ماذى

وأجاب ثالثة بأنه يشربها لأنه يدرك شيئاً لم يدركه الناس ، وهو أن شبابه إلى تصرم وانتهاء ، وأيامه إلى نفادٍ وانقضاء ، ونظره إلى الناس احتقارٌ وازدراء :

وهان على الناس فيما أريده بما جئت فاستغنيت عن طلب العذر
رأيت الليالى مرصدات لمدتى فبادرت لذاتى مبادرة الدهر

ويقول إنه يشربها ليستنصف بها الأيام من أحداثها :

فانف الوقار عن المجون بقهوة حمراء خالط لونها أقمار
فاستنصف الأيام من أحداثها فلطالما لعبت بك الأقدار

فتتمنى لو دانت لصاحبك الأقدار وأسعفته الأيام ليقلع عن هذه العادة وليترك هذه الخمر التى يلهج بذكرها ويحسوها فى كل حين . ولكنك تعرف أن كل ما ذكر ليس إلا أعذاراً وقد يكون أكثرها مختلقاً ليسوّغ بها شربه إياها ، إذ تراه يغدو على شربها ، وقد انتفت حالة الهم ، ومعاندة الأيام ، وواتاه الدهر بما يشتهى ، ودارت أيامه بالسعود ، وإذا صاحبك بهذه الحال لا يرضى بها تأتيه بالكوب الصغير بل يطلبها بالكبير :

إسقنى إن سقيتنى بالكبير من لذيذ الشراب لا بالصغير
قد تدانت لنا الأمور كما نهـوى وذلت لنا رقاب الدهور

وهو شاربها فى حالتى يسره وإعساره :

نخمرة أنت لها رابح فى حالتى يسر وإعسار

وتعلم أن الأمر جد إذ يقول :

إنما العيش فى مباكرة الخمـر وشكر يدوم فى كل حاله

على أنه يكاد يجيبك بالصدق إذ تكثر عليه اللوم :

لا عيش إلا المدام أشربها مغتبقا تارة ومصطحا
يا صاح لا أترك المدام ولا أقبل فى الحب قول من نصحا

كاد يقارب الصدق ، ولكنه يصدق الصدق كلّه إذ يقول لك شارحاً السبب الذى يجعله يكلف بهذا الشراب ويبذل فيه ماله وجاهه .

ألا لا تلمنى فى العقار جليسى ولا تلحنى فى شربها بعبوس
لقد بسط الرحمن منى مودة إليها ومن قوم لدى جلوس
تعشقها قلبي فبغض عشقها إلى من الأموال كل نفيس

هذا هو الصدق وقد دار عليه النواسى كثيراً . فهو يشربها لأنه أدمن تعاطيها بعد أن خلق بمزاج يهش إليها . وقد يتوهم بعض الكاتبين الكرام أن النواسى يبطن وراء ذلك هماً وحزناً دفيناً (١) يغشيه بستار من الاستخفاف « واللا أباليه » . ويشرب الخمر لينسى هذه الهموم والأحزان الدفينة ، كما يصنع الخيام ، ويجىء هذا الوهم من أعذار النواسى التى أسلفنا القول عنها ، والتى منها الهم . وليس من المستبعد أن يلمّ به طائف من

(١) من هؤلاء الأستاذ الفاضل أنيس المقدسى — فى كتاب أمراء الشعر العباسى — فقد جعل من النواسى شاعراً مفرطاً فى التشاؤم .

هم فيشرب كأساً لينساه . بل لا بُدّ من ذلك . وأية حياة تخلو من هموم وأشجان — ولا سيما حياة الشعراء ذوى الحس المرهف — ولكن تقدير مذاهبهم لا يكون بالنظر إلى هذه الحالات الطارئة ، وإنما هو بالنظر إلى حياتهم كسلسلة تامة ، بصرف النظر عن بعض حلقات لا بُدّ أن تجىء بها لأنها حياة إنسان قبل كل شىء . وفرق ما بين خمر النواسى والخيام . إن الخيام يشربها وأذنه للغيب تتسمع أصداء المجهول علّها تتلقف أجوبة عن الأسئلة الحائرة عن العلة والمعلول ، وما كان وسيكون . وقلبه مشغول بالكون وامتداده ، والأبد ونهايته . أمّا النواسى فأذنه للنغم ، وعينه على الوجه الصبيح ، والكثبان المهيلة ، وقلبه مشغول بما كان وسيكون — ولكن من صدٍ ونفار ، وقضاء لبانات وأوطار . ولا شىء خلاف هذا

فالنواسى هو السرور ومجالسه هى التى يقول فيها :

وبجلس ماله شبيه حل به الحسن والجمال
يمطر فيه السرور سحاً بديعة مالها انتقال

وهو الذى يقابل الشعراء المفكرين المتشائمين فى الحياة ، ويجىء مضاداً لهم . ولم يرتفع النواسى فى ملذاته عن رغائب الحسن

القريبة التناول . ولم يشغل باله وخاطره فى غيرها ، وفى غير الحديث عنها . حتى الطبيعة إذا صار إلى وصفها لم يستطع أن يصف منها إلا الجانب الذى يراه طالب هذه اللذائذ . ففيها وردٌ وريحان ، وفيها ماءٌ وأغصان . وهذا مما يعين على الشراب فكأن هذه الطبيعة حانةٌ لرواد الحانات ، بل هى ليست شيئاً . وخيرٌ من وصفها وصف الخمر .

وليس من الغرابة بعد هذا أن تمر بديوانه فلا ترى فيه وصفاً للنسيم المنعش الذى تغنى به الشعراء .

ويجىء مع هذا طبيعة عشقه . فهو العشق الذى ينظر فيه إلى جانب اللذة والمتاع ، ويحرص فيه على أن ينفى منه كل ما يبعث حزناً أو هماً ، فلم يعرف عنه وهو المفتون بالجمال أنه عشق وتوله بالعشق . وعشقه « جنان » مع أن أهل عصره كانوا يشكون فى صدقه ، قد جاء فى أوائل الصبا ، وساعد على تلهبه وقدة الشباب ثم همد سريعاً وانطفأ .

وكذلك الشأن فى حديث هذا الشاعر مع أصدقائه وعُشرائه ، فهو معهم فى مثل أخلاق النديم ، يلقاهم فيسمعهم ما يحبُّون أن يسمعوه . فهو يقول للخليع إذ يلقاه : « أنت أشعر أهل زمانك

فى الغزل إذ تقول » . و يروى أبياتاً من شعره[1] و إذا تناشدوا وأنشد العتاهى قال : هذا المطمع الممتنع . ولكن إذ يتفرق هؤلاء الخلطاء والعشراء فليس أمره إلى كبيرهم :

لا تبك بعــد تفرق الخلطاء ... واكسر عِائك سورة الصهباء
كذاك إنى إذا رزئت أخاً ... فليس بينى وبينــه سبب
لا تحزنن لفرقة الاخوان ... واقـرِ الهموم بمذهب الأحزان

وعلّه لم يرد عدم الوفاء . ولكن طبعه أن يُتقى من درب حياته أشواك الهموم والأحزان .

وأين يأتى حديث الزهد من هذا المزاج وهذه الطبيعة وليس فى هذا تنافر ، و إن جاء النغم ناشزاً من عدم المران عليه وسماعه من هذا الشاعر ، فالنواسى شاعرٌ تتحكم به الأعصاب كما أسلفنا ، وليس هو برجل فكر أو مذهب من مذاهبه — أى الفـكر — يُطيل عنده وقفته ، و يعمل فيه منطقه .

ومن الظلم أن نحمل أعصاب النواسى ونطالبها بفلسفة ، فيما عدا الحديث العابث فى الخمر واللهو وما يتبعهما من مُجانة ، إذ كنا لا نستطيع أن نقول للنواسى فى معرضٍ من معارض الفكر أصبت

(١) الأغانى جزء ٦ صفحة ١٧٩

أو أخطأت . ولا هو يطلب ذلك منا . ولكنه يطلب ويلحّ فى الطلب . ونستطيع أن نقول له أجدت فى هذا الوصف وأبدعت فى الشعر وأطربت . وبذلك نريح أنفسنا من عناء لا طائل تحته فى البحث فى ديوانه عن أبياتٍ تستهدف غايات فلسفية ، أو هى من أبيات الحكمة ، ثم نتخذها دليلا على أن النواسى كانت له فلسفة وكان حكيما . . .

شاعرٌ جديد

تطوّر الشعر ببغداد وفى ظل الترف ، ورق فى معناه ومبناه عما كان عليه فى الشام ، وفى أواخر الدولة الأموية . فلا سبيل إلى مقارنة شعر النواسى والخليع والعتاهى ورفاقهم بشعر الأخطل وجرير . إنّ شعر الدولة الأموية يلتفت إلى وراء ، وهمُّ أصحابه أن يقاربوا الصنعة الجاهلية . أما شعراء الدولة العباسية فجهدهم أن لا يأتوا بالصنعة الجاهلية وطرائق الجاهليين .

وحينما قدم النواسى بغداد لم يكن فيها من يتبع الطريقة « التقليدية » من وقوف على الأطلال ومخاطبة الدمن والنياق . وقد جانب هذا وغايره الطبقة التى سبقت طبقته ، وهى طبقة

بشار ورفاقه . فكان النواسي قادراً على سلوك الطريق الجديدة الممهدة دون ضوضاء أو شغب . ولكنه آثر أن يسلكها بضوضاء وشغب ، وآثر أن يسلك الجانب الوعر الذي قلما كان يرتاده أحد من الشعراء ، وإذا ما ارتادوه فهم يحسبون الحساب كله لقالة الناس وآرائهم . أما الطريق الممهدة فهي وصف الواقع ، وتصوير الحياة التي يعيشها الشاعر . وأما الجانب الوعر فهو وصف الخمر والملهى والدعارة . ووصف الواقع أراده النواسي للصدق . أما وصف الخمر وما يتبعها فقد أرادة للصدق أيضاً ، ومع الصدق ميل غير قليل إلى حب الشهرة .

إن شهرة النواسي تستمد من قوة شعره ، وبراعة وصفه وتصويره ؛ وتستمد أيضاً من هذه السيرة الداعرة . بل هي مدينة لهذه السيرة أكثر من دينها لقوة الشعر . وما كان ليخفى على النواسي — وهو الذكي — أية شهرة يمدها له سلوكه هذا إلى الجانب الذي يتهيبه الشعراء « فقد كان أسْيَرَ الشعراء شعراً » كما يذكر ابن رشيق في العمدة .

ويلوح لقارىء ديوانه أنه أطال البحث عن هذا المذهب الجديد ، وأنه أخذ في المذهب القديم ولو قليلا ، فهو يقول :

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

ثم يقول فى ختام هذه القصيدة بعد أن يصف الخمر :

وإذا نعت الشىء متبعا لم تخل عن غلط وعن وهم

وهى أعذار عن وصف الخمر ، وتدليل منطقى على أن الشاعر أقدر على وصف ما يراه من وصف الشىء الذى لم يره . وفى الشطر الأول من البيت السالف مداراة للقدماء بأن نعت الطلول بلاغة ، وهى بلاغة اختص بها الأقدمون .

ويذكرون أنه عرض على بشار قصيدته فى نعت الخمر ، وفى هذا دليل على نظمه إياها أول مجيئه إلى بغداد ، وإن كنت أشك فى أنه أدرك بشاراً فقد توفى عام ١٦٨ هـ وفيها يقول :

مالى بدار خلت من أهلها شغل ولا شجانى لها شخص ولا طلل
ولا قطعت على حرف مذكرة فى مرقيها إذا استعرضتها فتل
بيداء مقفرة يوما فأنعتها ولا سرى بى فأحكيه بها جمل
لا الحزن منى برأى العين أعرفه وليس يعرفنى سهل ولا جبل
لا أنعت الروض إلا ما رأيت به قصراً منيفاً عليه النخل مشتمل

ولا نعرف أطالت مدة بحثه عن مذهبه الجديد فى النظم ، ومشاورته لنفسه فى النظم فيه ، ومخالفة طريقة الأقدمين . ولكننا نرجح أنه أخذ فيه ببغداد .

وقد نظم النواسى الشعر بطريقة الأقدمين فهو يقول فى قصيدة:

إلى الله أشكو حب من جل نيله ... على كلام من وراء جدار
صبرت لها حتى إذا ما تفجرت ... بثور الهوى حولى وكان خمارى
جعلت ردائى السيف ثم طرقتها ... مفاوض أهوال خليع عذار
فكدنا ولما غير أن شفاهنا ... تعاطت خليطى سكر وعقار
وودعتها صبحا ولم أنس صدها ... وقد بادلتنى خاتما بسوار

وهى قصيدة عامرة ، ولكن ليس فيها شىء من روح النواسى ، وإنما هو ينظر فيها إلى عمر بن أبى ربيعة وجميل وهذه الطبقة . ومتى كان النواسى يشتمل على السيف وهو ذاهب إلى لقاء من أحب ليبادلها سواراً بخاتم أو خاتماً بسوار؟ وهل تتسع بغداد والبصرة أو تتطلب الذهاب وهو مشتمل على السيف للقيا الأحباب ؟ .

انتهى من هذه المرحلة التى وقف عليها قليلا . وبعد أن كان يرى أن صفة الطلول بلاغة الأقدمين ، أخذ يهاجم هذه البلاغة ويشنع عليها وعلى أصحابها بهوى ، ويشايعهم برأى . وأخذ يدلل على أن وصف الخمر خير من وصف الطلول والنوح عليها . ومن لم يقنعه التدليل ركبه بالسخرية ، ودعاه إلى الإغراق فى وصف الخمر يفعل هذا ومعه ميل إلى حب

الشهرة . وتفصيل ذلك أن بغداد كان يتقلب عليها من الشعراء فى الفترة التى عاشها النواسى ثلاثة شعراء كبار : أبو العتاهية ، والحسين بن الضحاك ، وأبان اللاحقى ، أما أبو العتاهية فقد كان غمر البديهة . ولعله أقدر من عرفت العرب من شعرائها على الارتجال . وقد كان يجيد شعر الزهد والمديح ، وأما اللاحقى فقد انقطع للبرامكة ، ونظم كليلة ودمنة شعراً ، ومعنى انقطاعه للبرامكة إجادته للمديح أيضاً . وأما الضحاك فقد كان يجيد فى أكثر فنون الشعر ولا سيما الخمر والغزل . ولكنها إجادة ليست بالمتقطعة . وكان النواسى يعلم أنه لا يجيد المديح إجادة العتاهى — على الأخص — . وأما الغزل فما نظنه كان يجهل أن شعره فيه تنقصه عواطف المحبين حقاً . وقد جرب نفسه فى البصرة فلم يأت منه بكبير طائل ، وهو القائل فى جنان :

وجه جنان رياض دنيائى ترتع فيه ظباء أهوائى
تصطادها أكلب الصدود إذا يدعو إليها الهوى بإيماء

أهو وجه محبوب ، أم ساحة صيد . فلم يبق إلاّ وصف الخمر والإغراق بهذا الوصف حتى يعرف بأنه شاعرها، وكان له ذلك . وكان يرى لنفسه الحق وقد انقطع إليها أن ينهب كل معنى يخاله

طريفاً . فهو ينهب معانى الوليد . و إذا أعجبه معنًى من معانى الخليع ، ادعاه لنفسه ، وأخذه منه قوة وعنوة . ثم ينظمه بشعرٍ سائغ قريب إلى الأنفس فيعرف أنه صاحبه . سمعه مرة ينشد :

حتى إذا أسندت فى البيت واحتضرت عند الصبوح ببساتين أكفاء
فضت خواتمها فى نعت واصفها عن مثل رقراقة فى جفن مرهاء

قال الحسين فصُعِق صعقة أفزعتنى ثم قال : « أحسنت . هذا معنًى كان فكرى لا بُدّ أن ينتهى إليه وسترى لمن يروى ألى أم لك » فأخذ البيتين بجملتهما . وأنشده مرةً هذا البيت :

تخاله نصب كأســه قمراً يكرع فى بعض أنجم الفلك

فأنشده النواسى بعد أيام لنفسه :

إذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل فى داج من الليل كوكبا

فقال له الخليع : « هذه مُصالبة يا أبا على » فكان جوابه : « لا يروى لك فى الخمر معنًى جيد وأنا حى » .

وكان النواسى يقول له بعد أن يُطرى شعره فى الغزل ويرد عليه الخليع : وأنت ألا تفارق مذهبك فى الخمر ؟ : « لا والله وبذلك فضلتك وفضلت الناس جميعاً » .

ويروى «الأغانى» أن أبا العتاهية طلب إليه أن يكفَّ عن قول الشعر فى باب الزهد ، كأنما هذا الباب حرم على غيره ، وكأنما

تقاسموا — ضمناً — أبواب الشعر ، فمن صار إلى غير بابه فقد بغى واعتدى . وقد روعى فى هذا التقسيم حال الطبع والمزاج .

وجدّ النواسى فى مذهبه الهازل ، وأخرجه الجدُّ عن حدود الاعتدال ، فهو زارٍ على كل ما لا يتصل بمذهبه الجديد ، وطريقة الشعر القديم متصلة أوثق اتصال بحياة العرب وعيشهم فى البادية . ولهذا فهو ساخطٌ على هذه الحياة وعلى هذه البادية ، ولا يرى أنها خليقةٌ بغير هذا السخط والازدراء . وهو كلفٌ بمذهبه الجديد فى وصف الحياة التى يحياها ، حياة بغداد ، ووصف الخمر ، كلفٌ بهذه الحياة وهذه الخمر ، مُدلٌّ حتى بمساوئهما ، إن أحوج الأمر ، وشدّ ما كان يحوج . والتدليل على هذا من شعر النواسى يقضى بنسخ معظم ديوانه لأن أكثر شعره يجرى على هذا السنن .

ومن هنا كانت تجىء سخريته مؤلمةً قاسية ، لأنها للجدّ لا للفكاهة . فأنت تضحك منها ولكنك تشعر أن الشاعر لم يسقها لهذا ، وإنما ساقها للإيلام . فقد كانت ثقيلة على الذين يركبهم بها « وهم العرب » ، والمحافظون منهم على القديم ، والمؤثرون له بوجه خاص ، وخذ مثلاً منها ، فهو يقول :

لا تنس لى يوم العروبة وقفة ... تودى بصاحبها بغير فساد

ويهولك هذا المقطع ، ويشوقك إلى الجد الذى وراءه ، ولكن أى عبثٍ وأى سخرية إذ يقول :

يوما شربت وأنت فى قطربل ... خمراً تفوق إرادة المرتاد

ويقول فى قصيدة يصف النذل الذى جاءهم بالخمر :

فجاءها مستمداً ... « كالحارث بن عباد »
قد جال الكم منها ... كنازع فى قتاد
فسل منها بزالا ... فسال مثل الفصاد

وهى صورة عابثة ومضحكة ، ولكنها على عبثها مؤلمة ، فما كان فريق من العرب ليرتاح إليها ، ومثلها قوله يخاطب الخمر :

فقد ظفرت بصفو العيش غانمة ... كغنم داود من أسلاب جالوت

وقوله وهو النهاية فى توقير « الخمار » :

قالت كذبت على طيفى فقلت لها ... إذن فعاديت يا مكنون خمارا

وأكثر ما تجىء هذه السخرية اللاذعة فى سبيل تأييد مذهبه الجديد ، مثل قوله الذى يزرى به فى الوقوف والواقفين على الأطلال :

قل لمن يبكى على رسم درس ... واقفا ما ضر لو كان جلس

أو قوله :

سقياً لغير الخيام والطلل ... وغير عيرانة من الإبل
عجبت من نعتها وناعتها ... وأى نعت يكون فى الجمل

ولا مراء فى أن القدامى كانوا يألمون من هذه الأبيات ، ويذكرون عند قراءتهم الشطر الأخير « وأى نعتٍ يكون فى الجمل » الآية الكريمة «أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت» فيزيد ألمهم. وأية سخرية فى هذا الصورة التى جاء بها للتعريض بالشعر العف والحب العذرى :

وقصرية أبصرتهـا فهويتهـا هوى عروة العذرى والعاشق الهندى
فلما تمادى هجرها قلت واصلى فقالت بهذا الوجه ترجو الهوى عندى

ويكثر فى لذعاته مثل هذا التضمين الساخر الذى يخرج عن معناه الذى وضع له :

فلما أن وضعت عليه رحلى تغنى منشداً شعر امتداح
ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

وهى سُخرية ما كنا لنجىء بها لولا أن البيت الأخير تذكره العرب « كأمدح بيت قيل » . وكل فكاهاته تجىء فى هذه المعارض كاوية وهى للإيلام أولاً . وله بعض الفكاهات التى تضحك ولا تؤلم ولكنها قليلة وأكثرها مما صوَّر وهو فى البصرة .

وليس المعول فى تقدير قيم الشعراء والأدباء على سلوك طريقة جديدة أو قديمة ، وإنما هو على مقدار الإبداع فى هذه الطريقة . فأين كانت منزلة النواسى بين شعراء عصره ؟

لقد كانت منزلة رفيعة ، وشهرة ضخمة ، وجماعة عصره لا يفضلون عليه إلا شاعراً واحداً هو أبو العتاهية . فهم يقولون إن النواسى أشعر أهل زمانه ، ولكن العتاهى أشعر الإنس والجن . وكان النواسى يقرُّ له بهذه المنزلة ، فهو يقول على ما يروى أبو الفرج : « ما رأيتــه — أى العتاهى — إلاّ خلتنى أرضاً وأنه سماء » .

ويقول الجاحظ : « ما رأيت أحداً أعلم باللغة من أبى نواس ، ولا أفصح لهجة مع حلاوةٍ ومجانبة استكراه » ويقول النظام : « هذا الذى جمع له الكلام فاختار أحسنه » .

وأبو العتاهية — أمير الشعر فى هــذه الفترة — « كان يقدمه[1] » ويقول الجرجانى فى الوساطة: إنه وبشارا أشعر المولدين . ويروى ابن رشيق فى العمدة عن الجاحظ مثل قول الجرجانى : « ما نعرف شاعراً مولداً هو أشعر من بشار وأبى نواس » .

ونسوق هــذه الأقوال وهى نتف قليلة من أقوال كثيرة لنبين المنزلة التى بلغها النواسى فى نفوس معاصريه ، وهى منزلة رفيعة بلغها بحق وعن جدارة بهذا الشعر الذى بين أيدينا ،

---

(١) تاريخ بغداد الجزء الرابع

والذى على فرط اعتنائه بتنقيته ، لا يخلو من ركاكة — بعض الحين — أشار إليها صاحب الوساطة ، ولكنها من القلة بحيث لا تضير هذه المجموعة والثروة الضخمة من شعره الذى هو مفخرة من مفاخر الشعر العربى وإن آلم معاصريه بزرايته بعاداتهم وتقاليدهم شأن كل جمود .

وقد كان من جنايات مذهبه عليه أن رماه العرب بالتعصب عليهم ، واتهموه بالشعوبية . ورماه الناس لمذهبه ولسخريته بالزندقة . ولكن هذه الشعوبية والزندقة ، واتهامه بهما بحق ، أو بغير حق ، لم ترزآه بعظمته الشعرية .

عصبيـــة

بين الفرس والعرب

الذائع المشهور عن النواسى أنه يتعاجم فى شعره ، ويسخر بالعرب ، ويفخر بفارس ، ويسوق من يقول بذلك شواهد من شعره منها قوله :

فاسقنيها وغن صو نا لك الخير أعجما
ليس فى نعت دمنة لا ، ولا زجر أشاما

وقصيدته التي يقول فيها :

مسارحها الغربى من نهر مرمر ... فقطربل فالصالحيـــة فالعقر
تراث أنوشروان كسرى ولم تكن ... مواريث ماأبقت تميم ولا بكر
قصرت بها ليلى وليل ابن حرة ... له حسب زاك وليس له وفر

ولم يكتف ابن منظور عن قصدٍ أو غير قصد بهذه الأبيات التي تدلُّ على تفضيل الشاعر لمواريث كسرى على مواريث العرب ، بل أبدل « تراث أنو شروان » كما جاءت بنسخ ديوانه بـ « تراث أبى ساسان » . فظهر النواسى أعجمياً يفخر بالفرس وأنه من أبنائهم

وروى ابن منظور فى هذا المعرض أبياته المشهورة :

تدار علينا الكأس فى عسجدية ... حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفى جنباتها ... مهى تدريها بالقسى الفوارس

وتكملُ الصورة ، وتظهر عصبية الفارسية على أشدِّها إذ يروون أهاجيه للعرب ، وتشنيعه على عيشهم . وأبياته فى ذلك كثيرة ، بل هى بعض المرات قصائد أنشئت لهجاء الأعراب والأعرابيات . وقد هجا العرب قبيلة قبيلة حتى قيل إنه كان يتنقل بنسبه فى قبائلها ليسهل عليه هجاؤها . ثم هجا الأعراب جُمْلةً واحدة :

دع الرسم الذى دثرا يقاسى الريح والمطرا
وكن رجلا أضاع العـــلم فى اللذات والخطرا
ألم تر ما بنى كسرى وسابور لمن غبرا
منازه بين دجلة والـــفرات أخصها الشجرا
لأرض باعد الرحمـــن عنها الطلح والعشرا
ولم تجعل مصايدها يرابيعاً ولا وحرا
ولكن حور غزلان تراعى بالملا البقرا
فذاك العيش لا سيدا بقفرتهـا ولا وبرا
بعازبه حرة يلفى بها العصفور منحجرا
إذا ما كنت بالأشيا ء فى الأعراب معتبرا
فانك أيما رجل وردت فلم تجد صدرا
ومن عجب لعشقهم الـــجفاة الجلف والصحرا
تعد الشيخ والقيصو م والفقهاء والسمرا
جنى الآس والنسريـــن والسوسان إن زهرا

واتخذ هذا ديدناً له ، فهو يستفتح كثيراً من قصائده بمثل هذا المعنى :

يأيها العاذل دع ملحاتى والوصف للموماة والفلاة
دارسة وغير دراسات وانف هموم النفس باللذات
ولاقها بأصدق النيات حتى تلاقى رب شاصيات
مختطبات لا مخفرات بنات كسرى خير ما بنات

ومثل قوله المتداول :

عاج الشقى على رسم يسائله وعجت أسأل عن خمارة البلد

يبكى على طلل الماضين من أسد　　لادر درك قل لى من بنو أسد
ومن تميم ومن قيس ولفهما　　ليس الأعاريب عند الله من أحد

إلى غير هذا — وهو كثير — وكله يصلح للاستشهاد على الحال التى يريدونها ، ويذهبون إليها من تهجمه على العرب وعادات العرب ، وتغنيه بحياة فارس وعيش فارس . وهو لهذا يُعدّ أعجميًّا ، وسواء أكان فارسياً أم عربياً . وسواء أدلّ وافتخر بحياة الفرس ليزرى بعيش العرب ، أم أزرى بالعرب وعيشهم ليتخذ منه سبباً لمدح الفرس ، فإن ذلك لا شأن له بقيمته فى عالم الشعر والأدب .

وعلى هذا فإننا نقول إنه لا سبيل إلى فهم النواسى فى هذه الناحية إلا بفهم البواعث التى دعت إليها .

فبيتا « اسقنى يا ابن أدهما » هما من مقطوعة صغيرة يطلب فيها من نديمه أن يتجاوز عن وصف الدمنة والوقوف على الطلل ليسقيه و يغنيه . فالصوت الأعجمى فيها ليس المقصود فيه التعاجم و إنما هو الزراية على من يستبدل بالأصوات الجميلة ، والخمر التى وصفها « نعت دمنة وزجر أشأم » . والتجاوز عن وصف الطلول ونعت الدمن ، جزء كبير من مذهب النواسى ، دعا إليه وألح فى

الدعوة إلحاحاً شديداً حتى وصل الأمر إلى الخليفة ، فأمره بذكرها فذكرها وذكر معه السبب — وهو أمر الخليفة — الذى دعاه إلى وصفها خيفة أن يظهر بمظهر المناقض وهو الذى لا يعبأ بشىء . فالنواسى أراد الصدق فى مذهبه وقد حمله هذا الصدق على مركب وعر وهو مضطر .

وقد أراد أن يتجاوز عن طريقة الشعر القديم ، وأن يغرق فى وصف المناعم والمباهج التى بين يديه ، وتحت متناول سمعه وحسّه . وهذه المناعم والمباهج أكثرها أعجمية . فهو يذكر أهلها بالخير ، وطريقة الطلول والدمن عربية ، والزراية بها زرايةٌ بالعرب وذوق العرب ، فخيل إلى العرب أن الرجل يمدح الفرس و يتعاجم ، مع أن الرجل لم يردها أعجمية أو عربية ، و إنما أرادها حقاً وصدقاً . مثل قوله :

ليال أروح على أدهم كميت وأغدو على أشقر
خيول من الراح ما عريت ليوم رهان ولم تضمر
براقعها من سحيق العبير ومن ياسمين وسيسبر
ذخائر كسرى لأولاده وغرس كرام بنى الأصفر
غدا المشترون على أهلها فقالوا أتينـا كم نشترى
خيولا لكم قد أتت فرهة فمن بين أحوى إلى أحور
فقالوا لهم إنما خيلنا سلافة كرم بنى قيصر
ولا تحمل اللبد لكنها خيول لـكل فتى أزهر

ففى هذه الأبيات مدح بالغ لعيشة الفرس والروم .

ولكن أية حال دعت إلى هذا ؟ أليس من الظلم أن ننسى مزاج أبى نواس ، وحُبَّه للخمر ، ومذهبه الجديد ، وعيش اللهو الذى يدعو له لنضع بدل كل هذا كلمة « أعجمية » ؟

إن العرب بعد الإسلام لم يكونوا أهل خمر . فلو أراد النواسى أن يمدح العرب فى هذه القصيدة وشبيهاتها فسبيله إما أن يلغيها ويستخير الله فى عدم نظم الشعر الذى لا يقدر عليه ، وإما أن هذه الخيول المضمرة عليها اللبد يخرجها إلى ميْدان — كخيول عربية — فإذا هى تتراكض وتصهل فى الشرق والغرب ، تطأ أمجاد فارس وتقتحم ممالك بنى الأصفر ، وهو صادق فى هذا وفيه الفخر كل الفخر . ولكن هبه فعلها فأى شىء يبقى منه ؟ ؟ لا يبقى شىء . ويكون شاعراً آخر لا يكفى أن نضفى عليه روحاً غير روحه ، ونغير من أعصابه ، وننشئه غير نشأته الأولى ، وإنما يتحتم علينا أن ننقله من عصر الرشيد والأمين ، فهو غير منسجم معه ، لنضعه فى عصر آخر ، نصعد فيه إلى أوائل العصر الأموى ، أو ننحدر به إلى الدولة الحمدانية ليرافق المتنبى .

إن تهاجم النواسى وزرايته على عيش العرب أكثر ما يرد في خمرياته . ولا شك أن إكثاره فيها ووصف مجالسها كان يحمل العرب على نقده فيبادلهم نقداً بنقد وتهجماً بمثله :

فدعونى فذاك أشهى وأحلى من سؤال التراب والأحجار
شغلتنى المدام والقصف عنها بقراع الطنبـور والأوتار

شغلته المدام وما فى المدام من لهو وقصف والعيشة العابثة التى جلبتها الحضارة — التى كانت مطبوعة بالطابع الفارسى — عن كل شىء ما عداها ، عن الفخر بالعرب وبأمجاد العرب . إنه ليمدح أصحابها مهما تكن دياناتهم وأعراقهم .

وهناك سبب آخر غير هذه الأسباب كان يحمل النواسى على مدح الفرس ، والتباعد عن العرب ، والزراية على عيشهم .

ذلك هو الغزل ، فقد كان مباحا فى هؤلاء الجوارى اللاتى أكثرهن لسن من العرب . ثم الحالة النفسية للشاعر وهى أهم من كل هذا . يقول النواسى :

فهذا العيش لا خيم البوادى وهذا العيش لا اللبن الحليب
فأين البدو من إيوان كسرى وأين من الميادين الزروب

فالبيت الثانى يشبه أن يكون جوابا عن حالة نفسية أو اجتماعية

اصطدم بها الشاعر . فهو جواب يقول فى معرض التبجح والفخر « نحن البدو » ولئن سألت ماذا يضير النواسى من هذا مادام عربى الأب ومعنى ذلك أنه عربى ؟

والجواب أن ذلك يضره كثيراً . فهو أولا صاحب لهو يهمه أن لا ينغص عليه أحد مجلسه بالفخر والمباهاة ؛ وثانياً وهو الأهم أنه ليس بذى حسب يستطيع معه مجاراة المباهين . فأمه فارسية من أسرة وضيعة ، وأبوه مهاجر من دمشق من جند مروان . يقال إنه اشتغل فى الحياكة أو رعى الغنم . وليس هو من بيت يفخر به ، وقد أمضى النواسى عمره يتستر على نسبه . ولقى من مباهاة العرب بأسرهم وآبائهم وأجدادهم العنت حتى كاد يكره بغداده المدله بحبها لهذه العصبيات وسؤال السائل فيها : ابن من هذا ؟

فان سلمت وما قلبي بذى ثقة — من السلامة لم أسلم ببغداذا
ما شئت من بلد دان منازهه — لكن فيه قيلات وأخاذا
ليسوا كقوم إذا حاذيت مجلسهم — أنفذت بالترك والاسماع إنفاذا
هناك لا تتحطى الأذن لا ئمة — ولا ترى قائلا من ذا ولا ماذا

وهذه القصيدة قالها على أثر عودته من الحج ولا أعرف من هم هؤلاء الذين لاتتخطى الأذن فى مجالسهم لائمة ، ولا يسألون جليسهم « من ذا ولا ماذا ؟ ؟ » ولكنى أرجح أنهم الفرس

ومجالسهم ، فلقد سبق للشاعر أن أطرى مجالسهم ومدحهم بأنهم لا يفخرون بها ، ولا يتباهون كما يصنع العرب :

ولفارس الأحرار أنفس أنفس ... وفخارهم فى عشرة معدوم
وإذا أعاشر عصبة عربيـة ... بدرت إلى ذكر الفخار تميم
وعدت إلى قيس وعدت قوسها ... سبيت تميم وجمعهم مهزوم
وبنو الأعاجم لا أحاذر منهم ... شراً فنطق شرهم محسوم
لا يبذخون على النديم إذا انتشوا ... ولهم إذا العرب اعتدت تسليم
وجميعهم لى حين أقعد بينهم ... بتـذلل وتهيب موسوم

وأحب أن يقف القارىء عند كلمة (تذلل وتهيب) التى ينعت بها الأعاجم ، أتراها تدلُّ على تعاجم ؟ ؟ .

وتتكرر هذه المباهاة ، ويكثرون عليه من الفخر ، ويثقل عليه ذلك ، حتى أصبح يشترط عليهم عدم ذكر الآباء والجدود والفخر بهم فى مجالس الشراب — على الأقل —

حقوق الـكأس والندمان خمس ... فأولهـا التزين بالوقار
وثالثها وإن كنت ابن خير الـــبرية محتـداً ترك الفخار

وما عسى أن تصنع هذه الأوضاع الماثلة ببغداد ، أنحاذ وعصبيات وفخر بالآباء والأجداد ، وسؤال السائل — حتى فى مجالس الشراب — من هذا ؟ ؟ وابن من هو ؟ ؟ فى زمنٍ تتناحر فيه حضارة الفرس مع أمجاد العرب بالعصبية ، فى أعصاب

أديب كأبى نواس قُصَارى فخره ما قاله للخصيب يوم سأله — أيضاً — عن نسبه : « إنى امرؤ رفعنى أدبى » . أى رفعك أدبك ولكن سؤال السائل لا يزال يُطاردك . ابن من أنت ؟ ؟ وقد يكون السائل من حُثالات تميم أو أسد ، لا يملك فخراً بالحياة إلا أنه منهما . وقد ذكر الرواة أن رجلا اسمه حمدان ابن زكريا هجا النواسى بهذا البيت اللئيم :

أنت كما قد قيل فيما مضى — قد ذل من ليس له ناصر

إننا لمضطرون إلى الاستعانة بالفلسفة الحديثة وإدخال « مركب إدلر » « الشعور بالنقص » فى هذه القضية . فأبو نواس يشعر بنقصه فى مجال الفخر بالعصبيات ، ومركب النقص يجيز له إلى أبعد الحدود أن يتعالى على هذه العصبيات فقد قال فى نوبات متعددة من شعوره بهذا النقص :

ومن تميم ومن قيس ولفهما — ليس الأعاريب عند الله من أحد

وقال على لسان ندل فى خمارة :

وما شرفتنى كنية عربية — ولا أكسبتنى لا ثناء ولا فخرا

ومع هذا الكره الشديد للعصبيات لم يندفع معه ليفضل الفرس على العرب . فقارىء ديوانه لا يجد شيئاً من ذلك . فهو

لم يذكر من مناقب الفرس إلا ما يتصل بالشراب وعيش الحضارة ببغداد . ولم يذكر للأعراب إلا عيشهم النكد وصحراءهم الجدبة، لم يتعرض للعقل الفارسي والمناقب الفارسية و يفضلها على ماعند العرب . وهو يفرق بين الأعراب والعرب . فالأعراب سكان البادية لا صلة له بهم ولا وشيجة بينه و بينهم ، إنهم من البداوة التي يمقتها .

أما العرب سكان الحاضرة فقد كان لايضن عليهم بالمدح إن سكنت شياطين عصبياتهم ، وحبست عفاريت فخرهم «فى قماقمها» فهو يقول على لسان الخمر بعد أن ذكر لها أصنافاً من الخلق فرجته أن « لا يمكنهم منها » :

ولا السفال الذى لا يستفيق ولا ... غر الشباب ولا من يجهل الأدبا
ولا الاراذل إلا من يوقرنى ... من السقاة ولكن اسقنى العربا

وفى هذا مدح وأى مدح ، وهو غير متهم فيه بالتناقض من جماعة عصره لأنه : قال « وأين البدو من إيوان كسرى » . وكثيراً ما كان يقول مثل هذا :

طربت إلى خمر وقصف الدساكر ... ومنزل دهقان بها غير داثر
بفتيان صدق من سراة ابن مالك ... وأزد عمان ذى العلا والمفاخر

وإذا جد الجد وكان لا بد من الفخر بالعصبية ولها عن الكأس وخفتت أصوات شياطين الشعور بالنقص . فخر وأطال « باليمنية » كما رأى القارئ . أما الأبيات التي أوردها ابن منظور « قرارتها كسرى وفى جنباتها » فالظاهر أن العرب فى عصر الشاعر ودونه بقليل فهموها على حقيقتها وعلى خلاف ما فهمها ابن منظور وجماعته . فصاحب الرد على الشعوبية والمفاخر بالعرب حتى بعصبيهم ومخاصرهم يوم الحفل (الجاحظ) لم ير فيها إلا أنها طراز فذ من التصوير لم يسبق إليه . وهى كذلك لا من حيث إنها طراز فذ ، ولكن من حيث إنها لا تمثل إلا التصوير الشعرى وليس فيها من التعاجم شيء . وفى الحق أن الاستشهاد بهذه الأبيات على أعجمية النواسى يمثل سوء ظن به فلا يذكر لفظة « عجم » حتى يتهم بالعجمة . وإلا فأى حرج على الشاعر إن رأى كأساً حفر فى جوانبها صورة كسرى ورجال من الفرس فوصفها على حقيقتها ؟ فقد وصفها فارسية غير مرة لأن فيها صورة فرس :

فخل بزالها فى قعر كأس ... محفرة الجوانب والقرار
مصورة بصورة جند كسرى ... وكسرى فى قرار الطرجهار

ثم وصفها صفة الفرس ولـكن صورها رجال من الهند :

بآنية مخروطة من زبرجد تخير كسرى خرطها ليصونها
كأن رجال الهند حول إنائها عكوف على خيل تدير متونها

ووصفها حيناً فإذا صورها من القسوس ذوى الصلبان ولعلهم من الروم :

ملس وأمثالها محفّرة صور فيها القسوس والصلب
يتلون انجيلهم وفوقهم سماء خمر نجومها الحبب

ومثل ذلك قوله :

بنينا على كسرى سماء مدامة مكللة حافاتهـا بنجوم

ويقول صاحب العمدة : « وكان النواسى شعوبى اللسان وما أدرى ما وراء ذلك » ووراء ذلك ما بيناه . وابن رشيق كان حذراً فى نعته بشعوبية اللسان ، فما يجوز أن يوصف النواسى بأكثر من ذلك .

زندقــــة

يسهل على المنقب فى شعر أى شاعر — مهما صلحت عقيدته واشتهر بتقواه — أن يقع له على أبيات تغمزه فى عقيدته وتقواه . ويسهل على المنقب أيضاً فى شعر أى شاعر اشتهر بإلحاده أن يعثر

له على أبيات تلحقه بذوى الكرامات . وأى شاعر أشهر بالتقوى من العتاهى ؟ ومع ذلك فقد ذكروا « أنه كان متذبذباً فى دينه[١] » وأنه قد تزندق فى كثير من الأبيات :

يا رب لو أنسيتنيها وهى ... فى جنة الفردوس لم أنسها

إن المليك رآك أحسن خلقه ورأى مثالك
فخذا بقدرة نفسه ... حور الجنان على مثالك

وأى شاعر اشتهر بالإلحاد فى العربية شهرة أبى العلاء وهو القائل :

أدين برب واحد وتجنب ... قبيح المساعى حين يظلم دائن
لعمرى لقد خادعت نفسى برهة ... وصدقت فى أشياء من هو مائن
يحدثنا عما يكون منجم ... ولم يدر إلا الله ما هو كائن

ومردُّ ذلك — على ما أعتقد — هو أن الشاعر يترجم عن عواطفه أولاً ، وهذه العواطف تسكن وتثور ، وترضى وتغضب ، فتجىء بحالاتها هذه التى يترجمها الشاعر شعراً ، بما يحمل على الإيمان ، وما يحمل على الجحود ، وفى الشىء ونقيضه . وقد يكون الشاعر لم يقصد هذا كله أو قصده فى لحظة ولم يقصده فى كل اللحظات . ويجىء مؤرخو الأدب فيقول أحدهم آمن الرجل ، ويقول غيره بل أغرق فى الإلحاد ، وكلهم يدلل على قولته

(١) الأغانى جزء ٥

بحديث لحظة من تلكم اللحظات التى مرت بحياة ذلك الشاعر. وليس هذا هو الحق والصواب، وإنما الحق والصواب أن تمزج هذه اللحظات التى تكوِّن حياة الشاعر، ثم يمزج معها حالة مزاجه، ويستخرج من هذا كله حديث الإيمان والجحود. وهكذا يجب أن يكون الأمر فى زندقة النواسى.

يقول الجاحظ: «وأما النواسى فقد كان يتعرض للقتل بجهده وقد كانوا يتعجبون من قوله:

كيف لا يدنيك من أمل ... من رسول الله من نفره

فلما قال:

أحبب قريشاً لحب أحمدها ... واشكر لها الجزل من مواهبها

جاء بشىء يغطى على الأول[1]»، وكلمة الجاحظ صادقة، وليست كلها. فقد كان المجون يطغى على هذا الشاعر فيتعرض للقتل بجهده، ولكنه كان يأتى بأشياء تغطى على أشياء فتحتاج إلى غير قليل من التروى. فالتقوى ليست من طبيعة هذا الشاعر الماجن. ويذكر ابن منظور أن النواسى أنشد فى مجلس شراب:

يا ناظراً فى الدين ما الأمر؟ ... لا قدر صح ولا جبر
ما صح عندى من جميع الذى ... تذكر إلا الموت والقبر

(١) الحيوان الجزء الرابع صفحة ١٤٥

فامتعض أصحابه وأعلموه أنهم منحرفون عن صحبته ، فقال لهم: ويلكم والله إنى لأعلم أن المجون يفرط على وأرجو أن أتوب فيرحمنى الله . ثم قال » :

أية نار قدح القادح وأى جد بلغ المازح

وأتم قصيدته .

ويقول ابن قتيبة فى كتابه « الشعر والشعراء»: ومما كفر به أو قارب ، ثم ذكر بيتين يطول فيهما الاختلاف أهما له أم لغيره. وقوله فى مدح الأمين :

تنازع الأحمدان الشبه فاشتبها خلقا وخلقا كما قدّ الشراكانِ

وقوله :

يا أحمد المرتجى فى كل نائبة قم سيدى نعص جبار السموات

ونحبُّ أن نسجل هنا أننا نشك فى البيت الأول الذى قيل إنه قاله فى الأمين . إذ لا يعقل أن يقوله فى خليفة ويذيعه بين الناس مراعاة للخليفة عند الناس على الأقل .

ويقول الجرجانى(١) : « لو كان سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر لوجب أن يمحى النواسى من دواوين الشعراء ويحذف

(١) الوساطة صفحة ٦٢

اسمه » . ويقال هذا ويقال أكثر منه عن النواسى إذا أخذنا ظاهر مجونه ولحظة من لحظات حياته . ولكنه لا يجوز إذا أخذنا حياته تامة الحلقات . فبيت الشعر غير المؤمن فى أشعاره ، يستطيع دارس شعره أن يضع قبالته عشرات الأبيات المؤمنات إذا كان المعول فى تقدير زندقة الشاعر على هذا فحسب . وليس هو فى هذا ، وإنما هو فى الحالة النفسية التى هى من وراء شعر الزندقة والإيمان . فالحالة النفسية التى وراء بيت من الشعر يقوله (بشار) مثلاً هى غير الحالة النفسية وراء بيت فى معناه يقوله النواسى . وكأن الناس يفرقون بين الحالتين . فالعرب تقول آمن فلان وكفر شعره . وحالة النواسى النفسية لم تكن لتساعده على زندقة مغرقة وكفر ، ولكنها تساعده — أتم مساعدة — على التظرف بالاستهانة بألفاظ الدين .

فهو ماجن ، مفرط فى مجونه ، والمجون يستدعى بعض المرات ليزيد إمتاعه ، أن يستخف صاحبه بالألفاظ الموقرة للدّين . فالذى يقول :

حج مثلى زيارة الخمار واقتنائى العقار شرب العقار

عاطى كأس سلوة عن أذان المؤذن

لا يقصد من هذا حالة من حالات الزندقة أو الكفر . وإذا حُمِّل البيتان أكثر من حالة التظرف فى القول، والفكاهة التى أرادها مستملحة ، فقد ناءا به ولم يحتملاه . ولا يزال الناس فى كل حين يقولون مثل هذا فى مجالس أنسهم وغلبة السرور عليهم ثم لا يحسبهم الناس زنادقة أو ملحدين .

وكان النواسى لا يشك فى نفسه ولا ينكر منها إيمانها . ويطمع أن يغفر الله له ذنوبه ما زال مسلماً «مقراً بالله وبوحدانيته»

مالى إليك وسيلة الا الرجا وجميل عفوك ثم إنى مسلم

ترى عندنا ما يكره الله كله سوى الشرك بالرحمن رب المشاعر

وقد كان لا يحسب نفسه حتى من الخطاة

لم وعفو الله مبذو ل غداً عند الصراط

خلق الغفران إلا لامرىء فى الناس خاط

ونحن نصدق هذا ، لا لأن النواسى يقوله ، فقد يقوله على سبيل التقية ونفى الريبة — كما يزعم الجاحظ — بل لأنه يجرى وفاق طبعه ومزاجه .

ويطابق شعر النواسى ما ذكر الأغانى من أنه لم يكن يرى فى الزندقة أكثر من حديث تظرف :

وصيف كأس ، محدث ملك تيه مغن وظرف زنديق

ولم يكن يتصور إبليس أكثر من ظريف يعين على فساد .

لم يرض إبليس اللعين فعالنا حتى أعان فسادنا بفساد

وأين يقع هذا القول من قول بشار فى إبليس وتفضيله إياه على آدم ؟

وأشد ما روى للنواسى فى الزندقة ما رواه المرزبانى فى الموشح . وقد رواها الجرجانى فى الوساطة بعد أن أسقط البيتين الأولين .

وملحة فى اللوم تحسب أننى بالجهل أوثر صحبة الشطار
بكرت على تلومنى فأجبتها إنى لأعرف مذهب الأبرار
فدعى الملامة قد أطلت غوايتى وصرفت معرفتى إلى إنكار
ورأيت إتيانى اللذاذة والهوى وتعجلا من طيب هذى الدار
أجدى وأحزم من تنظر آجل علمى به ضرب من الأخبار
ما جاءنا أحد يخبر أنه فى جنة من مات أو فى نار

وذكر المرزبانى(١) أن الجماز قال له : « يا هذا إن لك أعداء ينتظرون مثل هذه السقطات فدع الإفراط فى المجون » فقال: « لا والله » . فنمى الخبر إلى الفضل بن الربيع ثم إلى الرشيد فما كان بعد أسبوع حتى حبس ! ! والأبيات أعمق مما تعودنا أن نقرأه له فى هذه المعانى . وهو فيها يقصد فكرة ومسألة عقلية

(١) الموشح

يحاول أن يقيم البرهان عليها . . . ثم تجيء قضية حبس الرشيد إياه بسببها فتقوى الشك فى أنها موضوعة . على أنها لو كانت له فليست أكثر من حديث مجانة يستغفر الله منها، و ينيب بعد حين .

فحديث الزندقة — عند النواسى — كما رأى القارىء فى هذا الفصل هو حديث أعصاب متقلبة . وليس المستغرب منها هذه الحالات من الإيمان والتطرف الموفى على الزندقة ، و إنما المستغرب أن تكون إلى غير هذه الحالات ، ما برحت مضطربة غير مستقرة .

حج

وأخيراً سار إلى مكة حاجاً هذا الذى يقول :

حج مثلى زيارة الخمار ‏ ‏ ‏ ‏ واقتنائى العقار شرب العقار

وقال اليويو[1] :وجعل يُلبى بشعرٍ و يحدو به و يُطرب فغنى به كل من سمعه وهو قوله :

إلهنا ما أعدلك ‏ ‏ ‏ ‏ مليك كل من ملك
لبيك قد لبيت لك ‏ ‏ ‏ ‏ لبيك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك ‏ ‏ ‏ ‏ والليل لما أن حلك
ما خاب عبد أملك ‏ ‏ ‏ ‏ أنت له حيث سلك

---

(١) الأغانى جزء ١٨ صفحة ٣٠

وفى هذه القصيدة — بوجه خاص — ما يدفع زعم من يتجنى عليه فيجعل حجه بسبب حجِّ معشوقته « جنان » ، ومن الجائز أن تكون ذهبت للحج فى السنة التى حج فيها وقد ذكر ذلك فى بيتين :

حججت وقلت قد حجت جنان فيجمعنا و إياها المسير

وقوله :

وعاشقين التف خداهما عند التثام الحجر الأسود

ولعل البيت الثانى للتصوير لا للحقيقة ، ولكن من الظلم أن نعتبر أن حجه كان بسبب ذلك ، إن صح أن جنان حجّت فى هذه السنة ،فالحج والتوبة وشرب الخمر والفجور أشياء قريبة من طبيعة هذا الشاعر الذى تتحكم فيه العاطفة .

والسنة التى حج فيها النواسى لا يقال عنها أكثر من أنها السنة التى حجّ فيها الفضل بن الربيع . وهذه سنة لا سبيل إلى تعينها إلا بحادث آخر لأن الفضل لم يحج بالناس .

يقول ابن مناذر الشاعر[1] : إن الرشيد حينما حج بعد إيقاعه بالبرامكة وحج « معه الفضل بن الربيع » وكنت أملقت فهيأت

---

(١) الأغانى جزء ١٧ صفحة ٢٥

قولاً وقصدته به يوم التروية فإذا هو يسأل عنى ويطلبنى فبدرنى الفضل فقال : « يا أمير المؤمنين هذا شاعر البرامكة ومادحهم » ، وقد كان البشر قد ظهر لى بوجهه فتنكر وعبس ، فقال الفضل : مره أن ينشد قصيدته فيهم :

أتانا بنو الأملاك من آل برمك ... فياطيب أخبار ويا حسن منظر

فما زالوا بى حتى قرأتها ثم أتبعت ذلك بأن قلت : « كانوا أولياءك يا أمير المؤمنين أيام مدحتهم » . فقال : « يا غلام الطم وجهه » فلطمت حتى أظلم ما كان بينى وبين أهل المجلس . ثم قال : « اسحبوه على وجهه . والله لأحرمنك ولا تركت أحداً يعطيك شيئاً » ، فانصرفت وأنا أسوأ الناس حالاً فى نفسى وحالى وما جرى على . ولا والله ما عندى يومئذ قوت عيالى لعيدهم ، فإذا بشاب قد وقف ثم قال : « أعزز على والله يا كبيرنا بما جرى عليك » فدفع إلى صرة فظننتها دراهم فإذا هى مائة دينار وقال « الصولى فى خبره » فإذا هى ثلثمائة دينار ، فقلت : « من أنت جعلنى الله فداءك ؟ » قال : « أخوك أبو نواس ، فاستعن بهذه الدنانير واعذرنى » . فقبلتها وقلت : « وصلك الله يا أخى وأحسن جزاءك »

وهذه خلة ليست بمستنكرة من النواسى ، كرم وبر بالأصحاب .

وابن مناذر كان فى البصرة قبل أن ينتقل مرغماً إلى الحجاز. أدركه النواسى فيها ونشأت بينهما مودة يذكرها صاحب الأغانى فى حديثه عن ابن مناذر وعبد المجيد الثقفى الذى تهتك فى حبه. هذا الشاعر الأخير هو ابن بانة مولاة جنان فأية قربى عاطفية جمعت بين الشاعرين؟

ويهمنا من هذه الحكاية أنها تُعيِّن السنة التى حجّ فيها الرشيد ومعه الفضل بعد مقتل البرامكة ولم يحج فى غيرها.

وفى طريق أبى نواس إلى مكة وقعت له الحادثة التى يرويها الصولى ورواها الذين نقلوا عنه « وهى اجتماعه بفتاة بدوية عند ذهابه، ومعها فتيات كواعب بسنها عند إيابه، وإنشاده إياها شعراً ما زال يحتال فيه عليها حتى سفرت وأبانت من محاسنها الخفية ما أطار البقية الباقية — التى تركتها ظباء السواد — من عقله. ثم احتالت الفتاة وصويحباتها عليه فأدخلنه غاراً « فضربن إزارى على باب غار فعدلت إليه، وأدخلت فيه. وأبطأن علىّ، وأنا أتشوف إلى دخول واحدة منهن إذ دخل علىّ أسود كأنه سارية . . .

وعاد النواسى إلى بغداد فأقبل الناس — كالمعتاد —

« يباركون له فى الحج ، ويهنئونه بسلامة العودة وظنوا أن الأمر كله جد ، وأنه إن حجّ فقد زهد وقد تنسك ، وهو لم يرد كل هذا وإنما أراد الحجّ توبة من خطايا قديمة يحطها عن ظهره ليحمل غيرها .

حججت رجاء الفوز بالأجر قاصدا لحط ذنوب من ركوب الكبائر

ولم يرده نسكا وكان لا يزال له فى اللذائذ وطِلابها ولعٌ وشوق فهتف من أعماقه :

قالوا تنسك بعد الحج قلت لهم أرى وأرجو وأخشى طيرنا باذا

أجلْ إنه ليرى . . . ويرجو ذلك ولكن :

ما أبعد النسك من قلب تقسمه قطربل فقرى بنى فكلواذا

فعاد يواصل ما انقطع — ولعله لم ينقطع — من سيرته ، ويروى ظمأ هذا القلب المعمور بحب الجمال .

نهاية المطــــاف

سجن الشاعر

أمر الرشيد بسجن النواسى وأمر الأمين — فى خلافته — بمثل ذلك ، وقد أمضى فى سجن الأمين ثلاثة أشهر ذكرها فى

شعره فذكرها الطبرى فى تاريخه وذكرتها بعد ذلك كتب الأدب

مضت لى شهور مذ حبست ثلاثة كأنى قد أذنبت ما ليس يغفر

أما مدة سجن الرشيد فلم يذكرها النواسى فى شعر ولم تذكرها كتب التاريخ. واكتفت الرواية الأدبية بقولها ، وأطال حبسه وأخرجه الأمين فى خلافته .

أما السجن فهو عقوبة « إدارية » كما نقول بلسان اليوم ، أوقعها الخليفتان بهذا الشاعر بسبب السياسة . ومن أسباب السياسة ما لا يجوز اطلاع الناس عليه . فلا بدّ من انتحال أعذار ، وخلق أسباب لتسويغ الموقف . وهكذا كان الشأن مع شاعرنا . فقد أخذ بالخمر والمجون والزندقة حتى ذاعت هذه الأسباب ، وكادت تغطى على السبب الحقيقى . يقول ابن قتيبة : « وقال له الرشيد يا ابن اللخناء أنت المستخف بعصا موسى نبى الله إذ تقول :

فإن يك باق سحر فرعون فيكم فإن عصا موسى بكف خصيب

وقال لإبراهيم بن نهيك — رئيس شرطته — لا يأوى إلى عسكرى من ليلتــه . فأقام عند ابراهيم حتى مات هرون وأخرجه الأمين »

وذكر ابن جامع عن بعض أصحاب أبي نواس ورواته قال: « كان أبو نواس قال أبياتاً منها :

وقد زادني تيها على الناس أنني ... أراني أغناهم وإن كنت ذا عسر
ولو لم أنل فخراً لكان صيانتي ... فمي عن سؤال الناس حسبي من الفخر
ولا يطمعن في ذاك مني طامع ... ولا صاحب التاج المحجب بالقصر

فبعث إليه الأمين وعنده سليمان بن أبي جعفر فشتمه أقبح شتم وقال : كيف تقول ولا صاحب التاج المحجب بالقصر وأنت الذي تتكسب بشعرك أوساخ أيدي اللئام ؟ فقال سليمان : وهو — يا أمير المؤمنين — من كبار الثنوية ، وشهد بذلك من كان موجوداً فأمر بحبسه » .

ومنهم من يذكر أن الأمين إنما حبسه على قصيدته التي أولها :

إسقنيها يا دفافه ... مرة الطعم سلافه

وقصيدته :

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر . ... ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر

وقصيدته :

فجاء بها زينية ذهبية ... فلم نستطع دون السجود لها صبرا

وقد ذكروا أنه جاء به — بعد أن سمع هذه القصائد — وقال له : « أنت زنديق وكافر » وأمر بحبسه . واختلاف هذه

الأسباب يوهم القارىء أن الأمين حبسه غير مرة ، والصواب أن الحبس لم يكن إلا مرة واحدة فى زمن الأمين ، ومثلها فى زمن الرشيد .

وكان حبس الأمين إياه بسبب حديث خراسان الذى أسلفنا البحث فيه . وقد جمع صاحب كتاب « الوزراء والكتاب » هذه الأسباب كلها بعد أن ذكر كلمة الفضل بن سهل فكانت كأنها تعلات لا أكثر . كلمة الفضل هى السبب والعلة قال: « إن النواسى كان ينادم محمداً ويخص به وله معه أخبار مشهورة فقال الفضل ابن سهل يزرى على محمد به ويعيبه باستعماله إياه : كيف لا يستحل قتال محمد وشاعره يقول فى مجلسه ما لا ينكر عليه « ألا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر » ؟ فبلغ ذلك محمداً فأمر بإحضار النواسى وعنده سليمان بن أبى جعفر . وقد كان اتصل بمحمد عنه أنه قال قصيدته التى يقول فيها « وقد زادنى تيهاً » وقصيدته « إسقنيها بادفافه » فلما دخل عليه «ثم تم صاحب الكتاب ماذكره الطبرى من شتمه واتهامه بالزندقة ثم الأمر بحبسه . فظاهر من هذا الحديث أن السجن فى زمن الأمين لم يكن إلا مرة ، ولم يكن له من سبب غير كلمة الفضل بن سهل .

أما سجن الرشيد فلم تكثر فيه الروايات ، وتتنوع الأسباب ، كثرتها وتنوعها فى سجن الأمين . إذ كان السبب السياسى فيه لا يخشى من إذاعته ما يخشى من إذاعة السبب فى سجن الأمين من قدح فى الخليفة وسياسته . فالمعروف المشهور — وان اختلفت الرواية بعض المرات — أن الرشيد أمر بسجنه لقصيدته التى هجا فيها قبائل عدنان ، وأفحش ولم يعف عن قريش :

إن قريشا إذا هى انتسبت ... كان لها الشطر من مناسبها
إن فاخرتنا فلا افتخار لها ... إلا التجارات من مكاسبها

والخليفة من قريش ومن عدنان ، وأقرباؤه وعمومته منها . فلا شك أن هذه جرأة من النواسى قابل لها السجن .

ولم يعف عنه الرشيد ولم يخرجه ، و إنما الذى أخرجه هو الأمين ، فكم مكث فى سجن الرشيد ؟ . .

ذكرنا أن النواسى مدح العباس منصرفه من الحج عام ١٩٢ للهجرة . وذكرنا أنه لم يحج فى الناس إلاّ هذا العام . فالسجن قد وقع بعد هذا التاريخ . والحجيج كان يقدم دار السلام فى محرم ، فالسجن أحرى أن يكون فى أواخر هذا الشهر . وقد توفى الرشيد فى اليوم الثالث من جمادى الآخرة عام ١٩٣ ﻫ فتكون مدة

السجن أربعة أشهر تنقص أو تزيد قليلاً . ومدة سجنه فى كلتا المرتين ليست بالبالغة فهى أشهر سبعة أو ثمانية ، ولكنها كانت ثقيلة على نفس رجل كأبى نواس تلهبه العاطفة ، وتفتك بصبره فهو يكتب إلى الفضل بن الربيع كثيراً يلحف عليه بالرجاء ويكتب إلى والديه ويكتب إلى كل من يتوسم فيهم الخير . وإنك لتشفق على الشاعر وتكاد تضحك من نفاد صبره إذ تراه يكتب إلى رجل اسمه عبد الله بن نعيم ليذكّر أخاه كاتب الفضل ابن الربيع ليذكّر هذا الأخير بأمره :

فاسبق أبا عبد الإله بها ... واجعل لعقبك ذخرها نجلا
كلم أخاك يكلم الفضلا ... وليبلنى حسناً كما أبلى
إنى وصلت بك الرجاء على ... بعد المدى إذ كنت لى أهلا

ومثل هذا فى شدة اللهفة ونفاد الصبر ما كتبه إلى الحسين ابن عيسى بن أبى جعفر المنصور :

رفع الصوت فنادى ... يا أبا عيسى الجوادا
كن عماداً يا ابن موسى ... ن غياثاً وعمادا
وتدارك جسداً قد ... مات أو قد قيل كادا
قل له إن قال هل تا ... ب نعم تاب ورادا
واضمن التوبة عمن ... كلما أطراك عادا

ويحتاط للأمر فلعلّ هؤلاء العظماء ينسونه ، ويهملون غوثه .

فليبعث بأشعاره إلى عبيد الخادم مولى أم جعفر و إلى حسين الخادم مولى هرون ، و إلى غير هذين .

وكل ما نظمه النواسى فى سجنه وكتبه إلى من طلب عندهم الشفاعة ليس له كبير قيمة من الناحية الفنّية ، و إنما هو يمثل رجلاً ضيق الصدر ، نافد الصبر ، همُّه أن يخرج من هذا الضيق الذى لم يعتده ولا تحتمله أعصابه بما فى ذلك القصيدة التى كتبها للرشيد :

بعفوك لا بجودك عذت لا بل بفضلك يا أمـير المؤمنينا

ففى هذه ال « لا » المتكررة أثرٌ من حالة السجن ، واضطراب أعصابه . والأبيات الباقية كلها فى مثل هذا الاضطراب

فشفع حسن وجهك فى أسير يدين بحبك الرحمن دينـا

فالمعنى فى هذا البيت سوقى وعامى جاء فى تركيب مضطرب متعاظل . والأبيات التى تكاد تكون مستملحة هى الأبيات التى كان النقاد القدماء يرون أنه أسف فيها . ومع أن فيها إسفافاً ففيها شىء من خفة روح النواسى ، لا تقع على مثلها فى سائر مقولاته وهو فى السجن قال يخاطب الفضل :

أنت يا ابن الربيع ألزمتنى النسـك وعودتنيه والخير عاده
فارعوى باطلى وأقصر حبلى وتبـدلت عفـة وزهـاده

لو ترانى ذكرت للحسن البصـــــرى فى حسن سمته وقتاده
المسابيح فى ذراعى والمصـــــحف فى لبّتى مكان القلاده
فادع بى لا عدمت تقويم مثلى وتفطن لموضع السجاده
لو رآها بعض المرائين يوماً لاشتراها يعدها للشهاده

أليس فى هذه الصورة التى رسمها لنفسه ما يُغرى على الضحك والفكاهة ؟

ونحب أن نشير إلى شىء وهو أن النواسى فى سجن الأمين أحب أن يصدق أنه إنما سجن للخمر وفى سبيل الزندقة التى هو منها براء فلم يذكر السبب الحقيقى وهو السبب السياسى ، لأن ذكره مما لا يجوز لاتصاله بسمعة الخليفة . فانصرف همُّه إلى تبرئة نفسه من ناحية « ما أشيع » من حديث الخمر والزندقة . وفى هذه التبرئة تبرئة للخليفة . ولا شك أن الأمين كان يرتاح لأقواله هذه ولاسيّما حين يقول إن الأمين منعه عن شرب الخمر ، ولعله كان يشربها وهو يقول :

نالى بالملام فيها إمام لا أرى لى خلافه مستقيما
فاصرفاها إلى سواى فإنى لست إلا على الحديث نديما

إذ ليس المهم شربها أو عدمه ، وإنما الأهم أن يعلم الناس وأهل خراسان أن الأمين ليس كما وصف رجلهم ، يترخّص فى

الخمر ويقول شاعره : « ألا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر » ولا يعاقبه على ذلك .

وفاته

تختلف سنة الوفاة كما تختلف سنة الميلاد ، فهى فى عام ١٩٨ للهجرة على رواية الخطيب فى تاريخ بغداد ، بعد أن ذكر السادسة والتسعين والسابعة والتسعين بعد المائة . وهى ١٩٩ ﻫ على رواية ابن قتيبة . ونرجح رواية الخطيب ونظنها ١٩٧ هجرية لسبب واحد . وهو أننا لا نرى للنواسى شعراً فى النكبات التى توالت على بغداد فى هذه السنين ، ولا نحس له بوجود . فاذا كانت هى سنة الوفاة ، فتكون وفاته عن اثنتين وخمسين سنة . ونوافق فى ذلك ابن قتيبة ، لأنه قد ذكر أن هذا عمره وإن كنا خالفناه فى سنة الوفاة .

أما القصائد التى رويت له فى رثاء الأمين ، فالأرجح أنها منحولة . وأروع هذه القصائد القصيدة التى منها :

طوى الموت ما بينى وبين محمد ... وليس لما تطوى المنية ناشر

وقد ذكر صاحب الأغانى أنها لأشجع السلمى .

وليس من المعقول أن يعيش النواسى فى أيام الفتنة ولا يكون له فيها شعر ، وقد أكثر الشعراء من القول والنظم فيها . أضاع ؟ ؟ ولم لم يضع غيره وفيه هجاء للمأمون وقواده ؟ ولعلّ هذا الغموض فى سنة وفاته ، لأنها سنة وقعت فى هذه الأيام السود التى مرّت على بغداد .

ولم يذكروا العلة التى توفى منها والظاهر أنه اشتكى من أوجاع :

دبّ فى الفناء سفلا وعلواً   وأرانى أموت عضواً فعضوا

وروى الشافعى — رحمه الله — قال : «دخلت على أبى نواس فقلت له : ما أعددت لهذا اليوم ؟ » فقال :

تعاظمنى ذنبى فلما قرنته   بعفوك ربى كان عفوك أعظما

الثقة بالله . وإنها لنعم الزاد والعُدة .

ثم توفى وقبر فى مدافن الشونيزية .

عمان — شرق الأردن

رقم الإيداع	١٩٨٦ / ٤٥٣٤
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-١٧٢٩-٨ ISBN

١ / ٨٦ / ٢٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

اقرأ

بهذا الفعل الجميل (اقرأ) : تدعوك دار المعارف إلى قراءة تراث هذه السلسلة العريقة .. بأقلام كبار كتابنا .. لتعيش معهم .. كما عاش الآباء والأجداد .. وتكوِّن فى مكتبتك موسوعةً متفرقة فى فروع المعرفة المختلفة .

وإيمانًا منا بأن القراءة هى أقصر الطرق إلى الوعى والثقافة .. فقد يسَّرنا لك ذلك فى إخراج جيد .. وسعر زهيد .

٤٠٠٨١٨ / ٠٨

٦٠ ص

اقرأ

محمد فريد أبو حديد

جحا في جانبولاد

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

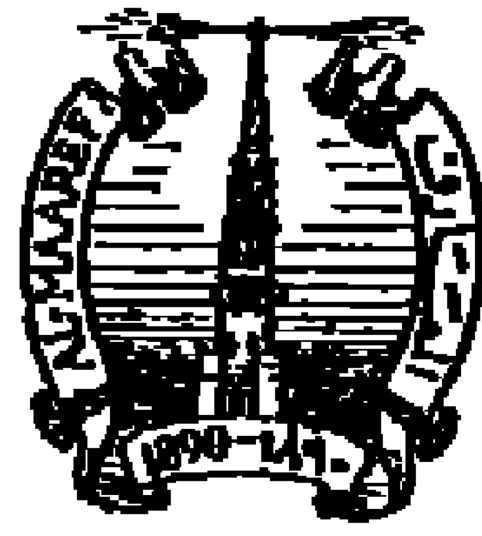
جحا فى جانبُولَاد

محمد فريد أبو حديد

جحا في جانبولاد

اقرأ ٢٢

تصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر
بمعاونة الدكتور طه حسين بك وأنطون الجميل بك
وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف


AL-MAAREF
1890-1890

١

خرجت من وطنى (ماهوش) أسير كالأعمى والأفكار تحتوشنى من كل جانب والأنفاس تكاد تمزق صدرى . ونظرت حولى فرأيت ربوة (ماهوش) الخضراء تبسم للصباح إذ تلقى عليها الشمس أول شعاعها الذهبى . ورأيت سماءها والسحب تزخرف أطرافها بنسيج سحرى من الفضة والذهب واللؤلؤ والياقوت . هذه السماء هى التى ملأت قلبى تسبيحاً وعلمتنى من المعانى ما تعجز عنه كتب الفلاسفة ومباحث العلماء . وألقيت نظرى على سهل (ماهوش) إذ تنحدر إليه الجداول الصافية تتدفق من عيون رائقة باردة تنبع من قمة الربوة ثم تسير فى جداولها التى تلمع فى قيعانها الحصباء كأنها الدرر انفرطت من عقود الحسان . ورأيت بيوت (ماهوش) على سفح الربوة كأنها القوافل التى تحمل الأفاويه من بلاد الهند هابطة من جبال الپامير إلى هضاب إيران . وتتخللها البساتين بما فيها من نبت بين قصير

وطويل و بين مورق ومجرد قد تداخلت ألوانها وتشابكت فروعها وتعانقت أغصانها واهتزت للنسيم الوديع .

هذه (ماهوش) لذة العين وبهجة القلب وشفاء الصدر أغادرها وأهاجر منها لأضرب فى الآفاق . فناديت من أعماق قلبي « يا نفس تجلدى وياعين اغمضى و يافؤاد التمس النسيان ! » ثم سرت فى الطريق أفكر فيما كان من شقائى فى وطنى الحبيب القاسى الذى لم أجد لى فيه مكاناً ، وفيما يكون من مصيرى إذا أنا ذهبت فى الأرض الفسيحة ، وما أنتظر أن أقاسى بها فى غربتى . وماذا يلاقى الغريب غير أوجاع الحنين والوحشة فى الحياة ؟

وفيما كنت فى طريقى مطرقاً مفكراً أفقت على صدمة عنيفة دفعتنى إلى جانب الطريق ، وكادت تقذف بى إلى النهر الصافى الذى ما زال منذ الأبد القديم يجرى غير مبال إقامة الناس فى ماهوش أو خروجهم منها . ولكنى تماسكت وتعلقت بشجرة قريبة ، وتلفت حولى لأرى ذلك الذى كاد يحطمنى بصدمته وامتلأ قلبي غماً وتشاءمت برحلتى ، فهذا أول الطريق أصطدم فيه وأخبط بمثل هذه الخبطة الشديدة . فرأيت فارساً من هؤلاء أصحاب

القلانس العالية الذين يحسنون الانتفاش فى ملابسهم الزاهية ، ينظر نحوى كأنه ينتظر منى أن أشكره على صدمته . فاعترانى إحساس لا أستطيع وصفه إلا بأنه مزيج من الخوف والغضب . فإننى رجل لا أحب الحروب ولا من يخوضونها ولا أطيق أن أرى دجاجة تذبح تحت ناظرىّ . فكيف بى وقد رأيت أمامى رجلا من جنود تيمور الذين يملأون الأرض دماء ! !

كانت نظراتى إلى الفارس تنم عما كان فى نفسى ، ووقفت أتأمله وكان منظره فى الحق عجيباً . كان مثل الببغاء فى زينته الكاملة : من قلنسوة حمراء فوقها ريشة زرقاء من تحتها عباءة صفراء تغطى ملابس أخرى لا أعرفها بيضاء وخضراء ، ولف على وسطه منطقة سوداء ودلى فى جنبه سيفاً مقوساً منقوشاً بالذهب والفضة مرصعاً بالجوهر ومن تحته وتحت كل زينته جواد كريم لا يقل فى ألوان زخرفه عن صاحبه . فقلت فى نفسى «سبحان الله ! ما هذا كله ؟» وجعلت أصعد فيه بصرى وأصوبه من أعلى ريشته إلى حافر جواده ، وأحسست أن خوفى وغضبى قد تبدلا وامتلأ قلبى ضحكا . فتبسم الفارس وأخذ يكلمنى بلغة لم أفهم منها إلا يسيراً بعد لأى وتكرار ، ففهمت منه أنه يريد أن يعرف من أنا . فقلت

له أريد أن أصرفه وأتجه فى سبيلى : « أنا فقيه . » ثم هممت بالسير. فهمز جواده يسايرنى وقال وفى صوته رنة السرور « فقيه ؟ »

فهززت رأسى أن نعم ومضيت فى سبيلى . ولكنه كرر سؤاله فى اهتمام . فخشيت أن ينخدع الرجل عن حقيقتى وهو لا يعرف لغتى : فلعل لهـذا اللفظ « فقيه » معنى آخر عنده مثل تاجر أو صيرفى أو جوهرى ، فيحسب خطأ أننى ممن يطمع فيهم رفاق الطريق فيبـادر بإيقاع الأذى بى ، ولن يعزينى بعد ذلك أنه سيكشف خطأه حين لا فائدة لى من كشفه ، فإن أسفه لن يكون إلا عزاء ضئيلا لى . فبادرت قائلا « أديب » واخترت هـذه الكلمة لأنها معروفة للناس جميعاً ولا تحمل لبساً ولا يختلط على أحد معناها ، فكل الناس يعرفون من هو الأديب . ولكن الفارس لم يعجبه هذا اللفظ وكرر الكلمة الأولى سائلاً « فقيه ؟ » . فملأت عينى منه وتنازعنى الخوف والضحك حيناً ، ولكنى رأيت أنه قد بدأ يعبس ، فخفت إن ضحكت أن يغضب ، واكتفيت بأن هززت رأسى له بالإيجاب وفوضت أمرى إلى الله . فأسرع الرجل فنزل عن جواده وفتح لى ذراعيه ، وأقبل على يضمنى إلى صدره ويقبلنى بين عينى ويرطن

بكلام كثير. ففهمت منه إجمالاً أنه قائد كتيبة فى جيش تيمور، وأنه طالما طمع فى أن يكون عنده فقيه ليكون لـكتيبته زينة إسلامية. فلما عرف أننى فقيه سره ذلك وعزم على أن يأخذنى معه، ثم أمرنى فى رفق أن أسير وراءه. فقلت « سبحان الله! أهذه محنة جديدة؟ » ووقفت حائراً متردداً. فنظر إلى وصاح بى مكرراً أمره أن أسير وراءه. فلم أجد بدًّا من السير ومضيت فى أثره مطرقاً أفكر فى أمرى. ثم قلت أعزى نفسى « إن السير وراء هذا الفارس لن يغير شيئاً من حالى، فقد خرجت من ماهوش لأسير فى الأرض وسواء لدى شرق وغرب » وانطلقت أمشى قريباً من ذيل جواده وأنا أكاد أغمض عينىّ.

وما زلنا نسير حتى مالت الشمس عن كبد السماء وأخذ التعب يدب فى أوصالى، فنظرت إلى الفارس لعلى أرى عليه علامة تبشر بأنه يريد أن يريح جواده فلم أجد على مظهره ما ينم عن شىء من ذلك، لأنه كان يهز رجليه ويغنى مرحاً. ومضى زمن طويل بعد ذلك حتى بلغنا قرية فاجتزنا بها. وفيما نحن خارجان منها طلع علينا فارس آخر عند منعرج الطريق، فلما رآنا أقبل نحونا يسعى، وكان فى زينته أشبه الناس بصاحبى، حتى خيل إلى أنه

توأمه وقد ولدا معاً فوق جواديهما . فلما اقترب الفارس منا حيًّا صاحبه ، ووقف حياله يحدثه ، ثم التفت نحوى وجعل يفحصنى ببصره حيناً ثم عاد إلى صاحبه يراطنه باهتمام . ولم أدر ما كان بينهما من الحديث إلا أننى سمعت الفارس يصيح وهو ينظر نحوى : « فقيه ؟ »

فخفق قلبى خفقة شديدة ، ونظرت إليه مندهشاً ، ثم أحسست أن الضحك يكاد يغلبنى . فملكت نفسى وقلت باسماً « نعم فقيه » . فنظر إلى صاحبه وجعل يحادثه ، ثم سمعت الحديث يحمى والألفاظ تسرع فيما بينهما ، ثم رأيت الرجلين يجردان سيفيهما و يقف أحدهما حيال الآخر وقفة الحزب والنزال . فدب الأمل إلى قلبى وقلت لعل هذا أول الفرج ، فليس للفريسة من أمل إلا إذا تطاحن عليها الوحوش . ووقفت أنظر إليهما متفرجاً ؛ وكانا مثل ديكين وقفا ليتناقرا . ولكنى لم ألبث إلا قليلا حتى رأيت المنظر يتحول فجأة تحولاً كريها ، فبدلاً من وقوف الفارسين وجهاً لوجه إلى نهاية المعركة المرة رأيت صاحبى الأول يتجه نحوى مجرداً سيفه ليقتلنى . نعم ليقتلنى أنا ! ونظر قبل أن يتم عمله إلى قرينه وقال له ما معناه « حتى لا يكون لى ولا لك » .

ففهمت من هذا مجمل ما كان بينهما من الجـدال وعلمت أن صاحبي أراد أن يحسم الخلاف الذى بينه و بين صاحبه بأن يبقر بطني . وهذه بغير شك طر يقة مختصرة لحسم الخصام و إن كانت كر يهة لى . وكان لا بد لى من الدفاع عن نفسى بما استطعت ، فصحت قائلا : « حاسب ! ماذا تر يد ؟ » .

فتوقف الرجل وجعل يبين لى قصده فى لهجة الاعتذار . فقلت متكلفاً الهدوء : « هذا رأى غير صائب »

فرد على بكلام كثير يحاول به أن يفهمنى أنه لا يريد إلا العدالة ، فإنه لا يليق عدلاً أن أكون فقيه غريمه بغير حق لأنه قد سبقه إلىّ ووضع يده قبله علىّ ، وجعل يطيل فى شرح معنى العدالة وأنها شيء غير القانون وأنها لا ينص عنها فى الكتب بل توكل إلى الذكاء وحده . فلم أرد أن أجادله فى ذلك ، والعدالة على أية حال أمر نسبي يختلف الناس فى فهم معناها ، و يراها القوى من زاوية والضعيف من زاوية أخرى ، ولا سبيل إلى تلاقى نظر تيهما . ولم أجد وسيلة تنجينى من هذه العدالة إلا أن أجرد لها لسانى وحيلتى فقلت وأنا أرتجف :

— هذا كلام حسن . ولكن ألا ترى أيها الشجاع أن

تحتفظ بي حيًّا ؟ فإني أقدر على أن أنفعك وتستطيع أن تجد فيّ خيراً كثيراً .

فنظر إليّ غير مصدق فقلت له مسرعا :

— أنا رجل ساحر أقدر على أن أؤلف الشعر وأن أكتب الرسائل ، وأقدر على أن أرفع من شأنك حتى يراك الناس سيد الخلق ؛ أقدر على مدحك بما لا تتصور ، فيصدق الناس أنك أفضلهم وأسمحهم وأعلمهم وأعقلهم وأحكمهم وأشجعهم » .

ولست أدرى أفهم قولى أم لم يفهمه ، ولكنى رأيته قد لان ورق لى فأتبعت قولى :

— إنك رجل باسل بغير شك وتستطيع أن تقاتل صاحبك حتى تقتله أو تعجزه . فإذا تم لك ذلك سرت وراءك شرقا أو غربا كما تشاء .

ولكن هذا الرأى لم يعجبه ، فأطرق مفكراً وهو يتأفف ، ثم رفع رأسه بعد حين وقد تهلل وجهه كأن فكرة موفقة سنحت له ، وتقدم نحوى باسما ووضع يده على كتفى قائلا : « عفارم ! وجدتها ! »

ثم لوى عنان فرسه وأسرع إلى صاحبه ، وسرت وراءه فى لهفة ،

فسمعته يقول له : «أتذكر الكلب الأسود الذى أودعته عندى؟» فقال له الفارس باهتمام « نعم بلا شك وأنا فى حاجة إليه » فقال له صاحبي مبتسما فى خبث « إذا أردته فانزل لى عن هذا الفقيه » وأشار إلى . وصمت قليلا ثم قال « وإلا فإنى قاتل كلبك عند عودتى» وكانت هذه الكلمات كالصاعقة إذا انقضت على الرجل. فنزل عن جواده مترنحاً ، وجثا على ركبتيه ، وجعل يتوسل إلى صاحبه بكل كلمة رقيقة أن يبقى على كلبه وأن يفعل بى ما شاء . ثم مسح دمعة ثارت فى عينه وسلم لصاحبه بغير قيد ولا شرط . ولست أنكر أننى قد رققت للرجل فى حزنه من أجل كلبه وشيعته بنظرى وهو منصرف عنا وفى قلبي مودة له ورحمة .

ولم يطل بنا الوقوف بعد ذلك فسار صاحبي المنتصر فى طريقه ، وأمرنى أن أسير وراءه وجعل يهز رجليه ويغنى . وسرت وراءه فى شيء يشبه الذهول أتحرك بلا وعى كالآلة الصماء .

وكاد النهار ينصرم وأنا أجرر قدمى وراء الجواد، وتمشى التعب فى مفاصلى وعروقى ، واستولى الضيق على نفسى ، ولاح لى الفضاء مثل لجة البحر المائج لا تقع العين فيه إلا على سر مجهول . ثم أقبل الليل بعد أن كادت نفسى تزهق ، فدعوت الله أن يبعث

الفرج . ونظرت إلى الفارس فى حقد ، وأخذت أتلو بعض آى من القرآن . وما كان أشد فرحى عند ما رأيته يقف فجأة كأن شيئاً أمسكه . ونزل عن جواده وجعل يمشى وينظر حوله ليختار مكاناً للمبيت . وكنا قد بلغنا غابة عظيمة لا تبلغ العين آخرها ، قد اكتست أرضها بالعشب الأخضر وتشابكت فى أعلاها الغصون . فجلست لألقف أنفاسى وأريح أعضائى ، ولم يلبث الظلام أن أرخى سدوله ، ثم طلع القمر وكان شعاعه يفيض على الغابة جمالاً باهراً . وهدأ حر النهار إلا ما بقى منه كامناً فى الهواء إذا هب رخاء من الشمال . وأخذ نور القمر يزداد حتى تخلل فرجات الأغصان وكسا البساط العشبى الذى تحتها ، وتراقصت الظلال وتلاعبت كلما هبت نسمة من النسمات . فاسترعى ذلك الجمال بصرى وجلست ساعة أتأمله ، وكانت المتعة التى أصبتها كافية لإزالة تعبى واضطرابى ، وشعرت بنشوة تملأ صدرى ، ورأيت صاحبى الفارس قد خلع قلنسوته ووضع جعبته وأداوته على الأرض ، وأطلق فرسه يرعى ، وجعل يسير فى أطراف الغابة يجمع الأحطاب . فاسترحت إلى منظره الإنسانى وأنس قلبى إليه وأخذت أنفاسى تعود إلى هدوئها ودب البشر إلى نفسى .

وما أعجب عين الإنسان ! فبينا هى تنظر إلى دنيا مظلمة لا يلوح فيها بصيص من الأمل إذا بها ترى عالماً زاخراً بالجمال والسلام . أيها الأمل إنك من نور الله تمثل السعادة على هذه الأرض ، و إنك وليد الإيمان الحق فاليأس لا يغلب إلا القلوب الخالية من الإيمان .

ولما شعرت بما داخل نفسى من الخفة قمت متجهاً إلى الفارس وقلت له مستعيراً لفظه : « عفارم أيها الشجاع ! »

ولم أقصد من قولى شيئاً سوى أن أحدثه . وما كدت أفاتحه بهذه الكلمة حتى استجاب وأقبل على حديثى منطلقاً كأننى فككت بالكلمة عقدة لسانه . وسأعيد ما قاله لى بلغتى ؛ فقد كانت لغته رطانة لا تفهم إذا نقلتها عنه نصًّا . قال باسماً :

— سأهيئ لنفسى طعاماً وشراباً . نعم فإنى أهيئ طعامى بيدى دائماً إذا استطعت . ولا أحب أكلا إلا إذا طبخته وسويته ، ومازجت بين ما يقلى منه وما يسلق ، وقدرت ملحه وذررت عليه الأفاويه بمقدار .

ثم استمر يضرب الأمثال مما صنع ويذكر الصنوف وتواريخ صنعها وهو فى أثناء ذلك يذهب ويجىء فى ضوء القمر . فقلت له

باسماً: « هذا بديع . ولا شك فى أنك رجل ماهر » . فنظر إلىّ مسروراً و بدت نواجذه السوداء من فمه الأهتم ، ثم مال على جعبته وأخذ ينكشها قائلا: « ليس هنا إلا بقايا مجففة . ولو كان فى الوقت فسحة لكان عشائى لحماً طريا » . ثم أشار بيده إلى الغابة وقال : «سأريك فى الغد إذا بقينا هنا كيف أسدد الرمية وكيف أثبت الطير فى كبد السماء » .

فقلت له باسماً : « إن من كان مثلك لم تعص له الوحوش أمراً » .

فقال مرتاحا : « وإذا شئت فإنى أريك كيف أطعن بالرمح وكيف أحطم بالدبوس فإنى صاحب السبق فى هذه الفنون جميعاً » . فضحكت ضحكة حاولت بها أن أخفى الرعشة التى سرت فى جسمى وقلت مبادراً : لا لا ! ليس فى هذه الحال التى نحن فيها ما يدعو إلى رمح أو سيف .

فمضى فى حديثه وجعل يصف لى مغامراته ومنازلاته ، وكلما بدا على وجهى أثر من قوله زاد حماسة ، حتى كان أحياناً يمسك عن العمل لكى يشير بيديه . وفطنت إلى أننى أضيع عليه بعض وقته فانتهزت فرصة سكوته لحظة وهو مشغول بقدح زنده ليورى

به ناراً ، فتسللت ذاهباً نحو الغابة ووقفت أتأمل أشجارها ، ومالت نفسى إلى أن أجول فيها جولة ثم أعود بعد أن يكون صاحبي قد هيأ طعامه .

وسرت فى الغابة وكان للهواء فيها عطر خفيف من رائحة الأوراق والأزهار ، وكانت ألوان الشجر مختلفة وأشكاله متباينة ، فمنه ما كان غزير الورق ومنه ما كان عاريا ، ومنه ما كان ضخم الجذع وما كان دقيقاً يتسلق متوكئاً على غيره . وجعلت أتنقل فى الغابة من بقعة ضاحية يغمرها نور القمر إلى أخرى ظليلة تتراقص فوقها الظلال ، وكان الليل الساجى يفعل فى نفسى فعل السحر ، فلم أشعر بمرور الزمن ولا بطول السير ، ولم أتلفت إلى ورائى لأنظر أين صرت من صاحبي ، حتى رأيتنى بعد حين أمام صخرة وعرة لم أنظرها إلا عندما صرت على خطوات قليلة منها ، كأنها خرجت فجأة من جوف الأرض لتعترض سبيلى . فاتجهت نحوها فوجدتها صخرة مهشمة مدببة الجوانب كأن سطحها كله من أنياب وأظفار . وهى تنطوى على كهف مظلم يبعث الرهبة فى النفس ، تخرج من ثناياه قناة فيها ماء صاف كأنه بلور مذاب ، ينساب جاريا وهو يغنى بخرير يلذ للاسماع ، خافت يشبه التهانف

بالضحك فى مزاح العذارى . وكان يهبط إلى حوض من الصخر مهشم مصقول يلمع النور فوقه فإذا هو يبدو أخضر مثل قطعة من الزبرجد من أثر ما عليه من الطحلب الدقيق . فوقفت لحظات أتأمل المنظر البديع ، وكانت عينى لم تقع من قبل على مثله ، فشملتني نشوة واهتزت نفسى طرباً ، ونسيت كل ما كان من هجرتى ووحدتى ، حتى لقد نسيت جوعى ووجدتنى أدندن بالغنـاء . وتواردت علىّ الألحان المشجية ، فجلست على جانب الصخرة وغبت فى غمرة أشجانى ، وجعلت أقلب عينى وأتمتع بالمنظر ، وملأت صدرى من الهواء العطر ، ووجدت كل حواسى نصيباً من اللذة من خرير الماء منساباً فى جداوله ، إلى ريح الزهر المشتعل فى خمائله ، إلى لون الورد الناعس فى غلائله .

جلست هناك وقتاً لا أدرى أقصيراً كان أم طويلا ، ثم شعرت فجأة بشيء من الرهبة يمسنى من السكون العميق الذى حولى ، فما كدت أتنبه له حتى خيل إلىّ أننى فى عالم صاخب مضطرب . سمعت خفق الأوراق على الأعواد ، ووسوسة النسيم بين الغصون ، وخشخشة الحشر بين الحشائش ، فاضطرب خيالى وقفّ شعر رأسى ، ولم أطق البقاء فى مكانى . وهممت بالرجوع إلى موضع

صاحبي فنظرت حولى لأرى الطريق التى جئت منها فلم أجد أمامى إلا غابة شجراء ، وضوء القمر يسطع من فوقها و يتخللها . فخيل إلىّ أن المكان قد امتلأ أرواحاً من الجان تتلاعب وتتواثب من حولى ، وأسرعت فى سيرى وأنا أتلفت ورائى ولا أتبين لى طريقاً . وفيما أنا كذلك لاح لي عن بعد شيء يتحرك، يشبه أن يكون قطًّا أو فهداً أو ظبياً أو أرنباً أو ذئباً أو غيرَ ذلك مما يسير على أرض الغابات يلتمس قوتاً . فشعرت بوجهى يتقد ، ورفعت يدى لألمس جبينى فوجدته بارداً تبلله قطرات من العرق . وحاولت أن أشجع نفسى بأن أسمع صوتى ، فحاولت أن أغنى ، ولكن الألحان شردت عن ذهنى ، وجعلت ألوم نفسى على هذا الفزع الذى لا مبرر له وأجاهدها بكل ما استطعت أن أتذكره من الحكم . ولكن ذلك كله لم يُجدنى شيئاً . فعدلت عن الجهة التى رأيت فيها الشيء المتحرك وسرت فى الناحية الأخرى. ولم يكن ذلك التحول بالأمر الخطير ، لأننى كنت أسير على غير هدى، ولا فرق عند من يخبط فى السير بين جهة وأخرى . ولكنى ما كدت أسير خطوات يسيرة حتى سمعت صوتاً لا شك فى أنه كان صوت حيوان مسكين يعانى الآلام المبرحة بين أنياب عدو

مفترس أو مخالبه أو أظافره . فوقفت حيث كنت وجعلت أستمع، وأمسكت أنفاسى فسمعت الصرخات تتوالى فى فزع ثم سمعتها تضعف قليلا قليلا ثم انقطعت فجأة . لقد استسلم الحيوان المسكين بعد أن ضعف واسترخى وخضع لما لا حيلة له فيه، وانتظر المصير المحتوم فى جوف الوحش المفترس، كما ذهب ألوف وألوف من أسلافه على مر الدهر الطويل .

ولم يكن من العجيب أن يسطو حيوان على آخر فى الغابة ، فإن هذا هو قانونها الأزلى ، ولم يكن من العجيب أن أجد مثلا جديداً من احتيال الكائنات على اقتناص الرزق فإن قانون الغابة كان دائماً هكذا : من عز بز ، ومن غلب افترس ، ومن استطاع صيداً اصطاد ، ومن قدر على الروغان راغ . ولكنى مع هذا اهتززت هزة عنيفة عند سماع ذلك الصوت . فلما عاد السكون العميق إلى الغابة خيل إلىّ أن ذلك الصمت أكثر ضجة من أعنف الهيعات فى معامع الحرب ، وصرت كلما خطوت خطوة تمثلت حولى نضالا متصلا فيه فتك وفيه فناء وفيه مطاردة وهروب . وكلما مررت بكومة من الأوراق الجافة وسمعت بينها خشخشة تمثلت لى صورة معركة دامية بين قوى وضعيف أو

بين سريع و بطىء . ولج بى التصور حتى ضاقت نفسى بالسكون الشامل الذى لا ينطوى على سلام بل يستر تحته حرباً متصلة قاسية .

وتمنيت لو تمزق هذا الصمت عن زمجرة الأسود وضحكات الضباع وفحيح الأفاعى ، فقد كان ذلك أرفق بنفسى لأنه لا يخدعها بمظهر كاذب من سلام مموه خداع . و بدت لى الحياة الإنسانية عند ذلك جنة نعيم إذا قيست بالحياة فى هذه الغابة الساكنة، لأن الإنسان قد أقام قوانين تحمى الضعفاء من الأقوياء وتبيح للبطىء أن يسعى على بطئه ، وللصغير أن يبقى على هوان أمره . وأسرعت فى سيرى وأذهلنى الاضطراب عن التفكير فى مكانى أو فى المآل الذى ينتهى إليه سيرى ، وجعلت أخبط بين الشجر خبط عشواء لا أبالى أين تحملنى قدماى . ولم أتنبه إلا فجأة وقد لاحت لى بين الأشجار عن بعد أنوار لهيب تسطع فوق الجذوع والأغصان ، فعادت إلى صورة صاحبى الفارس ، فاتجهت إليه وكان السير قد أجهدنى واضطراب الفكر قد نال منى، فأحسست بتعب شديد يشيع فى أعضائى ، وتمنيت لو اتخذت من بعض أكوام الورق الجاف فراشا ؛ ولكنى تحاملت على نفسى حتى بلغت مكان

الفارس فوقفت لحظة أنظر إليه وهو منصرف إلى إعداد طعامه ينحنى على النار ليضع فيها أعوادا تزيدها ضراما ، ويميل عليها ينفخ فيها ورأسه الأصلع يلمع فى ضوئها والشرر يتطاير من حوله . فلما أحس بمقدمى رفع رأسه وهو يبسم سروراً حتى بدت أسنانه السوداء من تحت شاربيه المتهدلين . فارتميت إلى جانبه خائر القوى وخرجت منى آهة نفست بها عن صدرى . فقال لى بعد أن نفخ فى النار نفخة : « لقد سرت طويلا » . فقلت له فى صوت ضعيف : « أما نضج طعامك » ؟

فقال فى مرح : نعم كاد ينتهى . حساء وأرز بقطعة من زند البقر.

فقلت له : هنيئاً مريئاً .

فقال وهو يبلع ريقه : وسنبوذج ولوز ينج .

فقلت ضاحكا : إنها وليمة .

فضحك وقال وهو يشير إلى زق من جلد المعز : وكأس من النبيذ المعتق .

فقلت مبادراً : أما هذا فلا شأن لى به .

وما كدت أنطق بهذه الكلمة حتى خجلت خجلا شديداً لأن لفظى خاننى . كنت حقاً شديد الجوع ، ولكن ما كان ينبغى

لى أن أدعو نفسى إلى طعامه . وكأنه قد لحظ خجلى فقال لى مترفقاً : ستذوق طعامى وستحكم على مهارتى .

فسرّى عنى وقلت مبتسما : أشكرك . إنك رجل كريم . فنظر إلى مسروراً ، وهز رأسه مرتاحاً إلى مديحى ، وكشف غطاء القدر وجعل يقلب ما فيها بخنجره وهو يمص شفتيه ، ولا أكتم أن رائحتها كانت تنفذ إلى أعماق صدرى طيبة شهية . وأخرج قطعة لحم فجسها بظفره ثم أعادها إلى القدر ، وتحرك فى مجلسه وفرك يديه مسروراً وقال : « سيكون عشاء عظيما » . ثم قام يهيىء السفرة ، فقمت معه لأساعده وما هو إلا قليل حتى كنا نتسابق فى التقام الطعام .

ولم يقم الفارس عن طعامه حتى شرب أكثر زقه وتركه على الأرض مفشوشاً ، وكنت قد أمتعت نفسى بالطيبات وأثنيت على طعمها ورائحتها ، وكان القمر لا يزال فى كبد السماء ، فقمت لأصلى ما فاتنى من الأوقات . وجلسنا بعد ذلك نتسامر ، حتى طالت ظلال الأشجار واشتد برد الليل فتلففت فى ثيابى واضطجعت فوق كومة من الحشيش الجاف وتغطيت بشىء منه ، وعمد صاحبى إلى كومة أخرى ففعل كما فعلت .

٢

قمت فى الصباح فتوضأت وصليت . وكانت الصلاة إلى جانب الغابة قرة عين . فهناك كنت أتمثل قدرة الله فى خلق هذا الكون البديع ، وكنت أصلى بقلبى وعقلى ولسانى . ثم أخذ الفارس يستعد للسير بعد أن أصاب شيئاً من الزاد وأشركنى فيه ونحن على عجل ، وأقبل على فرسه يمسحه ويخدمه وأنا أنظر إليه متعجباً وأسائل نفسى عما جمعنى به . فسرحت أفكارى فيما رأيته الليلة السابقة من نضال بين الأحياء ، حتى كدت أعتقد أن الحياة الإنسانية ليست إلا جزءاً من حياة الغابة . وكدت أنكر ما توهمته من فضل امتاز به الإنسان على سائر الحيوان إذ أقام لنفسه نظاما وسن من القوانين ما يحمى الضعيف من القوى ويكفل الحياة للصغير والبطىء . كدت أنكر كل هذا ، بل لقد خطر لى أن الحيوان فى الغابة أسلم وآمن فيما بينه وبين نفسه ، لأن النضال إنما يكون بين صنوف مختلفة منه ، فالأسود لا يفترس بعضها بعضاً ولا يتخذ بعضها البعض خدما ولا تفرق بين أنفسها بحدود ، ولا تجعل فى جنسها أمما يحتقر

بعضها بعضاً أو تتقاتل وتتفانى فيما بينها . وهى لا تتناكر ولا تتشاحن لأن الله لم يصبها بذلك المصاب الوبيل : تحريك اللسان بنطق اللغات . وليس فيها من يميز نفسه على سواه بعلامة مصطلح عليها ، فلونها واحد وأنيابها متشابهة وذيولها سواء فى طولها ، ولم يمتحنها الله بمحنة الملابس التى يتخذها الإنسان وسيلة للتفريق والتمييز بين بعض وبعض ؛ فكل فرد فى الغابة مساو لكل فرد آخر من جنسه . جعلت أفكر فى هذا حتى بلغ بى الأمر أن تمردت على الإنسانية ، وجعلت أشتد فى تعنيفها وأتهمتها بأنها تدارى سيئاتها تحت ستار خداع من الألفاظ التى طالما استعانت بها فى إخفاء الحقائق عن نفسها .

لقد بدا لى عند ذلك أننى أسير وراء الفارس كما يسير فرسه من تحته ، لا أملك أن أتحول عنه كما لا يملك الفرس أن يتحول عنه ، وأنه إنما يخدعنى إذ يترفق بى أو يبسم فى وجهى ؛ فان جوهر الأمر كله أنه أخضع إرادتى لإرادته وليس بعد هذا مرتبة أبلغ فى القسر والعدوان .

وساقتنى هذه الأفكار بدفعها حتى تصورت الإنسان أحمق الكائنات وأبشعها وأقساها . تمثلته عند ذلك عبداً للألفاظ

التى كان يحلو له منذ الأبد أن يخدع نفسه بها . كان فى العصور السالفة ينحت قطعة من الحجر ويسميها بلفظ جميل فإذا هى عنده إله مقدس يعبده ويتقرب إليه ، ويقوم عليه السدنة والكهنة يتجرون باسمه الجميل . ثم ها هو ذا اليوم يجعل من الجرائم فضائل ويسميها أسماء جميلة — يسميها « الحرب » و « المجد » و « العظمة » وما هى إلا جرائم قتل ونهب وتدمير . هذا « تيمور » وما أحراه أن يكون فى أعين الناس أشد المجرمين خطراً ، وما أجدر الناس بأن يقيدوه فى السلاسل ويجعلوه فى مأمن لا يستطيع الهروب منه . ولكنه أفلح فى أن يسمى جرائمه أسماء جميلة فاستطاع أن يفوز بالسلطان الأعظم فى الأرض .

ومر الوقت سريعاً وأنا أنظر إلى صاحبى وأناجى هذه الخواطر المضطربة ، ثم رأيته قام وركب وأشار إلىّ أن أسير وراءه فقمت خاشعاً ومضى فى سبيله يهز رجليه ويغنى على عادته . ولو واتتنى خفة النفس لغنيت مثله ، ولكن أفكارى أبعدت عنى الألحان جميعاً . فسرت مطرقاً حتى سمعته بعد حين ينادينى. فرفعت رأسى فرأيته يومىء إلىّ أن أقترب منه . ثم سألنى هل أحب الركوب وراءه ؟ فدار رأسى ولم أدر بم أجيب، لأن الأفكار اختلطت علىّ،

فصرت لا أدرى أيها الصحيح . فهل الإنسانية رابطة أقوى بين الناس أم القانون الطليق الذى شهدته فى الغابة ؟ ومهما يكن من أمرى فاننى ترددت وارتبكت ولم أجب . فظن الرجل أننى أتردد لأنى لا أعرف الركوب ، فتحرك وجعل يبين لى الطريقة المثلى لمن أراد أن يعلو ظهر الخيل ، وعلمنى كيف أضع رجلى اليسرى فى الركاب وكيف أتحامل عليه وأثب على ظهر الفرس ، ثم مد يده لكى يساعدنى حتى علوته من ورائه . وخشيت أن يرانا أحد على هذه الحال فيسخر منا فتلفت حولى فلم أجد أحداً . فسكنت وراءه وأمسكت بردائه ، ووجدت بعد قليل راحة فى الركوب بعد السير الذى هدّ قواى فى اليوم السابق .

واتصل الحديث بيننا ، وكنت أجد بعض المشقة فى فهم أقواله ، فقد كانت لكنته الأعجمية تخفى معنى ألفاظه ، ويزيدها فساداً أنه كان أهتم لا يحسن النطق بالحروف ، ولكننى مع هذا كنت أفهم مجمل قوله تخميناً . ولم تكن الحاجة تدعو إلى فهم كل كلامه إذ كان معناه لا يخسر كثيراً بما يضيع من لفظه . وكان إذا أراد مخاطبتى لفت رأسه نحوى فأرى صفحة وجهه كأنها صورة رسمها طفل فى ورقة يعبث فيها ، وإذا أردت

أنا مخاطبته أخرجت رأسى من ورائه حتى يرانى . ولست أدرى كيف كان يرى صفحة وجهى ، ولكنه كان بين حين وآخر يضحك إذا وقعت عينه على عينى حتى يبدى أسنانه السوداء المنثورة فى فمه . فكنت أرد عليه بضحكة مثلها تخرج من ثنايا قلبى . وكان أكثر ما قاله لى لا يزيد على وصف مغامراته فى الحروب مع تيمور . ويمكن الإنسان فى سهولة أن يلخص ذلك كله فى بضع كلمات : أنه شارك فى سفك دماء الكثيرين من بنى آدم .

وكنت أحياناً أضيق بحديثه ، وأهم بأن أقذف نفسى من ورائه لولا أن الجواد كان يسير . فكنت أحاول أن أصرف حديثه إلى معنى لا يثير فى خيالى مناظر الدماء ، واستطعت بعد لأى أن أستدرجه إلى التحدث عن نفسه ، وعن أولاده فوجدت ذلك الحديث أكثر إيناساً لأنه دلنى على أن الرجل كان آخر الأمر إنساناً يعرف معنى المحبة .

وأخيراً دخلنا ريف جانبولاد ، وكان منظره بهيجاً . كان الهواء يهب على البساط الأخضر فيتموج سطحه كما يتموج البحر أمام هبات النسيم . وكان الزهر يتخلل الخضرة بين أحمر

وأبيض وأصفر، ومن فوقه ترفرف الفراشات متنقلة متقلبة تتواثب كأنها تلاعب الزهرات فوق أعوادها وتضحك منها إذ هى لا تستطيع أن تثب وراءها . فملأنى المنظر مرحاً واهتزت نفسى بعواطف نقلتنى إلى عالم من الأحلام ، فنسيت الفارس وحديثه وانطويت على نفسى أتأمل ما طبع فيها من الصور البديعة ، فما صحوت من تأملى إلا على وكزة فى صدرى ، فاذا بصاحبى يدفعنى بمفصل مرفقه دفعاً مؤلماً . فقلت له وأنا أكظم غيظى : « ماذا تريد منى ؟ » .

فقال لى فى حنق : « ألا تسمع ؟ أقول لك انزل . انزل وأحضر اثنتين من هذه »

فلم أفهم وقلت له مستفهماً : اثنتين من أى شىء ؟

فأدار وجهه نحوى وقال وقد احمرت عيناه : نعم . اثنتين من هذه .. وأشار برأسه إلى حقل مزروع بالكرنب . ما كان أعجب صاحبى هذا فى تقلب نزواته !

وكان الحقل يانع الخضرة يغطيه كرنب كبير تفتحت أوراقه الخضراء عن قلب أبيض صاف . فقلت متردداً : « بكم ؟ »

فوكزنى مرة أخرى وقال : انزل . هات اثنتين . ألا تفهم ؟

فلم أجد مهرباً من وكزه إلا بأن أتحرك وأهم بالنزول وكان لا يزال واضعاً قدميه فى الركاب يهزها والجواد سائر به قُدُما . فصحت به : « قف الفرس . »

فشد اللجام ورفع قدمه اليسرى من الركاب قائلاً « هلم » ثم ساعدنى على النزول . ولست أدرى ماذا فعلت ، فقد وقعت عن ظهر الجواد وتشبثت بالفارس حتى كدت أوقعه معى، لولا أنه دفعنى فوقعت على الأرض وحدى، وقمت أنفض التراب عن ثيابى . ثم اعتدلت وفى وجهى شىء من التحدى ، فقد كنت لا أحب أن آخذ كرنب الناس بغير ثمن . فصاح بى غاضباً « أسرع ثم الحق بى » وهمز الجواد وسار فى طريقه. فلم أجد بدًّا من الطاعة، وتلفت حولى فلم أجد أحداً ، فملت إلى طرف الحقل ونزعت منه كرنبة قريبة ، وما كدت أفعل حتى سمعت صوتاً يصيح بى : « ماذا تأخذ ؟ »

ثم خرج رجل من عريش فى أقصى الحقل وجاء يجرى نحوى . فنظرت نحو الفارس فوجدته لا يزال يهز رجليه فوق الفرس ، فوضعت الكرنبة على الأرض وأسرعت لألحق به . ولكن صاحب الحقل لم يدعنى، وجرى ورائى وهو يصيح ويهدد ويشتم،

حتى أدركني وأخذ بتلابيبي . وسمع الفارس الصوت فالتفت ووقف الفرس ، ثم لوى عنانه وأقبل نحونا مسرعاً . وكان الرجل يدفعني في صدري ويكيل لي السباب كيلاً ، ثم رفع هراوة في يده وكاد يهوي بها على رأسي ، لولا أن الفارس همز جواده وأدركني . فلما رآه الرجل أرخى يده وأنزل هراوته وأطلقني من قبضته ، وقال في خوف وهو ينظر نحوه : « هل هذا معك ؟ » .

ثم قال للفارس في خشوع : « هل هو معك يا جندي ؟ » فأقبل عليه صاحبي وأخذ يقتص منه بما شتمني به ، ورفع يده بالسوط. فصاح الرجل : « لم أعرف أنه معك». ثم جرى نحو الحقل فرفع الكرنبة التي قطعتها وقلع معها ثلاثاً أخرى وجاء يحمل كل اثنتين في يد من يديه الغليظتين ، حتى قدمها إليّ — أربع كرنبات عظيمة منفوشة .

فقلت له حانقاً : «ومن سألك أيها الأحمق أن تأتي بكل هذه؟» فانفجر الرجل كأنه أراد أن يفرغ فيّ غيظه كله وقال صائحاً : « خذ فاحمل . خذ أيها الكسول » ثم جعل يدفع إليّ واحدة بعد أخرى وهو كلما أعطاني إحداها شتم شتمة جديدة ودفعني في يدي إذ يناولني . فلما فرغ منها انصرف عنا وهو يغمغم . وجعلت أحتال

على طريقة أستطيع بها أن أحمل حملى ، وقضيت فى ذلك حيناً أضعه فى أشكال وأوضاع وهو ينفرط ويتساقط ، حتى استطعت أخيراً أن أجمع كل كرنبتين على كتف وأمسك رأسيهما بيدى من أمام ، ونظرت إلى الفارس منتصراً . فارتاح لما رأى وقال لى « عفارم ! » ثم ابتسم وهمز جواده وسار وسرت خلفه ولم يكن ثمة أمل فى ركوبى من بعد .

لم نلبث أن أوغلنا فى ريف جانبولاد ، وكثر الناس على الطريق وفى الحقول ، وكانوا كلما مر بى أحدهم نظر إلىّ نظرة طويلة يتأملنى وأنا سائر وحملى يهتز فوق كتفى مع حركة جسمى ، ثم يرفع كم ثوبه إلى وجهه ليخفى تحته ضحكته . فكنت كلما مررت بواحد منهم نظرت إليه ، حتى إذا رأيته يرفع كمه بادرت كذلك برفع كمى إلى فمى ، فترتفع على أثر ذلك قهقهة صريحة مرحة كانت ترن فى أذنى أحلى رنين . أيها الأشقياء من بنى الإنسان ! التمسوا الضحك كلما أحسستم بالرغبة فى البكاء . التمسوا الضحك كلما شعرتم بدبيب اليأس بين ضلوعكم ، فان اليأس لا يلبث أن يذوب تحت نوره الساطع .

هذا أمر مجرب عرفته من طول ما قاسيت فى الحياة .

واقتربنا بعد حين من قرية وكانت الشمس قد علت فى كبد السماء واشتد الحر فتحرك الفارس فى سرجه ونزل إلى ظل شجرة فى جانب ساقية على مقربة من أكناف القرية واخترت لنفسى مكاناً معتزلاً وجلست أنظر إلى الحقول وإلى الناس ممن يذهبون إلى القرية أو يخرجون منها .

ثم تنبهت على صوت صاحبى ينادينى : «هو . ألا تسمع ؟. » وكان إلى ذلك الوقت لم يسألنى عن اسمى ، فعذرته فى جفاء ندائه لى ، ونظرت إليه مستفهما . فأشار إلى بيده أن أذهب إليه . ثم قال : « ألم تجع بعد ؟ » وكنت بغير شك جائعاً . فهززت رأسى أن نعم ، وحسبت أنه كان يخفى طعاماً فى موضع لم أره فقال لى: إذاً ماذا نفعل ؟ .ففاجأنى سؤاله ولم أحر جوابا . أيسألنى أنا عما نفعل ؟ وهل سرت وراءه من ماهوش لأدبر له طعامه ؟ ونظرت إليه والعجب مرتسم على وجهى . فأعاد قوله : « ألا تسمع ؟ ماذا نفعل ؟.. » فقلت له : «.إذا لم نجد أكلا فلا يمكن الأكل » . فلم يعجبه ردى وقبض وجهه وأطرق قليلا ثم رفع رأسه باسماً وغمز بعينه مشيراً نحو القرية . فثارت فى نفسى شكوك كثيرة ، وهززت رأسى مستفهماً . فضحك وقال : « اذهب

إلى هناك . فالتمس لنا طعاما » . وكأن حجراً قد أصاب رأسى عند ذلك فتراجعت أترنح وصحت « ماذا ؟ » فأعاد علىّ قوله وإيماءته وبسمته فزادت حيرتى . إن أهل القرية كثيرون يبلغون المئات أو الألوف ، وقد عجزت عن صاحب حقل الكرنب وحده فما بالى بهؤلاء جميعاً ؟ واستقر رأيى على الإباء . ولم يكن الجوع شاقاً علىّ فقد تعودت صوم رمضان فلن أعجز عن صيام يوم واحد . ولكن الفارس صاح بى : « ماذا يؤخرك عن السير ؟ » فتجرأت وقلت : « إننى لا أملك نقوداً » . فنظر إلى نظرة فيها ازدراء ، ولكنه سكن لحظة يفكر ، ثم لمعت عيناه وقال متحمساً : « عفارم ! خذ هذه فبعها واشتر بثمنها » ، وأشار إلى الكرنب . فسمرت فى موضعى ولم أتحرك ، إذ كانت هذه أخت الأخرى ، ولا خيار بين البيض الفاسد . فلما رأى الرجل أننى لا أتحرك قام وهزنى من كتفى هزة عنيفة وصاح بى : « هو . لا تضيع الوقت » . فلم أجد بدًّا من الطاعة ، وحملت الكرنب وسرت به نحو القرية . فلما دخلتها وجدت جدراناً من الطين قد رصت رصًّا ليس فيها سوى فتحات صغيرة أذكرتنى ببيوت الدجاج . ورأيت الدواب تخرج منها فحسبتها حظائر الماشية ، جعلت فى طرف من القرية ،

ولكنى كلما سرت لم أر إلا جدراناً متشابهة ورأيت الناس يدخلون ويخرجون منها بثيابهم المتربة وعيونهم الرمصاء . مساكين هؤلاء! هل يكون بينهم من يشترى الكرنب ؟ وسرت حتى بلغت آخر القرية فوجدت براحا من الأرض فيه أطفال يلعبون بكرة يتقاذفون بها ، وكنت أحب الأطفال منذ خلقنى الله ، ولا أرى منهم أحداً حتى أذكر ولدىَّ عجيباً وجميلة . ما كان أشوقنى إليهما وما كان أشد حنينى إلى رؤيتهما ! لقد تركتهما منذ يومين طويلين كأنهما دهر من الدهر . وكنت لا أدرى كيف أمسيا ولا كيف أصبحا ولا أعلم هل أصابا عشاء أم فاتهما العشاء والإفطار . الله لهما من حبيبين فهو أشفق عليهما منى وأبر بهما . وتقدمت نحو الأطفال وأنا أمسح دمعتى ووقفت أنظر إليهم وشفتاى تختلجان وقلبى يخفق .

كم كان فى هؤلاء من أمثال ولدى ؟ وهل كان فيهم من تركه أبوه وهاجر من القرية كما هاجرت ؟ مساكين هؤلاء الأبرياء كانوا يلعبون فى أسمالهم البالية ويفركون أعينهم الرمصاء بأيديهم الملوثة . وتأملت وجوههم الشاحبة . لقد كانت جميلة لو امتلأت لحماً ودما . ونظرت إلى أقدامهم السوداء . لم تكن سوداء وإنما هو الطين الكثيف الذى كان يغطيها بلونه الكالح القاتم .

مسا كين هم ما كان أظرفهم فى تواثبهم وتضاحكهم وتعابثهم . وتحركت نفسى إليهم فلم أملك أن اندفعت نحوهم لكى أشاطرهم ما هم فيه ، وأعلمهم كيف يسددون الرمية، فقد كنت فى صباى عميداً للصبيان فى لعبهم . وما كدت أقترب منهم حتى سددت إلىّ الكرة من يد أحدهم ، فوقعت فى صدرى وصدمتنى صدمة كدت أصرخ من ألمها . لم تكن كرة علم الله بل قطعة من الطين اليابس القاسى . فوقفت ووضعت الكرنب على الأرض لأمسح ما علق بثيابى من الوسخ ، وما كاد الشياطين يبصروننى أفعل هذا حتى علا ضحكهم وأقبلوا على يصفقون و يستعدون لكى يتخذونى هدفا لقذائفهم . فخشيت على نفسى وحملت الكرنب مسرعاً وسرت من حيث جئت وأنا أسمع تناديهم وتضاحكهم وتحريض بعضهم بعضاً على أن يسرعوا لتسديد قذيفة جديدة ليدركوا منى متعة أخيرة قبل منصرفى . وكان قلبى مع ذلك لا يزال يخفق حنيناً إليهم عندما بلغت أقصى الميدان و بعدت عن مدى رمايتهم .

عدت بعد ذلك إلى نفسى وذكرت الكرنب والفارس ، وجعلت أفكر فى طريقة أحمل بها من يستطيع الشراء من أهل

القرية على شراء سلعتى ، فتذكرت الباعة فى وطنى ماهوش وهم ينادون على سلعهم بالأسجاع والنغمات المطربة ، ويصفونها وصفاً شعرياً يحببها إلى الشارين ، فجعلت أنادى على الكرنب وأتغنى به وأستعير له كثيراً من صفات الزهر والعطور والحرير . ولست أدرى ما الذى حمل أهل القرية على أن يجتمعوا حولى ويضحكوا كلما سمعوا ندائى ، كأننى كنت أناديهم لأضاحكهم . ومضى وقت طويل وأنا أسير والناس يسيرون من ورائى نساء وصبية وشباناً ولم يتقدم أحدهم للشراء ، حتى يئست وعزمت على الرجوع خائباً . ولكنى فكرت فى ثورة صاحبى إذا عدت إليه بغير طعام ، فنظرت إلى الجمع الذى كان حولى وسكت عن الغناء ، وقلت لهم بكلام ساذج : « ألا يريد أحد فى هذه القرية أن يشترى كرنبة منى ؟ » فضحكوا جميعاً واقتربت منى عجوز فقالت ضاحكة : « فعل الله لك . هل تريد بيعاً ؟ لقد كنا نحسب أنك تغنى إعجاباً بخضرك » فأجبتها منكسراً : « أسأل الله لك الستر يا أماه ! لم يكن بى إعجاب بها بل لقد ضقت بها وثقلت على كاهلى . وإنما غنيت ليشترى الناس منى على عادة قومى فى ماهوش » . فضحكت وضحك سائر من حولى وتصايحوا فيما

بينهم : « غريب غريب ! » وتواثبوا إلىّ من كل ناحية يقلبون ملابسى ويجسونها ويمسحون أيديهم عليها ، وجعلوا يمطروننى بالأسئلة عن وطنى ومتى جئت وإلى أين أذهب . ولم أستطع أن أجيب على شىء من ذلك كله بل شعرت بضيق شديد وصحت بهم فى شىء من الضجر : « هذه كرنبات فاشتروها منى بدريهمات أشترى بها طعاماً » . وكأنهم سمعوا منى مزاحاً فصاحوا ضاحكين وقالت إحدى البنات : « غن لنا مرة أخرى يا عم ! » فغضبت ونظرت إليها فى ألم وكدت أصيح صيحة أخرى مؤنباً ، ولكنى سمعت من ورائى صوتاً ينادى : « عفارم ! » فعرفت الصوت ونظرت إلى ورائى فى فزع وأردت أن أشكو إلى الفارس ما لقيت ، ولكنى رأيت وجهه يتحرك بالغضب ، ورأيت شاربه يهتز كشارب القط إذا كشر ، ولم أدر إلا وقد اقترب منى وأخذ الكرنب فألقاه على الأرض فى عنف ، فتحطم وتطايرت أجزاؤه وتناثرت أوراقه الرطبة البيضاء ، ثم صاح فى وحشية : « ما هذا ؟ »

وما كاد الجمع يراه حتى انفض من حولى تجرى النساء والصبية وهم يصرخون ، وانصرف الرجال والشبان يتلفتون إلى

وراء . فقلت له وقد غضبت : « ماذا ؟ » فصاح بي صيحة لم أفهم معناها ثم مضى إلى أقرب منزل فطرقه وخرجت إليه امرأة فأمرها أن تحضر له طعاماً ، فأسرعت داخلة إلى الدار ولم تبطىء حتى جاءت إليه بما عندها من خبز وجبن و بيض . وما كان أشد عجبي عند ما رأيت المنازل المجاورة كلها قد فتحت، وأقبل الناس منها يسعون زرافات ووحداناً ، وكل منهم يحمل شيئاً في يديه أو في صفحة أو قرطاس، وأخذت أجمع ما يأتون به حتى لم أدر كيف أحمله ، وسار الفارس في كبرياء إلى خارج القرية عائداً إلى ظل الشجرة وسرت وراءه أحمل ما استطعت حمله في يدي، وسار الناس من ورائنا في موكب يحملون ما جاءوا به حتى بلغنا مجلسنا ، فألقوا ما معهم وهم يتأدبون و يظهرون المودة ، ثم ساروا سراعاً كأنهم يلتمسون النجاة . ووالله لو كنت وحدي لقضيت النهار كله في سير ولعدت آخر النهار بمعدة خاوية .

أكلنا هنيئاً ثم جلسنا نتسامر وقد عادت أخلاق صاحبي إلى الموادعة ولم أتمالك أن سألته: «أيعرفك أهل هذه القرية ؟ إنهم قد أكرموك حقاً . » فقال وهو يضحك : « إنهم لا يعرفون إلا هذه الريشة » . ثم طأطأ رأسه وهز ريشته الزرقاء . وقال وهو

يبتسم ابتسامة هادئة : « إذا أردت أن تعيش فاعرف كيف تعيش . خذ ما تستطيع قسراً . إعرف كيف تأمر ثم تملأ جيبك. املأ جيبك ما استطعت ثم سر رافعاً رأسك . خذ ضريبتك أنى وجدت إليها سبيلا »

نعم هكذا الدنيا ، وقد كانت هدايا المساكين منذ القدم ضريبة .

و بعد أن قضينا فى الراحة ساعة قمنا إلى السير ، وأبيت أن أركب عند ما سألنى الفارس أن أفعل ، بل شكرته وسرت على قدمى أتأمل ما قاله لى ، وقلبت نظرى فى الريف وما فيه من جمال الطبيعة ، وتمنيت لو كان أهل القرية بعض حيوان الحقل . فقد كانت قطعان الماشية ترعى فى المرج الأخضر سمينة بيضاء ناصعة أو صفراء فاقعة ، تسر النظر بما عليها من كسوة نظيفة حباها بها الله جل وعلا . إذاً لكان الناس أسعد حالا وأجمل منظراً .

ومر وقت طويل وأنا سائر أفكر فيما يقع عليه بصرى ، حتى سمعت صوت صاحبي يناديني ، فنظرت إليه فرأيته يشير بأصبعه إلى الأفق . وكان النهار قد انقضى إلا أقله وأقبل الليل وأخذ النور يتضاءل ولاحت على الأفق مدينة كأنها صورة رسمها

صانع ماهر فوق طومار كاغد . وبعد قليل لمعت الأنوار تبص خافتة من بعيد منثورة على الأفق فى غير نظام . وخفق قلبى عند ما سمعت الفارس يصيح وهو يشير إلى المدينة « جانبولاد » .

٣

لم تدع لى الأيام الأولى من مقامى فى جانبولاد فراغاً للتفكير ولا للترفيه عن نفسى ، فقد كنت فى شغل شاغل من أمر حياتى الجديدة وما ينبغى لى فيها من وسائل العيش . فاتخذت لى مسكناً فى جوار صاحبى الفارس — غرفة وفناء واسعاً تسطع فيه الشمس من شروقها إلى غروبها . وأعددت فيه القليل من الأثاث ، ولم أنس أن أبعث مع بعض التجار خبراً يطمئن أهلى فى ماهوش وأرسلت إليهم شيئاً من الرزق الذى أصبته .

ولما استشعرت الاطمئنان إلى حياتى الجديدة ، أخذت أدير عينى فيما حولى وأتحسس أحوال البلد الذى حللت فيه .

وجانبولاد مدينة عظيمة تجتمع فيها خيرات ريف خصب . وكانت من قبل تراثاً لعلاء الدين سلطان ماهوش ، ثم نزعها منه تيمور فيما نزعه من أرض السلاطين .

مسكين علاء الدين ! إننى لا أذكره إلا ذكرت الدين والمكرمات جميعاً . ولكن أبر السلاطين ليس فى هذه العصور أقواهم وأعظمهم ، لأن تيمور لم يدع عظمة لغير سفاح الدماء .

وعلية ابنة علاء الدين ! إن قلبى لم يخل يوماً من صورتها ، وما زالت تؤنس أحلامى فى حلى وترحالى . نظرتها فى ماهوش نظرة عابرة فامتلأ بها قلبى وجعلتها فى الحياة رمزاً لآمالى . وما يشق علىّ فراق ماهوش لشىء بعد ولدى إلا من أجلها .

أيها القلب اتئد فما من حيلة لك إلا أن تقنع بأطياف الأحلام ، فما علية لك ؟ ما هى إلا صورة ، فلتقنع بها ولتجعلها نجية وحى العلا .

قضيت الأيام فى هذه المدينة أتعلم كل يوم معنى جديداً . ومن غريب أمر الإنسان أنه يرى فى البلد الأجنبى ما لا يراه في البلد الذى ولد وعاش فيه . فكل ما يحيط بالإنسان فى بلده مألوف معروف ، مع أنه قد يكون للأجنبي عجباً من العجب .

ولست أقصد هنا أن أصف أهل جانبولاد لأبدى فيهم رأياً ، فمن ذا الذى نصب بعض الناس ليحكموا على البعض ؟ لا بل إنى أحس فى نفسى أشد الحاجة إلى عطف الآخرين علىّ وتغاضيهم

عن عيوبى ، فلست بمن يتلمس العيوب أو يعد السقطات . علمتنى الحياة أن آخذ الناس كما أراهم ، فهكذا خلقهم الله وهكذا أراد لهم أن يعيشوا . إنهم من طين الأرض لا يستطيعون أن يكونوا من ملائك السماء ، وما أحرانا إذا رأينا العيوب أن يزيد عطفنا على أصحابها ورثاؤنا لهم ، لأننا من البشر نحس ثقل الطين فى طبعنا ، وأكرم ما يستطيعه إنسان أن يملأ قلبه بالعطف على المخطىء والآثم ، لأن هؤلاء أحوج إخوانه فى البشرية إلى عطفه .

ومع هذا كله فالحسن والقبح أمران يتوقفان على تقدير كل فرد ، وقد يكون الشىء حسناً فى عين إنسان فإذا به نهاية القبح فى عين إنسان آخر .

ولقد كدت أعدل عن أنى أقص حرفاً واحداً فى وصف جانبولاد ، لولا أننى أردت أن أتحدث ببعض ذكريات حياتى فيها وأتأمل مناظر الماضى ، كما يتأمل مناظر السهل من صعّد فى الجبل إلى قمته . فإذا لم يجد فى تأمله درساً يستفيده لم يخل من متعة الذكرى .

كان صاحبى الفارس أول من عاشرت من أهل المدينة ، وقد وجدت على طول الزمن أنه فى دخيلة نفسه إنسان . عرفت فيه

أموراً كثيرة دلتنى على أنه من أرق الناس نفساً ومن ألينهم شكيمة . واسمه (طوطاط) ويعرف بين العامة باسم (وطواط) فإن لأهل (جانبولاد) عادة فى تسمية حكامهم أسماء يخترعونها ، أو يحرفونها عن أسمائهم أو يفيضون عليها بعض أفاويه من فكاهتهم . وأهل جانبولاد من أحلى الناس فكاهة ، وهذا مما حببهم إلىّ ، فالفكاهة أولى علامات الإنسانية . وهم يجدون فى فكاهتهم ترفيها كثيراً مما يعانون من مشقات الحياة . وعِلْيَةُ جانبولاد لا تخشى من عامتها شيئاً هو أشد عليهم من هذه الفكاهة الحلوة اللاذعة .

كان صاحبى الفارس لا يملك فى بيته أمرا ولا نهياً ، لأن له فى بيته امرأة تسيره وهو بذلك سعيد ، لا يرد لها أمرا ، ولا يفكر معها فى شىء ، بل يترك لها قياده حتى يفرغ لما هو أجدر بعنايته شأناً . فهو إن كان فى طرق جانبولاد أسداً لم يزد فى داره على أن يكون حملا وديعاً .

وكان فى (طوطاط) إخلاص ومودة ، حتى كدت أعده صديقاً . بل لقد كان له علىّ فضل فيما بعد لن أنساه له أبد الدهر. ولكنه رجل صاحب نزوات تثور به بين حين وحين ، فإذا ثارت

فلا يدري المرء إلام تنتهى به . وقد اعترته نزوة من هذه مرة ونحن معاً فى داره وكان قد شرب بعض النبيذ وطرب ثم عربد ، فعزم علىّ أن أشرب معه . وشكرته معتذرا فألح على ، ثم بالغ حتى حلف بالطلاق لأشربن معه ، وكان ذلك على مسمع من زوجه . فوقعت فى حيرة لم أدر معها ما يجب علىّ أن أفعل . فهل أعصى الله وأقارف إثم الخمر ، أم أطيع الله وأفرق بينه و بين امرأته ؟

ولم يكن التفريق بينهما هو الذى يزعجنى ، لأن أكبر ظنى أنه كان خيراً له لو تزوج أخرى تكون ألين منها جانباً وأرفق به فى التعتعة . فان الذى حرت فيه هو التماس طريق الخلاص من بيته إذا أنا لم أنزل على حكمه وأبر له يمينه ، فإن الزوجة ما كانت تتركنى أخرج من دارها سليما . فاضطررت بعد التأمل إلى أن آخذ الكأس من يده ، وحسبت أن هذا يخرجنى من الحرج . ولكنه أبى وأصر على أن أنادمه سائر الليلة ، ولم يُجْدِنى معه اعتذار بأمر من أمور الدين أو الصحة ، فكنت كلما أبديت له عذرا قطع علىّ السبيل بيمين جديدة . وجعل يعجب منى إذ أريد أن أعيش فى جانبولاد بغير أن أتمتع بمباهج الحياة ، وحلف لى أغاظ

الأيمان أننى أكون ضُحْكة بين الناس إذا أنا لم أسايرهم فى حياتهم . فأخذت الكاس ورفعتها إلى فمى ومصصت منها مصة أظن الله يغفرها لى ، فقد قصدت بها أن أبر له يمينه . ثم قمت مسرعا فذهبت إلى الخلاء وادعيت أن برداً أصابنى ، حتى إذا ما صرت خارج القاعة قذفت بنصف ما فى الكأس ثم عدت لأنادمه . وكلما رأيته ينظر إلى رفعت الكاس نحو فمى وقمت مرة أخرى إلى الخلاء .

ولم يطل بى الخوف منه بعد قليل فقد شغله عنى طربه عندما دب الشراب فى دمه ، وكأنى به قد تمنى لو أمسكت عن مشاركته بعد ثلاث كؤوس، حتى لا أنقص ما بقى له فى الدن . ولهذا رأيته لا يصر على إعطائى كأساً رابعة عند ما أظهرت له قليلا من الامتناع .

وكان فى تلك الليلة مدهشاً . كانت أقل لفظة أفوه بها تبعثه على أن يتمرغ على الأرض من شدة الضحك . وقد صرت عنده منذ تلك الليلة من أحب الناس وأكرمهم . فصار لا يطيق البعد عنى ، وكلما رآنى مقبلا استعد للضحك ، فلا أكاد أنطق

بحرف حتى ينفجر مقهقهاً كما يعطس الإنسان إذا قربت من أنفه النشوق .

ولم يكفه هذا بل أذاع عنى بين أصحابه جميعاً أننى نديم حلو الفكاهة شهى الأحاديث، وأضاف إلى ذلك قوله إننى إذا شربت ثلاثاً كنت أبرع الناس فى المنادمة. سامحه الله ! لقد كلفتنى قالته هذه مشقة كبيرة فيما بعد .

ومن أعجب العجب أن كل من سمع منه هذا لم ينتظر حتى يحكم لنفسه ، بل اعتقد صدقه بادئ ذى بدء . فصرت بعد ذلك لا أنطق بحرف فى مكان حتى تتجاوب أصداء الضحك من كل أركانه . فلما رأيت هذا تعمدت أن أنطق بالكلام الذى لا يحتمل الفكاهة ، بل لقد تعمدت أن أنطق بالفاتر البائخ من القول ، ومع ذلك فما كنت أرى الضحك يزداد إلا علواً . هكذا الناس ، قلما تجد فيهم من ينظر بعينيه بل يسيرون على هدى آذانهم .

ومهما يكن من الأمر فقد رضت نفسى على تحمل نزوات صاحبى ، لأن حسناته تغلب السيئات ، وهذا حسبه من الإحسان. وكنت أجد متعة فى مصاحبته ، فجلنا معاً فى طرق جانبولاد ، وزرنا حدائقها ومساجدها ، وأسواقها المزدحمة وأحياءها الفقيرة

وأحياءها العامرة بالقصور المنيفة، فوجدتها مثل سائر بلاد الأرض، يسكنها الناس مجتمعين لكي يمكر كل جار بجاره . هذه حقيقة أبدية ليس فيها جديد في جانبولاد . وكنت إذا سرت في صحبة (طوطاط) أسلم من العدوان ، لأن الناس كانوا إذا رأوه فسحوا له الطريق ، حتى في أشد الأسواق زحمة ، مع أني كنت إذا سرت وحدي لا أنجو من الدفع والخبط ، وكثيراً ما أصابتني ضربات من العصي إذا مررت بقوم يتعاركون . وقد كنت ذات مرة أسير وحدي في طريق خالية فسمعت قوما يتخاصمون ويتقاتلون فاستغاث بي أحدهم ، فذهبت لكي أعين على السلام والوئام ، وشغلت بسماع حجج الخصمين ووزنها ، وتأمل مواضع الحق فيها ، فلما فرقت بين المتخاصمين بالحق ، وسرت عنهم راضياً ، تلمست ردائي فلم أجده ، فنظرت ورائي وحولي فلم أجد منه شيئاً ، كأن الأرض قد ابتلعته ، ورجعت إلى مكان المعركة فلم أجد أحداً هناك سوى شيخ يدب على عصاه . فلما رآني أبحث سألني عم أبحث . فقلت له قصة ردائي وأن قوماً كانوا يتخاصمون من أجله فأخذوه . فنظر إليّ الرجل في عطف ثم مد يده إلى وسألني «حسنة» . فأعطيته ما كان معي وهو قليل، فنظر إلى ما أعطيته

فاحصاً ، ثم انصرف عنى وهو يغمغم شاتماً . هذا يحدث لى إذا سرت وحدى ! ولكنى كنت إذا سرت فى صحبة طوطاط رأيت على وجوه الناس إجلالا وأدبا ، وقد سألته فى ذلك مرة فضحك وقال : « من أراد صلاح قوم أخافهم » .

وفى هذا حق كثير بغير شك ، فقد خلق الله فى الإنسان غرائز كثيرة ، والخوف من أعجبها أسراراً ، فهو يتشكل فى شتى المظاهر كما يتصور الجنى فى صور الإنسان والحيوان . فالخوف يتخذ حينا شكل الحب ، وقد يتخذ شكل الإجلال أو الولاء أو الأدب ، وهو يحمل كل هذه الأسماء مع أنه ليس فى الحقيقة سوى الخوف . ولكن هذا الخوف لا يطغى على الطباع إلا إذا انعدم الحب الصحيح ، والخير كله لا يكون إلا فى الحب ، ولا تكون الكرامة ولا الصلاح ولا الإنسانية إلا فى المحبة .

وقد أطلعنى صاحبى (طوطاط) على حقيقة فذة فى جانبولاد لم أشهد مثلها فى بلد من البلاد التى رأيتها . ذلك أنى رأيت بعض بيوتها تحمل فوقها أعلاماً مختلفة الأعداد ، فبعضها يحمل عشرة والبعض يحمل عشرين أو أكثر والبعض لا يخفق فوقه إلا علم أو علمان . وكانت البيوت التى لا تعلوها أعلام بيوتا ضئيلة

حقيرة المنظر . فوقع فى نفسى من ذلك شىء من العجب ، فعهدى بالأعلام أن تكون زينة يقيمها الناس إذا أرادوا احتفالا بمرور السلاطين فى المدينة ، وسألت صاحبى عن سرها فقال فى دهشة : ألم تر هذا من قبل ؟ فقلت له : لعلى رأيته ولكنى لم أتنبه إليه .

فكشف لى عن ذلك السر الخطير الذى تمتاز به جانبولاد . فقال : نحن هنا لا نتساهل فى أمر من الأمور . كل شىء هنا مقرر على نظام مرسوم . هكذا يحكم تيمور دائماً .

فانتقل بى خاطرى فجأة إلى الغابة التى رأيتها فى طريقى وتذكرت صرخة الفريسة المسكينة . وحقاً أن الحياة الإنسانية تكون على مثل تلك الحال إذا هى تركت بغير نظام .

وقلت لصاحبى فى حماسة : لا شك فى أن النظام أساس العمران . فقال وهو يرفع صدره و يميل برأسه فى كبرياء :

— هنا طائفتان تحكمان جانبولاد : الأولى نحن

ثم أشار إلى نفسه إشارة زهو .

فقلت فى هدوء : طبعاً .

فقال : ولكل أمير منا علامة تميزه . فمنا صاحب الريشة ومنا صاحب الريشتين ومنا صاحب الثلاث .

ثم توقف ليرى أثر كلامه على وجهى

فقلت وأنا أنظر إلى ريشته : نعم صاحب الثلاث .

فقال مبادرا : ستكون لى بعد قليل ريشة أخرى . لا شك أن تيمور يزيدنى ريشة إذا عاد من حربه مع بايزيد . وسيعود بعد قليل . ألم تسمع منذ أيام أنه أسره ووضعه فى قفص من حديد؟

فخرجت منى صيحة : قفص من الحديد ؟

فقال باسما : نعم . وسيأتى به إلى هنا لنراه فى قفصه ، ثم يذهب به بعد ذلك إلى سمرقند لكى يجعله فى طليعة موكبه العظيم .

ثم نفخ صدره وعبس .

فقلت بغير وعى : سيكون بايزيد فى صدر الموكب . أليس كذلك ؟

فصاح بى غاضبا : نعم إنها آية لمجد تيمور .

فلم أشأ أن أجادله فى هذا الأمر فقلت : نعم .

فقال وكأنه نسى ما كان يحدثنى فيه : سينظر الناس إلى عاقبة من يقاوم تيمور . هو الأسد الذى لا يقاوم والنسر الذى لا يسامى . وليس لأعدائه إلا القهر والفناء .

فهززت رأسى وفى حلقى غصة ولم أملك جوابا ،وضاق صدرى بأنفاسى وعادت إلىّ صورة الغابة .

فقال صاحبي مستمرا : فإذا عاد تيمور إلى هنا رأينا عدوه فى القفص وشفينا النفوس من كبريائه المحطمة .

فقلت له : إنك تكرهه . هل رأيته ؟

فرفع حاجبيه وقال : ولمَ أراه ؟

فأردت أن أبعد به عن هذا الحديث فقلت له :

— وإذا عاد تيمور وضع لك هنا ريشة أخرى ؟

وأشرت إلى قلنسوته. فتذكر ما كان فيه من الحديث وقال : نعم . ريشة أخرى هنا .

فقلت مشجعاً : ثم ثالثة ورابعة

فضحك حتى تراجع إلى الوراء ، وقال: «إنما هى ثلاث ريشات ليس بعدها إلا الأذناب» . فصحت ضاحكا : الأذناب ؟

فقال ضاحكا كذلك : نعم ذنب واحد أو اثنان أو ثلاثة . هؤلاء هم أعلى الفرسان . ليس فوقهم سوى تيمور .

فقلت بغير تفكير : إذاً فالأذناب فى القمة .

فقال موافقاً : ثلاثة أذناب ليس بعدها إلا تيمور .

فقلت : وما ذا يحمل تيمور العظيم . حدوة فرس ؟ سيف ؟ سن فيل ؟

فقال ضاحكا من جهلى : لا بل هى عمامة كبيرة .

ثم نظر إلى عمامتى وقال : أكبر من هذه .

فشعرت بشىء من الكبرياء وضحكت قائلا : ثوب آخر يجعلها كعمامة تيمور .

فضحك صاحبى كعادته إذا سمع كلماتى ، وضرب بيده على كتفى ، وكأنه نسى كل الحديث الذى كان بيننا فقال : سيكون موكبه عظيما بغير شك . وسيعطينى بعد ذلك ريشة أخرى .

فخشيت أن يعود إلى وصف سيده العظيم ، فقلت له مذكراً: هؤلاء هم أصحاب الريش والأذناب . هؤلاء هم الطائفة الأولى .

فقال وقد تذكر : نعم ، وأما الطائفة الثانية فهم أصحاب القدور.

فصحت ضاحكا : قدور فوق الرءوس ؟ مساكين !

فعاد إلى الضحك وقال : لا لا ! بل هى قدور ملأى بالذهب الأصفر الصافى . كلما جمع أحدهم قدراً ختمها ووضع على داره علماً جديداً يدل على أن قدوره الذهبية قد زادت واحدة .

فهززت رأسى وقلت كالحالم : قدور ملأى بالذهب !

وأطرقت أفكر فى هذا النظام العجيب . فما أغلى هـذه الأعلام التى لا يرفع أحدها إلا إذا كان تحته قدر من الذهب . وذهبت بى الأفكار مذاهب شتى فى تصور حال جانبولاد ، حتى هزنى صاحبى وقال لى «انظر إلى هذا المنزل» وأشار إلى بيت على يسارى . فوجهت نظرى إليه فاترا فرأيته قصراً عظيما تلمع جدرانه، وتبتسم بساتينه ، ورأيت فوقه خمسين علماً تخفق فى الهواء فى مرح وكبرياء . وقال (طوطاط) . « هذا بيت صاحب السيف . كلمة واحدة منه تكفى لأن تطيح الرأس عن الجسد فهو صاحب الأعلام الخمسين . قاضى جانبولاد » .

فاعترتنى قشعريرة من سماع هذا القول ، وجعلت أفكر فى أمرى وأمر الناس ، وموضعى فى هذا البلد الذى تكفى فيه كلمات من صاحب الأعلام الخمسين لأن تطيح الرءوس عن الأجساد . ولكنى ما لبثت أن هدأت نفسى، فإنى جئت إلى جانبولاد لاجئا، ولا ينبغى لى أن أتكلم ولا أن أناقش ، فإذا لم تعجبنى هذه الحال فباب المدينة مفتوح أستطيع أن أخرج منـه إلى حيث شئت . ولم يكن أولى بى من أن أضع لسانى بين فكى وأطبق عليه شفتى . وعند ذلك تبين لى ما يعترى الغريب من الذلة ، ولو كنت

فى ماهوش لما رضيت لنفسى إهدار الكرامة ، فانى كنت هناك أتكلم وأنتقد وأسخر أحياناً ، ولا أسمح لأحد أن يكم فمى . ولاحت لى الحياة فى ماهوش عند ذلك أحب حياة على الأرض ، واشتد حنينى إليها وأطرقت حزيناً أستعيد ذكراها .

ولاحظ صاحبى وجومى و إطراقى فقال لى :

— أراك تعبت ؟

وكنت قد تعبت حقًّا فقلت له : صدقت .

فأشار إلى مكان مزدحم فى جانب السوق وقال : هلم نسترح قليلا .

فترددت قليلا ، فما كان ينبغى لى أن أجلس على قارعة الطريق فإن هذا مذهب للمروءة .

ولكن صاحبى مضى فى وجهه حتى جلس ، وأخذ يصفق بيديه فجلست معه ونظرت حولى أدير عينى فى الجلوس ، فلم أر فيهم شيئاً يستحق التأمل . كانوا جميعاً جالسين بعضهم مسترخ فى صمت و بعضهم يتخاصم فى صخب ، فملت على (طوطاط) وقلت له :

— أليس فى المدينة من يرى فى هذا النظام رأيا ؟

فقال فى دهشة : ماذا تعنى ؟

فقلت : أعنى أن جانبولاد مدينة عظيمة ، وفيها خلق كثير لا أعلام لهم ولا ريش . فما حظ هؤلاء منها ؟

فقال فى بساطة : من تقصد ؟ هؤلاء العامة ؟

فقلت منكسراً : نعم ، مَن لا ريش لهم ولا أذناب مثلى .

فقال ضاحكا : هؤلاء قد عرفوا كيف يصمتون .

فطعنتنى كلمته طعنة شديدة . وخيل إلىّ أن عذاب الجحيم نفسه أهون علىّ من الاقامة فى بلد ليس لى فيه إلا أن أصمت . وجاء عند ذلك خادم المكان يحمل القهوة . وكنت أحبها فأقبلت عليها أرشفها ، وشغل عنى صاحبى بمساومة بعض الباعة الذين جاءوا يعرضون سلعهم يحملونها فى أيديهم أو فوق رءوسهم ، وكانت مساوماته أشبه الأشياء بالنضال ، حتى لم يخل بعضها من الدفع باليد والسباب . وكان الباعة رجالا يستطيع أحدهم إذا شاء أن يدير ساقية بزنده ، ولكنهم كانوا لا يحملون من السلع إلا يسيرا لا يزيد ثمنه على دريهمات . ففهمت عند ذلك السر الخفى . فهمت كيف يرضى العامة فى جانبولاد بأن يقيموا فيها خاضعين ، ويضعوا ألسنتهم داخل أفواههم . فليس بهم من حاجة إلى الكلام لأنهم فى شغل عن ذلك بهمّ اقتناص الرزق الضئيل . وجمع

صاحبى كومة كبيرة مما اشتراه من أصناف كثيرة مختلفة الألوان ولم يبق له إلا أن يشترى ليموناً. فتنبهت على صوته وهو يشاحن البائع ليأخذ منه ليمونة عاشرة، فلما سخا له البائع بها أعطاه دانقاً ثم التفت إلى وقال: أف لهؤلاء الباعة ما أشد لجاجتهم!

ولما رآنى مشغولاً عنه هزنى بيده وقال: أراك غارقاً فى تفكيرك. ثم أخذ يجمع السلع ويضعها فى منديل كبير ولكن المنديل لم يتسع لثلثها، فقلت له باسماً: هذا حمل كبير.

فقال وهو يغمز بعينه: عندى الليلة بعض أصحابى. وحبذا لو كنت معنا.

فتذكرت الليلة التى عربد فيها علىّ وفهمت من غمزة عينه أنه يشير إلى الكؤوس الثلاث التى ظن أننى شربتها، ولم أجد جواباً أرد به فاستمر قائلا:

— هم جميعاً من أصحابى المقربين ويسرهم وجودك بينهم. لقد سمعوا عنك وهم يحبون أن يتمتعوا بحديثك. وعلى فكرة — هم جميعاً من أصحاب الأعلام وليس أولى بك من مصاحبتهم.

ومال على هامساً: لا تبعد عن مجالسة أصحاب الأعلام إذا شئت أن تكون لك أعلام فى جانبولاد.

فأثارنى قوله وقلت : « ما هذه الأعلام التى جعلت جانبولاد لها كل هذه القيمة ؟ وما هذه القدور المختومة التى فى باطنها الذهب ؟ إنها لا تزيد على قدور مملوءة بالرمل أو بالطين ما دامت مقفلة » . فضحك طوطاط حتى كاد يستلقى على ظهره ثم قال :

— سيتغير رأيك إذا أصبحت من أصحابها .

فقلت فى عناد : وما الذى يشق علىّ فى ملء عشرات من القدور بالحصى . إن قدراً من الخزف لا تزيد على الأخرى إذا كانت مختومة .

فعاد إلى ضحكه وقال : لن تستطيع .

فقلت : وما الذى يمنعنى ؟

فقال : وهو لا يزال يجمع بضاعته : الذى يمنع من السرقة .

فقلت : ولكن السرقة جريمة .

وكان قد قام ونادى رجلاً رآه يسير أمامه ، فأمره أن يحمل له بضاعته ، فجمعها الرجل فى حجر ثوبه ، ونظر صاحبى إلىّ فى عجلة وقال : « ستكون وليمة مرحة ، وأرجو أن تؤنسنا بصحبتك » .

وكأنه نسى كل الحديث الذى كان بيننا فسار وسرت معه ،

وجعل يحدثنى عن صنوف الطعام التى يعدها لوليمته ، حتى بلغنا المنزل فاستأذن وسار إلى داره وهو يغنى ، والحمال يزحف من ورائه بحمله الثقيل .

٤

قضيت ليلتى فى أحلام متعاقبة عشت فيها مع الأحبة فى ماهوش . أى وطنى الحبيب الذى قسا على ! إنك لا تزال فى قلبى مع كل قسوتك، وكلما مرت بى الأيام عرفت ما كنت أجهل من فضلك . لقد هاجرت من وطنى لأننى لم أجد فيه مكاناً يرضينى ، ولأننى لم أجد فيه رزقاً يغنينى . ولكننى علمت بعد أن وجدت الرزق فى جانبولاد أن وطنى كان يمنحنى ماهو أثمن من كل مال وأطيب من كل رزق . كان يمنحنى الكرامة والحرية ، وهما لا يقومان بمادة هذه الحياة كلها، فواحر قلباه ! ورأيت فى حلمى كل الأحبة : رأيت ولدى عجيباً وابنتى جميلة، ورأيت صديقى أبا النور . ثم رأيت مع كل هؤلاء علية . علية ابنة علاء الدين التى ملأت قلبي حبًا ونوراً . وحدثتها و بثثتها لوعة الفراق وناجيتها بأشجانى الثائرة وعاتبتها عتاباً طويلاً . لقد فارقت جوارها فى

ماهوش ، ولم يكن لها فى هجرتى جريرة ، ولكنى مع ذلك عاتبتها فى حلمى كأنها هى التى هجرتنى وخلفتنى وحيداً . فلما قمت فى الصباح وجدت قلبى ممتلئاً بها . لقد كانت فى ماهوش تعيش فى قصرها وحوله الحراس والحجاب ، لم أستطع يوماً أن أدنو من أسواره. ولكنها مع ذلك كانت دائماً قريبة منى . قريبة لا يفرّق بينى و بينها حجاب لأنها كانت فى قلبى . كانت صورة وكانت خيالاً . وما حاجتى إلى غير صورتها وخيالها ؟ إننى لم أبال الجسم الذى يذوى ويمرض و يضعف و يزول ؛ فقد كانت روحى التى تتعلق بها وتجد السعادة فى تأمل كمالها .

وقمت فى الصباح كعادتى فذهبت إلى المعسكر وصليت بالجنود، ثم خرجت أسير فى الطرق وأنا أفكر فى مكانى من هذا الوطن الجديد . هذا البلد الذى لا كرامة فيه إلا لأصحاب الأعلام والريش والذى تحكمه القدور الملأى بالمعدن اللامع . ولم يكن بى من حقد على أحد؛ فلست أنفس على الناس أن يفوزوا بالذهب كما يشاءون ، والذهب عندى لا يزيد على سائر مادة هذا الطين . ولو كنت يوماً راقداً فى ضوء الشمس أتأمل فى خلق الكون وأنا أنظر إلى السماء الصافية وأهيم مع أحلامى فى الملكوت ، ثم رأيت خمسين

قدراً ملأى بالذهب تهوى فى الظل على بضع خطوات منى لما تحركت من مرقدى لأذهب اليها . وقد كنت منذ عقلت لا أطمع من هذه الدنيا فى أكثر من الرزق الذى يقيم الحياة، لأنى أخذت نفسى بما علمت ، والذهب فى آخر الأمر لن يصاحب الناس إلى القبور . سيخلف الناس الذهب كما يخلفون كل شىء وراءهم بعد الحياة ، ولم يكن الذهب سبيل السعادة فى دار من الدارين . فليس بى من حقد أن يذهب به الناس ويستأثروا به، وحسبى من الدنيا ما أصيب من رزقى الضئيل . ولكن الذهب شىء والكرامة شىء آخر ، ولا علاقة بين هذه وذاك . فالكرامة حق وهبه الله للناس منذ خلقهم ناساً . فإذا كانت جانبولاد تهب لى القوت لكى تسلبنى هبة الله الثمينة فلا مقام لى فيها .

ولكن. أواه من شعور العاجز بعجزه ! فكرت فى أين أهاجر إذا تركت جانبولاد . هذا ما شغل قلبى منذ تلك الليلة فى إصباحى و إمسائى ، وفى نومى وصحوى ، حتى ضاق صدرى وكاد يضطرب عقلى . وأخيراً بدا لى رأى وجدت فيه من ضيقى مخرجاً . عزمت أن أعيش فى عالم أسعى فيه إلى الخير، وأبذل فيه كل ما أستطيع ، وأهب فيه للناس من قلبى ومن عطفى ، فلن أحس فى

مثل هذا العالم ذلاً ولن أبالى من أمور الناس همًّا . فعزمت على أن أقف حياتى كلها على خدمة المساكين فى جانبولاد ، وما أكثر مساكين جانبولاد ! هؤلاء الحفاة الذين ليس لهم من أمر وطنهم شىء إلا أن يصيبوا الكفاف من عيش زرى على ما يقومون به من عمل قاطع . استقر رأيى على أن أكون خادماً لهؤلاء أعلمهم وأرفِّه عنهم وأواسيهم ، ورسمت لنفسى خُطة قمت على تحقيقها بغير تردد أو تسويف .

فكنت إذا فرغت من صلاتى وفرغ الجنود من تقبيل يدى عقدت لهم مجلساً قبل أن ينصرفوا ، أحاول فيه أن أفتح صدورهم للرحمة ، وأن أبصِّرهم بحياة الإنسان . وكثيراً ما كنت أرى فى أعينهم الدمع كلما لمست جانباً رقيقاً من قلوبهم ، فكان هذا يملأ قلبى سروراً ، وكنت أحمد الله الذى يفجر من الصخر ينابيع الماء الزلال ، والخير لا بد أن ينتصر يوماً ، والدمع الذى يثور فى العين مرة لا يضيع سدى .

فإذا ما انتهى درس الجنود نزلت إلى المدينة أقلّب فيها نظرى ، وكنت فى كل يوم أجد فرصة جديدة أتخذ منها مطية الى الخير . مساكين أهل جانبولاد ! كنت أمد يدى إليهم فتغنيهم وإن

لم يكن فيهـــا شيء من الذهب . كم من كلمة طيبة يجود بها القلب فتغذى الروح لا يقاس بها عطاء من فضلات الغنى . وكنت كل يوم أذهب إلى المسجد الأعظم وأتخذ فيه مجلساً إلى جوار عمود ، فيجتمع حولى من المساكين من يتعطش إلى الكلمة الطيبة .. وفى هؤلاء كنت أجد السلام والكرامة . كنت أحس أنى أصب عليهم مما فى قلبى وأضيِّفهم فى حنايا صدرى . وما كان أعظم ما نلت من السعادة فى أعقاب هذه الدروس ! كنت أحس أن النور يجلو روحى ، وأن الحق يحل فى كيانى فيملؤه قدسية ، فاذا بى لا أرى فى الكون كله إلا تسبيحا وترتيلا .

هناك بين المساكين كنت أرى الزهر يانعاً ، وأشم العطر فياحاً ، وأسمع من أنغام السموات ما لا يدركه السمع ، وأفهم من وحى العلا ما لا يبلغه العقل . كان روحى يهيم ويكشف الغطاء عن الأسرار ، ويتلبس بحقائق الأزل ، فلا اللفظ لفظ ولا الحس حس ، بل الكون أنا وأنا الكون . هناك بين المساكين سموت حتى أشرفت على العالم الصغير ، وعلى من فيه من الدبى المغرور : تيمور وجنده من أصحاب الريش وأصحاب الأذناب ، وجانبولاد وعليتها من ذوى القدور والأعلام . وكنت أشير بإصبعى إلى الأنوار التى

كانت تتلألأ فى كل مكان أمام بصيرتى ، فيتطلع المساكين ويصدقون ، لأنهم كانوا يؤمنون . علمت المساكين أن فى الحياة ما هو أثمن من الذهب ، وأسمى من السلطان ومن القوة ، وأن فيها من اللذة ما هو فوق متعة الأجسام . علمتهم أنهم يستطيعون الاستغناء عن كل قوة وعن كل متعة إذا هم آمنو بما هو أسمى وأعلى ، فى حين أن الدبى المغرور من أمثال تيمور يقضى حياته أسيراً فى قيود من الطين العفن لا يستطيع أن ينتزع نفسه منها .

وكانت الأوقات التى قضيتها مع تلاميذى فى هذه الحلقة أحب العبادات إلى . وجدت فيها قرة العين ، وفزت فيها بمجمع اللذات . فاذا ما انصرفت بعد ذلك إلى دارى أقبلت على أوراقى وكتبى أقرأ وأكتب . وجعلت ما كتبته وقفاً على من يطلب العلم قرباناً إلى الله سبحانه الذى علم بالقلم .

ولكنى لم ألبث أن صدمت صدمة بددت آمالى .

كنت يوماً فى مجلسى إلى جوار السارية أناجى خفى الأسرار فاذا بى أحس شخصاً يقف عند رأسى ، ويضع يده على كتفى . فالتفت نحوه لفتة قصيرة لعله أعمى ضل فعثر بى ، أو فقيراً جاء

يقصدنى،فإذا بى أرى فتى أسمر فى حمرة،قد أمال قلنسوته إلى يمين، وأبدى من تحتها طرة تلمع فوق الجبين. وقد أطال عارضيه، وزجج حاجبيه، ولف حول وسطه منطقة حمراء من الحرير، فوق ثوب أصفر من ديباج، وهو قصير بدين، يدرج كالدحروجة، ويتمايل تياها وينظر متحدياً.

فقلت له لأصرفه عنى: « هداك الله إلى سبيلك ».

فقال وقد كشر عن نابه: « أما تعرفنى؟ »

فنظرت إليه فاحصاً، وصعّدت فيه بصرى كرتين، فلم أتبين من يكون ولم يكن لى عهد برؤية مثله، فضاق عند ذلك صدره وصاح بى: « أنا صاحب الباب وحاجب الحجاب! قم إلى القاضى ولا تبطىء عليه »

فوقع قوله منى موقعاً شديداً. فالقاضى سيد من أصحاب الخمسين، وقد عرفت نفسى عزوفاً عن مجالس العظماء، فاستعذت بالله من الغرور، وظننت أن سيده قد سمع بى، وعرف ما أقدمه للعلم فى سبيل الله، فأحب أن يظهر لى تجملا، أو يبعث فى طلبى تقريباً وتلطفاً. وكنت لا أحب أن أفتح قلبى للغرور فإنما الأعمال لله وحده، وما كنت لأبتغى بها عند الناس رياء.

وعزمت على أن أجعل بينى و بين السلطان سدًّا ، وهممت أن أرد الحاجب ردًّا جميلا ، وأبعث معه إلى السيد العظيم دعوة خير أرجو أن تكتب له فى صحيفته .

ولكن ما كان أشد عجبى عند ما نادانى الفتى متجهما ، وأمرنى فى جفاء أن أسرع إلى المجلس فإن لى فيه شأناً .

ولم أفهم أى شأن يكون لى فى مجالس القضاء ، وليس لى فى جانبولاد ما أنافس الناس فيه . فلم تكن لى تجارة ولا زراعة ، بل هى صلاتى ودرسى ، وكتابى وورقى . و إن كان لى رزق فيها فما قسمه الله لى من عطاء لست فيه شريكا لشريك أو عميلا لعميل . فقلت للحاجب فى هدوء : « هداك الله يا ولدى . لقد أخطأت فما أنا بمن يطلبه السيد العظيم » . ثم هممت أن أعود إلى درسى ، ولكنه نظر إلى مغضباً ثم صاح بى حانقاً : « أيها الرجل قم إلى القاضى فإنه ينتظرك ، لينفذ فيك ما يجب عليه أن ينفذه من حكم العدل . » فنظرت إليه و إلى حلقة الدرس ، ونظر التلاميذ إليه ثم إلىّ ، وطال النظر من بعض إلى بعض ، حتى نفد صبر الحاجب وكان قويًّا فتيًّا يلمع رونق الشباب فى وجنتيه ، فتقدم نحوى عامداً كأنه أراد أن يجرنى من الدرس قسراً .

فلم أجد بداً من القيام طائعاً ، فهؤلاء أتباع السلطان لايعرفون تجملا ولا ترفقاً . ولما رأيت من تلاميذى بوادر الغضب أشرت إليهم بالصبر والأناة ونظرت إليهم معاتباً ، فما ينبغى لمن كان مثلى إلا أن يطيع ولى الأمر إذا دعاه .

وسرت إلى مجلس القاضى ، وأنا أدير فى ذهنى كل حوادث الأيام والشهور ، لعلى أذكر لنفسى سبباً مما يجر إلى ساحة القضاء فلم أجد شيئاً أعرفه ، وحسبت الأمر كله خطأ لا يلبث أن يزول . ولما دخلت إلى المجلس رأيت السيد فى صدر المكان وله فم ضب وعينا أرنب ، يخيم عليه ظل الهيبة ، وترنق فى عينه الصرامة . ورأيت قلنسوته العالية من تحتها لحية تبلغ القبضتين . ورأيت ثيابه من الدمقس ، وتحته طنفسة من الإبريسم الحر ، وقد رفع فوق رأسه الدِّرَفْس ، ووقف الأتباع من حوله خشوعاً ، يسلّون السيوف ويبسطون أمامهم الأنطاع . فوقفت حيناً أنظر فى ارتياع ، وأترقب حركة فمه المدبب ، الذى يضم بين شفتيه لساناً فيه مصير الناس من سعد وشقاء ، وأتأمل عينيه الخاويتين ، ومنهما يطل القضاء . وتمثل لى ما كان فى مجلسه ذاك على مر الأيام ، من سجن وتعزير ، وغرامة وتشهير ، وقلت فى نفسى أعوذ بالله من

عثرات المقادير ، وتقدمت نحوه باسماً ، وسلمت عليه محتفياً خاضعاً ، ثم أردت أن أشكو إليه حاجبه كيف قطع دروسى وروّع تلاميذى ، فإذا به ينظر إلى فى جمود ، ويرفع يمينه فى جفاء ، ثم قال بصوته النحاسى : مكانك أيها الرجل !

وكأن الأرض قد مادت بى عند ذلك ، أو كأن السماء قد مارت وتداعت ، وعقل لسانى عن النطق ووقفت أنظر إليه وعيناى تطرفان ، وأذنان تطنان . ولا حاجة بى إلى ذكر ماقال لى كله ، فقد كان مجمله أننى جئت إليه متهماً بأننى شربت الخمر وقارفت عظيم الإثم ، ونادمت وفاكهت ، وأعنت على المنكرات ، وأنا رجل أدخل المساجد وأؤم فى الصلوات . وقد شهد على بذلك من كنت أنادمه ، وسمعه منه الشهود العدول ، ورواه عنهم الشهود العدول . ثم أراد حرسه الله أن يتحرى العدالة ، وأن يبالغ فى التدليل ، حتى لا يزل فى حكمه ، فقال إنه قد بعث فى أثرى العيون وشهدوا أنهم رأونى أدخل إلى بيت صاحبى الفارس فى الليل ، وأخرج منه بعد حين فى هيئة من لاشك فى امتلائه بالشراب ، إذ كنت أسير مطرقاً ، وأجرر رجلى خائراً ، وأدخل إلى دارى ، لا ألتفت إلى ورائى ولا أرفع ذيول ردائى .

فذكرت عند ذلك ما كان . جازى الله (طوطاط) فكم من مصاب ينزل بالمرء من عبث ، وكم من دواه جرّها على الناس حديث إفك . منذ تلك الليلة التى نادمت فيها (طوطاط) لم يبق فى جانبولاد مجلس شراب لا يذكر فيه اسمى ، ولم يبق جمع طرب لا يتحدث بفكاهتى وظرفى . فكنت أوصف بحسن المنادمة وطيب المحادثة ، والأدب عند الشراب والصبر على عربدة الصحاب ، على حين كنت فى المسجد أحلق مع تلاميذى فى السماء ، وأتقرب إلى الله بفعل الخيرات وخدمة الطلاب ، وأعكف على التأليف والتصنيف والعبادة والتسبيح .

وتقدم القاضى إلى بأن أدفع التهمة عن نفسى إذا استطعت، فإن العدالة تناديه أن يكشف عن جرمى ، وأن يحمى الناس من ريائى ، ولن يزال بى حتى أتوب بين يديه ، بعد أن يوقع علىّ العقوبة التى أستحقها ، ثم يمنعنى بعد ذلك من مخالطة الطلاب ، وتلويث المساجد التى لا ينبغى أن يدخلها إلا المطهرون . فلم أملك من القول إلا سبحان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله . ولم أستطع غير التسبيح والحوقلة ردًّا ولا دفعاً . ووقفت مبهوتاً كأن صخرة قد هوت على رأسى فشدخته ، ونظر القاضى إلىّ

من تحت جفنيه كأنه أراد أن يخرق بنظراته صدري ، لينظر ما أخفى وراء جدرانه من دليل على جرمى . ومن العجيب أننى بعد حين أحسست فى نفسى تبدلاً ، فزالت عنى الحيرة ، وامتلأ قلبي ضحكا ، حتى كدت أقهقه فى وجه السيد العظيم ، وأنقضّ على عثنونه الطويل فأهزه وأجبذه . ولكن نظرته كانت قاسية فهرب منى الضحك فى لحظة ، ونظرت إلى الشرط والأتباع وهم يتربصون بى أمره ، وينتظرون علىّ إشارته ، وبعد لأى نطقت فقلت : لقد فجأنى هذا الأمر يا سيدى ، فيسّر لى من الوقت ما أقدر فيه على جمع نفسى والإدلاء بحجتى .

وكان حرسه الله يعرف أصول القضاء . فلم تأخذه فى عدالته الكبرياء ، ولم يسرع إلى العقوبة قبل أن يبلغ العذر من الإعذار ، وأنا بعد فى يديه إن لم يكن اليوم فغدا .

وذهبت إلى الدار أحدث نفسى حائراً بائساً ، لا أرى أمامى إلا هما وظلاماً . وضاقت جانبولاد فى وجهى ، حتى فكرت فى الهرب منها متسللا . وهاجمتنى المخاوف تعذبنى، فلم أجد منها خلاصاً إلا بأن أقوم إلى وضوئى ، لعلى إذا اتجهت إلى صاحب الكون وجدت عنده السلام .

٥

أتى الليل هاجماً على بظلامه فزادنى هماً على همى ، وشملتنى رهبة لا أستطيع أن أصفها . فقمت إلى صلاة المغرب ، وما كدت أقيمها حتى سمعت على الباب دقاً ، فزاد اضطرابى خوف أن يكون ذلك نذيراً بمصاب جديد ، فقد خيل إلى أنه لم يبق لى فى هذا العالم إلا سلسلة من الكوارث تتعاقب حلقاتها علىّ مع الساعات . وفتحت الباب فى حذر ثم نظرت .

« أهو أنت أيها الحبيب ؟ » . خرجت منى هذه الصيحة وأحسست أن شعاعاً من النور أضاء أمامى ، عندما رأيت صاحبى وتلميذى كمال الدين .

جاء صديقى إلى دارى من قبل فلم يجدنى ، وذهب إلى مجلس القاضى فدُفِع عنه دفعاً قبيحاً ، فعاد إلى دارى بعد أن قضى حيناً يهيم فى طرق المدينة مهموماً من أجلى . حمداً لله فإن المصائب تهون وإن جلت إذا وقف إلى جانب المرء صديق وفى . لقد اطمأننت عند ذلك على أنى أجد إلى جانبى رجلا يصدقنى إذا تحدثت ، ويواسينى إذا تعذبت ، ويعيننى بمؤانسته إذا تحيرت . ولما دخلنا

توضأ صاحبي وصلينا معاً ، ثم جلسنا نتحدث وأفضيت إليه بكل قصتي ، وشكوت إليه عثرتي . ولله هو من صديق ! لم أجده يتزعزع أو يشك ، بل كان مصدقاً واثقاً ، وجعل يذكرني بالله وما هو جدير به من نصرتي وجلاء غمتي ، حتى أخجلني من نفسي . فما كان لي أن أبتئس أو أخشى لأن الله عالم بأمري وهو معي ولن يخذلني .

وأشار علي أن نذهب إلى القاضي لعلنا نحدثه في خلوة ، فإنه إنسان وإن كان من أصحاب الخمسين ، ولا بد لحجة البريء أن تظهر وإن ساءت الظنون . فقمنا معاً وكان وقت العشاء قد اقترب ، فقلنا ندرك الشيخ فنصلي معه جماعة ، ونتحرم إليه في كنف الصلاة . فلما بلغنا القصر وجدنا عنده حرساً كثيراً ، من شرط وحجاب ، وأعوان وغلمان ، فلما رأونا نقصد الباب نظروا نحونا شزراً ، وأقبل بعضهم على بعض يتهامسون . فتجرأ صاحبي وتقدم فسأل عن الشيخ ، وطلب أن يسمحوا لنا أن نراه ، وتعلل بالعلل فقال : « إن السيد يهم الساعة بالصلاة ، ونحن نحب ألا تفوتنا بركة الائتمام به . » فضحك أحد الغلمان ثم نظر إلى رفاقه فتضاحكوا ، وعاد فنظر إلينا واحداً بعد الآخر من أعلى الرأس إلى أخمص القدم ، ثم مد يده إلى جبتي ووضع يده في خروقها ، وقال وهو يضحك : « خذوا

زينتكم عند كل مسجد » فجذبت جبتى منه فى شىء من الغضب وكدت أقذفه بكلمة حانقة لولا أن تدخل كمال الدين متوسلا يقول : « إن الشيخ حرسه الله لا يضن على مثلنا أن نصلى معه . فنحن فقيران نريد أن نتملى ببركته » . فقام أحد الحجاب إليه ودفعه فى غلظة وقال له معنفاً : « اذهب إلى المسجد إن شئت الصلاة ، وأما إذا أردت الاحتيال على الصدقة فإننا لا نخدع عن مثلكما » . فملأنى الغيظ وجرحت عزتى ، وكدت أثور لولا أن جذبنى كمال الدين وهمس فى أذنى : « ليس لنا من حيلة إلا الذهاب » .

وسرنا معاً مطرقين حتى بلغنا المنزل فصلينا ، ثم جلسنا نقرأ الأوراد ، وما هو إلا أن انصرفت إلى الله بقلبى حتى حل فيه السلام ونسيت كل ما كان .

وكأن وحياً قد هبط علىّ فألقى فى روعى أن أذهب وحدى إلى القاضى ، وأحسست فى نفسى يقيناً أننى إذا ذهبت إليه لم يستطع أحد أن يقف فى سبيلى . فقمت واستأذنت صديقى ، ورجوته أن يصبر حتى أعود إليه ، وسرت قدماً برأس مرفوع وقلب يجيش ونفس تتحفز حتى بلغت قصر القاضى . وما كان

أشد عجبي إذ وجدت الباب خالياً ليس عليه حراس ولا غلمان . فدفعت المصراع فانفتح ، وأدخلت رأسي من فرجة الباب فلم أجد أحداً وراءه ، فدخلت ورددت المصراع ، وكان الظلام كثيفاً فسرت أتحسس مواضع خطواتي ، حتى اجتزت مدخل الفناء . فوجدت باباً آخر فدفعته فانفتح وظهر من ورائه بستان من فاكهة ونخل وريحان ، وكانت الدار تشرف عليه محيطة به ، وعلى نوافذها مشربيات بديعة تبدو أمام العين مبهمة فى الضوء الخافت المنبعث منها . وسرت فى غير تردد وأنا أتعجب أن يكون القصر خالياً صامتاً . فأين حراسه ؟ ولم أخفيت هكذا أنواره ؟ إنها تبص بصيصاً من وراء السجف تنم عن قناديل مئات تزهر من داخل الأبهاء ، وصعدت فى السلم على حذر حتى انتهيت إلى مدخل البهو ، فما هذه الأصوات المختلطة ؟ كانت أصوات الضحك والغناء تتجاوب ويحملها الهواء فى أمواج متعاقبة ، فتخف حيناً ثم تعلو حيناً ، كأنها آتية من عالم بعيد . وزاد بي العجب وقويت فى نفسى رغبة الاطلاع ، وازدادت القوة التى فى صدرى دفعاً ففتحت باب البهو ، فإذا قاعة يضل فيها البصر ، طولها ثلاثون ذراعاً وعرضها عشرون ، فرشت بأبدع الأثاث وغطيت نوافذها

بخالص الحرير ، وأحسست تحت قدمى طنفسة لينة ، تغوص بى كلما خطوت ، ورأيت فى صدر القاعة باباً يأتلق النور من ورائه ، وتفوح العطور من قبله . فكانت رائحة المسك تتضوع منه مختلطة بأبخرة العود ، وكانت الأصوات الناعمة يمازجها صوت أجش له رنين النحاس . وسمعت رجلا يضحك ضحكة ناعسة بين كركرة صداحة ، كأنها من سجع الطير . وعادت الموسيقى فكانت سحراً وفتنة، فلم أستطع إلا أن أقف مكانى ، وقد غلبنى طربها ، فقد كنت منذ صباى مولعاً بالغناء . وكدت أنسى أننى دخلت القصر خلسة ، وأنه لا ينبغى لى أن أطيل الوقوف ، ثم أفقت بعد حين وعادت إلى نفسى، فسرت إلى الأمام خطوات وأنا أتعجب . فما للقاضى والغناء ؟ وما هذه الأصوات الناعمة التى تسحر الهواء ؟ وفكرت فى العودة خاشياً من عاقبة هذه الجرأة . ولكن شيئاً فى قلبى دفعنى فلم أستطع خلافه ، ثم رأيت باب القاعة يفتح من أقصى أركانها ، فخفت أن يرانى أحد فأسرعت إلى أقرب ستار فتكمشت وراءه ، وجعلت أطل برأسى من مخبأى . فرأيت غلماناً وجوارى يحملون صحافاً وكؤوساً، ثم اقتربت من موضعى فتاة مثل فلقة القمر ، تخطر فى أثواب من الحرير الأحمر والأصفر ،

فلم أتمالك أن نظرت إليها نظرة ، ثم أغضيت وقلت : سبحان من خلقها وسواها . وكتمت أنفاسي حتى بعدت عني ، فاختلست إليها نظرة أخرى فرأيتها تحمل ثياباً وتضعها على أريكة ، ثم رأيتها تعود خفيفة رشيقة ، كأنها مهاة في الصحراء ، أو ريم شارد من كناسه . ولما بعدت عني أطللت برأسي وراءها حتى فتحت الباب ، ودخلت منه ، فنظرت من الفتحة فإذا في صدر الحجرة قلنسوة حمراء ، ومن تحتها السيد القاضي حرسه الله في هالة رائعة المنظر ، من مؤنسات أوانس ، وندامى صِباح . ورأيت أمامه طاسات من المدام ونقولا وفاكهة وأزهاراً ، وقماقم من عطور ، وأحقاقاً من غالية ، فكدت لا أصدق عيني ، وثارت الوساوس في نفسي ، وساءلت أفي يقظة أنا أم في منام . وجعلت أقرص كفي وأضرب بيدي على وجهي ، حتى تحققت أنني في صحوة ، وأنني أرى السيد القاضي بعينه وذقنه وفصه ونصه . فقلت أهذا هو الذي يحاكمني ، ويقتص للعدالة مني ؟ وامتلأت غماً وهماً ، فقد علمت أن أقسى القضاة في إيقاع حد الخمر من ذاق لذتها وأحس سورتها . وجررت نفسي والألم يعصر قلبي ، فخرجت من وراء الستار لأعود أدراجي ، تاركا إلى الله قضائي . ومررت في سيري

بالثياب التى ألقتها الفتاة على الأريكة ، وكانت تبرق فى الضوء المنبعث عليها من بعيد ، ونظرت إلى ثيابى نظرة قصيرة فرأيت جبتى وقميصى وقد حال لونهما ، وانكمشت أكامهما وتفزرت جوانبهما ، وتهتك أعلاهما وأسفلهما ، فعذرت الحجاب فى منعى ودفعى ، واستقر رأيى على أن أقترض ثياب الشيخ قرضاً حتى أستطيع إذا لبستها فى الصباح أن أجد إلى بابه سبيلاً . وليس على من بأس إذا أنا اقترضتها عارية ، ثم رددتها إلى السيد من بعد سليمة طاهرة . وخطفت الثياب وسعيت بهما جرياً ، ثم قفزت فى رحاب القصر قفزاً ، حتى بلغت الفناء ، وخرجت أعدو حتى بلغت دارى وأنا أتلفت إلى ورائى . وكان صاحبى كمال الدين لا يزال فى حجرتى يغط فى نومه ، فلم أشأ أن أوقظه فإن متعته فى الصباح تكون أعظم إذا رآنى أطلع عليه فى بريق الثياب .

ولما ذهبت فى الصباح إلى مجلس السيد الشيخ ، وقفت عند الباب أريد الاستئذان ، فقام الحجاب يسارعون . وحنوا لى الهامات وهزوا لى القلانس ، وأطرقوا لا ينظرون إلى وجهى ، وفتحوا الباب على مصراعيه ، ووقف بعضهم عن يمين والبعض

عن شمال ، حتى دخلت . وكان السيد فى صدر المجلس ، فوقع بصرى عليـه ووقعت عينه فى عينى . ثم رأى ملابسه تلمع علىّ ، وعرف أننى رأيت كل شىء . ففغر فاه كأنه يهم بالصياح ثم أخذ يجمع ثيابه ويلتمس رداءه ، ثم تحرك قائماً يبرق بعينيه ويختلج فى خفيه ، وأقبل نحوى فاتحاً ذراعيه ، وانطلق فى تحية طويلة مؤهلا مسهلا مرحباً مستبشراً ، حتى تلاقينا فى وسط القاعة ، فضمنى إلى صدره ضمة مودة ، وترك كل من حوله وأقبل علىّ فأجلسنى عن يمينه ، وأخذ يحيينى ويؤنسنى ، حتى هدأ رَوعى ، وذهب عنى وجلى ، وصاح فى حجابه أن يسرعوا فى خدمتى ، وأمرهم أن يعـدوا لى قهوة وماء ورد لأستروح وتذهب عنى بهرة السير . وما زال بى حتى شرح صدرى وفك عقدة لسانى ، وبدأت أقص عليـه قصتى فى قول مبين وحجة ظاهرة ، وأظهرت له الحق كله فلم أخف عنه شيئاً ، ولم أحاول أن أعتذر ولا أن أستتر ، حتى أفضيت إليه بكل ذات نفسى . فتبسم حرسه الله وأخذنى من تحت إبطى ، وانتحى بى جانباً وجعل يسألنى عن تفصيل أحوالى ، فلان قلبى له وزالت حفيظتى عليه ، وهممت أن أعتذر إليه من أخذ ثيابه ، وأعده

بارجاعها إليه . ولكنه لم يمكنى من المضى فى حديثى ، بل عانقنى عناق الصديق ، ومد يده فدس فى جيبى كيساً ثقيلاً ، فتحته فيما بعد فوجدت فيه مائة من الدنانير صافية وافية . ولما استأذنته آخر الأمر فى الانصراف سألنى هل جئت إليه راكباً ، وهل حملنى جواد أم سعت بى إليه أتان ، فنظرت إليه فى خجل وقلت :

— لقد كنت دائماً أسير على قدمى منذ بعت صديقى .

فضحك حتى كاد يهتز عن وقاره وقال : أكنت تركب الصديق؟

فقلت له باسماً : « هذا صديق كان لى فى وطنى ماهوش، وكان الناس يسمونه حمارى، وكنت أسميه البطل الصامت حتى لا أشارك الناس فى شتمه » .

وخفق قلبى عند ذلك خفقة شديدة إذ تذكرت صديقى المسكين الذى اضطرتنى الحاجة فى وطنى إلى بيعه ومفارقته ، وأطرقت حزينا .

فقال لى السيد : « لا عليك أيها الشيخ المبارك . فما كان مثلك ليسير فى جانبولاد راجلا » .

ثم أسرع إلى ظاهر المجلس ونادى حاجبه ، وأمره أن يعدّ لى بغلته الشهباء . ثم نظر إلىّ فى عطف وقال :

— هى بغلة فارهة ، مباركة الخطوات ميمونة الروحات والغدوات ، بارك الله لك فيها ، ولا تنس أن تختلف إلينا عليها وأن تذكرنا بالدعاء فى صلاتك .

فسُرِّى عنى كل ما كان من همى ، وأحسست للسيد حرسه الله شكراً يملأ قلبى . وسرت عنه راكباً بغلته لابساً ثيابه وعمامته . وكنت على طول الطريق أدعو الله له ليجزى عنى فضله و يغفر له ذنبه .

وكان أهل جانبولاد ينظرون إلىّ وأنا سائر ، فاذا قربت منهم تواثبوا لتحيتى ، وأشار البعيد منهم إلى بالبنان . وقضيت سائر اليوم فى دارى عاكفاً على الصلاة أشكر الله وأسبح له تسبيحاً .

٦

اتسعت بعد ذلك حلقة دروسى وضاق بها المسجد حتى كادت تمتنع على الناس الصلاة فدعانى هذا إلى أن أتخذ داراً خاصة جعلتها مدرسة أعلم بها الناس كباراً وصغاراً

وكنت قرأت فيما قرأت عن أرسطو أن غاية التعليم أن يعرف المرء كيف يستخدم وقته إذا خلا من العمل . ولست أدرى لعمرى ما الذى حمل هذا المعلم الأول على أن يدّعى مثل هذا

الزعم ؟ إن الناس إذا خلوا من العمل لم تعوزهم الحيلة فى استخدام وقتهم الفارغ ، فالطبائع توجههم وتحتال لهم ، وتميل بهم وتشرد . أما أنا فقد رأيت أن السعادة والخير لا يكونان إلا فى العمل ، العمل الدائم و إن تغير وتنوع . ولا خير فيمن يخلو من عمل إلا إذا دخل فى سواه . وقد جعلت هذا المعنى شعارى وأذعته فى دروسى وأحاديثى .

جعلت أعلِّم تلاميذى أن أقل مراتب الإنسان أن يبذل وقته فيما يعود عليه بالمسرة وحده ، وإن كانت مسرة مباحة بريئة . فالذى يقضى وقته فى نزهة إنما يبلغ أدنى مراتب الإنسان ، والذى يسلّى نفسه إنما يبلغ هـذه المرتبة عينها ، إلا إذا كان فى نزهته وفى ترفيهه إنما يتحفز إلى خير أو يساعد عليه من بعد . وعلمتهم أن الذين لا يعملون بل يجدون أوقاتهم فارغة يحتالون على قتلها هم الطفيليون على مائدة الحياة . هؤلاء يطردهم الله من رحمته وإن كانوا لا يقارفون شرًّا . لأنهم لا يعرفون السلام ولا يعينون على الخير .

وقد بدا لى بعد حين من مقامى فى جانبولاد أن التعليم وحده لا يجدى إذا لم تصحبه الأعمال . فإن أسمى اللذة فى الخير

لا يجدها من يتأمله بعقله ، بل من يباشره بعمله . فأقبلت على ذلك القصد مع تلاميذى ، وتحاملت فيه على نفسى مع ضعف حولى وقلة ذات يدى ، ولو كنت من أصحاب الأعلام لما احتجت إلى معونة من غيرى ، ولكن ما حيلتى ولم يكن لى فى جانبولاد قدور ؟ ففكرت أن أتكفف الناس أطلب منهم المعونة على مقصدى . ولكن الله يعلم ما قاسيت فى سبيل ذلك من عنت ؛ فقد عجزت مرة بعد مرة ولم تفدنى ملابس القاضى شيئاً فى جمع المال . وقد يجود الناس بالتحية وحلو القول ، ولكن حلو القول لا يعين على ما كنت أسعى فيه . فأطلت التأمل فى هذا الأمر وتحدثت فيه كثيراً مع تلاميذى . فقال لى كمال الدين يوماً : « إنه من التعسف أن تكلف الناس ما تأباه الطباع . فهل تطمع فى جانبولاد أن يحرم الناس أنفسهم بعض مسراتهم فى سبيل إطعام الجائع الذى لا يجد لقمة ، أو كسوة العارى الذى يرتعد من شدة البرد ، أو مداواة المريض الذى يقع فى الطريق من الإعياء ؟ ما كان ينبغى أن نطلب من النار أن تطفأ بالرجاء ، أو أن نطلب من الماء فى القاع أن يعلو صعدا إلى القمم » . فكانت تلك كلمة صريحة صارمة ألقت اليأس فى قلوبنا . ولكنه أردف قائلاً :

« من شاء الخير فليتدسس إلى الشهوات . »

فنظر تلاميذى بعضهم إلى بعض وتصايحوا : « نتدسس إلى الشهوات ؟ هذا مستحيل . وما جدوى الخير إذا كانت الشهوات سبيله ؟ » . فقال كمال الدين مترفقاً : « أقصد أن نتدسس إلى المسرات ! » . فقال التلاميذ : « نعم . أما هذه فلا بأس بها » وأخذنا ندبر الخطة المحكمة .

بالاختصار جعلنا نعقد فى المدرسة كل أسبوعين مجلساً للهو ندعو إليه علية جانبولاد وأوساط أهلها ، وكنا نحشد فيه المغنين وصناع اللهو والمضحكين وجعلنا لذلك أجراً ، فكنا نأخذ من البعض ذهباً ومن البعض الفضة ، كل على قدر وجاهته . وكنا نميز أصحاب الذهب بمقاعد فى الصدر ، فكان هذا كافياً لأن يبذل الجميع ذهباً حتى صارت القاعة كلها مقاعد صدر .

وكان نجاحنا منقطع النظير فإن علية جانبولاد أسرعت إلى التلبية ، ولم يردّ أحد منهم دعوتنا . وانهال علينا المال انهيالا .. فأمكننا أن نطعم الفقراء ونكسو المساكين ونعين المرضى على الدواء ، ولكننى مع هذا النجاح كنت أحس فى قرارة نفسى أننى أخطأت سبيلى ، وأننى أحيي ألف سيئة فى سبيل حسنة

واحدة . وما قيمة الخير إذا لم يفعله صاحبه متجهاً إليه ؟

وكنت أحس أن الله لن يرضى عن عملي ولن يقبل خيري. ولم ألبث أن وجدت عقوبة الله أمامي . فما كان الله ليبارك في خير جاء عن سبيل الشهوات .

٧

عاد تيمور إلى جانبولاد بعد أن قهر الملوك وقتل الجيوش وأتى معه بعدوه بايزيد العثماني في قفص من الحديد ليراه الناس ويعتبروا ويمجدوا في الأرض اسم تيمور .

ولم تطاوعني نفسي على الخروج مع الناس لرؤيته. فما حاجتي إلى رؤية منظر شهدت مثله في الغابة من قبل ! وزاد من زهدي في رؤيته ما سمعت عن منظره ، فقد قيل إنه أشل اليد والرجل، تعترض وجهه ضربة من سيف تركت فيه جرحا غائراً يجعل نظرته كنظرة الفهد . فآثرت الذهاب إلى دار صديقي كمال الدين لأقضي عنده اليوم ، لأن مدرستي كانت خاوية إذ خرج أكثر تلاميذي كما خرج الناس لرؤية موكب المنتصر. ولست ألوم أحداً منهم على ذلك فإنه من طبع الإنسان . كان الإنسان منذ القدم يعبد الأقوياء القساة .

ولم يكن كمال الدين وحده فى الدار، بل كانت معه أخته الصالحة الكريمة (نجوى) . نجوى الطاهرة البتول التى كانت لأخيها كل ما فى الحياة .

كانت شابة فى البضع والعشرين وإن كنت كلما حدثتها رأيت من عقلها كمال الخمسين، وكنت كلما نظرت إليها تذكرت عليّة ابنة علاء الدين .

كانت لها عيناها الواسعتان وجبينها الوضاح وصفحة وجهها الوضاء . حتى لقد كان يخيل إلى أحيانا أنها هى التى رأيتها فى الهودج المزركش فى موكب السلطان فى ماهوش .

قضينا اليوم معاً وكان يوما من الربيع . والربيع مازال منذ الصبا يهزنى ويطربنى ، ويعترينى فيه خشوع وتشملنى فيه رقة ، كأن زهره يتفتح فى قلبى، وكأن طيره يتغنى فى حنايا صدرى ، كان الربيع دائماً يجمعنى بالخليقة ويمزجنى بالوجود ويوحى إلى أسمى المعانى. ولكن الربيع فى ذلك اليوم كان أكثر سحراً ونشوة .

سرت فى الحديقة الصغيرة أنقل طرفى من عود إلى عود ومن زهرة إلى زهرة، على حين جلس صديقى فى ركن منها يصلى ويقرأ الأوراد . وذهبت (نجوى) إلى شؤون البيت كعادتها إذ تمهن

لأخيها . وقد وجدت فى تأمل المخلوقات عبادة أسمى من كل عبادة إذ كانت كل ورقة تملأ صدرى سلاماً وشكراً، وكل حشرة أفحص بنظرى أعضاءها وحركتها تملأ عقلى علماً وخضوعاً . وقضيت فى جولتى حول الحديقة الصغيرة ساعات كنت فيها أحلق فى الآفاق وأهيم فى الوجود من الأزل القديم إلى الأبد المقيم إلى ما شاء الله، وكان أقل ما يقع عليه بصرى يفتح لى عالماً لا يقل عن الفضاء الفسيح فى روعته وجلال أسراره .

رأيت عنكبوتاً ضئيل الجسم لم أكد أتبينه فى ضوء الصباح ، ورأيت بيته الواهى وقد انعقدت عليه قطرات من الندى تلمع عليها أشعة الشمس بألوان لا حصر لها ولا يستطيع اللسان وصفها، ورأيت المخلوق الصغير يتحرك ويلقى من فمه خيطاً لا تبصره العين إلا إذا لمع عليه شعاع من الضوء ، فمددت إليه أصبعى فعلق به وإذا بالعنكبوت يتعلق بخيطه فى طرف أنملتى ويهتز فى الهواء مترجحاً ، ثم رأيته يتسلق الخيط حتى كاد يلمس أصبعى، فهززت يدى فإذا به يسرع فيمد من فمه غزلا رقيقاً تطاول حتى صار على أكثر من ذراع منى . فملأنى هذا الخلق البديع عجباً . هو آلة دقيقة الصنع عجيبة التركيب لا تكاد العين ترى لها جرماً، ومع ذلك

فله أرجل وأطراف وفيه حواس لا أدرى عددها ، وله أهداب وأجهزة وفم ومعدة وآلة لإفراز هذا اللعاب الدقيق الذى لا يخونه إذا امتد ولا ينقطع به إذا تسلقه . كل هذا قد اجتمع متناسقاً فى نقطة ضئيلة لا تكاد العين تبصرها ، فسبحانك يا ألله !

وانتهى صديقى من أوراده وجلس ينتظرنى . وكانت (نجوى) قد جهزت طعاما للافطار ، أتم الله عليها نعمته وأسبغ عليها فضله ، فدعتنى إلى الطعام . وما كان أطيبه ! ثم قضينا سائر اليوم فى درس وتأمل وحديث طيب وصلاة ، وكان مجلسنا يفيض بنور الله ، لم أحس فيه أننى معلم ألقى الدروس ، بل كنت أتعلم من صاحبىَّ أكثر مما كنت أعلمهما . كانت (نجوى) إذا تحدثت فتحت فى قلبى ينابيع من الفيض فأغرق فى تأملى حيناً ثم أطفو وقد امتلأ قلبى يقيناً . ولست أدرى ما ذاك الذى كانت تحدثه فىَّ بنظراتها الوديعة . كانت تستمع لما أقول وتنظر إلى بعينيها الواسعتين الحالمتين ثم تنطق بكلمة أو بكلمات فإذا بى أسمع معنى لم يجل من قبل بخاطرى . وقد تنظر إلىّ صامتة فإذا بى أرى عالما خفيًا من الأسرار ينفتح أمام عينى .

كانت نفسها الصالحة تتصل بالملأ الأعلى ، فإذا هى نطقت

أنفذت بصرى الكليل إلى طرف منه فألمح لمحة سريعة تكفى لأن تفيض علىّ من النور القدسى فيضاً غامراً .

ولما ذهبت إلى بيتى مع وسط الليل كنت أحس أننى لا أسير فوق الأرض بل تحملنى أجنحة الملائك على متن الهواء ، حتى كأن السحب قد صارت تحت مسراى وكأن تيمور وشيعته و بطشه وخوفه كانت كلها تحت مواطئ قدمىّ

ذهبت إلى منزلى وجلست على كرسى كبير لم يكن فى غرفتى سواه إلى جوار النافذة المطلة على الفناء ،وأشعلت المصباح ولم يكن به سوى القليل من الزيت ، فجعل يتراقص و يطقطق ولا يكاد نوره يبلغ زوايا المكان . فبدت الأركان بعيدة كأنها تنتهى إلى الأفق فى طرف السماء . وأغمضت عينى وأنا جالس على الكرسى لا أريد نوماً ولكنى وجدت فى الغمض راحة أنست إليها . فأخذتنى سنة من النوم فتحت عينى بعدها على صوت سمعته ينـاديني . فتلفت حولى ثم نظرت إلى النافذة ورائى فرأيت شخصاً واقفاً قد وضع مرفقيه على حافة النافذة واتكأ بذقنه على كفيه ،فوسّعت عينى لأتبينه فى الضوء الخافت فإذا به صاحبى (طوطاط) و بادرنى قائلا : « أين كنت بالأمس ؟ » .

فقلت له منكراً : « وما سؤالك عن هذا ؟ »

فنظر إلى معاتباً وقال : « لم تذهب إلى لقاء تيمور . وقد سأل عنك » . فصحت فى فزع : « تيمور يسأل عنى ؟ »

فقال جادا : « وما تعجبك من هذا ؟ » .

فقلت : « إنه لم يرنى » .

فقال ضاحكا : « ولكنه يعرفك . ألا تفهم ؟ إن تيمور لا يخفى عليه علم بأحد » .

فأزعجنى قوله وداخلنى منه هم زادنى قلقاً ، فأطرقت صامتاً أفكر فيما لعله ذكرنى به . فقرب (طوطاط) منى وهمس فى أذنى « احذر ! » .

فقلت له مبادراً : « مم أحذر وما بى ما أحذر منه ؟ »

فقال جادًّا : « ألجم لسانك هذا . كفاك ما صنع بك » .

فنظرت إليه فى دهشة وقلت : « لسانى أنا ؟ »

فقال لى فى حنق : « نعم . فما هذه الدروس التى تلقيها . وما هذه الكرامة الإنسانية التى تتحدث عنها ؟ ثم ما هذه الأغانى التى توسع لها صدر مدرستك ؟ وما ذا عليك إذا شئت الغناء أن تجعله فى بيت رجل مثلى ليكون طربك فى ستر وتجمل؟»

ثم غمزنى فى ذراعى هامساً : « لا تذهب إلى المدرسة منذ اليوم ، فقد أمر تيمور بإغلاقها » .

قال هذا ومضى عنى مسرعاً .

كانت كلمته هذه مثل الصاعقة تنقضّ على ، واسودت الدنيا فى عينى ولم أدر ما ذا أصنع . وشعرت عند ذلك أول مرة أننى واقف وجهاً لوجه أمام تيمور ، وتمثلت لى كل قوته وكل سطوته وأحسست الخوف يملكنى . لقد كنت من قبل أتأمل جبروته بالفكر وأسمع عن بطشه بالأذن، وأمقت كل هذا وأنا بعيد عنه ، ولكني عند ذلك رأيت نفسى وضعفى أمام سلطانه الهائل ، فخيم اليأس علىّ وشلّ حركتى .

فقمت منتفضاً عن مقعدى ، وقد شعرت بأنه لم يبق لى فى جانبولاد مقام ؛ فإنى لا أستطيع البقاء فيها إلا إذا رضيت بأن أذهب إلى تيمور وأتمسح عند أقدامه .

وقمت إلى الصلاة. واتجهت إلى الله أن يسدد خطاى وأن ينقذنى من الوساوس ، فلما فرغت منها عدت إلى نفسى أحاسبها حساباً عسيراً . فهى التى زينت لى اتخاذ دار العلم مسرحاً للهو ، وهى التى جعلتنى أفرِّط وأسِفُّ فى سبيل الذهب . وامتلأ قلبى

سخطاً على ذلك المعدن الخسيس الذى أضلنى فإن الله لم يجعل سبيلا إلا على من ظلم وأخطأ . وأقبلت على صلاتى أستغفر فيها ربى من ذلك الإثم الذي وقعت فيـه . وجعلت أناقش نفسى وأحاجُّهـا فى الهجرة وترجحت بى الميول بين المشـقة وبين الكرامة ، ولم أستطع أن أهتدى إلى رأى بينهما إذ كان أحلى الخطتين مراً . وفيما كنت فى حيرتى برقت لى بارقة من الأمل فألقى فى رُوعى عزم رأيت فيه فرصة الخلاص مما كنت فيه . بدا لى أن الهجرة نوع من الهروب وأننى لا ينبغى لى أن أهرب حتى أبلى فى سبيل الحق بلاء ألتمس فيه العذر لنفسى ، فإذا اضطررت بعد ذلك إلى الهجرة لم أجد على نفسى سخطاً أو لوماً . فعزمت على أن أقيم فى جانبولاد وأن أجاهد فى سبيل الحق ما استطعت ، وأن أقابل الجبروت بالتحدى ، وأرفع رأسى كريماً لا أحنيه لقوة ظالمة ، فإذا أصابنى من ذلك ما يصيب الشهداء كنت قد بلغت عذرى . وامتلأ قلبي يقيناً بأننى لن أخشى قوة الطغاة . فوالله إن الحق ليصرعهم لو نطق به من ملأه الإيمان .

وعزمت بعد ذلك على أن أصحح مكانى فى جانبولاد ، وأن

أضع نفسي حيثما كان يليق بها أن تكون . فإنى لم أكن أقل من أصحاب الريش والأعلام . بل إننى كنت لا أرضى بأن أكون مساوياً لهم . فإذا كان سادة جانبولاد قد تواضعوا على أن يجعلوا الأمر كله لأنفسهم ، فلن أسمح بأن أكون دونهم فى شيء . عزمت على أن أدخل نفسي قسراً إلى المكان الذى يليق بى . وما كان لمثلى إلا أن يكون فى المحل الكريم . وما كدت أستقر على هذا الرأى حتى أخذت فى الاستعداد له واجتهدت فيه اجتهاداً كبيراً .

٨

كانت الأعلام فى جانبولاد لا ترفع طبعاً إلا إذا ملأ الناس قدوراً من الذهب بعددها ، ولكن مالى وللذهب ؟ قد رسم السادة خطتهم على أن يجعلوا الذهب وقفاً عليهم ، فكانت النتيجة أن الذكاء والعلم والأدب والخير والفضل لم يصبها منه شيء ، إذ لم تجعل لها قيم فى خطتهم المرسومة . وما كنت لأقيد نفسي بقواعدهم منذ عزمت على أن أطيع الحق وحده ، ولا أنظر إلا إلى جوهر الأشياء . فلو أنصف الناس لجعلوا المكان الأول

فى القيم كلها للذكاء والفضل وأمثالها مما ضاع قدره فى جانبولاد .

ومهما يكن من الأمر فقد استقر رأيى على أن أستغنى عن الذهب وأتخذ لنفسى معياراً رمزيًا أجازى به الأفعال بما تستحقه. والذهب بعد التفكير لا يزيد على أنه معدن مثل كل معادن الأرض ، فهو كالحجر لا يزيد على أنه من عناصر الطين ، وهو لا يستحق كل هذه العناية التى يحيطونه بها، إذ هو لا يؤكل ولا يشرب ولا يلبس ، وشربة واحدة من الماء إذا لم توجد تكون أغلى من كل ذهب الأرض . و إذا كان المقصود إنما هو وضعه فى القدور وختمها بعد ذلك فلن يضير القدور شىء إذا ملئت بشىء آخر كالحصا أو الحجارة ، ولن تكون قدر من الخزف خيراً من أخرى لأن واحدة مختومة على ذهب والأخرى مختومة على حجارة .

فعمدت إلى قرطاس كتبت عليه أنواعاً من العمل ، وكتبت أمام كل منها ما يستحقه من وزن الذهب لو أنصف الناس ، ثم عمدت إلى قرطاس آخر كتبت عليه أنواعاً من النقص أو الظلم أو أعمال السوء ، وجعلت ما يقابلها من العقوبة مقدراً بوزن الذهب . وعزمت على أن أحاسب نفسى على أعمالها جميعاً فأقدر

ما قدمت من خير وأجعل لكل عمل من ذلك وزناً ألقيه فى قدر — أقصد وزناً من الحصى بدلا من الذهب . فإذا ما امتلأت قدر ختمتها ورفعت على داري علماً ، وكلما ملأت قدراً وختمتها رفعت علماً آخر . ولم أنس محاسبة نفسي على ما تجترم من الذنوب، فعزمت على أن أنقص من القدور ما يعادل قيمة عقوبتها على آثامها، حتى لا يبقى فيها إلا وزن ما هو باق لى من الحسنات الخالصة . وكنت فى ذلك متحرجا متأثماً، فإن الله قد وعدنا معاشر البشر لما علم من ضعف الطبيعة الانسانية أن نُجْزى على الحسنة بعشرة أمثالها ، وألا نجزى على السيئة إلا بمثلها ، فبالغت فى الحيطة وجعلت الحسنة والسيئة سواء فى الأجر والعقوبة .

ولأضرب مثلا مما وضعت من القيم لأبين أننى لم أغال فى التقدير ، فقد جعلت لإطعام الفقير وزن حبة من الرمل ، ولعيادة المريض وزن حصاة صغيرة ؛ فان هذه من الواجبات التى لا ينبغى لأحد أن يطلب عليها الأجر . وجعلت لكتابة رسالة فى الأخلاق وزن حصاة كبيرة ، ولكتابة رسالة فى التاريخ وزن درهم لأنه سجل الأمم وهو يعلّم الناس أن الحياة تفنى ولا يبقى على الدهر إلا الخير ، وأن الظلم مرتعه وخيم ، وأن العسف لا يقيم الدول إلا إلى حين .

وجعلت لكتابة القصة وزن أقة لأن القصة لا يقدر عليها إلا من وهب الله له من فضله. ولم يكن فى تقديرى مبالغة فإن الخلفاء العظماء كانوا فيما مضى يجيزون الشعراء بمئات الألوف من الدراهم على أبيات فى المدح الكاذب ، أو فى وصف الخمر واللهو ، فإذا أنا جعلت للقصة وزن أقة واحدة من الذهب لم أكن مغالياً . وجعلت لتعليم الناس قدراً كاملة — نعم! قدراً كاملة ، فالتعليم يطهر النفوس ويبنى أساس المستقبل ويفهم الناس معنى الانسانية . فإذا خرّج المعلم رجلاً كاملاً أضاف به إلى الأمة ثروة لا تقدر بمال . وما كنت لأبخس التعليم حقه وأنا أعرف قيمته ، ولن يضيرنى أن تيمور وعِلية جانبولاد لا يعرفون له قدره. فإن الحقائق لا يستطيع إدراكها إلا من يسمو بذكائه إلى المعانى العليا .

ولما انتهيت إلى ذلك أخذت فى إعداد القدور والحصى واستطعت أن أملأ لنفسى قدرين كبيرتين ، ثم عمدت إلى ثوب فقددت منه ما يكفى لصنع علمين ، فما أتى العصر حتى كان علمان أصفران بديعان يخفقان فى الهواء فوق دارى .

ثم أسرعت إلى دار صديقى كمال الدين لأقضى معه ساعات فى الدرس والعبادة ، إذ قضيت اليوم كله لاهيا عن عبادتى،

وأحسست شوقاً إلى مجلس العلم ، وحمدت الله إذ بقى لى فى جانبولاد صديق أتذوق معه لذة الدرس . فلما طرقت الباب فتحت لى (نجوى) الكريمة الصالحة ، فهشت إلى و بشت ، ونظرت إليها وكأن نوراً يشع منها إلى قلبى . وخفق قلبى فأسرعت داخلا وأغضيت حتى لا أطيل النظر إليها . ولست أدرى لم كانت صورتها تنطبع فى خيالى وتعاودنى فى خلواتى وتلازمنى فى سيرى ، حتى كادت تنافس الصورة التى طويت عليها جوانحى وجعلتها رمز الكمال والأمل : صورة علية ابنة علاء الدين .

و بعد قليل جاء أخوها ، فجلسنا ثلاثتنا نتدارس ونتعاطى أطيب الحديث ، وصلينا وقرأنا الأوراد حتى مضى صدر من الليل ، وأخبرتهما بما كان من أمرى ، فاختلفت فيه الآراء ، وراجعنى كمال الدين فى رأيى مراجعة شديدة ، ولكني ما كنت لأرجع عن أمر تبين لى فيه وجه الحق ، ولم يراجعنى كمال الدين إلا لأنه خشى علىّ من عواقبه . ولكن ما هذه العواقب التى يخشاها ؟ إن الحق واضح ولا يليق بنا أن نتردد فيه .

ثم قمت عائداً إلى دارى والسرور يملأ قلبى ، والأمل يضيء

لى سبيلى ، ولم أنسَ أن أذكر نظرة (نجوى) عندماودعتها . لقد خفق قلبي خفقة شديدة عند ما نظرت إلى عينيها الواسعتين ، ولست أستطيع أن أعبر عن أثر نظراتها فى نفسى ، فإن الألفاظ تتضاءل عن وصفه — تلك الألفاظ التى لم يتخذها الناس إلا مطية لما اعتادوه من معانيهم : حقاً أنى لم ألبث أن غضضت من بصرى وسرت عنها مسرعاً ولكنى جعلت ألوم نفسى، فما كان ينبغى لى أن أستبيح تلك المتعة من النظر إلى جمالها البارع وملء عيني منه . ومضيت فى سبيلى وصورتها ماثلة فى قلبي حتى غلبت على صورة علية ابنة علاء الدين . مالى وعلية ! إنها ليست إلا خيالا، وهذه (نجوى) الطاهرة التى كنت أسمع حديثها وأستوحى العلا من نظرتها . (نجوى) التى كنت أراها حقيقة أمامى . وما يدرينى إذا أنا رأيت علية وحدثتها كيف أجد حقيقتها ؟ ألا أراها ترفع حاجبيها استعلاء وتزورّ عنى ولا تهش لى كما تهش نجوى الكريمة إذا لقيتها ؟

بلغت منزلى أخيراً ولم أنس أن أحاسب نفسى على نظرتى التى نظرتها . فأخذت حفنة من الحصى من إحدى القدرين وقذفت بها إلى جانب ، ثم قمت إلى أحد العلمين فخططته عن دارى ريثما ييسر

الله من الحسنات ما يعوض ذلك النقص . وأطلت فى ليلتى من القيام بالصلاة لعل الله يتجاوز عن خطيئتى . وعزمت على أن أمسك قلبى من بعد فلا أنظر إلى (نجوى) إلا كما نظر موسى إلى النور المقدس .

٩

كانت الليالى بطيئة كأنها تزحف زحف الدبى، وكانت النجوم تلمع من وراء القضبان الحديدية الغليظة كأنها قد سمرت فى مواضعها من السماء . وكنت أقفقف من البرد فى سجنى المظلم ، ولولا الصلاة وقرة عينى فيها لتمزق صدرى من غيظه وتطايرت عنه أضلاعى . قذف بى فى السجن كما ترمى الهرة فى البئر أو كما يخبط الحجر فيتدحرج إلى الهاوية . وقد حاولت أن أعرف ما الذى دعا إلى سجنى وأنا رجل قد كفيت الناس كل أمرى فلم أستطع أن أهتدى إلى شىء ، لأن السجان الفظ كان يأبى أن يكلمنى ، وكنت لا أرى سواه إلا بعض رفاق كانوا مثلى لا يعرفون لهم جريمة .

وبقيت كذلك إلى أن أحسست يوماً على جدار جحرى

حسنًا . فنظرت حولى ورفعت رأسى فإذا وجه يطل على من بين القضبان . فبرقت فيه لأعرفه فلم يسعفنى الضوء الضئيل . ثم رأيته يفتح فمه الأهتم و يهمس ينادينى ، فصعّدت بصرى فيه حتى بلغت رأسه الأصلع وصحت فرحاً « طوطاط ! » فهز رأسه وهو صامت ، وكان يحاول فى مشقة أن يلف ذراعه اليمنى حول القضبان ليتعلق بها ، ثم رمى إلىّ حزمة بيده اليسرى وقال هامساً : « كيف حالك ؟ تشجع ! »

فصحت به : « قل لى لم جىء بى إلى هنا » .

فقال متأثراً : « ألم أقل لك ؟ إنك لا تسمع النصح . كيف تجرأت على تزوير القدور ؟ »

وعند ذلك ثقل جسمه على ذراعه فاختل تماسكه ووثب إلى الأرض بعد أن قال لى : « تصبر » .

فعدت إلى وحدتى حزيناً أفكر فيما مضى بى من أيامى فى جانبولاد . وأقبلت على نفسى ألومها على الخروج من الوطن ، ولاحت لى ماهوش عند ذلك جنة نعيم . حقاً لقد خرجت منها حانقاً لأننى لم أجد لى بها مكاناً ، ولكنى كنت أتكلم فيها وكنت أضحك وكنت أسخر ، وما كنت أرى فيها أحداً خيراً منى . بل لقد ذهبت

يوماً لأسطو عامداً على أموال الناس لآخذ حتى من أرزاق ماهوش غصباً ، وعدت أحمل ما أخذته عن رضا من الناس . أيها الوطن العزيز، كنت أجد فيك الحب فجحدت نعمتك، وهأنذا أذوق عقوبة الجحود . لقد كاد قاضي جانبولاد يحدني فى جرم لم أرتكبه ، ولولا أنني لبست ملابسه لأصابني العذاب والعار . ثم أغلق تيمور مدرستي مدعياً بأنني أذيع فيها الفساد وأتخذها مسرحاً للهو ، وهذا هو يلقى بى فى السجن لأننى زورت القدور . أى قدور هذه التى زورتها ! إن الطغاة لا تعوزهم الحجج إذا شاءوا التماسها . ويا ليتهم إذا أرادوا البطش اتجهوا إليه كما يتجه الضبع إلى فريسته مكشراً صريحاً لا يعرف مواربة ولا رياء . ليتهم يفعلون ذلك فيبلغوا العذر لأن هذا هو قانون الغابة ،ولا بأس فيه على القوى إذا سطا بالضعيف ، ولكنهم يأبون إلا أن يتستروا وراء ما يقيمونه من القواعد و يسمون ذلك عدلا .

ذكرت ما كان من حوادث الأيام الماضية، وأيقنت أن القدور كانت سبب بليتى . فإننى ما كدت أضع العلم فوق بيتى حتى رأيت الناس يجتمعون حوله منذ الصباح ، و ينظرون إليه متهامسين . فحسبت أنهم يعجبون بلونه ورشاقة خفقاته . ثم أتى

الليل فجاء إلىّ رجل من هؤلاء أصحاب الريش ، فأخذ يسألنى عن علمى وعن قدرى ، وزعم أنه لا بد له من الاطلاع عليها حتى يختمها بنفسه . هكذا زعم وقال لى إن أعلام جانبولاد لا ترفع إلا إذا ختم القدور بيده وتحقق من أنها مملوءة . فذهبت معه إلى القدر ففض ختامها ودس يده فيها ، فصحت به حانقاً . « ماذا تفعل ؟ » ولكنه كان قد سبق صيحتى وأخرج يده من القدر مملوءة بالحصى . فنظر إلى ضاحكا وقال لى : « ما هذا ؟ » فلم أجد بدًّا من أن أشرح له الأمر كله ، وهو يهز رأسه حتى فرغت من قولى بعد أن أوضحت له كل ما قد يبهم عليه . فذهب عنى صامتاً بعد أن نظر نحوى نظرة عجيبة . فلم أعبأ بنظرته لما علمته من غرابة أطوار أصحاب الريش ، وعدت إلى غرفتى لأهيئ عشائى وما كدت أفعل حتى جاءنى جماعة من الشرط يأمروننى أن أسير معهم . ولم تجدنى فيهم مساءلة ولا مدافعة ، فقادونى إلى هذا السجن بغير أن يتكلموا كلمة واحدة .

ومرت بى الأيام بسجنى فى بطء ، لا يقطع ظلامها إلا شعاع ضئيل من النجوم الوامضة الباردة ، التى لا تفتأ تحدث حديث الأجيال الفانية . ولم يكن أحد يقطع على وحشة الوحدة إلا صورة

(نجوى) التى كانت تلازمنى ، ثم صاحبى (طوطاط) إذ يتسلق الجدار من خارج ويتعلق بالقضبان حيناً ويهمس لى بكلمات قصيرة . وكان فى كل مرة يرمى إلى ربطة فيها ما يتفق له من طعام أو ملبس ، وكان أحياناً يطرفنى ببعض الفاكهة أو الحلوى فكانت إلمامته القصيرة تبعث فى قلبى أنساً يقيم فيه أياماً . جزاه الله من صاحب كريم .

وكانت آخر مرة جاء فيها طوطاط لزيارتى فى ليلة من رمضان وكنت أستعد للصلاة قبل الافطار ، فقذف إلى ربطته قائلا :

— هى سنبوذجة لسحورك . صنعتها بيدى .

فخفق قلبى عندما تذكرت طعامه الذى صنعه بيده على جانب الغابة ، فما كان أشهاه من طعام ! كان القمر يضىء الفضاء ، وكان هواء الربيع طلقاً لا يشبه فى شىء هواء سجنى . وهممت بأن أشكره على بره وكرمه ولكنه قاطعنى هامساً : « تشجع . إن تيمور قد ذكرك . »

فصحت به : « ذكرنى ؟ وهل كان ذكره إياى إلا شؤماً ؟ »

فهمس قائلا : « هذا شىء آخر . كنت عند ذلك طليقاً حراً » .

فصحت : « ألا يكون شؤمه إلا على الأحرار ؟ »

فهمس فى رعب : «صه ؟ ألجم ذلك اللسان . اسمع . نسيت أن أخبرك أن لك رسالة مع السنبوذجة . خطاب . أسمعت ؟ »

ثم قهقه وقال : « لقد صرت لك عامل بريد » .

فاضطرب جسمه فى ضحكه وثقل على ذراعه فخلصها من بين القضبان ووثب إلى الأرض .

فأسرعت إلى الربطة ففككتها وتلمست الرسالة من طياتها ، ولكنى تذكرت الظلام ، فالقيت بها جانبا وقضيت الليلة مفكراً مهموماً لم أذق طعاماً ، وكانت همومى لاتفارقنى إلا إذا قمت للصلاة . كانت الأفكار تشرد بى دائماً إلى جانب الغابة فأذكر ما رأيت فيها وما سمعت ، وتمثلت لى قوانين الإنسان فى مجتمعاته أشد قسوة من القانون الطليق الذى يسرى فى الغابة . وبدا لى فى ظلمة سجنى أن قانون الأسود والفهود أقرب إلى الرحمة من تلك القيود التى يضعها تيمور . فالأسد لا يقتل لأنه يحب القتل بل لأنه يريد أن يشبع جوعه . وليس فى قانون الغابة مثل هذه السجون المظلمة التى يزيد عذابها على عذاب ساعة تعانيها الفريسة قبل أن تنزلق إلى بطن الوحش المفترس .

هكذا قضيت الليلة فى تفكيرى الحانق حتى طلع الصباح ، وكنت

أترقب دخول الشعاع الضئيل من النور لـكى أستطيع أن أقرأ الرسالة . فما كدت أتبين الحروف حتى أقبلت عليها أقرؤها مع ما أصاب عينى من الألم فى قراءتها على النور الضئيل . ولـكنى لا أذكر سروراً كان أعظم عندى فى يوم من أيام حياتى مما أحسسته بعد أن مضيت فى قراءتها . لقد تحرك المساكين الذين كنت أعلمهم وأواسيهم . تحركوا من أجلى وعزموا على النزوح من جانبولاد . هكذا أخبرنى صديقى كمال الدين فى رسالته ، جزاه الله خيراً . ولم ينس أن يبعث إلى فى خطابه تحية من أخته الصالحة . كتبت نجوى إلىَّ تحيتها تشد من عزيمتى وتدعو لى بالفرج القريب . إننى لم أزل منذ حللت فى ذلك السجن أراها أمام عينى ، ولـكن أفكارى السوداء كانت تجعل لصورتها إطارا من الأحزان والآلام . أما صورتها التى ملأت قلبى عندما قرأت تحيتها فقد كان إطارها من السلام والسعادة .

دب الأمل إلى قلبى وصار يرفه عنى أثر ضيق السجن وظلامه ، وما أكرم مساكين جانبولاد ! ليس لبلد أمل فى الحياة إذا فقد مساكينه ، فهم الأيدى وهم الأرجل وهم القلوب والأحشاء . لاقوام لأمة بدونهم ولن يستقيم أمر أمة إلا إذا ساوت بين رأسها و بين

سائر أعضائها فيما يجب لكل منها من الرعاية والحرمة والكرامة .

ولكن الطغيان أعمى ، ولا سبيل إلى فتح عينيه إلا بأن يظهره المساكين على أنه لا حياة له من غيرهم . يستطيع المساكين أن يعيشوا فى الأرض الفسيحة ، فان عندهم الأيدى والأرجل تعمل وتسعى ، وهم يجدون وطنا حيث يحلون لأنهم فى كل وطن يخدمون. ولن يضرهم أن تزول الحدود بين الأمم وأن تكون بلاد الله كلها للانسان .

لم أشك فى أن تيمور قد فزع واضطرب من هؤلاء المساكين الذين أرادوا الخروج من جانبولاد . أيها الأشقياء لو اطلعتم على مافى قلوب الطغاة وهم يدوسونكم بأقدامهم لسركم تطلعون ما عليه . إنهم يخشونكم وأنتم صرعى و يعرفون ضعفهم وقوتكم .

ولقد صدق ظنى فيما ذهب إليه ، فما أتى عصر ذلك اليوم حتى سمعت السجان يعالج فتح باب حجرى ثم سمعت صراخ المصراعين وهما ينفرجان ، ثم رأيت ذنب السيد الذى انحنى وهو داخل من الباب المطأطىء . كان الذنب يضطرب فوق قلنسوة حريرية صفراء عند مافتح الباب . ولما دخل الذنب دخل وراءه السيد . وكان مثل الببغاء كسائر أصحابه ، حتى كدت أقهقه من رؤيته ،

ولكنى أمسكت نفسى ونظرت اليه صامتاً .

فنظر إلى مبتسماً وقال بعد أن حيا : «أنت رجل طيب . هكذا يقول الناس عنك . وليس السجن بالمقام اللائق بك . » ثم نظر حوله مشمئزًا .

فقلت له : « لا شك فيما تقول أيها السيد . إننى أحب السير فى ضوء الشمس والتنفس من الهواء الطلق ، وأحب أن أذهب حيث شئت وأتكلم مع من أحببت وأقول ما يدور فى نفسى إذا أردت . أحب كل ذلك وأحس تلك الجدران التى أقيم بينها تكاد تنطبق على وتزهق أنفاسى بركود هوائها وظلمتها » .

فهز رأسه موافقاً وقال : «وإذاً فأنت ترى مصلحتك فى التخلص منها .»

فصحت : « مصلحتى ! إنما هو حقِّى . »

فقال الرجل متراجعاً : « حقك ! ليس من حقك أن تسير الأمور حسب أهوائك . »

فقلت فى حنق : «بل أقول إنه حقى ، وليس لأحد أن يسلبنى إياه » . فاحمر وجهه ونظر إلى نظرة بشعة وقال : « أهذا ما تعلمته فى سجنك ؟ »

فقلت مبتسما : « نعم تعلمت من السجن أشياء كثيرة » .

فقال ساخراً : « تعلمت مثلا أن توجه ألفاظاً جافية إلى من جاء يحسن إليك » .

فأخذ الغضب منى مأخذه وصحت به : « تحسن إلى ! إننى لا أقبل منك إحساناً . إن من حقى أن أكون حرًّا . ولو كنت مجرماً لما كان هذا السجن عقاباً جديراً بانسانيتى . اقطع يد السارق واتركه حرًّا ، واقتل القاتل ودع روحه حرة . إن الحرية أثمن من اليد ومن الجسد كله » .

فنظر إلى صامتا والدهشة تعقل لسانه ، ثم حاول أن يهدىء نفسه وقال : « دعنا من هذا القول الحانق . كن هادئاً وافهم فيم أتيت إليك » .

فقلت له هادئاً : « هأنذا ترانى هادئاً . ولكنى أنطق بالحق قد علمنى السجن ألا أمانع نفسى من قول كلمة أراها حقاً كنت أحياناً أتردد فى قولها من خوف هذا السجن ، فلما دخلته وتحملت ضيقه وجدت أن كل ما فيه من عذاب وألم أقل قسوة من الشقاء الذى يسببه الامتناع من قول الحق » .

فقال الرجل متكلفا العطف : « لسنا نخشى الحق . قل ماشئت من الحق الصحيح » .

فضحكت مقهقهاً، وكانت تلك فلتة لمت نفسى عليها ، ولكنى لم أقدر على الامتناع منها ، ثم قلت : « هناك إذاً حق صحيح وآخر غير صحيح ؟ إنما أعرف الحق واحداً . فإذا لم يكنه كان باطلا » .

فتحرك الرجل فى قلق ولكنه تكلف الهدوء وقال باسماً : « قله إذاً . قل الحق » .

فقلت مسرعاً : « لقد قلت ما ثار فى نفسى وهـذا حسبى الآن » .

فقال فى عطف متكلف : « أنت مخطىء فى تقديرك كله . لست من هؤلاء الأغرار الذين يليق بهم أن يخطئوا وأن يعاقبوا . فأنت رجل عالم . لست من السوقة الرعاع » .

فقلت مندفعاً : « السوقة الرعاع ؟ مَنْ هؤلاء ؟ لا أعرف سوقة ولا رعاعا إلا هؤلاء الذين يملأون الأرض فسادا . وأما رجل الحقل الذى يلوث يديه بالطين ويسير عارى القدمين ممزق الثياب، ويذهب آخر اليوم إلى أهله بحزمة من الفجل ورغيفين — أما هذا فرجل وهب نفسه للعمل ووهب ماله إلى الآخرين .

فاذا كان من السوقة الرعاع فما أحب إلىّ أن أكون منهم » .

فقال السيد متأففاً : « أوه ! أقصد أنك رجل عاقل لا ترضى بالفوضى » .

فقلت : « لست أرضى الفوضى لبلد من بلاد الله » .

فقال مرتاحاً : « إذاً قد اتفقنا . وأنا آت إليك موفداً من مولاى تيمور العظيم ، إنه يمد يده إليك » .

فصحت فى دهشة : « أنا ؟ يمد يده إلىّ أنا ؟ أناهنا أسير ويد الأسير مغلولة » .

فقال معاتباً : « أنت تتجنى . هذا كرم لا ترفضه » .

فقلت وأنا أغص بريقى : « كرم ؟ما الذى حمله على القذف بى إلى هنا ؟ أليس هذا بغياً ؟ وهل إزالة البغى تكرم ؟ »

فصاح فى حنق : « أنت تصدنى وتمعن فى جرح كرامتى ، وتستهين باسم مولاى » .

فقلت له هادئاً : « لست أفهم » .

فتحرك ضجرا وقال : « إذاً أنت ترفض السلام » .

فقلت : « الذى يريد السلام لا يستشير فيه » .

فصاح وقد نفد صبره : « هذا تعنت . هذا عناد » .

فقلت وقلبي يدمى : «أنا هنا في سجني كأنني لست شيئاً . لقد سلبتم حقي في الحياة حرًّا وأنتم أصحاب الحول والقوة . ردوا عليّ حريتي فهذا حقي » .

فقال وقد ثار : « لقد علمت أنك لا تجيب إلى السلام ، فلتتحمل العقبى » . فلم أتمالك أن قهقهت مرة أخرى وقلت : « تهددني ؟ وماذا يأخذ الريح من البلاط ؟ »

فجعل الرجل يشتم ويهدر بألفاظ لم أفهم معناها ، وكان منظره مسلياً ، فوقفت أنظر إليه حتى سكن ، ثم قلت له : « إذا كانت الحقيقة تغضبك فما ذلك من ذنبي . »

فأخذ يرعد ويبرق وقبض يده فرفعها نحوي صائحاً : «اخرس!»

فنظرت إليــه هادئاً ولا أزال أضحك وقلت : « أهكذا تخشى لساني ؟ » .

فدفعني دفعة غيظ كدت أقع منها ، ولكني لم أشأ أن يخرج بغير أن أسمعه آخر كلماتي فقلت :

— ستقف معي أنت وسيدك وجهاً لوجه أمام الأبد . ستقفان وجهاً لوجه أمامي والعار يقطر من وجهيكما ، وتتردد أصداء هذا الحديث جيلاً بعد جيل إلى يوم القيامة ؛ وستشهد الأجيال

قوتى وضعفكم وثباتى وهروبكم وحقى وظلمكم . وليس فوق الظلم ما يمكن أن يسب به صاحب السلطان » .

فصاح الرجل صياحاً عاليا لم أفهم منه لفظا ، وخرج يخبط الأرض فى عنف ، ثم تضاءلت أصداء خطواته فى السراديب بعد حين وعاد السكون العميق . ثم أتى السجان إلى حجرتى فأعاد المصراعين إلى إغلاقهما ، وكان الليل قد أخذ يرخى سدوله ، واختفى الشعاع الضئيل من الضوء ، وأقبل علىّ الظلام الكثيف يلف ما حولى ، ولكن قلبى كان يشتعل و يضىء . وقمت أصلى لله شكراً فقد نصرنى فى سجنى على تيمور فى جبروته .

١٠

لم أنم من الليل شيئاً بعد أن انصرف عنى الرجل صاحب الذنب ، ولكنى كنت مطمئن القلب مبتهجاً . فلما مضى الليل وأطلت علىّ بوادر أشعة النهار الضئيلة من وراء قضبان سجنى ، سمعت صرير المفتاح فى باب حجرتى ، ثم رأيت الباب يفتح ودخل منه السجان حاملا فى يده صرة . فتبسم فى وجهى أول بسمة منذ رأيته ، ثم ألقى إلىّ الصرة وقال : « هذه خلعة مولاى » . فنظرت

إليه ولم أفهم ما يقصد من قوله، فأعاد كلماته وهو يزيد فى ابتسامته اتساعا وقال متلطفاً : «خلعة مولاى تيمور العظيم ، لكى تلبسها ثم تمضى إليه مع الأمير صاحب الذنب الذى ينتظرك عند الباب».

فدار بى رأسى وحسبت أننى فى رؤيا، وتحركت فى موضعى ولمست بلاط الحجرة ، بيدى فوجدته بارداً قاسياً كعهدى به ، ثم قمت ومشيت وتكلمت لأتأكد من أننى لست نائماً . ثم خررت لله ساجداً . ولم أنظر إلى الصرة وتركتها ملقاة على الأرض، وخرجت أتلمس الطريق والسجان يرشدنى كلما أخطأته ، أو كدت أصطدم بجدار ، حتى بلغت الباب ، فرأيت صاحب الذنب الذى كان عندى بالأمس واقفاً هناك مقطب الوجه ، فلم أنظر إليه وخرجت إلى الطريق بعد أن مكثت فى سجنى شهرين وعشرة أيام وساعتين . وهبت على نسائم الصباح الباردة ، تلك النسائم الرطبة التى تحمل عطر الفضاء الفسيح ولا تلوثها جدران السجون. ووقفت حيناً أملأ صدرى منها وأنظر إلى السماء الصافية اللامعة، وأنوار الصباح الرفيقة الباسمة، وامتلأت عيناى بالدمع. ثم سرت وقلبى يهتف بالشكر لله الذى له الأمر كله ، والذى يلطف فى الخطب الجسيم وينعم بما لا يحصى من الآلاء .

وسمعت الأمير صاحب الذنب بعد حين ينادينى من ورائى « إلى أين ؟ . ». فلم ألتفت إليه لأننى كنت منصرفا إلى تسبيح قلبي، فأسرع حتى صار إلى جانبى وأمسك بذراعى وقال معبساً : « أما تعرف أن تيمور ينتظر ؟ ». فرفعت بصرى إليه وكان رجلا طُوالا، وقلت له مترفقاً: « أما تعفيني؟ » فقال وهو يقلل من عبوسه: « وهل هو أمرى حتى أعفيك ؟ إنه أمر مولاى » . فتنبهت إلى نفسى وزالت دهشتى فتمثلت لى حقيقة الحال وعلمت أننى مطلوب إلى مجلس تيمور . وماذا كان تيمور يبغى منى؟ فتلطفت فى القول وخاطبت الرجل خطاباً ليناً فقلت له : « إذا تكرمت علىّ بساعة أذهب فيها إلى دارى لأصلى سألت الله لك العافية ». وما قلت ذلك حتى سمعت صوتا يصرخ من ورائى ينادينى باسمى، فالتفت فإذا السجان يشتد مسرعا نحوى وهو يحمل صرة فى يده . فوقفت حتى صار إلى جانبى ومد يده بالصرة قائلا وهو يلهث : « أتريد أن تذهب إلى البادشاه بهذه الملابس ؟ » . فنظرت إلى ملابسى التى كانت من قبل ملابس السيد القاضى فرأيتها فى الحق زرية لا تليق إلا أن تلبس فى السجون . فأخذت الصرة من السجان وشكرته على ما تكلف من المشقة . ثم نظرت إلى الأمير

الذى إلى جانبى فوجدته ينظر إلىّ باسماً، فاستبشرت وتبسمت إليه مستعطفاً فقال : « لا بأس عليك أن تذهب إلى دارك ساعة ثم أحضر إليك لأسير بك إلى مولاى . فانه يريد أن يراك فى ساعة الغداء » . وكان هذا القول مدهشاً فى الحقيقة ، ولكننى لم أتف لأندهش بل أسرعت قاصداً إلى دار صديقى كمال الدين ، فما كان أشوقنى إليه ! وما كان أشوقنى إلى طلعة أخته الصالحة المباركة نجوى ! ما كان أشد شوقى إليها ! فلما بلغت الدار طرقت الباب ووقفت أنتظر متلهفاً ، فابطأ علىّ الجواب حيناً ، ثم سمعت صوتاً يسأل : « من هذا ؟ » وكان صوتا حبيباً . فقلت بصوت متهدج « أنا جحا . »

فسمعت صيحة مكتومة ثم فتح الباب وظهرت (نجوى) من ورائه تنظر باسمة بعينيها الواسعتين وقالت فى حماسة يغالبها الحياء : « مرحباً بك ! » ولمحت تحت جفنيها ماء يترقرق .

ثم احمر وجهها ، فأصبح مثل لون الوردة فى الصباح إذا بللها الندى ، فأسرعت أنفاسى ودق قلبى ومددت يدى أصافحها، وغالبت نفسى التى كانت تدفعنى إلى ضمها إلى صدرى . ويعلم الله أن ذلك لم يكن من شوق هذه الأرض ، بل كان رحمة ورقة

فى صفاء نور السماء . وقلت كلاما وقالت كلاما لا أذكر منهما شيئاً، إذ كنت أنطق بما لا أعى ، وأعى ما لا أنطق به . ولما هدأت سألتها عن أخيها، فقالت إنه خرج فى الصباح الباكر، ودعتنى إلى الدخول . ولكنى اعتذرت وشكرتها واستأذنتها فى الذهاب وأنا أنازع نفسى نزاعا شديداً ، فألحت علىّ فى الدخول لأستريح ، وألحّت معها خلجات قلبى ، ولكنى حركت نفسى قسراً ومضيت فى سبيلى ولم ألتفت إلى ورائى خوف أن تحملنى رجلاى جرياً إلى الباب الذى لم يغلق بعد ذهابى .

سرت فى طرق جانبولاد . وكان بصرى كلما وقع على شىء من بيوتها أو عطفة من عطفاتها رأيته باهر الحسن، كأننى لم أنظر إليه قط . وخيل إلىّ أننى أسير فى مسارب جنان خلع عليها ضوء الصباح ألواناً فاتنة . وما زلت أهيم حتى بلغت قريباً من دارى ، فقلت أذهب إليها لألبس خلعة تيمور ، وجررت نفسى جرًّا لأننى كرهت جدران البيوت من أجل جدران سجنى . ولكنى لمحت عند باب بيتى شيئاً يشبه أن يكون جمعاً . فترددت وداخلنى الوهم من أن يكون تيمور قد بدا له رأى فبعث بعض جنده من ورائى ليعودوا بى إلى حيث كنت ، وخطر لى أن أطلق

ساقى للريح وأنجو من المدينة ،ولكنى آثرت أن أتأكد، فتقدمت فى حذر أتدارى فى ظل البيوت . فلما قربت من الجمع لم ألمح فيه خيلا ولا ريشاً، بل لاحت لى عمائم بيضاء وقفاطين فضفاضة . فاطمأننت وذهبت نحو الجمع ثابتاً ، حتى بلغت أوله وملت أسأل أقرب الواقفين عن سر الزحام . فنظر إلىّ وما كاد يتبين وجهى حتى صاح صيحة فرح : « خواجه نصر الدين ! جحا ! » وإذا بالسيل الجارف يردد الصيحة ، ويتدافع نحوى فى ضجيج وعجيج حتى أحاط بى ، وجعل كل من استطاع منهم أن يصل إلى يدى يقبلها ، وكل من يصل إلى ثيابى يمسح عليها كفه ، ومال بعضهم نحو قدمى يلمسونها ، حتى كدت أتزعزع وأسقط لولا أن الزحام لم يترك لى فسحة من فراغ أتزعزع به أو أسقط فيه . وبعد لأى انشق الزحام عن رجل يجاهد فى الوصول إلى ، حتى صار عندى وأخذنى بين ذراعيه ، وجعل يقبل كتفى وعنقى . وصحت عندما رأيت وجهه : « صديقى ! » فقال لى كمال الدين : « لم ندركك فى السجن ولم نجدك فى المسجد فجئنا إلى هنا » . فقلت له : « لقد عرجت على بيتك . . . » وقبل أن أتم كلامى علت صيحة من الجمع الزاخر: « إلى المسجد ! » ثم وجدت نفسى أتحرك

كما يتحرك العود على التيار القوى . ولما بلغنا المسجد صلينا ركعتين ثم جلست عند العمود الذى كنت من قبل أجلس عنده . وما كان أشوقنى إلى أن أعاود لذة أحاديثى ! وفتح الله على بما شاء ! ولا أدرى كيف تحدثت فقد كان الجنان يملى واللسان يهدر والقلب يجيش مليئاً . وما زلت فى درسى لا أحس للوقت مرا حتى أذن للصلاة ، فقمنا للجماعة والمسجد يضيق بمن فيه . ثم أردت الانصراف ، فأخذت صرة تيمور تحت إبطى وقمت أسير فى مشقة بين الجموع حتى بلغت الباب وهممت بالخروج فإذا بى أرى الأمير صاحب الذنب يقبل على مترفقاً باسماً ويسألنى أن أذهب إلى مولاه .

فقلت له : « أنا متعب وبى حاجة إلى الإغفاء » .

فقال باسماً : « إن مولاى ينتظرك على الغداء » .

فكدت أنصرف عنه بغير جواب لولا أن غمزنى كمال الدين فى ذراعى ، ففهمت قصده وسرت إلى جانب الأمير وسار كمال الدين عن يسارى ، وأبى الناس إلا أن يشيعونى حتى أبلغ القصر . فساروا فى موكبهم الصاخب يجهرون ذكر الله حتى بلغنا الساحة الفسيحة .

وأشار إلىّ الرسول أن ادخل . فنظرت إلى كمال الدين ثم نظرت إلى الأمير وقلت له : « أما يدخل معى صديقى » ؟

فقال الأمير وهو يحنى ذنبه : « كما تشاء وتقدم راشداً . »

فنظرت إلى الأمير و إلى الصرة التى فى يدى وقلت : ولكنى لم ألبس خلعة البادشاه .

فقال وهو يكتم ضجره : « لا بأس عليك فادخل فى ثيابك » .

فلم أجد بداً من الطاعة ، وأعطيته الصرة قائلا : « احفظ لى هذه معك » . فمد يده كارهاً وأخذ الصرة وقال لى فى شىء من العنف : « هلم إذاً » . فأخذت بيد كمال الدين ثم نظرت إلى الجمع فسلمت عليهم ، ودعوت لهم بالخير ، وانطلقت فى سبيلى إلى مابين عمد القصر . وكانت دعوات الناس تشق الفضاء وتلاحقنى ، حتى دخلت . وشعرت برهبة عند ما رأيت مطالع الأبهاء ، وفكرت فيما أنا صانع فى حضرة العظماء ، فما تعودت أن أجالسهم ، وما كنت لأعرف كيف أحدثهم أو أؤاكلهم ، ولم أجد من يرشدنى غير صديقى كمال الدين . فهمست فى أذنه : « كن إلى جانبى فاذا رأيت منى خطأ فاجذب جبتى . » فهز رأسه منعما ، وسرنا حتى دخلنا البهو . وكان فيه خوان فسيح لا يدرك البصر مداه ،

ولا تحصر العين ما علاه : ألوان من زهر ، وصحاف من فضة وذهب ، وأكواب من البلور ، وفوط من الكتان الناصع ، وطنافس من الصوف الوثير ، وزينة أخرى لم أر مثلها ولا أعرف أسماءها ، وكراسى كأنها رصعت بلؤلؤ ، عليها رجال كالتماثيل ، يلمع فوقهم الحرير ويفوح من لحاهم العبير ، وقد توسط تيمور الصدر فى عمامة ذات زخرف وجوهر ، وثياب وهاجة وحلى متلألئة براقة ، وكان ينظر نحوى بعينه وجرحه ، من تحت جبهة ناتئة ، وحاجبين مائلين صعدا . وكانت لحيته سوداء خفيفة ، وفمه أشدق يكاد اللعاب يسيل من جانبه ، فوقفت أنظر إليه حيناً وأعجب من قدرة الله الذى جعل هذا سيداً للناس . وجذبنى كمال الدين من جبتى ، فالتفت إليه فوجدته يومئ إلى أن أسير لأجلس حيث كان تيمور يشير . فذهبت إلى الكرسى الذى أشار إليه فى جواره وجذبت كرسيًا آخر وأشرت إلى كمال الدين أن يجلس عليه . ولم أدر ما الذى حمل صاحبى على أن يجذب جبتى عند ذلك ، ولكنه جلس عند ما أشار إليه تيمور . وقد كنت أتمثل تيمور كبعض النمور أو الفهود ، له أنياب ومخالب وزئير وزمجرة ، ولكنى لم أجده فى الحق إلا رجلا أو نصف

رجل ، فلم ألبث أن حللت عقدة وجهى ، وفككت حبسة لسانى ، ووجدت نفسى أكلمه كما أكلم النـاس ، بل لقد جعل يؤنسنى بقوله ويغمرنى بعطفه ، ووجدته يضحك أحياناً ، ويدرك من المعانى ألواناً . ولست أنكر أننى لم ألبث أن نسيت حنقى عليه وسوء ظنى به ، وأقبلت عليـه طيب النفس منشرحاً . وتلطف بى فكان يمد يده إلى بقطع مختارة من طرف الطعام ، وكنت فى الحق جائعاً ، فوجدت فى الأكل لذة لم أعهدها ولم أعرفها . وكان حياله طبق فيه فاكهة تأخذ العين بجمال منظرها ، ولست أعرف اماها كانت من بعض ما حمل إليه من أطراف الصين ، أو من غوطة دمشق ، فمد يده إلىّ بواحدة كانت لها رائحة لا يشبهها ريح المسك والعنبر ، ولا يدانيها لون الورود . فرفعتها لأمتع نفسى من شميمها ، ثم قضمت منهـا قضمة كأنها الشهد فى مذاقها ، وكدت أقضم منهـا أخرى لولا أن جذبنى كمال الدين من جبتى ، فأمسكت على مضض ونظرت نحوه بمؤخر عينى فهمس لى قائلا : « هدية الملوك لا تؤكل . . »

فعجبت من قوله لأن الله إنما خلق هذه الفواكه اللذيذة لنأكلها ونشكره على جزيل نعمه ، ولكننى لم أجد حيلة فى نصيحة

صاحبي ، فهو أعلم بما كان ينبغي لى أن أفعل فى مجالس الملوك . فوضعت الفاكهة فى حجرى وانصرفت إلى بقية طعامى ، وشعرت بارتباك كاد يفسد علىّ غدائي . ولكن تيمور مد يده إلى ورك ديك سمين فقدمها إلى وهو باسم ، فأخذتها من يده وشكرته فى أدب مقلداً حركة من حولى فى تحاياهم ، ثم أمسكت الورك بيميني فى سكون ، ولم أستطع أن أمد يدى إلى شيء آخر . فجذبني كمال الدين من جبتى فالتفت إليه مستفهماً ، ولكنى قبل أن أسمع همسته سمعت تيمور يسألنى : « لم لا تأكل ما أعطيتك ؟ » فالتفت إليه فى أدب وقلت معتذراً : « أيها الپادشاه ما كانت هدايا الملوك لتؤكل . وهذا صديقي يجذبنى من جبتى » .

فضحك تيمور حتى بدت نواجذه ، ومال على ظهره حتى اهتزت لحيته ، وأغمضت عينه . وسمعت كمال الدين يهمس : «هذه ورك تؤكل» فرفعت بهايدى فأكلتها وأنا فى حيرة شديدة لا أعرف ماذا يطلع به صاحبي علىّ مع كل لقمة . ولكن تيمور تبسط فى محادثتى ، واشترك مَنْ حول المائدة فى التلطف بى ، حتى سُرِّى عنى وتركت النظر إلى مشورة صديقى ، وأقبلت على المائدة آكل كما يريد الله للناس أن يأكلوا حتى امتلأت ، وأمتعت

نفسى بكل الطيبات . وقضيت عند تيمور بعد الغداء ساعات فى شجون الحديث، كأننى لم أكن فى صباح ذلك اليوم ملقى فى سجنه.

أيتها الأقدار العجيبة !

وكان الشعراء عند الباب ينتظرون الدخول . فلما صلينا العصر أذن لهم تيمور بالدخول وجلس فى البهو الأعظم وجلس الأمراء والأعيان من حوله فى وقار وقد وضعوا أيديهم على الصدور ، وأمالوا رءوسهم على النحور، حتى مست لحاهم أحزمتهم الحريرية أو الذهبية . وأقبل الشعراء واحداً بعد واحد ، وجعلوا يتغنون بالسيد الأعظم ويصفون جمال هيئته وشدة هيبته ، وسيفه ورمحه ، وقوة ساعده ورقة قلبه ، وكان منظرهم فى الحق مسلياً ، إذ كانوا يتمايلون ويهتزون، وينظر كل منهم بمؤخر عينيه إلى الناس ليرى أثر قوله على الوجوه . مساكين هؤلاء ! جعلت كلما سمعت من أحدهم معنى تأملته لأرى صدقه ، فإذا سمعت وصف جمال تيمور نظرت إلى وجهه، وإذا سمعت وصف قوته صوبت بصرى فى جسمه وصعدته ، وإذا سمعت وصف سيفه ورمحه التفتُّ إليه لأرى هل معه من ذلك آلة حتى فرغ الشعر ، وهز تيمور رأسه مرتاحاً ، وأذن للشعراء أن ينصرفوا . ثم أشار إلى رجل قائم عند

رأسه، فانصرف وراءهم، ولا أدرى بم أمره، وأغلب ظنى أنه لم يأمر بعقاب أحد منهم على كذبه، فقد قالوا إن أعذب الشعر أكذبه. ولأمثال تيمور حرص على مثل هذه الأقوال المنمقة، والصور المخترعة، فهى تستقر فى العقول فلا يزعزعها من بعد شيء، ومثل هذه الأقوال قد زيفت على الناس معنى العظمة، وأفسدت معنى الكرم والعدالة، وجعلت من العقلاء الأبرار عبيداً فى الأغلال. وليست هذه أول مرة رأيت فيها أثر الألفاظ فى الناس، فقديماً كان الإنسان أسير الألفاظ.

ومهما يكن من الأمر فقد جلست أتأمل ما كان، وأوازن بين المحاسن وأضدادها، ثم تنبهت بعد حين إلى جذبة فى جبتى، فالتفت فإذا كمال الدين يغمزنى بعينه مشيراً نحو تيمور، فالتفت إليه فوجدته يبسم ويقول: «لقد أبعدتك عنا تأملاتك أيها الشيخ الجليل».

ولمحت فى مظهره ورنين صوته شيئاً كثيراً من العطف حتى رققت له ولمت نفسى على سابق ظلمى إياه، وعرانى ارتباك فلم أستطع جواباً.

فقال لى متلطفاً: «كنا نتحدث فى أمر نحب أن نسمع فيه رأيك».

فقلت وقد سرِّى عنى : « فيم كان الحديث ؟ »

فقال : « كنا نتمنى لو استطاع الإنسان أن يعرف حقيقة قدره فى أعين الناس . »

فقلت مبادراً : « هذا شىء يسير. لقد عرفت قدرى فى أعين الناس دائماً . »

فقال باسماً : « ولكنى جربت ذلك فلم أجده كما وجدته . »

فقلت له : « لعل الناس يخشونك . أمِّنهم خوفك تعرف ما تشاء أن تعرفه . »

فضحك وقال فى لهجة التحدى : « أتقدر أن تخبرنى كم أساوى من المال ؟ »

فقلت ناظراً إلى من حولى فى ارتباك : « أظن أن هؤلاء السادة أقدر منى على جواب مثل هذا السؤال . »

فقال ضاحكا : « لم أجد عندهم ما يشفينى . قل ولا تخش شيئاً » . فنظرت إليه متردداً ، ثم تجرأت وجعلت أفحصه ببصرى وقلت :

— لا أظنك تساوى أقل من ألف دينار .

فضحك حتى استلقى على ظهره وضحك من معه وراءه، ثم قال :

— إنك لم تبلغ فى جوابك شيئاً . إن ملابسى وحدها تساوى ذلك المقدار من الدنانير .

فقلت وقد امتلأت سروراً من صدق حدسى : « لقد صدق ظنى إذاً . فما كنت أنظر فى تقدير ثمنك إلا إلى هذه الملابس » .

فعاد إلى الضحك حتى كاد نفسه ينقطع ، وضحك أصحابه مثله حتى لم يبق فى المجلس أحد لا يضحك غيرى أنا وكمال الدين. ونحن ننظر إليهم ونتعجب مما يضحكهم .

وبعد حين هدأ تيمور وظهر عليه النشاط وانشرح صدره ، ثم نظر إلىّ جاداً وقال : « أيها الشيخ المبارك ، إننا نحب أن نسمع وعظك » . فوقعت كلمته علىّ وقعاً ثقيلاً ، وزادت حيرتى عند ما نظرت حولى ، ورأيت من كان هناك من حراس وأتباع ومن لحى شهباء وعمائم مكورة بيضاء . فماذا كان لى أن أقول بين هؤلاء ؟ وما خرجت من سجنى لكى أعظ تيمور ، ولعل تلك العظة تعيدنى إلى ما كنت فيه من ظلام جحرى . وترددت طويلاً وأطرقت حائراً وكدت أنطق معتذراً ، ولكنى لم أجد لنفسى عذراً . وسمعت تيمور يقول لى : « لقد سمعت عن ورعك وعلمك فأحببت أن أراك وأن أسمعك ، فلا تحرمنا

من بركة مواعظك » . فشعرت كأن روحاً جديداً يسرى فى أعماق قلبي ، ونسيت إشفاقى وخوفى ، وقمت كأننى أنشط من عقال . فأحسست جذبة فى طرف جبتى ، ولكنى لم أبال صاحبي ، وانطلقت أتكلم ، فقلت ناظراً إلى تيمور : « لا تصدق حرفاً واحداً مما يقوله هؤلاء الذين يمدحونك ، فإنهم إنما يبيعون لك سلعة يعرفون أنك تحبها » .

وما نطقت بهذه الكلمات حتى رأيت الجمع ينتفض كأن ناراً لذعتهم ، ورأيت لحاهم تخفق ، ونظروا إلىّ ثم نظروا إلى تيمور ليروا ما هو صانع بى . ولكنى لم أنظر إلى أحد وقلت مستمرًّا : « وإذا أردت أن تسمع عظة فلا شىء يعظك خير من الحقيقة ، فتأمل وفكر والتمسها . لقد خلقك الله كما خلق من قبلك وكما هو خالق من بعدك ، وجعل لك أياماً على هذه الأرض لن تعيش أكثر منها . ولقد كنت قبل أن تخلق نسياً منسياً ، وستمضى بعد حين وتذهب عن هذه الأرض لا تأخذ منها شيئاً ، فلا تجعل هذه الأيام القصيرة تغطى على الحقيقة الخالدة ، ولا تجعل هؤلاء الذين يمدحونك يسخرون من حكمتك . قد خلقك الله كما خلق هؤلاء الناس جميعاً ، وجعل لكم الحياة ميداناً وامتحاناً لكى تؤدوا

الواجب الذى ألقاه جل وعلا على الإنسانية عند ما خلقها منذ قال : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » . وما عبادته إلا السعى إلى الكمال الذى قدره للخلق ، وجعله قصد حياتهم . كان من قبلك ملوك بلغوا من السلطان ما بلغت ، ثم أضاتهم الحياة فمضوا عنها وصاروا نسياً منسيًّا . فهم اليوم صور وأسماء مجردة معطلة من كل مجد وهيبة ، لا فرق فيها بين فرعون و بين العبد الذى كان يسجد عند قدميه . فالملوك الذين لم يخلفوا إلا آثار العسف والطغيان لم يكونوا أهلا للانسانية بل كانت حياتهم على الأرض لعنة لأنهم جحدوا نعمة الله الذى وهب لهم الحياة . كان المجد عند الطغاة أن يذلوا الأعزاء ، وأن يسفكوا الدماء ، وأن يجعلوا أهل الأرض عبيداً ليملقوا كبرياءهم وغرورهم . فلما مرت أيامهم ذهبوا بعد أن دمغهم اليقين ، فعلموا ولات حين علم أن كل ما اضطربوا فيه لم يكن سوى غرور من الغرور ، وليس فيه شىء سوى الغرور . و بقيت الأرض بعدهم باسمة كأنها تسخر من جهالتهم العمياء .

لقد مررت يوماً بغابة ، ورأيت فيها تنازع الحيوان والحشر، وهناك استطعت أن أدرك الرسالة السامية التى أعدها الله

للانسان ، أن يعيش على قانون الرحمة والحب لا على القانون الطليق الذى يحكم الغابة . ولكنى كلما تأملت بدا لى أن من بني الإنسان من يريدون أن يطفئوا نور الله ، وأن يمسخوا الرسالة السامية ويعودوا إلى قانون الغابة طمعاً فيما يصيبونه من وراء ذلك من مجد حيوانى وحشي . وهؤلاء ليسوا سوى نكسة من نكسات الحياة ، وفلتة من فلتات أقدام الإنسانية فى صعودها نحو العلا . الأرض لا تضيق بالناس جميعاً إذا أرادوا أن يعيشوا فيها لما أراد الله لهم ، بل هى تتسع للجميع وتفتح ذراعيها للجميع ، وتدعو الجميع إلى الحياة السعيدة . فهنيئاً لمن استطاع أن يكون من رسل الرحمة ، ومن أكبر الإنسانية وأعظمها ، فلم يسفك دماءها ولم يدنس كرامتها ، وسعى فى تحقيق الخير ، وأعان على تحقيق السعادة للجميع . »

ولما انتهيت إلى آخر قولى تنفست نفساً عميقاً وشعرت بأن حملا أزيح عن كاهلى ، ونظرت حولى حتى وقعت عينى على تيمور .

وما كان أشد عجبى إذ رأيته يبكى . نعم كان يبكى وهو مطرق والدموع تنحدر على لحيته . وكان الجمع كله مطرقا يشارك فى البكاء ، إلا صديقى كمال الدين فقد كان ينظر إلى مأخوذاً وصدره

يعلو و يهبط فى اضطراب . فلما رآنى قد أمسكت قام نحوى ولم يعبأ بأحد ، حتى صار أمامى وضمني إلى صدره ، قائلا فى صوت متهدج : «لقد عرفت أنك لن تخشى فى الحق أحداً . وأحمد الله إذ لم تطعني عند ما جذبتك من جبتك » .

ولما عزمت على الخروج بعد ذلك صافحني تيمور متأثراً ، وأمر لي بخلعة أخرى ، فذهبت إلى دارى عند الغروب بخلعتين كريمتين من الپادشاه كأنني لم أكن عند شروق الشمس ملقى فى سجنه . فسبحانك يا ألله !

١١

وجدت فى اليوم السابع بعد خروجى من السجن حركة فى جانبولاد ، وكنت ذاهباً إلى المسجد الذى جعلني تيمور إماما له، فسمعت ضجة عظيمة حسبت أنها هيعة حرب أو حدث من الأحداث . كان الناس يتواثبون و يتسابقون فى هياج و يقولون « خرج تيمور »

خرج تيمور بكل جيشه وكل أمرائه عائداً إلى سمرقند، فلم يبق من جيشه أحد فى جانبولاد ، وخرج معه كثير من أصحاب

الأعلام وحملوا قدورهم معهم ، لأنهم لا يقدرون على مفارقتها أو الحياة من غيرها ، فهي عندهم أعز من الولد وأحب من الوطن . وخرجت مسرعا لأنظر إلى الموكب الضخم ، ولم أستطع مغالبة نفسي فى نزوتها . فرأيت تيمور وهو خارج، وسلمت عليه ولا أنكر أنني أحسست فى قلبي عطفاً عليه . مسكين هو ما كان أفقره إلى السلام ! ورأيت السيد القاضي صاحب السيف يسير وراءه فى مؤخرة الجيش على بغلة حمراء ، وكانت قدوره الخمسون محملة على قافلة من الإبل تسير فى آثاره . وكنت قريباً منه على جانب الطريق فوقعت عيني عليه وتبسمت له وأحسست له رقة . مسكين هو كذلك . فقد كان الحزن بادياً عليه ، ولما رآني أدار وجهه ولم يرد على ابتسامتي . ثم مضى الموكب حتى خرج من المدينة . وهكذا خلت جانبولاد من تيمور بين عشية وضحاها !

وبعد يوم واحد عاد السلطان علاء الدين إلى جانبولاد، ونزل فى قصره ، ورجع الأمر إلى مستقره ، وكان لعودته يوم مشهود أخذت فيه المدينة زينتها ففرشت له الأرض بالطنافس، ورفعت له الأعلام فوق البيوت — أعلام تنم عما فى القلوب من بشر

ولبست أعلاما تنم عما فى القدور من ذهب . وازدحم أهل جانبولاد على جانبى الشارع الأعظم لتحيته ، وكنت فيمن خرج لرؤيته ، ووقعت عينى على هودج فى الموكب ، ولمحت فيه (عليَّة). ولكنها لم تكن تلك التى كنت أتمثلها فى الخيال .

أين هى من (نجوى) الصالحة الباسمة ذات العينين الناطقتين . أين هى من (نجوى) التى لا تفارقنى ولا تزال توحى إلى ؟ أين هى من (نجوى) التى لا أبرح أراها فى لمعة الشمس وفى ضوء القمر ، وفى فم الزهرة ، وفى قطرات الندى فوق الغصون ؟

وقد اعترانى عقب ذلك وجد غلب على نفسى ولم أستطع أن أدرك علته أو أن أصرفه عنى ، فكنت لا أخرج من بيتى إلا إلى المسجد ثم أعود منه إلى دارى . وكان كمال الدين يزورنى كل يوم ويدعونى إلى الذهاب إلى بيته فأعتل له بعذر حتى جاءنى يوماً وجعل يحملنى على الخروج فقال لى : « اخرج إلى الناس وأظهر لهم أنك لا زلت بشراً ، فقد كادوا يفتتنون بك وكلما احتجبت عنهم ازدادوا فتنة » . ففتحت عينى من الدهشة وصحت به : « يفتتنون بى ؟ »

فقال : « نعم ! فهم يظنون أنك أنت الذى أخرجت تيمور من

جانبولاد ببركتك وكرامتك . وكلما احتجبت اخترعوا عنك الأحاديث والمعجزات »

فتعجبت من قوله ولكن عجبي لم يلبث أن خبا وسكن ، لأن الناس كانوا منذ القدم هكذا . لا يرضيهم أن يأخذوا الناس كما خلقهم الله أناساً . فهم عندهم إما مردة شياطين أو بررة أولياء . ولا يصدقون فى ذلك إلا آذانهم . ولا حيلة فى جعلهم يقنعون من الناس بمرتبة البشرية — مزيج من الخير والشر ومن الضعف والقوة . وجعلت أستغفر الله من أن أكون قد سببت هذه الفتنة ، وعزمت على أن أخرج إليهم وأعاود فيهم دروسى ، فالعلم وحده هو الذى يستطيع أن يلقى على الناس شعاع الحقيقة .

وقد تعمدت بعد ذلك أن أتظاهر للناس ببعض ما أكره من الحلال ، بل لقد تعمدت أن أقترف الآثام جهرة لعل الناس يعدلون عن فتنتهم بى ، فما كانت أعمالى تزيدهم إلا فتنة . كانوا يرون آثامى تجلياً ، وحماقاتى رموزاً ، حتى عجزت عن صرفهم عن اعتقادهم . فتركت الأمر كله ، ولم أجعله فى فكرى ، آملا أن يهدى العلم النفوس ويهذبها بعد حين .

وكنت فى دارى ذات مساء فسمعت طارقاً يدق الباب ،

وكنت لم أر صديقى كمال الدين فى ذلك اليوم، فوقع فى نفسى أن يكون هو الطارق. فأسرعت لأفتح له ، ولكنى دهشت عندما رأيت رجلا لا أعرفه ، وكان رجلا حسن الوجه واللحية ، عليه هيئة العلماء، وله سمت الصالحين . فرحبت به ورجوته أن يدخل. فاعتذر قائلا : « لعلنى قطعت عليك تسبيحك أيها الشيخ الصالح، فأرجو منك عفواً . ولكن مولاى السلطان قد بعثنى فى طلبك.»

ولا حاجة بى إلى إطالة الحديث فى وصف ما دار بينى و بينه فقد كان لا بد لى من رؤية السلطان . وكان علاء الدين عندى كريماً جليل القدر ، فهو سلطان وطنى ، وعرفته الملك الصالح والسلطان البر والعالم الورع . فلم أتردد طويلا فى الذهاب إليه مع كل ما كان فى نفسى من العزوف عن غرور الحياة .

ولما بلغت القصر ودخلت فى رحابه ، وانتهيت إلى مجلس السلطان، رأيته فى حلقة من العلماء والحكماء . فانشرح صدرى لمنظره إذ لا شىء أجمل من الملوك إذا أحاطت بهم مثل تلك الهالة النبيلة . قيل إن حكيم اليونان سئل عن الحكم يوماً فقال إنه لا ينبغى أن يحكم الناس سوى الفلاسفة . ولو تأمل العاقل هذا القول لوجد أنه الحق عينه . ولو أنصف الناس لأجمعوا على تجربته ،

فان الدول كانت منذ القدم لاتدين إلا لأولى القوة ، حتى كاد الناس يعتقدون أن الحكم وقف على هؤلاء، لا يجمل بأحد غيرهم أن يقبض على صولجانه . بل لقد قالوا فى بعض الأمثال إن الله ليزع بالسلطان مالايزع بالقرآن . ومهما يكن من الأمر فإنهم لم يجربوا مرة إقامة دولة على حكم الفلاسفة . وأغلب ظنى أنهم لوجربوا مثل ذلك الحكم لاستساغوه وأقبلوا عليه، ولم يرضوا به بديلا . فإن الفلاسفة على الأقل يعرفون ضعف البشرية ، وهذا يكفل لحكمهم الرحمة ، ويعرفون كرامة الإنسانية ، وهذا يكفل لهم التطلع والتسامى . ويعرفون معنى الفناء ، وهذا يكفل لهم الاعتدال .

وكانت ليلة مباركة تلك الليلة التى قضيتها فى مجلس علاء الدين، لم أنصرف عنه بخلعة ، ولم أذق عنده طعاماً ، ولكنى عدت من عنده بقلب عامر بالمعانى . ما أجمل الملوك إذا أحاط بهم الحكماء !

١٢

وجدت نفسى يوماً وقد ألقت بى المقادير فى موقف لم يخطر لى ببال ولم يمر بى فى خيال ، إذ دعانى علاء الدين السلطان وجعل

يحدثنى حديثاً طويلا ، انتهى منه إلى أن طلب منى أن أكون وزيره ، يكل إلىّ أمور جانبولاد ، ويعتمد علىّ فى حكمها ونشر العدل فيها . وعرض فى ثنايا حديثه بأنه يريد تقريبى منه ، لأنه يريد ألا يحرم من بركتى وكرامتى . حتى علاء الدين نفسه يصدق أن لى كرامة وبركة ! . ولو لم يكن من شأن هذا الحديث أن السلطان يريد أن يلقى على كاهلى عبئاً ينوء به ، لوجدت فيه تسلية وفكاهة . ولكن كيف يدخل الضحك إلى قلبى والسلطان يهددنى بأن يجعلنى وزيره لكى أدبر له أمور الناس ؟

حقاً أننى كنت أنتقد وأسخر وأضحك كلما رأيت من الحياة حماقة أو سخافة ، ولكن شتان بين أن أنظر إلى السابح فى الماء وبين أن أسبح أنا فى اللجة المضطربة . وكيف كنت أستطيع أن أدبر أمور الناس بعد أن أفسدهم الحكام من قبلى ؟ فإذا كان ولا بد لى من أن أكون وزيراً فلا بد كذلك من أن يأتى السلطان إلىّ بالناس الذين أحكمهم . هذا طبيعى و بديهى ، فلست أقدر على أن أخلق نفسى خلقاً جديداً ، وأقلب كل معايير القيم عندى رأساً على عقب ، حتى أقوى على أن أحكم الناس كما هم فى الحياة . وإذا لم يكن فى إستطاعة السلطان

أن يأتى لى بناس يصلحون لحكمى ، فلا أقل من أن ينتظر بى حتى أعلّم أهل جانبولاد وأبصّرهم وأذكيهم ، فيكونوا أهلا لوزارتى . وأما هؤلاء الذين يضطربون فى المدينة ، فإنهم لا يعرفون إلا العنف ولا يفهمون إلا القوة، ولا بد لهم من إحدى حالتين — إما أن يكونوا فرائس ، و إما أن يكونوا مفترسين .

لقد حاولت أن أعلمهم، ولكن التعليم لايجدى إلا بعد طول الزمن، حتى يحرك القلوب و يفتح العقول ويهذب النفوس ، فيستعد الناس للسلام والكرامة والعدل، والأمان الكامل فى غير عنف ولا قهر . وقد يرى المعلم أثر تعليمه سريعاً فى تلميذ أو فى تلاميذ كما رأيته فى ولدى كمال الدين ، أو فى (نجوى) الصالحة . ولكن هذا نادر والنادر لاحكم له . نجوى! مالقلبى كان يخفق كلما ذكرتها؟ مالى كنت كلما انصرفت عنها فى تفكيرى رأيتها تعود إلىّ وتأخذ بمسالك بصرى ومسارب فكرى ؟ فهل كنت أحبها ؟ هل هذا الذى أحسسته نحوها هو مايسميه الناس حبًا ؟ فيم إنكارى هذه الحقيقة عن نفسى وعنها وعن الناس؟ لقد طالما سألت نفسى عن ذلك الشعور وجعلت أحلله وحاولت أن أسميه : أهو الذى يسمونه الحب ؟ لقد سمعت عن المحبين وقرأت من أحاديثهم طائفة فى دواوين

الشعراء أو فى كتب الأخبار ، ولـكن هل ذلك الذى كنت أحسه فى قلبى حبا مثل حبهم ؟ حقاً كان قلبى يرف إذا رأيتها وأصعد فى سماء الملائكة إذا سمعت صوتها . وكنت أجد حديثها قبلا سلاما لا لغو فيه ولا تأثيم ، مثلما يتحدث فيما بينهم أصحاب اليمين . ولكنى كنت أرانى أقنع منها بالنظرة العابرة لا أطيلها ، وأمتلىء وحياً من الـكلمة القصيرة من كلماتها ، و يسرى فىّ البشر والاطمئنان إذ حييتها عند الوداع . ولم يخالجنى ذلك الشوق المحرق الذى يتحدث عنه المحبون ولا ذلك القلق المؤلم الذى يصف الشعراء أثره فى أجسامهم النحيلة . فهل هذا السلام الذى كنت أحسه هو الحب ؟ وهل هذا الذى كان يحملنى إلى السماء هو الحب ؟ كانت (نجوى) تملأ كل وجدانى وفراغ روحى ، وكنت لا أجد الحياة تستحق أن أحياها إلا إذا كانت هى واسطتها .

لقد شردت بى أفكارى عما كنت فيه فقد أرادنى علاء الدين على أن أكون وزيراً . ولما اشتدت حيرتى ولم أجد من الأمر مخرجاً، استأذنته فى أن أتريث فى جوابى، فما كان لى أن أسرع فى إجابة السلطان العظيم عفو ساعتى . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، فقد كان خطباً يسيراً إذا قيس بما هو أعظم وأدهى . فقد بعث

علاء الدين فى أثرى رجلا من خواصه وأنا منصرف من القصر، فسايرنى حتى بلغت دارى، فدخل معى وقضى فى صحبتى صدراً من الليل، يدخل بى فى شجون الحديث، حتى أفضى بى أخيراً إلى سر همسه فى أذنى : يريد السلطان أن يزوجنى من عليّة ابنته . علية ابنة علاء الدين ! أيتها الأقدار العجيبة ، أكنت تسخرين؟ ما سمعت هذه الكلمات حتى دار رأسى وكذبت أذنىّ وكدت أخرّ صعقاً . ولكن الرجل كان ماثلا أمامى ينظر إلىّ مشدوهاً من صمتى ووجومى واصفرار وجهى . ولا شك أنه كان ينتظر أن أقوم أمامه فأخلع عمامتى وأطير فرحاً ، ولكنى لم أفعل بل بقيت فى دهشتى ووجومى . وبعد لأى استطعت أن أجمع نفسى وأن أنطق فقلت له : « هذا شرف لم أكن به جديراً ، ولم أتوقع أن تفاجئنى به الأيام اقتحاما . ولا بد لى من أن أهدأ حتى أستطيع الجواب . »

فربّت الرجل على كتفى وهو قائم ، وابتسم فى أدب قائلا : « ليس عليك من بأس فى أن تتمهل إلى الغد ، فإن السعادة تفاجئ الناس كما تفاجئهم النكبات » . ثم انصرف بعد أن انحنى فى تحيته ، وشيعته إلى الباب وأنا أجرر رجلى فى صمت .

وقضيت تلك الليلة مهموماً ، وتكشفت لى نفسى عند ذلك كما لم تتكشف لى من قبـل ، وزالت عنى أوهامها وغشاواتها فأبصرتها على حقيقتها .

كنت فى شبابى أرى قمم الجبـال من بعيد تغطيها الثلوج الشهباء ، وأرى أشعة الشمس تصبغها عنـد الغروب وعند الشروق فتلونها ألواناً ساحرة تخلب النظر والفؤاد . وكم تمثلتها وتصورت ما فيها من بهاء ، وكنت أحس فى نفسى دافعاً لا يقاوم يدفعنى إلى توقل الصخور والسمو إلى هـذه القمم الساحرة ! فأطعت نفسى يوماً وخرجت فى طلبها ، فسافرت سفراً مضنياً تمزقت فيه أعضائى وضعف جسمى وقاسيت فيه ألوانا من العذاب ومن التعب والجوع والبرد ، حتى كدت أهلك . ولكنى كنت أصبر نفسى وأبتسم للأمل الذى كان يملأ قلبى كلما تمثلت منظر القمم الجميلة . وكنت كلما ضجرت وكاد الضعف يغلبنى وهممت بالعودة خائباً أحسست الأمانى تدفعنى وتنسينى آلامى . فأنظر إلى أعلى نحو القمة وأمنى النفس بما لا يزال أمامى . وأخيراً بلغت القمة وسقطت من الإعيـاء وخانتنى الأنفاس ، وكادت الخيبة تقتلنى . فقـد تلفت حولى فلم أر

إلا صخوراً مثل الصخور وكهوفاً وثلوجاً مثل ما مررت به من فجوات وثلوج . فقمت أجر نفسي وعدت أدراجي وأنا في حمى محرقة والخيبة تحملق في وجهي ، حتى عدت إلى السهل ونظرت إلى القمة وأنا أتهالك على الأرض من شدة الإعياء ، فرأيتها لا تزال تلمع كما كانت تلمع ، وتصبغها الألوان الساحرة ، كما كانت من قبل تصبغها . فصحت في حنق : أيتها القمة الساخرة ! وقد كان هذا هو الشعور الذي استولى عليّ عند ما فارقني الرجل رسول السلطان وجلست إلى نفسي أراجعها .

كانت عليّة ابنة علاء الدين صورة خلابة في الخيال يخادعني بها قلبي ، ولكن (نجوى) كانت أمام عيني فتاة ساذجة ليس حولها بريق ولا زخرف . كانت نجوى تكلمني فأدرك وأحس فتستجيب . كانت قطعة من الحياة الإنسانية لم تجذبني بالبريق ولم تخدع بصري بالألوان والأوهام . فما كدت أفكر ساعة فيما قاله لي رسول السلطان حتى عرفت الحق ، فإذا كان زخرف القمة قد خدع عيني مرة فما كنت لأخدع بالقمم مرتين .

وخطرت لي عند ذلك فكرة كأنها كانت من إلهام الحق ، فقمت مسرعاً إلى دار صديقي كمال الدين . فلما دخلت جذبت

صديقى من يده حتى صرت معه فى الغرفة ، وقلت له مبادراً بغير مقدمات : « أتزوجنى (نجوى) » ؟

وكان هذا القول بغير شك عجيبا ، ولا أدرى كيف قلته . فوقف كمال الدين ينظر إلىّ فى دهشة وعطف ، ثم رفع يده إلى كتفى فربّت عليها ، وجعل يلاطفني فى الحديث حتى قال : « استرح قليلا ، حتى نشرب فنجاناً من القهوة معا ، ويذهب عنك ما يساورك من الاضطراب » .

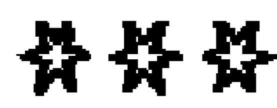
ثم جعل يسألنى عن أحوالى وعما أزعجنى فأفضيت إليه بكل ما كان من أمرى . ثم قلت له : « فلا بد من زواجى (نجوى) الآن إذا كان ذلك ممكنا ، وإلا فأنى لا أدرى كيف السبيل إلى الخلاص من زواج علية ابنة علاء الدين. »

فعلم كمال الدين أن الأمر جد كله ، وأننى لم يكن بى بأس من مرض ، ولا شر من خبال ، عند ما حدثته فى أمر نجوى. فأطرق طويلا ثم تنفس وقال : « لو كان الأمر خاصًّا بى لقضيت فيه راضياً » . فصحت مسروراً : « وهل كنت لأرضى برأيك حتى أسمع قولها ؟ » فقام كمال الدين مطرقاً ودخل إلى الدار ، فأبطأ فيها حيناً ، وجلست فى أثناء ذلك أدير فى نفسى أحاديث مختلفة

مضطربة . فماذا يكون من أمرى إذا رضيت ؟ وماذا يكون إذا أبت ؟ وماذا أنا صانع فى علاء الدين ؟ وفى وزارة جانبولاد ؟ وهل كنت أشفق على نفسى من تحمل الأعباء ؟ أم كنت أخشى إغراء الحكم وفتنة الدنيا فيه ؟ فكم من ورع دنسه الحكم ، وكم من قديس أفسده غرور السلطان . أم كنت أخشى من العجز عن حكم الناس ؟ والسياسة كما عرفتها معاناة لأمور الخلق وانغماس فى حمأتهم ، لا يتفق فيها المثل والصورة ولا يأتلف فيها الورع والقوة . فالناس منذ كانوا ناساً ، ولا يأمن من يحكم إذا أرضى طائفة أن يسخط أخرى . والعدل مركب وعر قلما يستطيعه الناس ، و إذا استطاعه الحاكم لم ترض به كل الرعية . وما زالت الأفكار تضطرب بى فيما قرب وفيما بعد ، حتى عاد كمال الدين باسماً وقال لى وهو يمد يده : « قد زوجتكها » .

فخطفت يده خطفاً وقلبى يرفرف مثل الطائر فى قفصه، وقمت مسرعاً ولم أتكلم بكلمة، وسرت فى الليل أعدو حتى بلغت دارى لا ألتفت إلى يمين ولا إلى شمال ، وقضيت سائر الليلة أصلى وأناجى الآمال .

ولما أصبح الصباح ذهبت إلى القصر ، ودخلت بين عمده ، فانفرج لى صف الحرس ودخلت إلى البهو حتى بلغت مجلس السلطان » .



وهأنذا اليوم فى جانبولاد . وسائر قصتى لا تخفى على أحد . وقد صرت إمام السلطان ، أذهب كل يوم إلى مسجده الذى بناه ليكون مدرسة لى أعلم فيه الناس مما علمنى ربى فى الحياة . فلعلهم يوماً يبلغون ما يحب لهم علاء الدين من خير فى الأولى والآخرة . وقد وهب لى السلطان بيتاً أعيش فيه مع (نجوى) ، فى طرف من أطراف المدينة ، أذوق فيه السلام بين قلبها الطاهر وبين كتبى .

وقد أحضرت ولدى عجيباً إلى جانبولاد ، فجعله السلطان خازناً لكتبه ، وقد أرضاه حسن خطه وأعجبه إنشاء رسائله . وأما جميلة ابنتى فقد زوجها السلطان لوزيره الذى اخترته له ، وفقه الله للخير كله — صديقى وتلميذى كمال الدين . وأما صديقى أبو النور فإنه لم يرض أن يفارق ماهوش فإنه لا يحب أن تدفن عظامه

إلا فى ثراها . ما أسعد هذا الصديق الطيب ، لأنه يأخذ الناس كما يجدهم ، ولا يضيق يوماً بالحياة .

وكلما أقبل المساء اجتمع عندى كل من أحب . و بعد صلاة العشاء لا أزال أجد لذتى معهم فى السمر بالحديث .

وقد قصصت على أحبابى فيما قصصت هذه السيرة لتكون تسلية فى ليالى رمضان . وكم تخللتها من فكاهة ، وكم قامت (نجوى) خجلة من المجلس كلما جاء فى القصة ذكرها، وكم تخابث ولدى بعجيب وتندر ، وكم ضحكت جميلة وكركرت كالطير إذا غنى . ولم أكن أحسب أن ولدى يكتب القصة كل ليلة بعد انصرافه ، و ينمقها بإنشائه بعد كل مجلس فى خفية ، حتى طلع بها علينا ليلة بعد أن فرغت من حديثها ، ثم عرضها علىّ وهو يبتسم ابتسامته الخبيثة الحلوة . ووجدت خطها ما شاء الله حسناً .

وقد وعدنى بأن يجعلها وقفاً على أهل جانبولاد ، فلعلهم يجدون فيها متعة إذ يقرأونها جيلا بعد جيل .

اقرأ

طه حسين

صوت أبي العلاء

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

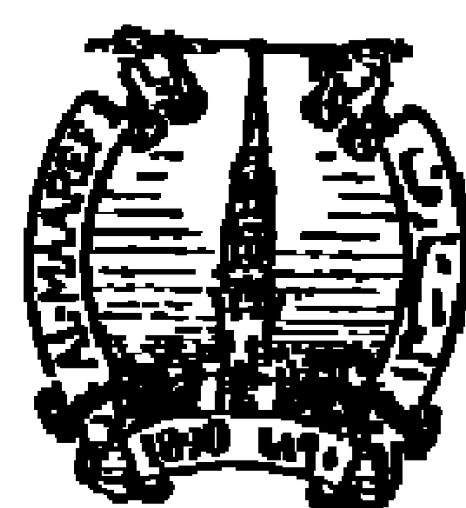
صوت أبي العلاء

طه حسين

صوت أبي العلاء

اقرأ ٢٣

تصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر
بمعاونة الدكتور طه حسين بك وأنطون الجميل بك
وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف



مقـــدمة

العالم العربيّ كلّه يذكر أبا العلاء في هذه الأيام ذكرى محبّ له، مُعْجَب به. والعالم الغربي يشارك في هذا الذّكر الذى يملؤه الحب والإعجاب. وقد كان أبو العلاء سيّئ الظن بنفسه، سيّئ الظن برأيه؛ وهذه آية التواضع ومعرفة الإنسان قَدْرَ نفسه. وكان أبو العلاء سيّئ الظن بالناس محبًّا لهم مع ذلك رفيقاً بهم، ينصحهم ما وجد إلى نصحهم سبيلا، يلين لهم حيناً ويعنف بهم أحياناً؛ وهذه آية الفِطنة وذكاء القلب والتعمق لحقائق الأشياء. وكان أبو العلاء سيئ الظن بالتاريخ، وبما يسميه الناس خلوداً في التاريخ، وكان أبغض شيء إليه أن يُقْدم الإنسان على الخير ليُذْكَرَ في حياته أو بعد موته بأنه خيِّر، أو يحجم الإنسان عن الشر ليذكر في حياته أو بعد موته بأنه تقيّ نقيّ. إنما كان أبو العلاء يحب أن يُقْدَمَ على الخير لأنه الخير، وأن يُحْجَمَ عن الشرّ لأنه الشر. لم يكن يكره شيئاً كما كان يكره انتظار الجزاء. كان عفيف النفس والخلق والرأى والعقل جميعاً.

ومن أجل هذا لم يكن حلو الأثر فى نفوس الذين يعرفونه ولا يألفونه ، ولم يكن عَذْبَ الصوت فى آذان الذين يسمعون له دون أن يُطيلوا الاستماع إليه ، ولم يكن محبّب النفس إلى الذين يتّصلون به ، فيرون منه هذه الخشونة التى تأتى من صراحة الخُلق ، وهذه الغلظة التى تأتى من إيثاره للحق .

وأراد أبو العلاء أن يترجم عن نفسه ، فترجم عنها كما استطاع : كانت نفساً حازمة صارمة ، فترجم عنها فى حزامة وصرامة ، وازورّ الناس عن معانيه ، ثم كانوا عن ألفاظه أشدّ ازوراراً . ضاق به أكثرهم ، ولم يكد يأنس إليه منهم أحد ، وارتفعت معانيه وألفاظه عن أكثرهم ، ولم يكد يخلص إلى تلك ولا يطمئن إلى هذه إلا الأقلّون عدداً . ومع ذلك فأبو العلاء فذٌّ فى الأدب العربىّ كله . وصل من حقائق الأشياء إلى ما لم يصل إليه أديب عربىٌّ قبله أو بعده . ومع ذلك فأبو العلاء فذّ يُعَدُّ من هذه القلة الضئيلة التى يمتاز بها الأدب العالمىّ الرفيع على اختلاف العصور وتباين أجيال الناس وتفاوت حظوظ هذه الأجيال من الحضارة ورقّ الشعور . فإذا فخر الأدب اليونانى القديم بأبيقور ، وإذا فخر الأدبُ اللاتينىّ القديم بلوكريس ، وإذا فخرت

الحضارة الأوربية الحديثة بأدبائها وفلاسفتها المتشائمين، فمن حق الأدب العربيّ أن يفخر بأبي العلاء؛ فليس أبو العلاء أقل من أحد من هؤلاء الممتازين خطراً ولا أهون منهم شأناً، ولعله أن يمتاز منهم بفنون من الأدب والعلم لم يظفروا بها ولم يشاركوا فيها. فقد كان أبو العلاء فيلسوفاً عميق الفلسفة، صادق النظر فى أمور الحياة والأحياء. وكان أبو العلاء شاعراً، رفيع الشعر نقيّه خلاّبه، يبلغ به من الروعة الهادئة فى كثير من الأحيان ما لم يبلغه الفحول من شعراء العربيّة فى قديمها وحديثها. وكان أبو العلاء أديباً، وعى من الأدب ما لا نعرف أن أحداً من أدباء العرب وعى مثله. وكان أبو العلاء صاحب خيال نفّاذ، يصعد إلى أرقى ما يستطيع الخيال أن يبلغ، وينفذ إلى أعمق ما يستطيع الخيال أن ينفذ إليه. ثم كان أبو العلاء فوق هذا كله إنساناً ممتازاً بأدق ما لكلمة الامتياز من معنى: لم يؤذ أحداً، وإنما أحسن إلى الناس جميعاً بما قدَّم إليهم من نصح، وبما أورثهم من هدى. ثم سار سيرة نقيَّة لم يسرها أحد من المسلمين؛ فارتفع عن الصغائر إلى أرقى ما يستطيع أن يرتفع، وتنزه عن الشر والإثم كأحسن ما يستطيع الإنسان أن يتنزه عنهما.

فإذا ذكره العالم العربى الآن محبًّا له مُعْجَباً به ، بعد أن مضى على ميلاده عشرة قرون ، فإنما يردّ هذا العالم إليه أيسر حقه وأهونه ، وإنما يرد إلى أبى العلاء حقه كاملا يوم يحبه الناس ويُعْجَبون به حبًّا وإعجاباً لا يقومان على الغرور والافتخار بالماضى القديم والاعتزاز بالتُّراث المجيد ، فلم يكن أبو العلاء يحفل بشىء من هذا ، وإنما يقومان على قراءة آثاره وفهمها ونقدها : وليس من المهم أن نقبل آراءه ومعانيه ؛ فهذا أهون الأشياء . إنا لنعجب بأفلاطون وأرسطاليس وبكثير من الشعراء والفلاسفة والعلماء فى اللغات المختلفة والآداب المتباينة ، وما أكثر ما نرفض من آرائهم . فالحياة فى تغير مستمر ، والعقل فى رقىّ متصل ، والإنسان متواضع مهما تبلغ به الكبرياء . فليس على النوابغ بأس ألا نقبل منهم كل ما تركوا لنا ، وإنما علينا نحن البأس كل البأس ألا نقرأهم ولا نفهمهم ولا ننقدهم ولا نَصْدُرَ فى حكمنا عليهم عن القراءة والفهم والنقد .

وقد كتبت عن أبى العلاء ما أذن الله لى أن أكتب ، وأظن أنى قد عرّفته بعض التعريف إلى هذا الجيل الحديث . ولكنّى لم أؤدِّ إليه من ذلك إلا بعض حقه ، وما زالت له علىّ حقوق

كثيرة أرجو أن يُعيننى الله على تأدية بعضها ؛ فقد عرّفتِ أبا العلاء إلى خاصّة الناس ، وأحب أن أعرّفه إلى عامّتهم ، وأن أعرّفه إلى عامتهم بالترجمة الصحيحة عنه ، والتفسير الدقيق لشعره . فلو قد نشرت اللزوميات فى عامّة المثقّفين لما فهمها أكثرهم ؛ لأن أبا العلاء لم ينشىء اللزوميات لعامة المثقفين . بل لست أدرى ! لعله أن يكون قد أنشأها لنفسه ، وللذين يرقَوْن إلى طبقته من أصحاب العلم الكثير والبصيرة النافذة . فما الذى يمنع أن أيسّر اللزوميات للذين لا يستطيعون أن يقرءوا شعرها العنيف الذى لا يخلو من غرابة ، والذى تَزْوَرّ عنه أذواق المتعمقين للأدب العربى ، فضلا عن الذين لم يأخذوا من هذا الأدب إلا بأطراف يسيرة قصيرة .

وأنا أعلم أن كثيراً من الناس سينكرون علىّ هذه الترجمة ، سينكرها بعضهم لأنها تُشيع التشاؤم وتُسبغ على الحياة ألواناً قاتمة ، وما ينبغى أن نُشيع التشاؤم فى الشباب ، ولا أن نصوّر لهم الحياة إلا مشرقةً باسمة . ولكنى مع ذلك لا أُشفق على الشباب من تشاؤم أبى العلاء ؛ فالحياة أقوى وأنضر من تشاؤم المتشائمين . وما ينبغى أن تكون الحياة حلوة مسرفة فى الحلاوة ؛

فربما دعا ذلك إلى شيء من الغَثَيان والإسراف فى الرضا والابتسام ، قد يجعل الحياة فاترة خائرة قليلة الحظ من هذه الشدّة التى تكوّن الرجولة ، وتخلق المروءة ، وتجعل الشباب قادرين على أن يلقَوا المِحَن والخطوب بشيء من الجَلَد والشجاعة والصبر .

والشباب فى حاجة إلى شيء من التشاؤم يزهّدهم فى الحاضر ، ويرغّبهم فى المستقبل ، ويدفعهم إلى الإصلاح ، ويزيّن فى قلوبهم حب الرقىّ . وليس شبابنا فى حاجة إلى أن يلتمسوا التشاؤم عند « نتشه » و « شوبنهور » ، ولا إلى أن يلتمسوا النقد الخُلقى والاجتماعى عند « لارشفوكو » وأمثاله من نقاد الأخلاق والاجتماع ، وعندهم أبو العلاء قد امتلأت آثاره بالنقد السياسى والخلقى والاجتماعى ، وبتصوير الرجولة ومُثُلها العليا . فليلتمس شبابنا هذه المعانى عند أسلافهم من شعراء المسلمين وفلاسفتهم ، وعند أبى العلاء منهم خاصة .

وليقرأ شبابنا بعد ذلك هذه الخواطر والمعانى والآراء عند الفلاسفة والأدباء المتشائمين فى اللغات الأخرى ، قراءة الغنىّ

المستطلع ، لا قراءة المعدم الذى يلتمس الثروة عند غيره والثراء منه قريب .

وسينكر قوم هذه الترجمة ؛ لأنها لون جديد من ألوان الأدب العربىّ الحديث . أليس غريباً أن نترجم إلى العربية شعراً هو من صميم العربية ؟ بلى ! ليس ذلك غريباً ؛ وإنما الغريب ألا نترجم هذا الشعر . فما دامت الثقافة تتسع وتَنتَشِر ، وما دام جمهور المثقفين يعظم ويضخُم من يوم إلى يوم ، فلا بدّ من أن نقرِّب إليهم أدبنا القديم ، ونزينه فى قلوبهم ، ونصله بأذواقهم ؛ فليس كل الناس قادراً على قراءة اللزوميات ، والفصول والغايات ، ورسالة الغفران ، وفهمها . ومع ذلك فيجب أن يعرف المثقفون جميعاً هذه الآثار وغيرها معرفة حسنة ، وإلا انقطعت الصلة بين الحديث والقديم ، وأصبح مكان الأدب العربى القديم من المثقفين المعاصرين مكان الأدب اللاتينى من الفرنسيين والإيطاليين . والله يعصم الأدب العربى القديم من أن تُقْطَع الصلة بينه وبين الأجيال العربية إلى آخر الدهر .

وأنا مع ذلك أذيع هذه النماذج من ترجمة اللزوميات ، ومعها النصوص الكاملة من شعر أبى العلاء . فمن استطاع أن يقرأ

هذه النصوص دون أن يحتاج إلى ترجمتها فليفعل وخَلاَه ذمٌّ . ومن استطاع أن يقرأ الترجمة وعجز عن قراءة النص فليفعل ، وحَسْبُه ما يظفر به من الفائدة . ولكن قوماً بين أولئك وهؤلاء سيقرءون النص وسيقرءون الترجمة ، وسيوازنون بين الصوت والصدى . وما أشك في أنهم سيجدون صوت أبي العلاء أعذب في نفوسهم وأحب إلى قلوبهم من صداه الذي تصوِّره الترجمة ؛ لأني أنا أجد صوت أبي العلاء أعذبَ في النفس وأحب إلى القلب من كل صوت ومن كل صدى .

طه حسين

القاهرة يونيو سنة ١٩٤٤

١

لله أهل الفضل والعلم ما أجدرهم بالرحمة وأخلقهم بالرثاء ! . إنى لأراهم غرباء فى بلادهم ، مجفوِّين من أقاربهم ، منبوذين من ذوى معرفتهم . وإنى لأرى الفقر قد ضرب عليهم رواقه ، وألقى عليهم كَلْكَله ، فحرمهم لذة الأغنياء ، بسباء الخمر ، وسبى النساء ، وبالغ فى إذلالهم والغض من أقدارهم ، حتى إن أحدهم لينال أقل القوت وأدنى العيش ، فيحسبه عطاء موفورا ، أو نعمةً مسبغة عليه.

وا أسفاه لنار شبيبتى حين تخبو ، فلن أجد عنها سلوة ولا عزاء مهما ترتفع بى المنزلة ، ولو نُصَّ لى خباء بين النجوم . ذلك أن الشبيبة وحدها هى التى تتيح لى اقتضاء لذّاتى واكتساب حاجاتى . فإذا انقضت فلا أمل فى لذة ، ولا مطمع فى رضاء حاجة . أليس لكل عمل قدرٌ قدِّر به ، ووقتٌ أتيح فيه ، فليس بعد الخامسة عشرة طفولة ولا صِباً ، وليس بعد الأربعين مرح ولا مجون .

أجِدَّكَ لا يقنعك ما يتاح لك فى هذه الدنيا من حظ ! رفِّه عليك ، واقصد فى أطماعك ، ووازن بين ما تسدى وما يُسْدَى إليك ؛ فلو قد فعلت لتبينت أنك لا تُسْدِى شيئا ، وأن الذى يُسْدَى إليك كثير .

إنما مثل ما يصيب الناس من حسن الحظ وسوئه مَثَل الأرض التى يتاح لبعضها أن ينبت ذكىّ النبت ورائعه ، ولا يتاح لبعضها الآخر إلا أن ينبت غليظ النبت وفجه ، ولا يعطى منه إلا الردىء المقوت .

تواصل حبل النسل ما بين آدم و بينى ، وكان ذلك حمقاً تجنبته ، وغيًّا برئت منه ، فقطعت هذا الحبل ولم أصله ، وأعرضت عن الزواج فلم أعقب فى هذه الأرض نسلا . إنما كان اتصال النسل عَدْوَى شاعت فى الناس كما يعدى المتثائب جاره ؛ أما أنا فقد برئت من هذه العدوى وعُصِمتُ من آثارها ، فلم أتثاءب حين تثاءب جليسى .

إيه للناس ! لقد عرفتهم حق المعرفة ، و بلوتهم أحسن البلاء ، فرأيتهم كلهم هباء ، ورأيت أمرهم كله باطلا . أفترانى زهدت فيهم إلا لأنى بهم عليم .

ليتنى استطعت أن أستدرك ما مضى ، وأتلافَى ما فات ؛ إذاً لأنكرت من أمرى بعض ما عرفت ، ولغيّرت مِنْ مواصلتى القديمة للناس نفورا منهم وانقطاعا عنهم . ولكن أين السبيل إلى ذلك وقد اشتعل الرأس شيبا كأنه النار تأخذ أطراف القصب !

إنما هو القضاء يجب الإذعان له والرضا به ؛ فالقضاء إذا حُمّ قص جناح القطا فلا تنهض ، وقلّم أظفار السباع فلا تصول ، وأنت عن فهم هذا القضاءعاجز ، ومن الوصول إلى سره ممنوع . ألا تراه يكفّ بأس ذى البأس ، فيمنعه من البطش حين يريد البطش ، ويحتفظ للسهل بسهولته وللحزن بحزونته مهما تتعاقب عليهما الأحداث . انظر إلى جبل رَضْوَى ما زال قائماً على كثرة ما نطحته الجيوش ، وانظر إلى أرض قُبَاء ما زالت قائمةعلى كثرة ما اختلف عليها من الرايات والأعلام . أذعِنْ إذاً واستسلم ، ولا تحاول فهما ولا تأويلا ؛ فان القضاء لا يخضع لفهم ولا تأويل .

إنما الحياة شر ، فلننصرف عن هذا الشر . وإنما الوجود بؤس ، فلنقطع أسباب هذا البؤس . وإنما الآباء جُناة على أبنائهم مهما يبلغوا من علوّ المنزلة وارتفاع المكانة ، ومهما يُتَحْ لهم من التفوق والسلطان . ويزيد جناية الآباء على أبنائهم حدّة ، ويزيد بُعْدَ الآباء من أبنائهم شدة ، أن يتاح لهؤلاء الأبناء من الذكاء والنجابة، ما يكشف لهم عن هذا الشر العظيم الذى دفعهم آباؤهم إليه حين منحوهم الوجود ، واضطروهم إلى الحياة ، فورّطوهم فى مآزق

لا مخرج لهم منها ، ومصاعب لا سبيل إلى اجتيازها ، ومشكلات لا أمل فى حلها .

خذ حِذرك ، ولا تسمع لكل ما يقال ، ولا تستجب لكل ما تدعى إليه . أسئْ ظنك بأدب الأدباء ؛ فإنهم لا يدعون إلا إلى المين، ولا يرغّبون إلا فى الباطل ، ولا يهدون إلا إلى الضلال.

أتريد أن تعرف الحق فاستمع لى ، إنما نحن صيد يطلبنا الموت حيثما اتّجهنا ، ويظفر بنا حيثما اعتصمنا ؛ فلا تفْرَق ولا تجْبُنْ ، وأقدم على ما ترى الإقدام عليه ؛ فلن يمنحك الفَرَق خلوداً ، ولن يجنّبُكَ الجبن موتا .

فَكِّر أىّ فرق بين القوى إذا أدركه الخوف، وبين الضعيف إذا مسه الهلع ! فكر ما خطب الظبي إن أشفق من الموت ، وفيم تنكر عليه هذا الإشفاق ، إذا لم يكن الأسد الهصور بمأمن من الخوف والإشفاق ؟

أُولو الفضل فى أوطانِهم غُرباء ... تَشِذُّ وتنأى عنهمُ القُرباء
فما سَبَئُوا الراحَ الكميتَ لِلَذَّةٍ ... ولا كان منهم للخِرادِ سِباء
وَحَسْبُ الفتى من ذِلة العيش أنه ... يروحُ بأدنَى القُوتِ وهو حِباء
إذا ما خَبَتْ نارُ الشبيبة ساءنى ... ولو نُصَّ لى بين النجوم خِباء

أرابيك فى الوُدِّ الذى قد بذلْتَه ... فأُضْعِفُ إن أجدَى لديكَ رِباء
وما بعد مَرِّ الخمسَ عشرةَ مِن صباً ... ولا بَعد مَرِّ الأربعين صَبَاء
أَجِدَّكَ لا ترضى العباءة ملبساً ... ولو بان ما تُسديه قيل عَباء
وفى هذه الأرض الرَّكودِ منابتٌ ... فمنها عَلَندًى ساطعٌ وكِباء
تَوَاصلَ حبلُ النسلِ ما بين آدم ... وبينى ولم يُوصَل بلامىَ باء
تَثَاءب عمرٌو إذْ تثاءبَ خالدٌ ... بِعَدْوَى فما أَعْدَتْنِىَ الثؤباء
وزهَّدنى فى الْخَلْقِ معرفتى بِهم ... وعلمى بأن العالَمين هَباء
وكيفَ تَلَافِىَّ الذى فاتَ بَعْدَ ما ... تَلَفَّعَ نيرانَ الحريقِ أَباء
إذا نزل المقدارُ لم يكُ للقطَا ... نهوضٌ ولا للمُخْدِرات إِباء
وقد نُطِحَتْ بالجيش رَضْوَى فلم تُبَلْ ... ولُزَّ بِراياتِ الخميسِ قُباء
على الوُلْدِ يَجْنِى والدٌ ولوَ أَنَّهم ... وُلاةٌ على أمصارهم خُطباء
وزادكَ بُعداً من بنيكَ وزادَهم ... عليكَ حُقوداً أَنهم نُجباء
يَرَوْن أباً أَلقاهمُ فى مُؤَرَّبٍ ... من العَقْد ضَلَّتْ حَلَّه الأرباء
وما أدَبَ الأقوامَ فى كلِّ بلدةٍ ... إلى المَيْنِ إلا معشرٌ أُدباء
تَتَبَّعُنَا فى كل نَقْبٍ ومَخْرِمٍ ... مَنَايا لها من جنسها نُقَباء
إذا خافتِ الأسدُ الخِماصُ من الظُّبا ... فكيفَ تعدّى حكمهن ظِباء

٢

دع ما استقرّ فى طباع الناس من إهمال الحق و إيثار الباطل اغتراراً بالظاهر الكاذب : من لفظ خادع ، أو وهم شائع ، أو خرافة باطلة . فإنما حياة الناس ألوان من تلك الأباطيل المحترمة كأنها حق . منها ما أجمع الناس عليـــه فى كل جيل وفى كل موطن من تكريم الجثة بعد الموت مع أنها صـائرة إلى التغيّر والاستحالة وصائرة هباء بعد حين ، وحرصهم على الحياة و اغترارهم بها و انخداعهم بلذاتها و اندفاعهم خلف الآمال والأمانىّ ، كأنهم خالدون ، مع أن الموت لا بدّ منه ولا مندوحة عنه .

وما الروح فى الجسم إلا كالراح فى الدنّ ، لكلّ مقتض يبتغيها ، وطالبٌ يرغب فيها . فطالب الراح الإنسان، وطالب الروح الموت.

إن بعض الأدعياء ليعيّروننا لفظ المَعرّة ، يزعمون أنها مشتقة من العَرّ (الجرب) . فانظر إلى سخف الناس وما يتورّطون فيه من الانخداع بالأسماء ، والاندفاع فيما تدعو إليه من زغبة أو رهبة غير حافلين بالحق ولا ناظرين فيه . لو أن للأسماء أثراً فى الوجود والحس، لكانت الأسود إنما تستمد إباءها من أجماتها التى

تسكنها وهى قَصَب الأَبَاء ، ولكان أهل يثرب قد أصابهم التثريب والعيب ، مع أنهم أحقّ الناس بالمدح والمثوبة ، لما جالدوا عن الدين وذادوا عن حوضه ، بضرب يطير الفرخ عن وكر أمّه ، ويُبطل مزية الدِّرْع فيردّها كالقميص لا تُغنى غناء ، ولا تدفع بلاء . ولو كان ذلك حقًّا لكان اسم ذى نَجَبٍ — وهو موضع بجزيرة العرب — علةً لنجابة سكانه ونبوغ أبنائه . أجَلْ ! إن ذلك باطل ، مصدرُه فساد العقول ، ومرض القلوب ، وانحراف الأمزجة .

وإنك لترى لفظ الدين والخير أشيع الألفاظ بين الناس ، يتخذونهما طريقاً إلى الحياة والغِنى ، وجُنّة من الموت والفاقة ، مع أن معنى الدين عزيز لا ينال إلا بالكد ، ولا يُدْرَكُ إلا بالمحاولة ، ولا يسمو إليه إلا من أعدّ له العُدّة من جهاد بالنفس والقوة والمال . وما كنت لآخذ بلفظ الخير ، فأزعم بعد ذلك أنى خَيِّرٌ ، وإنْ طالما ردّد الخطباء هذا اللفظ ولا كته أفواههم . إنما الخير معنى يؤثّر فى القلوب والعقول ، وتظهر آثاره فى الأعمال ، لا لفظ تلوكه الأفواه وتذهب به الرياح .

وهل رأيت أضعف عقلاً ، أو أسخف رأياً ، أو أضل حِلْماً ،

أو أسفه نفسا ممن يتفزّع ويتشاءم ، أو يستبشر و يتفاءل بالألفاظ الخادعة ، أو الأمور التى لا أثر لها فى عمـل الطبيعة ! تلك الأعرابية تَفَزَّع وترتاع حين تعرض لها نواعب الغِرْبان أو أسراب الظباء ، مع أن الداهية قد تُلِمّ بالحىّ البصير الحازم ، تفاءلَ أو تشاءم ، لا يؤثر ذلك فى قَدَر ، ولا يدفع ذلك شيئاً من البلاء .

وأولئك قيس بن عَيْلان أعداهم الغِنى والثروة ، فعـادوا من أثرياء الناس وأهل الغنى منهم ، ولولا أن سبق بذلك قضاء محتوم وقدرٌ مكتوب ، لما وَرِيَتْ لهم زَنْدٌ ، ولا كان لهم رِفدٌ ، ولعادوا إلى ما كانوا فيه من الفقر المدقع ، يُغنيهم رَعْىُ الكلأ ، ويُقنعهم الحصول على أدنى القوت ، مختلفين فيما بينهم ، لا يجمعهم نظامٌ ، ولا يلُمّ شعثهم قانون ، و إنما هو الغَلَبُ والقهر ، وهو السلطان والاستبداد .

تُـكَرّمُ أوصالُ الفتى بعد موته ... وهُنّ إذا طالَ الزمانُ هَباء
وأرواحُنا كالراح إن طال حبسُها ... فلا بدّ يوماً أن يكون سِباء
يعيِّرُنا لفظَ المَعرّةِ أنّهــا ... من العَرِّ قومٌ فى العُلا غرباء
فإنّ إباءَ اللّيثِ ما حلّ أنفَــهُ ... بأنّ مَحَلّاتِ الليـوثِ أباء
وهل لِحق التثريبُ سكان يثربٍ ... من الناس لا بل فى الرجال غَباء
همُ ضارَبوا أولادَ فِهْرٍ وجالدوا ... على الدين إذ وَشْىُ الملوكِ عَبَاء

ضِرابًا يُطير الفرخَ عن وَكْرِ أُمِّهِ وَيَتْرُكُ دِرْعَ المرءِ وهى قَبَاء
وذو نَجَبٍ إن كان ما قيل صادقًا فما فيه إلّا مَعْشَرٌ نُجَبَاء
هل الدِّينُ إلا كاعبٌ دون وصلها حِجابٌ ومَهْرٌ مُعْوِزٌ وحِباء
وما قبلت نفسى من الخير لفظَه وإن طال ما فاهت به الخُطَباء
تَفَزَّعُ أعرابيةٌ أن جَرَتْ لها نواعبُ يستعرضْنَهَا وظباء
وما الأَرَبَى للحىِّ إلا مُسِفَّةٌ على أنهم فى أمرهم أرباء
تعادتْ بنو قيس بن عَيْلان بالغِنَى فثابوا كأن المسجد الثُّؤباء
ولولا القضاء الحتمُ أُخْبِيَ واقدٌ ولم يُبْنَ حول الراقدين خِباء
وعادوا إلى ما كانَ إن جاد عارضٌ رأوا أنّ رَعيًا فى البلاد رَباء
يُبيئون قتلاهم بأكثر منهمُ وإن قتلوا حُرًّا فليس يُباء

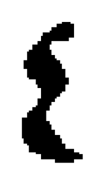
٣

شيئًا من الفطنة ونفاذِ البصيرة ؛ فإنما الأمر بينك و بينى يقوم على الرياء والنِّفاق . إنى لأظهر لك غير ما أُضمر ، وأُبدى لك غير ما أُخفى . فليغفر الله لى هذه الزلة ، وليتجاوز لى عن هذه السيئة .

ما أكثر ما ينكر الإنسان أمر عشيره ! يرى منه ما يرضيه ويخدعه ، ولو قد تكشّف له ما وراء ذلك لرأى شرًّا ونُكرا .

برئت إلى الله من الذين لا يعبدونه وحده ناصحين مخلصين لا يشوب دينهم رياء ولا نفاق .

أُرَائيكَ فليغفرْ لِيَ اللهُ زَلّتِي ... بذاكَ ودينُ العالمين رِئاء
وقد يُخْلِفُ الإنسانُ ظَنَّ عَشِيرِهِ ... وإن راقَ مِنْهُ مَنْظَرٌ وَرُؤاء
إذا قَومُنا لم يَعبدوا اللهَ وحدهُ ... بنُصْحٍ فإنَّا منهُمُ بُرَءاء



٤

سألت رجالا من أهل العلم وأصحاب الفلسفة والبصر بحقائق الأشياء عن مَعَدٍّ ورهطه ماذا أعدّوا لاتّقاء الخطوب ، وماذا دبّروا لتجنب الأحداث ؟ وسألتهم عن سبأ ماذا كان يَسبي إذا حاربَ ، وماذا كان يَسْبأ إذا فرغ للهوه ، وإلامَ صار أمره بعد هذا كله ؟ فقالوا : إنما هي الأيام قد أُنزل الناس على حكمها ، لم يُعْفَ من صروفها مليكٌ يُفَدّى بالأنفس والأموال ، ولا تقيٌّ يدين الناس له بالكرامة أو بالنبوّة .

إنى لأرى فَلَكاً يدور بما فيه ومن فيه ، وإن لهذا الفلك لسرًّا مصوناً ، وخبراً مكتوماً .

فأعْرِض عن الدنيا ، ولا تغررك عن نفسك ، لا فى شبيبة ولا فى شيخوخة . إنما هى نصيحة أُسديها إليك مخلصاً ؛ لأنّى أُوثرك بالحب ، وأنا أربأ بالذين أحبهم عن طلب الدنيا والتورّط فى آثامها .

لا تطلب الدنيا ، واصْبِرْ نَفْسَك على أحداثها وكوارثها ، وأقم فيها إقامة المجاهد المرابط ، فان ما يُلِمّ بأهلها من النوائب ليست إلا كتائبَ يبثها القضاء ، مُفرّقة حيناً ومجمّعة حيناً آخر ، ولا مَرَدَّ لها على كل حال .

سألتُ رجالا عن مَعَدٍّ ورهطِهِ ... وعن سَبَإٍ ما كان يَسْبِي ويَسْبَأُ
فقالوا هى الأيام لم يُخْلِ صَرْفُها ... مَلِيكاً يُفَدَّى أو تقيًّا يُنَبَّأ
أرى فلكاً ما زال بالخلق دائرا ... له خبرٌ عنا يُصانُ ويُخبأ
فلا تطلبِ الدنيا وإن كنت ناشئاً ... فأنّى عنها بالأخلاء أربأ
وما نُوَبُ الأيام إلا كتائبٌ ... تُبَثُّ سرايا أو جيوش تُعبَّأ

٥

بنى زمنى لا تجِدُوا علىّ، ولا تنقِموا منّى أن أُنكر حالكم، وأذمّ فعالكم ؛ فإنى أُنكر من نفسى مثل ما أنكر منكم ، وأعيب من فعلى مثل ما أعيب من فعلكم ، أشاركم فى الحياة ، فأشاركم فى الإثم ، وفى اللوم .

ما أقدرَ اللهَ على أن يردّنا إلى هذا التراب ، فنسكن بعد حركة ، ونهدأ بعد عناء !

لقد جاورتْ نفسى هذا الجسم النكد ، فما أصابها من جواره إلا الأذى والصدأ الذى يُفسد معدنها، ويجلب لها كدراً بعد صفاء.

بنى الدهرِ مهلاً إن ذممتُ فِعالكم   فإنّى بنفسى لا محالة أبدأُ
متى يتقضَّى الوقتِ واللهُ قادرٌ   فنسكنَ فى هذا التراب ونهدأُ
تجاور هذا الجسمُ والروحُ برهةً   فما بَرِحتْ تأْذَى بذاك وتَصدأُ

٦

ما أكثر ما يستقبل الناس الصباح ، وما أكثر ما يستقبلون المساء ! ولكنهم جميعاً ينسَوْن ما يكون بينهما من الأحداث .

ما أكثر من يمضى من الساسة والقادة وقد سرّوا الناس

بسياستهم وقيادتهم ، أو ساءوهم بما دبَّروا وقدَّروا !

إن الملوك والرؤساء ليتتابعون فيما يَرِدُون من الهُلْك ، ولكن بلادهم تبقى على عهدها لا تتغيّر ولا تتبدل ؛ فمصر هي مصر ، والأحساء هي الأحساء ، وما أكثر مَنْ هلك من ملوك مصر وأمراء الأحساء ! .

أيْ أُمَّنا الدنيا ، إنك لخسيسة حقيرة ، فأفٍّ لنا نحن أبناءك من أوباش أخساء ، ورثنا عنك الخسة وضعة القَدْر . إنك لتعظيننا أصناف العظات ، وتقدِّمين لنا ألوان النصح ، بما تتكشفين لنا عنه من السوء والشر ، والناس مع ذلك يرونك خرساء لا تنطقين !

مَنْ لصخر بن عمرو أن يكون جسمه صخراً لا حياة فيه ! ومن لأخته الخنساء ، أن تكون ظبية ترعى مع الظباء ، لا حظَّ لها من عقل ! إذاً لتجنَّبا ما أصابهما من القتل ، والثُّكْل والحزن.

إن بحرك لهائج شديد الهياج ، مضطرب عظيم الاضطراب ، تعصف به الشهوات الجامحة ، والأهواء العنيفة ؛ ونحن في سفن يكتنفها الهول من كل وجه . فمتى يتاح لها الإرساء ومتى تتاح لأهلها العافية !

إنك لتعطفين علينا وترفقين بنا . وما أرى عطفك إلا قسوة ،

وما أرى رفقك إلاّ عُنفاً . و إنك لتنظرين إلينا ، فترى فى نظرك إلينا رحمة ولينا ، و إنه مع ذلك لَنَّظَرُ الشزْر ، لا يُصوِّر إلا الغلظة والجفاء !

إنما الناس على الأرض فى إحَن مستمرة ومحن متصلة ، يذوق بعضهم بأس بعض ، يتساقون الموت كما يتعاطون الشرّ ، على حين لا يصيب الوحش على الأرض من الشرّ إلا أيسره وأهونه .

فلا تنخدع بما ترى من جبالهم الشماء ، وعزتهم القعساء ، ومجدهم التليد والطريف ؛ فإنما هذا كله باطل وغرور .

إنما أُتيح لهم حظّ قليل من لذة ، ونصيب ضئيل من نَعْمة ، ثم ارتحلوا فإذا اللذةُ ألمٌ ، و إذا النعماء بأساء .

يأتى على الخلق إصباحٌ و إمساء ... وكلنا لصروف الدهـر نَسَّاء
وكم مضى هَجَرِىٌّ أو مُشاكِلُه ... من المَقاوِلِ سَرُّوا الناس أم ساءوا
تَتْوَى الملوكُ ومِصرٌ فى تغيرهم ... مصرٌ على العهد والأحساء أحساء
خَسِسْتِ يا أمَّنا الدنيا فأُفٍّ لنا ... بنو الخسيسة أوباش أخِسَّاء
وقد نطقتِ بأصناف العظات لنا ... وأنت فيما يظن القوم خرساء
ومَنْ لصخرِ بن عمرو أن جُثَّتهُ ... صخرٌ وخنساءه فى السِّرْب خنساء

يموج بحرُكِ والأهواء غالبـةٌ ... لراكبيه فهل للسفن إرساء
إذا تعطّفتِ يوماً كنتِ قاسيةً ... وإن نظرتِ بعينٍ فهى شوساء
إنسٌ على الأرض تُدْمِى هامَها إحَنٌ ... منها إذا دَمِيَتْ للوحش أنساء
فلا تَغرّنْك شُمٌّ من جبالهمُ ... وعِزّةٌ فى زمان الملك قعساء
نالوا قليلا من اللّذات وارتحلوا ... برغمهم فإذا النعماء بأساء

٧

إنما العليل المُعَنَّى طبيبٌ إذا عرف علّته ، واستقصى حقيقة الداء الذى يُعانيه . فاعرف عِلّتك فى هذه الحياة ، واستقص حقيقة ما يصيبك فيها من أذى ، وما يلم بك فيها من مكروه . إن أصل هذا كله حاجتك التى لا تنقضى ، وتتبُّعك لتحقيق ما تثير الحياة فى نفسك من رغبات . والرجل اللبيب هو الذى يشفى نفسه من الحاجة ، ويَكُفّها عن تتبّع المآرب .

يا ويحَنا ! إنا لنفر من الموت ، وليس لنا ملجأ من الموت ، ونحن مع ذلك نمضى فى الفرار ، وهو مع ذلك يلحّ فى اقتفاء آثارنا ، كأنما نحن الأحبّاء قد شطّت بهم نَوًى بعيدةٌ ، والموت عاشق ملحٌّ يأبى إلا أن تتصل أسبابه بأسبابنا .

إنّ الأعِلاّء إن كانوا ذوى رَشَدٍ   بما يُعانون من داء أطِبّاء
وما شفاكَ من الأشياء تطلبُها   إلّا الألِبّاء لو تُلْفَى الألِبّاء
نَفِرُّ من شُرْبِ كأسٍ وهى تَتْبعُنا   كأنّنا لمنايانا أحِبّاء

٨

إذا تمايز الناس فى أخلاقهم وخصالهم ، وافترقوا فى أقوالهم وأعمالهم ، فهم سواء فى فساد الطبع وسوء الغريزة .

وإذا كان كل الذين ولدتهم حوّاء يُشبهوننى فى الطبع والُخلق والسيرة ، فبئس من ولدت حوّاء للناس .

إنما أوثر العزْلة وأتجنّب الناس ، لأبرأ من أدوائهم ، وأعتصم من شرورهم ، وأطهّرَ من آثامهم . إنما أريد أن أكون كبيت الشعر يقوله الشاعر مُفرَداً لا سابق له ولا لاحق ، فهو بذلك آمنٌ عيوب القافية . إنما يأتينا السوء من الحياة الاجتماعية التى يجاور فيها بعضنا بعضاً ، فيشقى فيها بعضنا بجوار بعض .

لقد نادانى المنادى ألْوَيْتَ فانزِلْ . فلأفْهَمْ عن المنادى نداءه ، فهو لا يريد أنّى قد بلغتُ اللّوَى ، وإنما يريد أن نبتى قد ألوى،

وأن زهرى قد ذوَى ، وأنى قد أدركت الشيب ، فآن لى أن أرعوِى وأثوب إلى الرشد .

إنما الشيب كهذه النجوم التى لا تكاد تظهر فى الدُّجى حتى يتبعها المطر الواكفُ ، كذلك الشيب لا تكاد تظهر نجومه فى سواد الشعر حتى تنهلّ العبرات حزناً وخوفا وإشفاقا .

إن مازت الناسَ أخلاقٌ يعاش بها ... فإنهم عند سوء الطبع أسواء
أو كان كل بنى حواء يُشبهنى ... فبئس ما ولدت فى الخلق حواء
بُعْدِى من الناس برءٌ من سَقامهمُ ... وقربُهم للحِجا والدين أدواء
كالبيت أُفرد لا إيطاء يدركه ... ولا سِنادَ ولا فى اللفظ إقواء
نوديتُ ألويتَ فانزل لا يراد أتَى ... سيرى لِوَى الرمل بل للنبت إلواء
وذاك أن سواد الفَوْد غيّره ... فى غِرّة من بياض الشيب أضواء
إذا نجومُ قَتيرٍ فى الدُّجى طلعتْ ... فللجفون من الإشفاق أنواء

٩

أَسْرِعْ إلى ما يَخلُق بك من نفع الناس مُعرضاً عما لا خير فيه ، وبادر بذلك أحسن الأوقات ، وأشدها ملاءمة له ، وهو وقت الشباب ؛ فإن الشباب أوفق وقت لاستيفاء الحاجات

واقتضاء اللذات ، وهو لا يدوم بل الدهر ماحيه ومُخبي جذوته .
وما الشباب إلا كالنار ، يجدر بمن يريد الانتفاع بها أن ينتهز فرصة ذكائها وتلظّيها .

ولقد أصاب قوةَ شبابي وهنُ الشيب ، فلم أستطع أن أردّ ذلك الضعف قوة ، ولا أن أحوّل هذا الخمود استعاراً . ولئن كان الشباب كالنار إن من اليسير عليك إذكاء النار الخامدة بعد خمودها ، وليس من الممكن ولا من المتاح أن تسترد شباباً مضى ، أو تستأنف قوة فاتت .

ولست آمن عليك حين تخبو نار شبابك فتريد إذكاءها ، أن يعود عليك ما تحاول من نفعها ضرراً ، وما تطلب من خيرها شرًّا ؛ فكل قوة يبذلها الأشيب استئنافاً لحياة الشباب لا تزيده إلا ضعفاً ولا تفيده إلا وهناً .

أَكْفِئْ سَوامَكَ فى الدنيا مُياسرةً ... وأعرضَنْ عن قوافى الشعر تُكْفِئُها
إن الشبيبة نارٌ إن أردت بها ... أمراً فبادره إن الدهر مُطفئها
أصاب جمرىَ قُرٌّ فانتبهت له ... والنار تُدفِئُ ضيفى حين أدفئها
ألقى عليها جليسى فى الدجى حُمَماً ... فقام عنها بأثواب يُرَفِّئها

١٠

أجل ! قد عميت الأبصار ، وخُتِم على القلوب ، وأظلمت البصائر حين حُجب عنها نور الحق ، فظن الناس أنهم على دين صادق ، وإنما هم أهل نفاق ورياء ، ليس إلى إصلاحهم من سبيل ؛ فقد فقدوا أهمّ شرط للإصلاح وهو الحياء . وكيف يمكن أن يميل إلى الخير من لا يستحيي من الشر ! .

أيُّهذا العالَمُ السيئ والمنزل الموبوء ! لقد رأينا فيك المصلين ، ولكنا لم نر فيك الأتقيـاء .

ألَا لا يكذب الجاهلون؛ فقد خلع الناس ولاية الله من أعناقهم ، فليس فيهم له وليٌّ ولا صادق أمين .

أيتهـا البلاد التي اشتملت السعادة والشقاء ، واحتوت الفقر والثراء ! لقد حقّت عليك الكلمة ، ومضى فيك القضاء المحتوم بالخزى والتعس ؛ فأهلك أشقياء ليس لهم من شقائهم منفذ ولا لهم عنه صارف ، لا ينفعهم وعظ ، ولا يحكمهم إرشاد . لقد طالما عنّينا أنفسنا بالنصح والهداية ، فوعظ الواعظون وقام الأنبياء ، ولمّا يُجْدِ ذلك نفعاً ، ولمّا يأت بخير . البلاء باق لا زوال له ،

والداء عَياء لا شِفاء له ، وحكم الله فينا نافذٌ لا صارف عنه ، ولكنا بفطرتنا أغبياء لا نفهم ، وحمقَى لا نعقل :

قد حُجِبَ النور والضياء — وإنما دينُنا رياء
وهل يجود الحيا أُناساً — منطوياً عنهم الحياء
يا عالمَ السَّوْء ما علمنا — أنّ مصلِّيك أتقياء
لا يكذبنّ امرؤٌ جهولٌ — ما فيك لله أولياء
ويا بلاداً مشى عليها — أولو افتقار وأغنياء
إذا قضى الله بالمخازى — فكل أهليك أشقياء
كم وَعَظ الواعظون منا — وقام فى الأرض أنبياء
فانصرفوا والبلاء باقٍ — ولم يزل داؤك العَيَاء
حُكْمٌ جرى للمليك فينا — ونحن فى الأصل أغبياء

١١

تعالى الله الذى شمل الناس بنعمته ، وعمّهم برزقه ، لم يفرِّق بين فاضل وعاطل ، ولا بين ناقص وكامل .

لقد وهَتِ المروءة وأخْلَق أديمُها ، ومضى الحياء وعفتْ آثاره ،

حتى بغِّضت الحياة إلى البصير ذى اللبّ ، وكُرِّه العيش إلى الحصيف ذى العقل ، وأصبح الموت له راحةً والعدم له نعيما .

أجل ! لقد أصبح الموت خيراً من حياة ملؤها الشر ، وأحبَّ إلى النفس من عيش مفعم بالذل والاستبداد ؛ فقام على الناس ، ومنهم الألبّاء الأذكياء ، ظَلَمَة معتدون ، يحملونهم على ما يكرهون ، ويسوسونهم بما لا يحبون ، وهم بعد ذلك أوْلَى أن يحملوا نفوسهم على الخير ، وأجدر أن يأخذوها بالمعروف .

أجلْ ! لقد قَلَّت فى هذه الدنيا عن أهل الدين الصادق ، والاعتقاد الصحيح ، الذين لا يشوب صفاء دينهم كدر الرياء ، ولا صدأ النفاق ولا دنس الخديعة ، فإذا الناس فى الدين رجلان : أما أوّلهما فأبله لا يعقل أو محمَّق لا يفقه ، هو البهيمة لا يهديها إلى الحق عقل ، ولا يرشدها إلى الخير ضياء . وأما الثانى فذكىّ فطن ، ولكنه مختال مرح . فأنت من أهل الدين بين ماكر خادع ، وجاهل غبى .

ولعمرى لو أن الدين والتقى كانا عِيًّا وَبَلَهاً أو غفلة وحمقاً ، لقد كانت الأعيار التى ضُرِبت عليها الذلة ، والحُمُر التى أُخذت بالنزق والمسكنة ، أحق بالدين وأدنى إليه ، ولكان ذلك الأجرب الذى

أكلّه العبء الثقيل ، وهبّت عليه الريح الباردة ، فزادته تأذيا بدائه وتألما بعلته ، أهدى إلى الدين سبيلا ، وأكثر فيه رشداً !

أجلْ ! لقد عظم الشرّ فى هذه الحياة ، واشتد حرص الناس عليها ؛ فليس فيهم إلا محب لها ومشغوف بها ، حتى جعلهم الحرص كلهم فقراء ، لا يعرفون الغِنَى ، ولا يذوقون النعمة ، وحتى كان ما فيها من شقاء يُغريهم بها ، وما فى الموت من راحة يصرفهم عنه .

ولقد عظم فى نفوسهم أثر الحرص على الحياة ، حتى ما تجد لأحد من أصحابه صفيًا ولا صديقاً . وكذلك باعدت الحياة بين الناس قديماً ؛ فهم أعداء منذ كانوا وقد خُلِقوا ليكونوا أصدقاء .

إيهٍ أيها الحمقون لقد أخطأتكم العبرة ، وأضلتكم الموعظة ، فغفلتم عما كان يخلُق بكم أن تحفِلوا به وتتنبهوا إليه ! علامَ تأسفون إن دهمكم الموت وفارقتكم الحياة ؟ أفتعتقدون أن الشمس وهى أذكى منكم ناراً وأجمل بهاء تحس مالها من نباهة الشأن وحسن الطلعة ، فتأسف إن فارقها جمالها ، وتأسَى إن باعدها ضياؤها ! أمَا إن فى العالم لعِبَراً نافعة ، ومواعظ صالحة ، ولكن الناس أكثرهم لا يعقلون.

تعالى رازقُ الأحياءِ طراً لقد وَهَتِ المروءةُ والحياءُ

وإن الموت راحةُ هِبْرِزِيّ ... أَضَرَّ بلُبِّه داءٌ عَيَاءُ
ومالى لا أكونُ وصيَّ نفسى ... ولا تعصِى أُمُورِى الأوصياء
وقد فَتَّشْتُ عن أصحاب دينٍ ... لهم نُسُكٌ وليس لهم رياء
فألفيتُ البهائم لا عقولٌ ... تقيم لها الدليلَ ولا ضياء
وإخوانُ الفَطانة فى اختيالٍ ... كأنّهمُ لقومٍ أنبياء
فأمَّا هؤلاءِ فأهلُ مكرٍ ... وأمَّا الأوَّلون فأغبياء
فإن كان التُّقَى بلهاً وعِيًّا ... فأعيارُ المذلّة أتقياء
وأرشدُ منكَ أجربُ تحت عبءٍ ... تهبُّ عليه ريحٌ جِرْبِياء
وجدتُ النَّاس كُلُّهم فقيرٌ ... ويُعْدَمُ فى الأنام الأغنياء
نحِبُّ العيش بغضاً للمنايا ... ونحن بما هَوِينا الأشقياء
يموتُ المرءُ ليس له صفيٌّ ... وقبل اليوم عَزَّ الأصفياء
أتدرى الشمس أنَّ لها بهاءً ... فتأسَف أن يفارقها الإياء

١٢

جِدُّوا أيها الناس فيما أنتم بسبيله من تقرب إلىّ وتلطف بى ، ومن رفق تُظْهِرونه وغش تضمرونه ، ومن لفظ حلو تهدونه إلىَّ

ولوم مُرّ ترمونني به ؛ فلقد كثر ما أظهرتم الحب لى ، وأصابني من بغضكم طِوالُ السهام وقصارها ، وعظام الأمور وصغارها .

جِدّوا فى ذلك كله ؛ فلم يكن تقرُّبكم إلىَّ ليؤلِّف بيني وبينكم إلا إن صح ائتلاف الذال والظاء :

أراهُم يضحكون إلىَّ غِشًّا وتغشانى المَشاقِصُ والحِظاء
فلستُ لهم وإن قرُبوا أليفاً كما لم تأتلِفْ ذالٌ وظاء

١٣

ويلى على تلك الذوائب السود قد أغار عليها ذلك الشيب نهاريّ الثوب ، يمحو ظلمتها بضيائه قليلا قليلا حتى يأتى عليها .

أفينبغى أن آسَى على الشباب ؟! أم ينبغى أن أفرح بالشيب .؟!

أفلا أستطيع أن أتلقّى الشيب فرحا مسروراً ، معللا نفسى بما عسى أن يكون حقًّا من الأمانىّ ! فلعل هذا السواد الزائل قد كان دنساً أصاب تلك الذوائب ، ثم عُنِيَ الشيب بإزالته وحَرَص على محوه وإحالته إلى نقاء .

إيه أيتها الدنيا ! لقد عشقناك راغبين ، ثم أُشقينا كارهين ، وكذلك العشق شقاء ، والحب تعس ، والهوى هوان .

إيه أيتها الدنيا ! لقد سألناك البقاء ، وطلبنا إليك الخلود ، على مافيك من أذى ، وعلى ماتشتملين من ألم ، فأبيتِ ذلك علينا ، وصرفته عنا ؛ إذ كان الفناء لنا مقدوراً ، والبقاء علينا محظوراً .

إيه أيها الراغب في الدنيا الحريص عليها الذى كذَّب فيها ظنون الحكماء ، واتّهم في حبها رأى الفلاسفة ! لقد خدعتك نفسك وأضلّتك آمالك ؛ فإنما أنت وأصحابك إلى بعاد لا دنوّ بعده ، وفراق لا لقاء معه . إنما أنت وأصحابك عرضة لموت واقع غير مدفوع ، وحِمام نازل غير مردود .

دونك ما شئت من دروع ضافية وحصون واقية ، ومن معاقل و بروج ، ومن أسلحة وقوة ؛ فان ذلك إن استطاع أن يدفع عنك شيئاً من أذاة عدو ، فلن يستطيع أن يردّ عنك ما تحمله إليك الأيام من رَدًى لا بد منه ولا مندوحة عنه .

لا أحذِّرك بغير علم ، ولا أنهاك عن غير بصيرة ، و إنما أصدر في نصيحتى لك عن تجربة صادقة وبحث صحيح . الموت واقع لا شك فيه ، قد رهنته الطبيعة لوقت معين ، وجعلت له كتابا ثابتاً وأجلاً محتوماً .

قد زالت الشمس والماء بين يديك ، وأنت رجل تنتحل

الإسلام ، فدونك الظهر ، فأدِّ فريضته وأقم صلاته . وقد انحلّ جسمك ومضى أجلك ، وأدبرت عنك الحياة وأنت إنسان ليس من طبيعتك الخلود ، فدونك الموت فَرِدْ حوضه ، واحتسِ كأسه. أقْدِمْ أو أحْجِمْ فإنك ميت من غير ريب . لِمَ تكره الموت ، ولم تعاف كأسه وأنت لم تذقها ولم تَبْلُ منها حلاوةً ولا مرارة ! هل وجدت الحياة عذبة المذاق لذيذة الجَنى؟ كلا ! ما أراها إلا كأساً نحتسيها غافلين عن مرارتها وما فيها من غضاضة ، فإذا أقبل الموت وقئنا ما استقر فى أمعائنا من هذه الكأس عرفنا مرارة العلقم والصاب ، وتبينا أننا لم نكن إلا مخدوعين .

ألا إنك مخدوع فأفِقْ من غفلتك ، ودَعْ ما تجشّمك الحياة من المكروه ، وما تصيبك به من الأذى ، وما تحملك عليه من إيثار البغضة على المحبة ، فكل ذلك باطل لا خير فيه . دونك الحب والمودة والاخلاصَ فى الإخاء ، فاغتنم نصيبك منها قبل أن يدركك الموت فتمضى وقد خسرت الحق والباطل جميعاً .

أَسِيتُ على الذوائبِ أن علاها نَهارِيُّ القميص له ارتقاءُ
لعلَّ سوادها دَنَسٌ عليها وإنقاءُ المُسِنِّ له نَقَاءُ
ودُنيانا التى عُشِقَتْ وأشقت كذاك العشق معروفاً شقاءُ

سألناها البقاءَ على أذاها فقالت عنكمُ حُظِرَ البقاء
بعادٌ واقعٌ فمتى التداني وبَيْنٌ شاسعٌ فمتى اللقاء
ودِرعُكَ إن وقتْكَ سِهامَ قَوْمٍ فما هي من رَدَى يومٍ وِقاء
ولستُ كمن يقولُ بغيرِ علمٍ سواءٌ مِنكَ فتكٌ واتّقاء
فقد وجبتْ عليكَ صلاةُ ظُهرٍ إذا وافاكَ بالماءِ السِقاء
لقد أفنتْ عزائمكَ الدياجي وأفرادُ الكواكِبِ أَرفِقاء
فيا سِرْني لتدركنا المنايا ونحنُ على السجيَّةِ أَصدِقاء
أرى جُرَعَ الحياةِ أمرَّ شيءٍ فشاهِدْ صِدْقَ ذلك إذ تُقاء

١٤

أُفٍّ لهذه الحياة وأُف لهذا العالم ! لقد احتبسانى فيهما أسيراً ، وارتهنانى عندهما بحيث لا أُؤمل من أسرهما فكاكا ولا أرجو من سجنهما انطلاقا . فكأنى وقد وقفت على حال سيئة من الحياة ليس لى عنها مزحلٌ ولا مندوحة ، قافُ رُؤْبة أرسلها ساكنة ليس لها إلى الحركة سبيل ، ونطق بها مقيَّدةً ليس لها من الإطلاق حظّ .

أُفٍّ لهذه الحياة ، وأُفٍّ لهذا العالم ! لقد أنهلانى الهموم ، وعَلّانى الخطوب ، وأصابانى من أحداثهما بعلل ليس لهـا شفاء ، وأدواء ليس لها دواء ؛ فكأنما أصابتنى منهما تلك العلة الباقية القديمة التى تصيب الأفعال الُجوف وتَرُدُّ وَاوَها وياءها ألفاً يُعْيِى الأطِبّاء شفاؤها ، ويُعْجِزُ الحكماء الطبَّ لها .

إيه أيها الجسم الذى فترت أوصاله ، وانحلّت قواه ، وطال عليه الأمد ! . لقد أَنَى لك أن تستبد بك الصحراء ويتضمنك التراب .

أجلْ ! لقد فترت أوصالك ، وارتخت مفاصلك . وما ذاك من شرب المدام ولا حب النَّدام ، وإنما هى الخطوب المُسْرِية والهموم المدلجة ، ألحت عليك فبدّلتك من القوة ضعفاً ، ومن النشاط فتوراً .

لقد طال بى المقام حتى مَلِلته ، وطالت علىّ الحياة حتى سئمتها. فكم أنا مُعَنًّى بعشرة أمةٍ قد حكمتها الذلة ، وسيطر عليها الظلم ، واستبد بحقوقها الأمراء ، يظلمونها أشد الظلم ، ويعسفونها أقبح العسف ، ويكيدون لها شرّ الكيد ، ويَعدُون مصالحها ، ويتجاوزون منافعها ، وإنما هم لها أُجراء ، وعنها وكلاء .

أمة قد طالت صحبتى لها واختبارى إياها ؛ فما دلتنى التجربة

ولا أرشدنى الاختبار إلا إلى براءتها من الخير وإقفارها من المعروف ، وإلا إلى أن أشدها بالشر اتصالا وأكثرها فيه إغراقاً هم الشعراء الذين قد كانت تُعقد بهم آمال الإصلاح ، ويُناط بهم رجاء الخير .

أمة ما أكثر قوْلَهَا وأقل عملها ! ما أكثر روايتها لأخبار الجود وأحاديث الأجواد ! وما أشد بخلَها بالمال وضنّها بالثراء ! كأن ماترويه من حمد الكرم ، وما تأثره من مدح الجود ، يُغْريها بالبخل والكزازة ، ويرغّبها فى الضن والدناءة .

أمة جنتْ من ثمار الحياة ما لم تكن له أهلا ، ولقيت من نعيمها ما لم تكن به خليقة ، فأبطرتها النعمة ، وأفسدها الغنى . ولم أر شرًّا من نفس الإنسان ، إذا تجاوزت قدرها جناح بعوضة . ساءت حالها ، وفسدت طبيعتها ، كأنها القصيدة من الشعر يزينها الوزن الصحيح المستقيم ، فإذا زيد فيها حرف ظهر للسامع نُكرها ، وبان للسمع اختلالها .

أمة أطغتها الثروة ، وأطمعتها الحياة ، فتزيّدت منهما ، وتلذذت بهما ، كأنها النائم يلذ له النوم فيستزيده ، غافلا عن أن زيادته إنما هى تقصير من أجله ، واستعجال لموته .

سبحانك اللهم ! لقد جلّ شأنك ، وخفيت حكمتك على العقول . بسطتَ الغبراء ، ورفعت فوقها الخضراء ، وأجريت بينهما عالماً ما أعرف للخير فيه موضعاً . عالمٌ عاقل ولكنه شرير . هل تعرف رذائله الحيوانات العُجْم ؟ وهل تُشاركه فيها المخلوقات البُلْه ؟ هل تحسد الجياد السود القاتمة أخواتها الغُرّ الواضحة ؟ كلا ! ما أرى للحسد فيها أثراً ، وإنما هو طبيعة الإنسان قد أفسده الطمع والشره ، وغيّره البخل والحرص .

أُفّ لك أيتها الدنيا المتقلبة ! ما أرى أنك تثبتين على حال . وما أُشبّهك إلا بالحسناء الناعمة ، ذات الدلال والغنج ، وذات الجمال والبهجة ، وذات المنظر الساحر واللفظ الخادع واللحظات المطمعة ، ثم هي مع هذا كله طامث ، قد لزمها الطمث ، وحجبها الحيض ، فما تستقيم أقراؤها لطالبها ، وما تنتظم أطهارها لمحبها ، على أنه بها كَلِفٌ مُعَنًّى ، وعليها حريص معذّب .

لقد هويك الناس فذكّيت أهواءهم بالمنى ، ونمّيتها بالآمال ، حتى إذا جاء وقت الإثابة واقتضاء اللذات ، أوقعتهم فى اليأس المهلك والقنوط المميت . لقد شقى بك الأغنياء الذين هم أشد

عليك حرصاً وأكثر فيك رغبة ، واستراح منك الفقراء الذين هم أبعد منك مكانا ، وأقل بك اتصالا !

لقد أفسدت عقولاً كانت خليقة أن تصلح ، وعوّجت طرقاً كانت جديرة أن تستقيم . أولئك الفقهاء لا يتجادلون إلا فيك ، وأولئك القراء لا يتقرّءون إلا لك ؛ فأما فقه الدين واستظهار الكتاب ، فشيء لا يحفلون به ولا يلتفتون إليه !

لقد أضلت العقول وأفسدت الطبائع حتى لم يبق للنصح إليها طريق وكأنما النصح بالانصراف عنك إغراء بشدة الحرص عليك .

مالى غدوتُ كقافيةٍ رُؤْ بةَ قُيِّدَتْ ... فى الدّهرِ لم يُقْدَرْ لها إجراؤُها

أعلتُ علّةَ قال وهى قديمـةٌ ... أعيا الأطِبّـةَ كلَّهم إبراؤُها

طال الثّواء وقد أَنَى لمفاصلى ... أن تسـتبدَّ بضمّها صحراؤُها

فَتَرتْ ولم تفتُر لِشُرْب مدامةٍ ... بل للخطوب يغولُها إسراؤُها

مُلّ المقامُ فكم أُعاشرُ أمَّـةً ... أمرت بغـير صلاحها أمراؤُها

ظلموا الرّعيّة واستجازوا كيدها ... فعـدَوْا مصالحها وهم أُجَراؤُها

فِرَقاً شعرتُ بأنّها لا تقتنى ... خـيراً وأنّ شرارها شُعراؤُها

أَثَرَتْ أحاديثَ الكرام بزعمها وأجاد حَبْسَ أكفِّها إثراؤها
وإذا النفوس تجاوزت أقدارَها حدَّ البعوضِ تغيَّرت سُجَراؤها
كصحيحة الأوزانِ زادتها القُوى حَرْفاً فبان لسامعٍ نكراؤها
كَرِيتْ فسُرَّت بالكرى وحياتها أكرتْ فجرَّ نوائباً إكراؤها
سبحان خالقِكَ الذى قرّتْ به غبراء توقد فوقها خضراؤها
هل تعرفُ الحسدَ الجيادُ كغيرها فالبُهْمُ تحْسَدُ بينها غرّاؤها
ووجدت دنيانا تُشابه طامثاً لا تستقيم لناكح أقراؤها
هُوِيتْ ولم تُسعِفْ وراح غنيُّها تَعِباً وفاز براحة فقراؤها
وتجادلت فقهاؤها من حبّها وتقرّأت لتنالها قُرّاؤها
وإذا زجرْتُ النفس عن شغفٍ بها فكأن زجر غويّها إغراؤها

١٥

أيا بنة الماء ، وذات النُّوَب والأنباء ! أنت التى لا تثبت على حال ولا يستقر لها أمر . أنت المضطربة الهائجة ، والمرتبكة المائجة . أنت الغرّارة الخدّاعة ، والمنّاحة المنّاعة .

أفٍّ لك ! لقد قلّ فيك الخير ، وكثر فيك الشر . ولقد صغُرت

أمورك ، وهانت الآمال فيك ؛ فأعظم حظ الفائز بك والظافر برغائبك ، طعامٌ ، يُسيغه ، ورفثٌ يناله .

تسيرين على غير حكمة مفهومة ولا نظام مألوف ، يسعد فيك المقيم الآمن ، و يشقى بك المجدّ الظاعن .

قضاء سبقت به الكلمة وجرى به القلم ، فما يزال على الناس جاريًا ، وعلى العقول خافيًا ، قد حيّر الألبّاء فهمه ، وأعيا الحكماء تعبيره .

أسلاف تسلف ، وأخلاف تخلف ، وملوك يزول عنها العز ويفارقها السلطان و يُسلمها الأحباء والأحبّاء ، وآثام ماتزال تجددها الحاجة ، وسيئات ما يزال يخلقها الفقر والبؤس . ونحن لكل هذه السهام أغراض ، لا نحس ولا نشعر ولا تسمو عقولنا إلى عظة ولا اعتبار .

دنياك ماويّةٌ لها نُوَبٌ   شتّى سماويّةٌ وأنباء
أُفٍّ لها جُلُّ ما يُفيد بها   مَنْ فاز فيها الطعامُ والباء
جُدَّ مُقيمٌ وخاب ذو سفرٍ   كأنّه فى الهجير حِرْباء
أقضيةٌ لا تزال واردةً   تحارُ فى كونها الألبّاء

قام بنو القوم فى أماكنهم وغُيِّبَتْ فى التراب آباء
وزال عزُّ الأميرِ وافترقتْ أَحْبـاؤه عنـه والأحِبّـاء
وكلّ حينٍ حُوبٌ ومعصيةٌ زادتهما فى الذنوب حَوْباء

١٦

إيه أيها المتفكِّر المتفهِّم والباحث المستبصر ! لقد قُضى عليك أن تعيش فى عصر ظهر فيه الجهل ، وخَفِى فيه العلم ، وعمّ دهماءه الحمق ، واشتمل على أهله الجمود .

سبحانك اللهم ! بك آمنت ، ولك أذعنت . لك العبيد والإماء ، من رجال ونساء ، لك الأرض والسماء ، والهواء والماء . لك النجوم الطالعة ، والكواكب الساطعة .

قل ماشئتَ من ذلك لا يعبك بقوله حكيم ، ولا ينكره عليك فيلسوف . ثم دعنى أستغفر الله وأتضرع إليه ؛ فقد انقضت عنى مدّتى وأسلمتنى أيامى إلى الحَيْن .

دعنى أفرغ لما أنا فيه من خلوةٍ إلى نفسى وعنايةٍ بأمرى .

فإنما نحن فى أيام كثُرت فيها الأسماء ، وقلّ فيها الغَناء . يذكرون الكرم والجود ، والحق والفضيلة ، والخير والبر ، وإنما هى

ألفاظ تلفظها الأفواه وتاتقفها الرياح . يروون الحكمة والعظة ، ويأثرون النصيحة والهدى ، ويدرسون العلم والشريعة ، وإنما هى أكاذيب الرواة ، وأحاديث الغواة ، وأفانين من التجارة اخترعها القدماء ، يكسبون بها عيشهم ، ويشترون بها ثمناً قليلا. دعنى أفرغ لما أنا فيه ؛ فقد كذبتنى الأمانى ، وتكشفت لى الآمال عن باطلها ، وظهرت لعينى الحقائق واضحة ، ولكنها بشعة المنظر مرة المذاق .

هل ترى هذه الشهب اللامعة إلا شباكاً قد أعدّها الدهر يلقيها على العالم فيصطاد بها فرائسه ! . أوَ ما تُبصر كَمْ ترك الردى فى الناس من الأفاعيل : كيف فرّق بين الأصهار والأحماء ، وكيف باعد بين الآباء والأبناء !

عجباً للقضاء المحتوم والقدر المكتوب ! لقد مضيا على الخلق لا يردّهما رادّ ولا يدفعهما دافع ، حتى أصبح الأمل معهما حمقاً ، واليأس بين يديهما حزما .

أيتها العصماء المكنونة ، والحسناء المصونة ، لا يخدعنّك جمالك الخلاّب للعقول الفتّان للألباب . لا يخدعنّك لحظك الفاتر ، ولفظك الساحر . لا يخدعنّك خدك الأسيل ، وخصرك النحيل .

لا يخدعنك وجهك الذى تباهين به ضوء النهار ، وشعرك الذى تبارين به فحمة الليل ؛ فكل ذلك إلى زوال . إنما بَدْرُك إلى أفول ، وزهرك إلى ذبول ، وجمالك الفاتن إلى فناء . ارتقبى ذلك اليوم الذى سيصوِّب إليك من الحِمام سهماً لا يطيش ، ونصلاً لا يخطىء ، ورمية لا يحميك منها معقل ولا حصن. خذى مكان العصماء من رأس الجبل ، فان الموت لاَحِقُك لا محالة ، ونازلٌ بك من غير ريب !

أنَّى يكون الخلود أو يقدَّر البقاء لجسم ما أرى حياته وصحته إلا رهناً باتفاق غرائزه ، ووقفاً على التئام طبائعه ؛ فهو صحيح إنْ استوين ، وعليلٌ إن التوين .

أذعن أيها الإنسان لحكم الزمان ، لا تناقشه حسابا ، ولا تسأله ثوابا ، ولا تطلب منه لشىء علة ، ولا ترجُ منه لسؤال جوابا . إنما الزمان أعمى لا يبصر ، وأصم لا يسمع ، وأحمق لا يعقل ، وأعجم لا ينطق . ألاَ وإن حُكم العجماوات أن جناياتها مُهْدَرة ، وجرائمها مغتفرة .

ألا وإن دنياك نهار وليل ، لا تثبت على حال ، فهى كالحية الرقطاء ، ربما تعجبك ألوانها ولكن فى نابها السم الزعاف .

ألاَ و إن الناس بالموت مَدِينون ، ولا بدّ لهذا الدين من وفاء، ولهذا القرض من قضاء . والموت غريم لا يسهل ردّه ولا يمكن الإلواء عليه .

ألا و إن الزمان قد قسم الحظوظ بين الناس ، فأساء القسمة ، لم يراعِ فى ذلك عدلا ولم يتبع قاعدة ، فأمات بالظمأ كعب بن مامة ، وروّى بنمير الماء بعده الكثيرين .

لا تلتمس لشىء علة ، ولا تطلب لموجود سبباً ؛ فذلك شىء قد عُمِّيَ عليك أمره ، وحُجِب عنك سرّه . وانقسم العالم منذ كان إلى حيوان نام حساس ، ونبات ينمو ولا يحس ، وجماد قد حُرِم الحس والنمو معاً . وما أعرف لهذا الجسم الذى رزق القوتين ، وظفر بالفضيلتين ، نافلةً من فضل تؤثره بالحياة والحركة، وتختصه بالحس والنمو دون الآخرين .

ما أجهل الناسَ ، وما أضلَّ عقولَهم ، وما أغفلهم عن العواقب ، وأعماهم عن مستقبل الأمور ! لو أنهم عرفوا حياتهم حق المعرفة و بلوها حق البلاء ، لهانت عليهم ولصغرت فى عيونهم، فلم يقتتلْ فيها بعضهم بعضاً . ولو أنهم إذ كبّروا منها صغيراً ، وعظَّموا من أمرها حقيراً ، وفرضوا لأنفسهم حسابا تظهر فيه

سيئاتهم وحسناتهم ، وتبدو فيه نقائصهم وفضائلهم ، ويلقى بعده كل امرئ نتيجة عمله خيراً أو شرًّا ، لو أنهم إذ فعلوا هذا كله خافوا الحساب الذى فرضوه، والميعاد الذى انتظروه، لما سفكوا بينهم من الدماء ما يجارى الماء؛ ولـكنها طبائع بلهاء ، لا تعرف للحق طريقاً ، ولا تسلك إلى الهدى سبيلا .

سلنى عن أحق الناس بالرحمة وأولاهم بالرفق والرأفة ، أُجبك بأنهم أولئك الذين نشئوا راحمين للضعيف عاطفين على البائسين، ثم تنكرت لهم الأيام ، وأرهقتهم من أمرهم عسراً .

هذه أخلاقنا وتلك خِلالنا ، ما أحمد فيها خُلقاً ولا أرضى منها خَلّة ، ونحن بعد ذلك بأنفسنا مُعْجَبون ، و بأخلاقنا مفتونون ، نغضب من مقالة الحق ، ونحقد على صادق رمانا بخسة الأصل ولؤم الطبع . نعم ! نحن أخسّاء لؤماء

وأنت أيها الأب الذى سمّته التواريخ آدم فغلّبت على لونك السواد ، وسمت زوجك حواء فجعلت على لونها مشوبا بحمرة ، لقد ائتلف منكما مزاج جُمع فيه الخير والشر ، ولـكن الشر عليه غالب ، والسوء فيه موفور .

كُفّوا أيها الناس من غُلَوائـكم ، وخففوا من غروركم ؛ فإنما

أنتم للأيام أغراض غير مموقة ، وأهداف غير مرحومة. ولعمرى لن تشفق عليكم الأيام إلا إذا أشفقت الرحا على ما تطحن من حب ، ولن ترثى لكم السنون إلا إذا رثت الأرض لما تضم من الأشلاء . ولكنى ما أرى لكم من الذكاء حظًّا ، وما أعرف بين عقلائكم و بين بُلْه الحيوان فرقا ، سواء منكم ذو العقل الراجح والرأى الصائب . ما أجد رجحان أحلامكم وصواب آرائكم ، يزن خفة أحلام الطير فى الهواء ، والسمك فى الماء .

أفيقوا أيها الناس واستبصروا ؛ فإنما أنتم للأيام هُزْأَةٌ وللزمان ضُحْكةٌ وللحوادث مستذَلون . أرأيتم إلى ذلك الملك العزيز قد احتدّت شوكته ، واشتدت سطوته ، وعظم سلطانه ، كيف أغارت عليه الأيام زاريةً عليه محتقرة له تستذله استذلال الأرنب!

أجلْ ! إنكم لتَفَاضلون فى الحياة نعمة و بؤساً ، و إن أقداركم لتختلف رفعة وضعة ، ولكنكم جميعاً إلى فناء ، قد اختلفت إليه الطرق وتشعبت إليه المسالك . فلئن كان الفقر لا يميت الملوك وأصحاب النّعمة والثراء ، لقد جعل لها الدهر من غناها رصداً مهلكا ، ومن ثروتها علة مميتة ؛ فهم كالزهرة النضرة ، لا يذبلها وقع الأقدام ، ولكن يذبلها شم الأنوف .

فيم الطِّعان والضِّراب ! وفيم الرِّماء والجلاد ! إنما تقتلون أنفسكم فى باطل ، وتسفكون دماءكم فى زور. ولكن! هل ينفعكم النصح ،أم هل تفيدكم الموعظة ؟لقد اسودَّت قلوب، وضلَّت عقول، ولقد أصغى الحكيم إلى نداء الحق، وصَمّ عنه الجاهل المغرور .

ما الذى أعجبكم من الأيام فتهالكتم عليه ؟ وما الذى راقكم من الحياة فتفانيتم فيه ؟ إن الأيام لتسلك سبيلها إلى الفناء صُماً عمياً ، حتى ليكاد المقامر أن يكون أوثق منها بالربح وأضمن منها لإصابة الخير .

لقد مضى صاحب تيماء ، وبقيت تيماء بعده ناطقة بالعبرة والموعظة لو تسمعون أو تعقلون . لقد أومأت إليكم الثريا واعظة ، وأشارت إليكم ناصحة ، ثم انقطع إيماؤها ، وسكنت إشارتها . لقد أعجزت سرعتها سرعتكم ، وأعيا جِدُّها جدَّكم ، وشهدت نجومها الستة بما أُغفلتم عنه من آية بينة . فعلت كل ذلك فلم يفهم عنها إلا الحكيم ؛ على أنه لم يَعُدْ من فهمه وفقهه إلا بالحسرة والأسى .

أسهلوا أيها الناس فقد أحزنتم ؛ وياسروا فقد عاسرتم ،

واعلموا أنكم فى حكم الموت سواء، ليس لغنيكم على فقيركم فضيلة، ولا لأميركم من حقيركم مزية، إنما هى طريق مسلوكة إلى الفناء، أشد وحشة من البيداء، وأكثر ظلمة من غبْر الفلا. ألا فليؤاسِ بعضكم بعضاً! لقد استويتم فى الموت فلم لا تستوون فى الحياة! لِمَ أجد منكم فى الحياة موسرا ومعسراً، ومُنَعَّما و بائساً! ألاَ فلتقتسموا تعب الحياة الفانية، كما اقتسمتم راحة الفناء المقيم.

فُقِدَتْ فى أيامك العلماء وادْلهمَّتْ عليهمُ الظلماء
وَتَغَشَّى دهماءنا الغَيُّ لمّا عُطِّلتْ من وضوحها الدهماء
للمليكِ المذكَّراتُ عبيدٌ وكذلك المؤنَّثات إماء
فالهلالُ المنيف والبدرُ والفرْ قَدُ والصبحُ والثرى والماء
والثريَّا والشمسُ والنار والنَّثْـ ـرة والأرض والضحى والسماء
هٰذِهِ كلهـا لربك ما عا بك فى قول ذلك الحكماء
خلِّنى يا أُخَيَّ أستغفر اللّـ ـه فلمْ يبقَ فىَّ إلا الذَّماء
ويقال الكِرامُ قولاً وما فى الـ ـعصر إلا الشخوص والأسماء
وأحاديثُ حبَّرتها غُـواةٌ وافترتها للمكسب القُدَماء
هذه الشهبُ خلتُها شَبَكَ الدهـ ـر لها فوق أهلها إلماء

عجباً للقضاء تمَّ على الخلْـــقِ فهمّتْ أن تُبْسِلَ الحزَماء
أوَ ما يُبصرون فِعْلَ الردى كيـــف يَبيدُ الأصهار والأحماء
غَلَب المَينُ منذ كان على الخلـــق وماتت بغيظها الحكماء
فارقُبي يا عصماء يوماً ولو أنّـــك فى رأس شاهقٍ عصماء
وأرى الأربعَ الغرائزَ فينا وهى فى جُثّة الفتى خُصَماء
إن توافقن صحّ أولا فما يَنْـــفكّ عنها الإمراض والإغماء
ووجدتُ الزمان أعجمَ فظًّا وجُبَارٌ فى حكمها العَجْماء
إنّ دنياك من نهارٍ وليلٍ وهى فى ذاك حيةٌ عَرْماء
والبَرايا حازوا ديونَ منايا سوف تُقْضَى ويحضُرُ الغُرَماء
وَرَدَ القومُ بعد ما مات كعبٌ وارتوى بالنَّمير وفدٌ ظِماء
حيوانٌ، وجامدٌ غير نامٍ، ونباتٌ له بسُقْيا نَمَـــــاء
وَلَوَ انّ الأنام خافوا من العقـــبى لَمَا جارتِ المياهَ الدِّماء
أجدرُ الناس فى العواقب بالرحـــمةِ قومٌ فى بَدْئهم رُحَماء
وغَضِبنا من قول زاعم حقٍّ إننا فى أصـــولنا لُؤَماء
أنت يا آدَ آدَمَ الشِّربِ حوًّا ؤكَ فيه حـــوّاء أو أدماء

قرمتنا الأيامُ هل رَنَّت النَّحَّـــامَ لمّـا ثوَى بها قَرْماء
عالَمٌ حائرٌ كطـير هَـواءٍ وهَوَافٍ تضمّـها الدأماء
وكأنَّ الهمامَ عَمْرَو بن دَرْما ءِ فَلَتَهُ من أُمِّـه دَرْماء
والبَهار الشميم تحميه من وط ءِ مُعاديك أرنبٌ شمـاء
وعَرَانا على الحُطام ضِرَابٌ وطعـانٌ فى باطلٍ ورماء
أسْوَدُ القلب أسْودٌ ومتى ما تَصْغَ أذنى فأُذْنه صمّاء
قد رمى نابلٌ فأنمَى وأصْمَى ولياليك ما لهـا إنْماء
إنّ ربَّ الحصن المَشيدِ بتَيْما ءَ تولّى وخُلِّفتْ تيماء
أومأت للحذّاء كفُّ الثريّا ثم صُدّ الحديث والإيمـاء
شهدتْ بالمليك أنجمُها الستّـــةُ ثم الخَضِيبُ والجَذْماء
فَهِمُ الناس كالجهول وما يظـــفرُ إلا بالحسرة الفُهَماء
تلتقى فى الصعيد أُمٌّ وبنت وتساوَى القَـرْناء والجمّاء
وأنيقُ الربيع يُدركه القيـــظُ وفيه البيضاء والسحماء
وطريقى إلى الحِمَام كَريهٌ لم تُهَبْ عند هَوْلِهِ اليَهْماء
ولَوَ انّ البيداء صارمُ حرب وهى من كلِّ جانبٍ صَرْماء
كيف لا يُشْرِكُ المُضيقين فى النَّعْـــمةِ قَـومٌ عليهمُ النعماء

١٧

ياله من فقيه قد أكثر فيكم الوعظ ، وأثقل عليكم النصح ، وتردد على نسائكم مرشداً هادياً ، ومذكراً داعياً ، وأنتم له مُصغون وحوله محتشدون ، تذرفون لمقالته الدموع ، وتفطرون لألفاظه القلوب ! أبصروا فقد عَمِيتم ، وانتبهوا فقد غفلتم !

ألاَ إن صاحبكم محتال كاذب ، وغرّار خادع ، يُظهر لكم النسك ، ويخفي عنكم الإفك . ينهاكم عن الخمر وهو لها مدمن ، ويُظهر لكم الفقر وإنما أفقرته معصيته. سلوه عن كسائه أين أضلّه وفيم فقده، يَشْكُ لكم صرف الأيام وتتابع الأحداث . ثم سلوا الخمار عن هذا الكساء تجدوه عنده رهيناً بدنٍّ من راح أو زق من عُقار .

ألاَ إن شر الناس المقترفون لما ينهون عنه . إنهم يسيئون من جهتين : يسيئون لاقتراف الآثام ، ويسيئون لغش الناس وتضليل العقول .

رُوَيدَكَ قدغُرِرتَ وأنت حُرٌّ ... بصاحب حيلةٍ يعظُ النساء
يحرِّم فيكمُ الصهباء صُبحاً ... ويشربُها على عَمْدٍ مساء

تحسَّاها فمنْ مَزْجٍ وصِرْفٍ   يُعَلُّ كأنما وردَ الحساء
يقول لكم غدوتُ بلا كساء   وفى لذّاتهــا رهن الــكساء
إذا فعل الفتى ما عنهُ ينهَى   فمن جهتين لا جهةٍ أساء

١٨

ما أشدّ اغترارنا بالحياة واسترسالَنا فى الأمل ! نرجو العيش راغبين فيه ، ونرجىء الخير متبرمين به ، مغرقين فى سكر عميق ، لا ينبهنا منه إلا صيحة الموت ودعوة الحِمام .

نرجو الحياة فإن هَمَّتْ هَواجِسُنا   بالخير قال رجاء النفس إرجاء
وما نُفيقُ من السُّكرِ المحيطِ بنا   إلاَّ إذا قيلَ هذا الموت قد جاء

١٩

الصَّمْتَ الصمتَ ! احتفظ به واحرص عليه ؛ فإنه مأمن لك من الشر ومنجاة من الزَّلل. إخبأ نفسك تحت لسانك ، لا تحركه فيظهر ما يعيبها من نقيصــة ، وما يشينها من رذيلة . ما أرى كالكلام مصدراً للإثم ، ولا كالصمت مبرئاً منه .

الأناةَ الأناةَ ، والحزمَ الحزمَ ! لا يُغضبنّك تفوق الناس عليك وسبقهم لك وإن أحسست من نفسك الفضيلة وعرفت

لها التقدم ؛ فإن الجبـل الشاهق لا يتأذَّى حين يعلوه الرقيب صاحب الفتنة ، و يتسنّمه الشرِّير حليف السيئة .

مِمَّ تهرب ، و إلى أين تفر ! الرَّيْثَ الرَّيْثَ ! لقد أزعجك الوباء الذى ألمَّ ببلدك ، فهل تعرف بلداً غير موبوء ! تفرّ من رذائل أصحابك ، فهل تعرف أصحابا خلواً من الرذائل !! الْبَسِ العالم على عِلّاتهِ ، واصْحَبه على مافيه من سوء .

القناعةَ القناعة ! أرِحْ نفسك من طمع لايفيد ، وشَرَهٍ لا ينفع ، ولا تَلُمِ الحظ ، ولا تنكر المصادفة ؛ فكذلك طبيعة الزمان. أنظر إلى الحسناء الفاتنة يسبيها القبيح الشرير ، وانظر إلى العُقار ذات الجوهر النقى يسبؤها ألأم الناس طبعاً وأكدرهم خلقاً . أرِحْ نفسك من هذا العناء ؛ فإن الغاية واحدة ، و إن الملك والفقير فى حكمهما سواء .

قد نالَ خيراً فى المَعاشرِ ظاهراً ... من كان تحتَ لسانه مخبوءا
باء الكلامُ بمأثمٍ والصمتُ لم ... يكُ فى الأعمِّ بمأثمٍ ليبوءا
إن يرتفع بشرٌ عليك فكم غدا ... عَلَمٌ بتـابع فتنة مربوءا
مهلاً أمِنْ وَبأٍ فررت وهل ترى ... فى الدهرِ إلَّا منزلاً موبوءا

تُسْبَى الكرائمُ والكُمَيْتُ شرابُها ... يُلْفَى لألأم شاربٍ مسبوءا
خِلْفُ العباءة سوف يُصبِحُ مثلَه ... مَلِكٌ ويترك طِيبَهُ المعبوءا

٢٠

احجبوا عن نسائكم و بناتكم من العلم ما لا ينفعهن ولا يجدى عليهن . دعوا ذلك إلى ما يفيد المرأة من حيث هى أم وصاحبة بيت . علِّموها النسج والغزل والردن ، ودعوا القراءة والكتاب . أقرئوها الحمد والإخلاص ؛ فهما تجزئان عنها فى الصلاة ما تجزئ عنها يونس و براءة .

احجبوا أصواتهن عن الآذان ، كما تحجبون أشخاصهن عن الأبصار . إنكم لتهتكون الستر حين تستمعون من خلفه غناء القيان .

علِّموهنَّ الغَزْلَ والنسجَ والرَّدْ ... نَ وخلُّوا كتابةً وقراءه
فصلاةُ الفتاة بالحمد والإخلاص تُجزِى عن يونس و براءه
تهتِك الستر بالجلوسِ أمام الستر إن غنَّت القيانُ وراءه

٢١

آثِرْ نفسك بالعزلة، وزيِّنها بالوحدة؛ فإنك إن تكن راغباً في الكمال طامعاً فيه، لم تجد أدنى إليه من الوحدة التي هي أخص صفات الله. وإن تكن رابئاً بنفسك عن الشر ضانًّا بها على الأذى، فلن تجد أوقى لك ولا أجدى عليك من الرغبة عن عشرة الناس، ملوكهم وسُوقتهم، سَرَاتهم وصعاليكهم..

أجلْ! إنك لن تجد أحفظ لك من العيب، وأضَنَّ بك على الريب، وأنزه لنفسك، من الأذى، وأعصم لقدرك من الضعة، كالعزلة واجتناب الناس، وإن جرّا عليك الفقر والضيق. العزلة مكمن عيوبك، وستر لما أنت فيه من رذيلة، فاحذر أن تهتك هذا الستر فيظهر الناس على ما خلفه. والعزلة جُنّةٌ لك من شرور الناس وأذاتهم، فاحذر أن تدع هذه الجُنَّةَ فينالك من ضررهم ما لا تطيق.

أفّ للناس رجالاً كانوا أو نساء؛ فإنهم أهل شر وأذى، يمقتهم الحكيم ويذمّهم العاقل، لا يحمد منهم خَلّة ولا يرضى

لهم خُلقاً . هم فى الليل وفى النهار جُناة أشرار ، لا يعصمك منهم إلا اجتنابك لهم .

إنى لأعظك بالعزلة حين قُدِّرت عليك الحياة فلم تجد عنها مزحلا . وإنى لأكره الحياة لمن لم يَبْلُها ، وأمقت العيش لمن لم يذقه ، وأتمنَّى للوليد الذى لمّا يعرف من الحياة حلواً ولا مرًّا ولمّا يرَ من العيش خيراً ولا شرًّا ، موتاً يريحه من مستقبل أيامه ومستأنف زمانه . موتاً يصرفه عن ثدى أمه قبل أن يرتضع منها قوتا يشوبه الشر وغذاء يخالطه السوء . موتا يقطع ما ينطق به لسان حاله من عبارات الشك فى مستقبل أمره ، أيكون خيراً أم شرًّا ، وعُرْفاً أم نُكراً ؟ أيكون إلى أهله محسناً أم مسيئاً ، ولهم نافعاً أم ضارًّا .

توحَّدْ فإنَّ الله ربَّك واحدٌ ولا ترغَبَنْ فى عِشْرةِ الرؤساء
يَقِلُّ الأذى والعيبَ فى ساحة الفتى وإن هو أكدى قلةُ الجلساء
فأفٍّ لِعَصْرَيهم نهارٍ وحِنْدِسٍ وجنسَىْ رجالٍ منهمُ ونساء
وليتَ وليداً ماتَ ساعةَ وضعِهِ ولم يرتضع من أُمِّهِ النفُساء
يقولُ لها من قبل نُطْقِ لسانِهِ تُفيدين بى أن تنْكَبى وتسائى

٢٢

الويلُ كل الويل للعلماء ، والخسرُ كل الخسر للحكماء ، إذا لم يقَدَّر لعلمهم أن ينفع الناس شيئا ، ولم يُتَحْ لحكمتهم أن تَكُفَّ عنهم سوءا .

لقد تم فى الناس قضاء الله بما هو كائن من خير وشر ، فهو يمضى لا معقِّب لحكمه ولا رادَّ لأمره . وعبثاً يحاول المصلحون أن يغيِّروا منه قليلاً أو كثيرا . أجلْ ! لقد أمضى الله القضاء بما شاء ، فليس لك منه مفرٌّ ولا معتصم . دونك الأرض فاتخذ فيها نفقا ، ودونك السماء فاتخذ إليها سُلَّما ؛ فإن أعجزك ذلك ، وهو معجزك من غير شك ، فأذعن لما قضى الله عليك ؛ فإنك لن تستطيع من ملكه خروجا ، ولن تملك من قدرته إباقا .

سِرْ فى آثار من مضى قبلك ؛ فإنك لهم تابع ، ولخطاهم مترسِّم . عاشوا عبيداً أذلاَّء ، فعش مثلهم عبداً ذليلا .

لقد ملكنى العجب من هـذا العالم ، فما أنفكّ مغرقا فيه ، مطيلا له ، أرى فيه السعيد والشقى ، والفقير والغنى ، وأجد فيه الريَّان يكاد يقتله الرِّى ، والصديان يكاد يخترمه الصدَى .

والدهر على الناس مسيطر ، قد عظم سلطانه واشتدت سطوته ، ينالونه بما شاءوا من عيب له وطعن عليه ، فلا يصيبه منهم شيء ، ويرميهم بسهامه المتصلة ونصاله المتتابعة ، فلا يخطئهم منها سهم . جِدُّوا ما شئتم في عناد الدهر وخصامه ، وفي ذمِّه والزراية عليه ؛ فليس ذلكم برادٍّ عنكم حكمه ، ولا بقابض عنكم يده . إنه عليكم لمسيطر : يميتكم ويحيل أجسامكم إلى ما شاء من مادة ، ويمنحها ما أحب من صورة . انظروا إلى هذه الغصون النضرة ، والأشجار الخضرة ، هل هي إلا عظامكم بعد البلى ، وهل ماؤها إلا دماؤكم بعد الفناء ! !

ألا إنّ الشر في هذه الحياة واقع ، ليس له دافع ؛ وهو نقاد لا يغفُل ، وباحث لا يُخطئ . ألا وإن أكثر الناس منه حظاً وأعظمهم منه نصيبا ، أشدهم له فهماً وأكثرهم منه احتياطا .

أبيحوا بينكم الثروة ، وأشيعوا فيكم المعروف ؛ فلن ينفعكم حرص ، ولن يفيدكم اقتصاد ، ولن يكون مُنفقكم جواداً ولا باذلكم كريما حتى يُكثر الإنفاق ويوسع البذل .

أقدِموا ولا تحجموا . دعوا التردد جانباً وانبذوه ناحية ،

فإنكم صائرون إلى ما تكرهون طائعين أو راغمين . أقْدِموا أعزّاء قبل أن تكرهوا أذلّاء صاغرين .

لقد آن لكم أن تستبصروا ، وحان لكم أن تنتبهوا ، وحق عليكم أن تفيقوا . ألا إن ما أنتم فيه من سُنّة وسيرة، ومن شريعة ودين ، ليس إلا مكر الأقدمين ، اتخذوه سبيلا إلى جمع الحطام ، و إحراز الثروة ، فأدركوا ما أمّلوا ، وبلغوا ما أرادوا ، ثم مضت أيامهم وانقضت مدّتهم ، فَلْتَبِدْ معهم سُنتهم السيئة وأصولهم الضارة .

لقد خدعكم الخادعون ، وعبث بألبابكم العابثون ، فمنّوكم الحياة الثانية ، وزعموا لكم انقضاء الدهر وانتهاء أجله ، وأنه عنكم مرتحل ولكم تارك ، وأن الأيام لم يبق فيها إلا بقية الروح ، في جسم المذبوح . لقد كذبوا ! ما يعرفون للدهر أجلا ، وما يعلمون له انقضاء ، و إنما هي ظنون مُرَجّمة ، وأنباء متوهَّمة . ألا فأعرضوا عن مقالة الزعماء الكاذبين ، والأغوياء المضلِّين . لا تيأسوا من الدهر ولا تطمعوا فيه ، ولكن القصد بين الخلّتين ، والاعتدال بين الخصْلتين ؛ فإن اليأس من الدهر هُلك ، والاطمئنان إليه غرورٌ . وكيف يُسَرُّ ساعةً في الدهر من يعلم أن له من الموت غريماً لا يُرَدّ ، وطالبا لا يدفع .

إنكم لتُخدَعُون عن أنفسكم بأواصر القُرْبى وروابط المحبة ، وإنما هى الشر كل الشر والخطر كل الخطر . فالحذرَ الحذرَ من أضرارها ، والتقيةَ التقيةَ من آثامها ! فما آذاك مثل قريب ، ولا ضرّك مثل حبيب .

إذا كان علمُ الناس ليس بنافعٍ ولا دافعٍ فالُخسْرُ للعلماء
قضى الله فينا بالذى هو كائنٌ فتمّ وضاعت حكمةُ الحكماء
وهل يأبِقُ الإنسانُ من مُلكِ ربه فيخرجَ من أرضٍ له وسماء
سنتبع آثار الذين تحمّلوا على ساقةٍ من أعبُدٍ وإماء
لقد طال فى هذا الأنامِ تعجُّبى فيا لِرَواءٍ قُوبلوا بظِماء
أرامى فتُشْوِى من أعاديه أسهُمى وما صاف عنّى سهمُه برماء
وهل أعظُمٌ إلا غصونٌ وريقةٌ وهل ماؤها إلاّ جَنِيُّ دِماء
وقد بان أن النحس ليس بغافلٍ له عمَلٌ فى أنْجُمِ الفهَماء
ومن كان ذا جودٍ وليس بمُكْثِرٍ فليس بمحسوبٍ من الكُرَماء
نَهابُ أموراً ثم نركب هَوْلها على عَنَتٍ من صاغرين قماء
أفيقُوا أفيقوا يا غُوَاةُ فإنما دياناتُكم مكرٌ من القدَماء
أرادوا بها جمع الُحطام فأدركوا وبادوا وماتت سُنّةُ اللؤماء

يقولون إن الدهر قد حان موتُه ولم يبق فى الأيام غيرُ ذَمَاء
وقد كذبوا ما يعرفون انقضاءه فلا تسمعوا من كاذبِ الزُّعماء
وكيف أُقَضِّى ساعةً بمسرةٍ وأعلمُ أن الموت من غُرَمائى
خُذُوا حَذَراً من أقربين وجانبٍ ولا تذهلوا عن سيرة الُحزَماء

٢٣

لِتَعرِفْ فى يُسرك، صديقك فى عُسرك؛ فإن من سوء النيّة وقبح الخَلّة أن تتخذ الأصدقاء تدفع بهم عن نفسك الأذى وتقيها بهم المكروه أيام بؤسك، حتى إذا أيسرت وأعسروا، ضربت عنهم صَفْحاً وطويت عنهم كشحاً. هذه خَلّة من الأثَرة سيئة، وخصلة من حب النفس مذمومة. وإنما الحق عليك أن تُخْلِص للأصدقاء فى النعماء والبأساء.

وإن امرأً قد أمدّته الحياة بالنَّعْمة والثروة فهو من العيش فى دَعَة وخفض، يقضى حاجته من اللذّات على اختلافها، ثم يترك إخوانه فريسة للعُدْم وذريئةً للبؤس، لجاهلٌ حق الأُخوّة، وجاحد واجب المودّة.

وليس من الحزم ولا من صدق الرأى للسخىّ الجواد أن يُشيع السخاء ويذيع الجود فى أهله وأقاربه قابضا يده عن غيرهم من الناس ؛ فإن لأهله ولأقاربه عليه حقًّا هو قاضيه ، ودَينا هو مؤدّيه ، فأمّا الأبعدون فالتكرم عليهم فضيلة ، والإحسان إليهم نافلة ، والتعهد لهم معرفة بمواضع الأمور .

إذا صاحبتَ فى أيّام بؤسٍ فلا تنسَ المودّةَ فى الرّخاء
ومن يُعْدِمْ أخُوه على غِنَاهُ فما أدّى الحقيقةَ فى الإخاءِ
ومَنْ جعل السخاء لأقربيهِ فليس بعارفٍ طُرُقَ السَّخاَء

٢٤

أيها الملوك الأعزّاء ، والأقيال المُتْرَفون ! لقد فزتم بما تحبون من طول الحيـاة وتأخر الأجل ؛ فما لكم لا تبتدرون الخير ولا تستبقون إلى الحسنة! مالكم تُرجئون تشييدالمكرمات و بناء الصالحات إلى مستقبل من الأيام قد لا تدركونه ، ومستأنف من الدهر قد لا تبلغونه ، مغترين بإملاء الأيام لكم و إبقائها عليكم ! !
ما لكم لا تدَعون ما أنتم فيه من خمول ، ولا تتركون ما أنتم عليه من ضعف ، مُحجمين لا تُقدِمون ، ومبطئين لا تُسرعون ،

مستنيمين إلى اللذّة ، لا تطمح نفوسكم إلى المجد ، ولا تسمو إلى المآثر الباقية ! أقدِموا ! فرُبَّ مُتْرَفٍ شهد الهيجاء . ورُبَّ عاشق للنساء كَلِفٍ بهن صريع بجمالهن ، قد ترك اللهو والباطل ، ورغب فى الجِدّ فأبلى فيه البلاء الحسن .

أيها الناس ! أنتم مصدر ما تلقَوْن من ظلم ، وأصل ما تقاسون من عسف . فَنِيتمْ فى الملوك وأذللتم لهم أنفسكم ، تشقَوْن ليسعدوا ، وتخافون ليأمنوا ، وتأرَقون ليناموا . غلوتم فى ذلك وأسرفتم فيه ، فقدّستهم ْطائفةٌ منكم عن الخطأ ، ووصفتهم بالعصمة، وزعمت أنهم الناطقون والعالم صامت ، والمهتدون والحياة حائرة . انتظَرُوا الإمامَ المعصوم ، ورجَوُا الناطق المرشد والهادى الذى لا يُخطئْ . لقد كَذَبتْ ظنونهم ، وساءت آراؤهم، وأخطئوا قصد السبيل . إن هذا الإمام الذى ينتظرونه ، والهادى الذى يرجونه ، لبين ظهرانيهم ، يأمرهم بالعُرفِ فلا يأتمرون ، وينهاهم عن الجهل فلا ينتهون ، يرغّبهم فى الخير فيصدّون عنه ، ويرهّبهم الشر فيرغبون فيه : ذلك هو العقل ، يخلص لهم فيستغشّونه ، ويجد فى نصحهم فيختانونه . أطيعوه أيها الناس تهتدوا ، واتّبِعوه تَرْشدوا ؛ إنما هو مصدر الرحمة ، ومنشأ النعمة ،

فى السفر والحضر، وفى الظعن والإقامة .

أيها الناس ! إنكم لا تنتظرون إماماً معصوماً ، ولا ترجون هاديا موفقاً ، و إنما هى بِدَعٌ منتحلة ومذاهب مخترعة، اتخذتموها أسباباً تصلون بها بين رؤسائكم و بين الدنيا ، وجعلتموها طرقا تُرضون بها تلك النفوس التى لا ترضى ، والأهواء التى لا تقنع، لا يصدكم عن ذلك رحمة ، ولا تعوقكم عنه رأفة ، لا تبالون أظلمتم قوياً أم ضعيفاً ؛ ولا تحفِلون أعسفتم رجلا أم امرأة ، كل ذلكم عندكم سواء فى مرضاة الرؤساء . ذلك شأنُ زعيمكم الذى جمع الزنج بالبصرة، فأفسدوا فيها ولم يصلحوا، وأساءوا ولم يحسنوا . روّعوا العذراء فى خدْرها، وأزعجوا الآمن فى سِرْبه. وذلك شأن زعيمكم القرمطى بالأحساء ، جمع أوشاب الناس وقُمامتهم فأزعج الحاجَّ وانتهك حرمة البيت وأهدر دماء معصومة ، وأزهق نفوساً محرمة، كل ذلك ليرضى نفساً زاهدةً إلا فى الشر، راغبة إلا عن المنكر.

ولكن ! هل يجدى النصح ، وهل تنفع الموعظة ، وهل يحتمل قول الحق ؟ ! ألا إنى أعظك أيها المصلح الحكيم أن تعتزل الناس وتخَلِّى بينهم و بين ما يشتهون ؛ فما أعرف أثقل عليهم من كلمة حق ، ولا أبغض إليهم من دعوة إلى خير .

يا ملوكَ البلادِ فزتم بِنَسْء الْـ ... عُمْرِ والجَوْرُ شأنكم فى النساء
ما لكم لا ترون طُرْقَ المعالى ... قد يزور الهيجاء زِيرُ نساء
يرتجى الناسُ أن يقوم إمامٌ ... ناطقٌ فى الـكتيبةِ الخرساء
كَذَب الظنُّ لا إمامَ سوى العقـــلِ مُشِيراً فى صُبحه والمساء
فإذا ما أطعتَه جلبَ الرحـ ... ـمةَ عنـد المَسِير والإرساء
إنما هـذه المذاهبُ أسـبا ... بٌ لجذب الدنيا إلى الرُّؤساء
غرضُ القوم مُتعةٌ لا يَرِقو ... نَ لدمع الشمَّاء والخنساء
كالذى قام يجمع الزَّنْجَ بالبَصْـــرةِ والقَرْمَطِيِّ بالأحساء
فانفَرِدْ مااستطعتَ فالقائلُ الصا ... دِقُ يُضْحِى ثِقْلاً على الجُلساء

٢٥

ما أشدَّ بغض النفس للنصيحة وامتناعها على الإرشاد! لقد نصحت لها مخلصاً، وأوصيتها صادقاً، فما سمعتْ لى، وما أصغتْ إلىّ. وهى بعد ذلك كثيرة الخطأ جمة الزلل، لا يبلغ الإحصاء أغلاطها، ولا ينال العد زَلّاتها، غافلة عن الحق، بصيرة بالباطل، زاهدة فى القصد، حريصة على الإسراف، تكدّ وتشقى وتتكلف

السعي والمشقة في سبيل الرزق . ولو أنها ودُعَتْ واطمأنَّت لجاءها رزقها المقدور ونصيبها المقسوم ، سواء نأى عنها مكانُه أم دنا ، وسواء قرب أم بعد ، ولكن العناد مطية الألم ، وسبيل العناء .

أوصيتُ نفسي وعن وُدٍّ نصحتُ لها فما أجابتْ إلى نُصْحِي و إيصائي
والرملُ يشبه في أعداده خَطَئِي فما أَهُمُّ له يوما بإحصاء
والرزقُ يأتي ولم تُبْسَطْ إليه يدي سِيَّانِ في ذاك إدنائي و إقصائي
لو أنه في الثُّرَيَّا والسِّماك أو الشْـ ـشِعْرَى العَبُورِ أو الشِّعْرى الغُمَيْصاء

٢٦

مَثَلُ النفس الإنسانية ثبتتْ طبيعتها لا تتغيَّر ، واستقرَّتْ أصولها لا تتبدل ، ثم عرضتْ لها من الحياة مظاهرُ أثَّرتْ فيها فغيَّرتْ أهواءها و بدَّلت شهواتها ، تغييراً لا يلبث أن يزول ، مثلُ البحيرة الهادئة والغدير الساكن عصفت بهما الريح فهاجت أمواجهما وأنشأت على سطحيهما من الحَبَاب كُرَاتٍ لا تلبث أن تزول بسكون الريح . ذلك مثلٌ صادقٌ لنفس الإنسان الثابتة وأهوائه المتغيِّرة . عنها صدرت تلك الأهواء ، نخيِّل إليك أنها

باقية بقاءها ، ثابتة ثباتها ، ولكنك لا تلبث أن ترى حالا طارئة وهوًى جديداً . لقد كنت تحب أسماء وتكلفُ بها ، وتعتقد أن غرامك بها باق بقاء الدهر ، خالدٌ خلود الزمان ، فإذا طول الأمد واختلاف ألوان الحياة قد عبث بهذا الغرام فغيّره وأخذ يمحوه من قلبك قليلا قليلا ، ويُحِلّ مكانه غراماً طريفاً ، ثم أصبحت وقد نسيت أسماء ، وأصبحت بهند كلِفاً مشغوفاً . وما أراك إلا سالكا بهذا الحب الجديد سبيلك فى ذلك الحب التليد .

أجلْ ! ليس فى العالم طريف ولا فى الحياة جديد ، وإنما العالم والحياة مظاهر يماثل بعضها بعضاً . فالأقوال مِرْآة الناس منها السيء والحسن . والناس مرآة الأيام ، ثابتة فى نفسها متغيرة فى شكلها ، منها الظلمة والنور ، ومنها الليل والنهار ، ظاهر متغيِّر ، وطبيعة ثابتة دائمة . ضياء يملأ النفوس انشراحاً ، وظلمة تملؤها انقباضاً ، والحقيقة واحدة ؛ فلَكٌ يدور بالخير والشر ، ويجرى بالسعد والنحس .

لم أر أشد حمقاً ولا أكثر بلَهاً من قوم ظنوا تغيُّر الزمان وتبدُّل الأيام ، وانتظروا أن تطيعهم حركة الفلك فتستحيل من

شر إلى خير ومن بؤس إلى نعيم ؛ إذ ذاك تصلح النفوس الفاسدة ، وتصح الطبائع المريضة ، وتُملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً ، وتسكن الأرنب إلى السبع ، ويأنس العصفور إلى الصقر . خيالٌ ما أبعده من الحق ، وأدناه من المحال !

ألاَ لا يخدعنَّك هذا الوهم ، ولا يغرنك هذا الأمل ! إنما العالم على حاله خيرٌ يمازجه شرٌّ ، ونعيم يشوبه بؤس ؛ فلا تحاول له تغييراً ولا تطلب له تبديلا . ولكن إن استطعت أن تَرِدَ بنفسك الصادية مناهل الخير عذبةً ، وشرائع الفضيلة صافية ، فافعل ، فأنت الموفَّق السعيد .

القلبُ كالماء والأهواء طافيةٌ … عليه مثلَ حَبابِ الماء فى الماء
منه تَنَمَّتْ ويأتى ما يُغَيِّرُها … فيُخْلِقُ العهدُ من هِنْدٍ وأسماء
والقول كالخلقِ من سَىْءٍ ومن حسنٍ … والناس كالدهْرِ من نُورٍ وظلماء
يقال إن زماناً يستقيدُ لهم … حتى يُبَدَّلَ من بُؤْسَى بنعماء
ويوجد الصقرُ فى الدَّرْماء معتقداً … رأى امرىءِ القيس فى عمرو بن درماء
ولستُ أحسب هذا كائناً أبداً … فابْغِ الورود لنفسٍ ذاتِ أظماء

٢٧

إنما الزمان إناء مفعم بالحوادث ، مملوء بالعبر والمواعظ ، مُحَجَّبٌ لا ترى ما فيه العيون ، ولا تبلغه الظنون ، حتى يزيح ستره ، ويبيح سرّه . وهو متصل الحركة متشابه الأجزاء ، ليس بين ساعاته تباين ، ولا بين آنائه اختلاف. فما أشبهُهُ فى ذلك إلا بالقصيدة الجيدة من الشعر قد استقامت للشاعر قوافيها وانقاد له رويها ، فلم يجنح إلى إيطاء ، ولم يُضطرّ إلى إكفاء . وهو معتدل السير ، ليس له استقرار ، وليس يوصف بسرعة ولا بطء ، وليس يملك إنسان رياضته ، ولا يستطيع أحد أن يحمله على أن يمضى حثيثاً أو متريثاً . ذلك شأن الزمان ، وهذه صفاته ، كلها لازمة لطبعه ، ملائمة لمزاجه ؛ ليس لأحد أن يغيّر فيها أو يبدل منها . فأما المكان فأحقّه أن يأنس إليه العاقل ويرغب فيه الحكيم تلك الصحراء المقفرة والبيداء الموحشة ، يأنس فيها الدليل فى ظلمة الليل إلى القطاة ، وفى ضوء النهار إلى لمعان الآل . هذه الفلاة الموحشة الغامرة آنس من المدينة الآهلة العامرة . تلك يخلو فيها الحكيم إلى نفسه مغتبطاً بخيرها مصلحاً لشرها ،

لا يسمع فيها أذاة ولا لغواً ، ولا يرى فيها منكراً ولا عيباً .
وهذه يقيم فيها العاقل على أشد النارين ، حرًّا ، وأعظمهما شرًّا :
فإما أن يشهد مصرع الحق ومقتل الفضيلة ، بين يدى الباطل والرذيلة ، ويظل معقود اللسان، مضطرب الجنان، رغبة فى رضا الجمهور ورهبة من غضبه . وإما أن ينصر الحق المغلوب ، ويؤيد الفضيلة المقهورة ، فيلقى ما شاء الجهل من أذاة ، ويقاسى ما أحب الغى من ألم ، دون أن يظفر بحاجة أو يصل إلى غاية .

فى هذا الزمان تعيش ، وفى هذه المدينة تحيا ، ليس لك من هذا بدٌّ . مكان قَلِقٌ ، وزمان نَزِقٌ ، ولكنه صائب الرمية ، لايطيش سهمه ، ولا يخطئ نصله .

فإن كان فى هذه الحياة ما يسرّ من مواهب تُعْلِى القدر وتُبعد الصيت ، فما أحسب هذا إلا غرورا بالباطل وافتتاناً بالزور؛ فإن تلك المواهب عارية مردودة ودينٌ لا بد أن يُقضَى. ولن يسترد منك هذه العارية ، ولا يتقاضى منك هذا الدين إلا الموت .
وحسبك بالموت موقظا للنائم ، ومنبها للغافل .

السامُ آنيةُ الحوادث ما حوتْ . لم يبدُ إلا بعد كشف غِطائها
وكأنما هذا الزمانُ قصيـدةٌ . ما اضطُرَّ شاعرها إلى إيطائها

ليست لياليه مُحِسَّةَ كائنٍ ... وُصفت بسرعتها ولا إبطائها
والمِصرُ آنَسُ منه خَرْقُ مفازةٍ ... أنِس الدليلُ بقافها مع طائها
وسهامُ دهرِكَ لا تزالُ مصيبةً ... صُرِفتْ بإذن الله عن إخطائها
إن المواهب كلَّها عاريّةٌ ... ومن السفاهة غِبطةٌ بعطائها

٢٨

لقد طالما تحدَّث الناس وامتلأت كتب التاريخ بما اختصت به مصر من وباء يغير على أهلها حيناً بعد حين ، ويفتك بهم آناً بعد آن ، حتى أصبحت هذه السمعة لمصر كأنها طبيعة لا تبرح وصفة لا تزول، ولا يشاركها فيها بلد آخر من البلاد . خطأٌ قبيح ووهم فاحش ؛ فإنه لم تخل مدينة من المدن من وباء مغير أو داء فاتك . وأى محلة خلت من الموت ! وأى منزل برئ من الردى ! وهل تعرف أشد من الموت داء ، وأخوف من الردى وباء !

لقد حدثنا العقل وصدّقه التاريخ بأن الموت لنا غاية، والحِمام لنا نهاية ، لم تسلم منه أمة ولم يأمن منه جيل . يرمى فلا يخطئ، ويقتل فلا يباء بقتيل ، ليس لأحد أن يطلب إليه ثأراً ، ولا أن

يقضى منه وِتْراً . قد اتخذ له مرابىء يرقب منها صيده ، ويربأ منها فريسته ؛ فليس يُنجى الفتى من سهمه إقامة ولا ظعن ، وليس يحميه من نصله حَلٌّ ولا رحيل .

ما خصَّ مصراً وَبَأٌ وحـدها ... بل كائنٌ فى كل أرض وَبَأْ
أنبـأنا اللبُّ بلُقيا الردى ... فالغوثَ من صحةِ ذاك النبأْ
هل فارسٌ والروم والترك أو ... ربيعةٌ أو مُضَرٌ أو سبأْ
ناجيةٌ فى عِزٍّ أملاكها ... أن يُظْهِرَ الدهرُ لها ما خبأْ
ومن سـجايا نَبْله أنها ... كلُّ قتيلٍ قتلت لم يُبأْ
إن سار أو حلّ الفتى لم يزل ... يلحظه المِقـدارُ بالمرتبـأْ

٢٩

الجدَّ الجدَّ فى التقوى و إيثار الخير ، والحرصَ الحرص على طهارة النية وصفاء القلب ؛ فانّ التقوى خير ما أحرزته لنفسك من زاد ، وأفضل ما ادَّخرته لها من بقية .

أوّه ! كم يملأ قلبى الفزع ، وكم يملـكه الهلع حين أذكر الغد ، ذلك اليوم الذى نبَّئونا به وخوّفونا إياه ، يوم يتصبب العرق

تصبُّب الماء ، ويوم تذوب الأكباد وتبلغ القلوب الحناجر ! لقد أذهل حينما أذكر ذلك اليوم ، وأرى ما علِق بنفسى من الشرّ، وما ران على قلبى من السوء..

لقد يحتاج الثوب تلبسه إلى غاسل يزيل دَنَسَه ويردّه نقيا نظيفا. ولو أن لقلبى من النقاء والصفاء ما لهذا الثوب الذى يكدر ويصفو، ويدنس وينظف ، لحمِدت العاقبة ، ولرجوت حسن المآب .

ما ألذَّ الموت اليسير تتبعه الراحة الباقية ! وما أعذب مذاقه ! لقد أوثره على العيش الرضىّ والبال الهنى . ذلك لا يشوبه كدر ولا يناله تنغيص . وهذا عرضةٌ لما ينبغى أن يحذَر العاقل من خطب الزمان .

لقد بلونا العيش أطواره ، وحلبنا الدهر أشطُره ، فلم نبلُ إلا مرًّا ، ولم نلق إلا شرًّا ، ولم نشهد غير الشقاء .

لقد تقدَّم آباؤنا وأصدقاؤنا فسبقونا إلى الموت زائقاً أو رنقاً . فكم يذيبنا الشوق للقائهم ، ويملكنا الحرص على جيرتهم . ولكن هل تصدُق الأنباء وتُوَفَى المواعيد ، ويكفل لنا الموت لقاء الأحبّاء، وجيرة الأخلاء ؟ ! كم أستلذ الموت وأستعذبه ، وكم أطلبه وأتمناه لو أن لتلك المواعيد من الصحة حظاً ، ومن الصدق نصيباً .

تقواكَ زادٌ فاعتقدْ أنه أفضلُ ما أودعته فى السِّقاء
آهِ غداً من عَرَقٍ نازلٍ ومهجةٍ مُولَعــةٍ بارتقـاء
ثَوبِىَ محتاجٌ إلى غاسلٍ وليت قلبى مثلَه فى النقاء
موتٌ يسيرٌ معهُ راحةٌ خيرٌ من اليسر وطولِ البقاء
وقد بلونا العيش أطوارَه فما وجدنا فيه غير الشقاء
تقدَّم الناسُ فيا شوقنا إلى اتبِّاع الأهل والأصدقاء
ما أطيبَ الموتَ لشرّابه إن صحّ للأموات وَشْكُ التقاء

٣٠

تبارك الله منفرداً فى سلطانه ، مستبدًّا بعظمته وجبروته ، ليس له من عباده كفءٌ ولا من خلقه شريك ، لا تخفى قدرتُه ولا تغمُض قوته . وكيف تخفى القدرة القاهرة على ذى حظ من عقل ، أو تعزب القوة المسيطرة عن ذى نصيب من رشاد .

أىْ قُساةَ القلوب وجُفَاةَ الطِّباع ! أى عُمْى العيون وصُمَّ الأسماع ! لقد ظهرت لكم الآية بينة ، وقامت عليكم الحجة ظاهرة ، وأنتم معَ ذلكم تجادلون فى الحق ، وتسابقون إلى الباطل ، تنتظرون

بإيمانكم ما منتكم الأساطير من خوارق العادة وكواذب المنى، ناراً تظهر من كل أرض ، وتحشر الناس من كل صوب. هنالك تؤمنون ويومئذ تصدّقون ! لقد ضلّت الأحلام وجارت العقول ، وكذَبت الآمالُ من اغتر بها وتعلّق بأسبابها . أيها الناس ما تنتظرون بإيمانكم وماتتربصون بإصلاح أنفسكم !! لقد أصبح اليأس منكم حقّاً ، والرجاء فيكم حمقاً . ولقد أصبح لين الأحجار وسقوط الكواكب وبطلان حركة الفلك أيسر من أن يوجد فيكم الأصفياء، أو يكون منكم أهل الخير الصالحون .

لقد فُقد فيكم الصدق ، وطُمست بينكم أعلام الهدى ! ولقد حُبِّب إليكم الغدر وقلّ بينكم الوفاء ! ولقد اغتذت نفوسكم بالشر وارتوت بالرذيلة ، حتى أصبح العاقل الحكيم يعتقد أن ليس له من علّته بكم شفاء ، ولا من مصيبته فيكم بُرْء إلا الموت المريح .

أجل ! لم أر ألأم منكم طبعاً ، ولا أدنأ منكم أصلاً ، ولا أدنى منكم إلى المين ، ولا أحرص منكم على كفر النعمة وجحود الصنيعة ! أولئكم الآباء ينفقون عليكم صفو حياتهم ونضرة شبابهم، ويُبلون فيكم جدّة أيامهم ، حتى إذا أدركهم الهرم وآن لهم أن يتقاضوا منكم دينهم ، ويثابوا بما أحسنوا إليكم من صنيع ،

جزيتموهم عقوقاً ، ولقيتموهم جحوداً وكفراً. يجدون اعترافهم بكم لذة ، وترون براءتكم منهم نعمة ! لساء ما كافأتم الحسنة وشكرتم المعروف ! ولساء ما جزى الدهر أولئك الآباء برحمتهم قسوة ، وبرأفتهم غلظة ، وبدّلهم من برّهم عقوقاً . ولو أنه إذ أنزلهم منكم هذا المنزل القلق ترك لهم الأخلاّء، وأبقى لهم على الأصفياء ، لكان لهم عنكم سلوةٌ ، ولكنه يخترم أصدقاءهم ، ويشتفّ أحبّاءهم ، كأنما هو يشتفي بذلك من علّة معضلة وداء عياء .

انفـــــرد الله بسلطانه فماله فى كلٍّ حالٍ كِفاءْ
ما خَفِيتْ قدرتُه عنكمُ وهل لها عن ذى رشادٍ خفاء
إن ظهرت نارٌ كما خبّروا فى كل أرضٍ فعلينا العفاء
تهوى الثُّريَّا ويلين الصفا من قبل أن يوجد أهلُ الصفاء
قد فُقِد الصدقُ ومات الهدى واستُحسن الغدرُ وقلّ الوفاء
واستشعر العاقلُ فى سُقمه أن الردى مما عناه الشِّفاء
واعترف الشـــيخُ بأبنائه وكلهم ينـــذُر منه انتفـاء
ربّهمْ بالرِّفق حتى إذا شبُّوا عنا الوالدَ منهم جفاء
والدهـــرُ يشتفّ أخِـلاّءَهُ كأنما ذلك منه اشتفاء

٣١

لقد قضى الله على الإنسان أن يقضى حياته تعباً مكدوداً ، ويمضى أيامه معذَّباً شقيًّا ؛ فما يزال به العذاب والألم حتى يستنقذه منهما الموت ويريحه من شرّهما الفناء. إذ ذاك يطمئن بعد القلق ، ويسعد بعد التعس . وإذ ذاك يستحق أن تهنئه بما أفاد من راحة وما انتهى إليه من سكون . هَنِّئه بالراحة والسكون ، وهَنِّىء أولياءه بالغنى والثروة من تُراثٍ كسبوه ومال استولوا عليه. ما أجلّ الموت ! فقد ضمن الخير للأموات والأحياء على السواء .

قضى الله أن الآدمىّ مُعذَّبٌ إلى أن يقول العالمون به قضى
فهنِّىءْ وُلاةَ المَيْتِ يوم رحيله أصابوا تُراثاً واستراح الذى مضى

٣٢

أيتها المتهيئة للحج العازمة عليه أَلْقِى عن مطيتك رحلها ، وخفِّفى عنها ثِقْلها ، وأقيمى هادئةً مطمئنة ؛ فما أحسب الحج عليك فرضاً ، وما أعدّه منك مطلوباً . أقيمى ! ما أرى لك أن ترحلى إلى بلدٍ جمع الله فيه أشرار الناس وأسكنه أوشابهم

وأقلهم عن الأعراض ذِياداً وللأحساب حمايةً . فَسَقَةٌ لا يعرفون العفة ، وأنذالٌ لا يستشعرون الغَيرة . أقيمى! إلى من تَحُجِّين !! لقد قام بين يدى هذا البيت الحرام سَدَنته وحُجّابهُ فجرةً مستهترين ، سكارى ما يفيقون من السكر ، ولا يفرغون من المجون ، لا يرعون لهذا البيت حقاً ولا يحتفظون له بذمة . وإنما الطواف به والحج إليه تجارة لهم يربحون منها المال ويفيدون بها القوت ؛ فما يبالون إذا ملأت أيديهم صحاحُ الدراهم وزوائفها أطوّفوا بهذا البيت أهله أم أعداءه . دعى الحج وأمثاله من تلك الأعمال التى يدل ظاهرها على التنسك ، ويشهد باطنها بالتهتك . دعيها وافعلى الخير خالصاً من كل رياء ، بريئاً من كل نفاق . دعيها وأجيبى دعوة البرِّ إذا دعاك سرًّا أو جهراً ، لاتنتظرى على ذلك أجراً ولا تبتغى به ثواباً . أطعمى القانع والمعترّ ، وتعهّدى البائس بالمعروف ، وخذى نفسك بمكارم الأخلاق ومحاسن الخلال ؛ فذلك أنفع لك وأجدى عليك مما لج الناس فيه من باطل وزور .

أجلْ ! إنهم ليلجّون فى باطل ، ويحرصون على زور . ولو قد كان منهم إصغاءٌ إلى نصح ، أو إجابة إلى رشد ، أو انتفاعٌ

بموعظة، إذاً لرأيت كيف أزيل باطلهم عن الحق ، وأجلى غيهم عن الرشد ، وامحى ضلالهم عن الهدى . ولكنها قلوب عمياء ، وعقول ضعيفة ، لا يقومها رشد ، ولا ينفعها إصلاح .

ألا لا تثق بما يدعون إليه ! فإنما هى خيل تجرى إلى الباطل، وحَلْبةٌ تستبق إلى الضلال ! لقد جرت فى باطلها حيناً ، واستبقت إلى ضلالها آنا ، ولا بُدَّ لجرائها من انقطاع ولاستباقها من غاية ، ولقوتها من نفادٍ . إنهم لَيُجارُون قضاءَ الله ، ولكن هذا القضاء لا يُجارى ، وإنهم ليبارون قدره ، ولكن هذا القدر لا يبارى .

ألاَ أيها النجم الشارق والكوكب المتلألىء ! ألم يأنِ لك أن تهدى إلى سواءِ السبيل أُمماً جائرة قد أخطأت القصد ولم توفق للهدى ؛ فهى فى تيه من البيداءِ عريض ، لا تعرف له وجهاً ولا تنتهى منه إلى مدى ، قد بلغ منها الجهد وشفَّ أينقها الإعياء . لقد حرتُ فى أمرها وفى أمر أينقها ، فما أدرى أيهما أهدى سبيلا وأقوم طريقا : النوق أم ركّابها ! ! والإبل أم أصحابها ! !

وقد غلبهم المضلون على أمرهم فى الدين والدنيا ، وصرفوهم عن رشدهم فى كل شىء ؛ فهم مستذلون لدولة عزّت عليهم واستبدت

بهم ، يصفونها بالعِصمة و ينعتونها بالطُّهر. وأُقسم ما هى بالمعصومة ولا الطاهرة ، وماهم عن ذلك بغافلين .

إنهم ليعلمون من هذه الدولة دخيلتها ، ومن أولئك القادة خبيئتهم ، وإن نفوسهم لتتحدث بذلك وتطيل فيه ، ولكن ألسنتهم عن النطق معقودة ، وأفواههم عن البوح به مكمومة . وما عقد ألسنتهم ولا كمّ أفواههم إلا خَوَرُ العزم وضعف النفس وكذب الأخلاق .

أقيمى لا أَعُدُّ الحجَّ فرضاً ... على عُجُزِ النساء ولا العَذارَى
فنى بطحاء مكة شرُّ قومٍ ... وليسوا بالحُماةِ ولا الغَيارى
وإنّ رجالَ شَيْبةَ سادنيها ... إذا راحت لكعبتها الجِمَارَا
قيامٌ يدفعون الوفد شفعاً ... إلى البيت الحرام وهم سُكارى
إذا أخذوا الزوائف أولجوهم ... ولو كانوا اليهودَ أوِ النصارى
متى آداكِ خـيرٌ فافعليه ... وقولى إن دعاكِ البِرُّ آرى
فلو قبلِ الغُواة عرفتِ كشفى ... من الكذب المموَّه ما توارى
ولا تثقى بما صنعوا وصاغوا ... فقد جاءت خيولُهم تبارَى
جرتْ زمناً وتُسكَنُ بعد حينٍ ... وأقضيةُ المهيمن لا تُجارَى

لعل قِرانَ هذا النجمِ يَثْنى ... إلى طُرق الهدى أُمَماً حيارَى
فقد أودى بهم سَغَبٌ وظِمْءٌ ... وأينقُهُم بمُتْلِفةٍ حَسَارَى
وما أدرى أمَنْ فوق المَهارَى ... ألبٌّ إذا نظرتُ أمِ المهارَى
أتتهم دولةٌ قهرتْ وعزّتْ ... فباتوا فى ضلالتها أُسارَى
وظنوا الطهر متصلاً بقومٍ ... وأُقسم إنهم غيرُ الطهارَى
وما كَرِيت عيونُ الناس جمعاً ... ولكن فى دُجُنّتها تَكارَى
لهم كَلِمٌ تخالف ما أجنُّوا ... صُدورُهم بصحته تمارى

٣٣

أجب إلى تقوى الله والإذعان له ، لا تعدِل به شيئاً ولا تجعل له ندًّا ؛ فكل ما سواه باطل لا نصيب له من الحق ، وهالكٌ لا حظ له من الخلود . إنما أنجم العالَمَ العُلْوىّ وإن عظّمها الناس وهاموا بها لُعبة لا تلبث أن تتكشف عن خطل الذين فُتِنوا بها ورغبوا فيها . وإنما هذا العالم السفلى وما فيه من ألوان النبات على اختلافها ، وأنواع الحيوان على تباينها ، وأصناف الجماد على افتراقها ، صُورٌ ليس لها بقاء ، وظِلالٌ ليس لها ثباتٌ . وإنما هذا

الإنسان المُدِلّ بعقله التيّاه بشكله ، مثال لتلك الأجزاء الفانية التى ضمنها التراب وواراها الثرى .

ألا فلتزهد فى الدنيا ، ولتصرف عنها أملك ، ولتدارِها كما يُدارى الإنسان عدوًّا لا بُدّ له من جيرته ،وخصما لا مندوحة له عن عشرته . لقد داريتها كل المداراة ، وزهدت فيها كل الزهد، فما آبه لصروفها ، وما أحفل بخطوبها ، وما أُعْنَى بلذاتها . لقد لاينت أهلها كل الملاينة ، ورفقت بهم كل الرفق ، فما تزدهينى منهم صولةُ الصائل ، ولا جور الجائر . لقد نزلت لهم عما يتنافسون فيه ويستبقون إليه من لذاتِ الحياة ؛ فما أُحتبس فى بيتى حوراء ناعمة ولا حسناء فاتنة ، ولا أتخذ على مائدتى شهىّ الطعام ولذيذ المآكل ، إنما هى لُقَيمات تقيم الأَوَدَ و تمسك الرَّمَقَ إلى حين.

إذا قيل لك اخشَ اللـ ـهَ مولاكَ فقل آرى
كأنّ الأنجمَ السبعـ ـةَ فى لُعبة بقّارى
خُـــزامَى وأقاحىُّ وصفـــراء وشُقّارى
ومَنْ فوق الثرى يصغُـ ـرُ فى أجزاء مَنْ وارى
وأصبحتُ مع الدنيـا أُداريهـا كَمَنْ دارى

إِذا بارَأها قومٌ فقلبي حُبُّها باري
وما يرهبني جارِ يَ إن ناضَل أو جاري
وما عِرسِيَ حوراء ولا خُبْزِيَ حُوّاري

٣٤

جِدِّى أيتها الآمال فى تضليل العقول وتسفيه الأحلام واجتهدى فى التغرير بالناس منتهزة غفلة الحق عنهم وإبقاء الموت عليهم . اجتهدى فى هذا وجِدِّى فى ذاك ؛ فقد بلغتِ الأمر الذى أردته ، وأدركت الغاية التى ابتغيتها ، واستقادلك الناس فسَرَوْا فى ظلمة الباطل يترسمون خطوك ويتنورون نارك ؛ حتى إذا ما انمحتْ هذه الظلم وأدبر ذلك الليل وبدا صباح الحق أبلج وضاحاً ، حَمِدوا السُّرَى واطمأنوا إلى غاية ليس بينها وبين ما كانوا يؤمِّلون إلا ما بين الموت والحياة من الاختلاف .

إيه يا بنى آدم ! ما أطول آمالكم وأقصر آجالكم ! ما أشد طمعكم وأقل نُجْحَكم ! إنكم لتطلبون الثروة من نجوم السماء وغضون الأرض ، وإنكم لتسلكون إليها مختلِف الطرق وتذهبون

فيها شتى المذاهب ، ثم لا تؤوبون إلا باليأس والقنوط . قَدْكُمْ من هذا الجهل فإنه ضائع . قَطْكُمْ من هذا الجِدِّ فإنه لغوٌ . ذلكم زارع يقلِّب الأرض ليستخرج أثمارها ، وهذا دارع يغير بقوته على الحصون والقلاع . والسعيُ من الرجلين ضائع ، والحظ الأعمى فيهما متحكم . فربما عاد الدارع ذليلا بعد العزة ، وآب الزارع فقيراً بعد الثروة . وحكم الحظُّ فأمضى : حكم لهذا حبات من الشعير يُقمن أَوَدَه ، ولذلك شَذَرات من تبر الأرض ووَرِقها يقضين حاجه ويفضلن عليه .

أَشْدُدْ أيها الجاهد فى طلب الثروة رحلك على ما شئت من عَنْس طويلة المطا شديدة القُوَى ، أو ضَعْ سرجك على ما أحببت من طِرْفٍ أيِّدٍ شديد القَرَا ، ثم اجهد ناقتك فى الأسفار وفرسك فى الإغارات وعد بهما كليلتين قد أنضاهما الجِدُّ وأكلَّهما الحدُّ وقد سال عليهما من عرقهما مثـــل الظلمة السحماء ، ورسم على جسميهما بُصاق الدَّبِىَ أمثال البُرَا فى الأنوف ، لا تستطيعان حركة ولا تعطيان نائلا ، قد ذهب الأَيْن بجَدِّهما وجِدِّهما ، وقد ذهب بما فيك من قوة ، ومحا ما فيك من نشاط . افعَلْ

ما شئت من ذلك ، فلن تعود إلا بالخيبة ، ولن ترجع إلا بالإخفاق . .

لمن أنصح وبمن أهيب وعلى من ألوم ! ! لن ينفع النصح ولن يجدى الزجر ولن يفيد اللوم . غريزة فى الناس ثابتة ، وطبيعة عليهم حاكمة . فطروا على حب الدنيا ، وورثوا عن آبائهم الغلو فيه . لاتعذل أخاك فى هذا العشق ، ولا تلمه على هذا الحب ، فكلا كما فيه سواء ، ورثتماه عن آبائكما وورثتماه أبناءكما . إنما أنتما فيه أشبه بالذئاب خبثاً وسوء نية ، منكما بالأسود شجاعة وصدق إقدام . والدنيا خادعة ماكرة ، ومحتالة ماهرة ، تدب دبيب الشيخ وتدرج دروج الطفل حذرة مستأنية ، حتى إذا لمحت مطمعاً أو توسمت فريسة ، فدع مهارة السليك وتفوق الشنفرى فى الكر والفر ، وفى الاختلاس والنذل ، وفى سوء الخلق وفساد الضمير .

لقد علمتكم فأحسنت تعليمكم وغذيتكم فأحسنت غذاءكم ؛ فليس فيكم من هو من الشر برئ ، ومن دنس الرذيلة نقى ، سواء فى الشر والرذيلة أهل السهل والجبل ، وسكان الوهاد والذرا ، لا يزدهم عنه راد ، ولا يردعهم عنه رادع .

ألا لو أنصف الحكيم نفسه لطلب الصمت وسكن إليه ، ولافتن فيه افتنان الجاهل المغرور فى النطق بما فى الحياة من زخرف وما فى العالم من أسماء .

إيه أيتها العقول الضالة! ضحى ماشئت من الأسماء ، فلن تجْدِى عليك شيئاً. سمُّوا الخمر أم ليلى،وسموا مكةأم القرى،فما أنتم فى ذلك إلا كاذبون . ما أرى الخمر ولدت ليلى ، وما أعرف مكة ولدت القرى ! سموا هذا النجم الطالع فى السماء بالمشترى فما أنتم فى ذلك إلا مختلقون ! فهل تنبئوننى ماذا اشترى هذا النجم وماذا باع ! . كلا ! إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، لا تعلمون لها مصدراً ولا تريدون بها غاية .

انتظِروا الربح فلن تربحوا إلا الخسران . وأمِّلوا الظفر فلن تظفروا إلا بالخيبة . انخدعوا بالأسماء فإن ضعف عقولكم لم يُعدِدْكم إلا لذلك ولم يهيئكم إلا له .

عَذِيرِى من هذا المارد الغالى فى مروده،والفاجر المغرق فى فجوره، يتقرَّأ ويَدَّعى النسك ، ويتزهد وينتحل الدين ، وما أراه إلا متتبعاً للمخزيات ، متطلبا للآثام ، مستبطناً للكفر والنفاق .

ألا أيها الحكيم الحازم ار بأ بنفسك أن تحب هذه الحياة فما

فيها خير، أو تحرص على عشرة أهلها فما يرجى لهم صلاح . هوِّن على نفسك لقاء الموت؛ فإن خشونته وغلظته ألين مسًّا من نعومة الحياة ورقتها. وَطِّنها عليه وهيئها له؛ فإنما أنت سالك سبيل أمثالك الذين مضوا، وتابعٌ نهج أقرانك الذين درجوا. كم خبّرك التاريخ عن قَيْلٍ دانت له العروش وانقادت له المنابر، ثم أسلمته عزته وقوته إلى التراب فخالطه وفنى فيه! مضى لم ينفعه ملكه، ولم يتبعه سلطانه، بل أقام فى ظلمة قبره عارياً من كل شىء، أعزل من كل سلاح، وخلّف دولته الضخمة وعزته القعساء بالعراء.

ارغَبْ فى الموت وابتدره بفعل الخير، وليكن حظك من هذه الحياة الإحسان إلى أهلها والتطول عليهم. إقرِ ضيفهم إن نزل بك. إقره بأول ماتلقاه، لا تتربص به ما ليس عندك، ولا تُكبره على ما فى يدك. لا تزدر شيئاً من القوت؛ فرُبَّ مزدرًى نفع، ورب محتقر أفاد. إن فى هذا القوت الذى تمقته وتُصغره أن تقدِّمه إلى ضيفك لبلاغاً لهذا الضيف من جوع ربما مزّق أحشاءه، وَتَعِلّةً له عن ألم ربما لم يُطق له حَمْلا. وأين تقع العُرا والأزرار مما أُوتيت البُزْلُ من قوة وما مُنِحتْ من أيْدٍ! ولكنها مع ذلك محتاجة إليها لا تستطيع أن تُقِلّ حملا ولا أن ترفع ثِقلا إلا بها. وليس

يُحتقَرُ الشيء لضعة مكانه ولا يعظَّم لارتفاع قدره ، ينبغى أن يقدَّر ذلك بمكانه من حاجة الناس إليه ، وتوقف مصالحهم عليه .

أجلْ ! لقد بالغنا فى حب الدنيا و إكبارها حتى أطمعناها فى أنفسنا ، فشزرتنا محتقرة لنا ، ونظرتنا زارية علينا ، وهى أحق أن تُحقر وأجدر أن تُزدرى : فليس فيها شىء يحسن بالعاقل حرص عليه أو رغبة فيه . لذاتها نائية ، وآلامها دانية ، خيرها قليل وشرّها كثير ، والسعادة فيها غير باقية ، والشقاء بها لا يزول. أوليس أجمل الأشياء فيها عصر الشباب الذى يحمل إلينا من اللذات ألواناً ومن النعمة فنوناً ! فكيف ترى ثباته لنضالها و بقاءه أمام نبالها ! أو ليست تتخذه غرضاً فلا تزال بجدّته حتى تبلَى و بنضرته حتى تذوى ، و بجماله حتى يزول ! .

نحب الحياة ونكره الموت . وما أعرف لشئ من ذلك سبباً . لقد عرفنا شر الحياة وضرها ، وأرى أنا لا نكره الموت إلا لجهلنا إياه وغفلتنا عنه ، وأننا لم نذق طعمه ولم نبلُ ثمره ! بلى ! لقد ذقناه فما ألذه ! و بلوناه ، فما أحلى جناه ! وأى فرق بين الموت والنوم إلا قصر هذا وطول ذاك ! وأى خلاف بين رقدة القبر ورقدة السرير ، إلا أن هذه راحة مؤقتة تنسخها آلام اليقظة ،

وتلك راحة خالدة لا ينسخها شقاء الحياة .

ألا إلى الله الملجأ وعليه المعتمد ؛ فإنا لم نُجْمَع فى هذه الدار ، ولم نُحَشَرْ إلى هذه الأرض إلا لنشرب كأس الموت كدرة أو صافية لا بد منها ولا منصرف عنها . نشربها راغمين فنجد لها مذاقا واحداً لا يغيره اختلاف المادة ولا يبدله تبدل الأجزاء : فلان قتله المرض ، وفلان قتله السيف ، وفلان أصابه الرمح ، وآخر أصماه السم ؛ كلٌّ قد انتهت به الحياة إلى مورد واحد لا اختلاف له ولا تفاضل فيه .

نشربها راغمين وإن لم نحمد أثرها . فناء تام ، وسكون خالد ، وذهول عن العالم مقيم . رِدْ حوض الموت مطمئناً ، واحتس كأسه مستريحاً ؛ فلن يؤلمك بعد ذلك ذم الناس لك ، ولن يرضيك ثناؤهم عليك . وأنى لهم أن يؤلموك أو يرضوك وقد فصمت بينك وبينهم العُرا ، وتقطَّعت بينك وبينهم الأسباب ! !

أقدِمْ ، ولا يهولنَّك ما تسمع من أخبار الغيب وأنبائه ؛ فإنما هي ظنون مرجَّمة ، وأحاديث منحولة ، لم تنتقل إليك عن ثقة ، ولم تبلغك عن يقين . هل أنبأك ميتٌ بما بعد الموت ؟ وهل قص عليك ما لقى فى قبره من سعادة أو شقاء ومن نعيم أو جحيم ؟ !

كلا ! لو أنه قام من جَدَثه وهبّ من مرقده فأنبأنا بما رأى وحدثنا بما سمع ، لاختلف ظن الناس به ورأيهم فيه ، ولكان منهم المصدِّق له والناعى عليه . طبيعة تلك فى الناس لا تزول ، يؤثرون الباطل فيُجمعون عليه ، ويحقرون الحق فيختلفون فيه .

أجل ! إنا لم نُجمَعْ الا لِنَرِدَ هـذا المورد ، كما أن راعى الإبل لم يوردها الحوض ولم يعرضها عليـه إلا لتشرب منه وترتوى من مائه .

أقدِمْ على الموت ، فليس لك عنه مفرّ ولا منه مُعتصمٌ . وأنَّى لهذا الفَرَأ الفتىّ قد اشتد به المرح وعظم فيه الحرص على الحياة ، أن ينجو من سهم أرسله إليه القدر وأتاحه له القضاء !

لا تخدعنك الآمال ، ولا تغرنك المنى ، ولا يملكنك حب الحياة ؛ فإنما هى آمال منقطعة بك ، وأمانى مُسْلِمةٌ لك إلى الحمام . وأنَّى يُتاح للثور الهرم قد أفنته السن وتصرّمت عنه الأيام ، أن يعيش عيشة الفَرَأ النشيط ذى الشباب والقوة وذى الحدة والفتوّة !

ما أكثر تعرُّض عقل الإنسان للزلل ، واستهدافَ رأيه للخطل ! فقد يخدعه السراب ، فيخيِّل إليه الشراب ، وقد يسحره قطر السحاب ، فيخيِّل إليه الدرّ ذا البريق والصفاء وذا الرونق

واللألاء . كذلك يفعل الضعف بنفس الإنسان، يسقيها المنى عذبة، ويُريها الآمال محققة ، حتى إذا جاء وقت اليقظة والانتباه والحرص على اجتناء الأثمار لكد الليل وكدح النهار ، لم يظفر إلا بألم اليأس ، ولم ينل إلا مرارة القنوط .

كم تمتلىء نفسك ابتهاجا ! وكم يفعم قلبك سرورا حين تصوغ لك الآمال طيف الخيال ، وفيه من حبيبتك ما أحببت من دلّ فاتن ، وجمال ساحر ، ومن لطف خلاّب ، وحسن جذّاب ! وكم يؤلمك وخز اليأس حين تباعد اليقظة بينك و بين هذا الخيال ؛ فما تفيق من نومك إلا وقد استيقنت بأنك قد كنت فى باطل ليس له من الحق نصيب ! ذلك هو نصيبك من الدنيا ؛ فإن شئت فازهد فيه ، و إن شئت فاحرص عليه . ولكنى أنصح لك ألا تتخذ سبيل الجاهل الذى لا يفرّق بين نفعه وضره ، ولا يميز خيره من شره ، ذلك الذى يصرف سيفه عن عدوه ليُغمده فى رأس أحب الناس إليه وأولاهم بالمنزلة عنده ، وهى ابنته التى هى جزء من نفسه وقطعة من قلبه . هذا الجاهل الغافل يغتر بالحياة فيرغب فيها ، و يعتقد أن حرصه عليها سيعصمه من فراقها، و إنما هو فى رأيه مضلل مغرور .

ما أشدّ ما أشهد بين الناس من الاختلاف فى طرق الحياة ، والافتراق فى سبل العيش !. هذا يبيع ، وهذا يشترى ، وتلك تغنّى وهذه تنوح ، وذاك يهوِى إلى أعماق الأرض ليمتح الماء من جوف القليب ، وصاحبه يصعد فى أجواز الجو ليشتار العسل من رءوس الجبال أشد ما يكون على نفسه حذرا من السقوط ، وأحرص ما يكون لها رغبة فى النجاح . والكل ينتهون من مساعيهم المختلفة ومسالكهم المتشعبة إلى غاية واحدة ، هى الموت الذى لا منصرف عنه ولا شك فيه .

ألا إننا زائلون كما زال مَنْ قبلنا ، مُقَفُّون على آثارهم، ومورثون الأرض لمن بعدنا .

والزمان على حاله : نهار يمر بضوئه ، وليل يكرّ بظلمته، ونجم يطلع ، وآخر يهوى مغوّرا . بذلك سبق القدر ، وعلى هذا استقر القضاء..

سَرَيْنا وطالبُنا هاجعٌ وعند الصباح حَمِدْنا السُّرى
بنو آدمٍ يطلبون الثرا ءعند الثُّريا وعند الثرى
فتًى زارعٌ وفتى دارعٌ كلا الرجلين غدًا فامترى

فهذا بعينٍ وزايٍ يروح ... وذلك يؤوب بضادٍ ورا
وعامل قوت ذرا حبَّه ... وخِدنُ رِكازٍ ضحا فاذَّرى
وكُورُك فوق طويلِ المَطَا ... وَسرْجُـك فوق شديد القَرَا
ويُجْرِى ذَفَارِيَّها جِدُّها ... بمثل الظلام إذا ما جرى
كأنَّ بُصاقَ الدَّبَى فوقها ... إذا وقدت فى الأنوف البُرَا
وذلك من حـرّ أنفاسها ... يُضاعفه حرُّ يومٍ جرى
تلوم على أمِّ دَفْرٍ أخاك ... وراءك إنَّ هوًى قد ورى
عهدتُك تُشبه سِيدَ الضَّراء ... ولستَ مُشابهَ ليثِ الشَّرَى
تَدِبّ فإن وُجدتْ خُلْسةٌ ... فيا لِلسُّليكِ أوِ الشَّنفرَى
هو الشر قد عمّ فى العالمين ... أهل الوُهود وأهل الذرَا
ليفتنّ فى صمته، ناسكٌ ... إذا افتنّ فيما يقول الورى
فَكَنُّوا صبوحيَّة الشرب أُمَّ ... ليلى ومكةَ أُمَّ القرى
وقالوا بدا المشترِى فى الظلامِ ... فياليت شعرِىَ ماذا اشترى
وترجو الرَّباحَ وأين الرباحُ ... ونعتُك فى نفسك الخيْسَرَى
عَذِيرِىَ من ماردٍ فاجر ... تقرَّأ والمخـزياتِ اقترى

فهوِّنْ عليك لقاءَ المنون وقُلْ حين تُطرق أَطْرِقْ كَرَا
ونادِ إذا أوعدتك اعْتِرِى فصبراً على الحكم لمَّا اعترى
ونفسى ترجِّى كإحدى النفوس وتُذْرِى النوائبُ سَكْنَ الذُّرَى
وكم نزل القَيْلُ عن منبرٍ فعاد إلى عُنْصُرٍ فى الثرى
وأُخْرِجَ عن مُلْكه عارياً وخلَّف مملكةً بالعَرا
إذا الضيفُ جاءك فابْسِمْ له وقرِّبْ اليه وَشِيكَ القِرَى
ولا تحقِرِ المُزدرَى فى العيون فكم نفع الهيِّن المزدرى
ولا تحمل البزلُ تلك الوسو قَ إلا بأزرارها والعُرا
أَجلْ خَـزَرَتْـنِىَ وَثَّابَةٌ سواها التى مشتِ الخيْزَرَى
فإنْ سَراء الليالى رمى أَوَانَ شبيبتنا فانسرا
ونومىَ موتٌ قريب النشورِ وموتى نومٌ طويل الكَرَى
نؤمِّل خالقَنا إننا صُرِينا لنشرب ذاك الصَّرَى
سواء علىَّ إذا ما هلكتُ مَنْ شاد مكرمتى أوزرى
فأودى فلانٌ بسقمٍ أضرَّ وأودى فلانٌ بعرقٍ ضَرَا
أَبِالنَّبْلِ أُدرِكَ أم بالرِّما ح بين أسنَّتها والسُّرا

فهل قام من جَدَثٍ ميّتٌ   فيُخبِر عن مَسْمَعٍ أو مَرَا
ولو هبّ صدّقه معشرٌ   وقال أُناسٌ طغى وافترى
ولم يَقْرِ في الحوض راعي السوا   م إلا ليورده ما قرى
أفِرٌّ وما فَرّاً نافرٌ   بمعتصمٍ من قضاءٍ فرى
أحِنّ إلى أملٍ فاتني   وما للشّبوبِ وعيش الفرَا
متى قرقر الهاتفُ العِكرميّ   هيّج شوقاً إلى قَرْقَرَى
وقد يَفسُد الفكرُ في حالةٍ   فيوهمك الذرّ قَطْرَ السّرا
سقاك المنى فتمنّيتها   وصاغ لك الطيفَ حتى انبرى
فلا تدنُ من جاهلٍ آهلٍ   لو انتُزِعت خَمْسُه ما دري
أبي سيفُه قتل أعدائه   وساف وليدتَه أو هرى
وتختلف الإنسُ في شأنها   وأبْعِدْ بمن باع ممن شرى
مُغنّيةٌ أُعطيت مُرغِباً   فغنّتْ ونائحةٌ تُكترى
وهاوٍ ليُخرِج ماء القليبِ   وراقٍ ليجنيَ ثَوْلاً أرَى
فإن نال شهداً فأيسِرْ به   على أنه بسقوطٍ حَرِى
نَزولُ كما زال أجدادُنا   ويبقى الزمانُ على ما ترى
نهارٌ يضيء وليلٌ يُجِيء   ونجمٌ يغورُ ونجم يُرى

٣٥

حياة تُعنِّينا آلامها ، وموت يعذبنا خوفه . فليت ما يؤذينا مضى ، وليت ما يخيفنا وقع ! .

ماذا أحمد من الحياة ! و إنما هى أمل يثمر اليأس ، ورجاء يغلّ القنوط . نفس متمنية للسعادة ، وعين رانية إلى النعيم ، و يد قد أصفرها الفقر وأخلاها الشقاء ، ولهاة قد أجفّها الظمأ وأذواها الصدى .

لشد ما أشهد فى هذه الحياة من تلون ! ولشد ما أرى فيها من خداع . أناس يحبون الخير و يرغبون فيه ، فإذا حققت أمورهم وتبينت أسرارهم ، رأيت أن حبهم للخير وحرصهم عليه ليس إلا تجارة كاسدة يبتغون بها الذكر الطائر والشهرة الكاذبة والصيت البعيد. أوقدْ أيها الموقد نيرانك فى جوف الليل، وارفع سناها على رءوس الجبال وشعافها ؛ فقد علمت أنك لم تُرِدْ بذلك وجه الله ولا فعل الخير ، و إنما أحببت أن يشيع حمد الناس لك وثناؤهم عليك .

حقّق أيها الباحث نظرك فى الأمور ، وأجِدْ بحثك عنها

واستقصاءك لها ، تجد أن غاية ما ينال المرء من حياته إنما هو ثوب يستر جسمه ، وقوت يقيم أوده ، وراحة تدفع عنه الأسقام والأمراض . لقد كثر الثمن وخسرت الصفقة ، وبذلنا هذا الجهد العظيم ثمناً لهذا الحظ القليل من الحياة .

ما أجمل الموت وما ألذه ! وما أكفله للراحة وأنفاه للتعب ! يسكن أحدنا القبر فلا يحفل بما أفاد من ثروة وما اقتنى من طرائف . يعود ترابا لا يلذ له مس الحرير ولا يؤذيه طعن القنا ، ولا يؤلمه ما نال من موت زعاف قد حمله إليه صارم صافى الفرند ماضى الحد مرّ المذاق . لا يزدهيه الغضب ولا تأخذه العزة إن ذمه الناس أو مدحوه ، سواء عليه سيئ ذلك وحسنه وقبيحه وجيّده .

ألاَ من كانت قد أعجبته الحياة فإنى قد أعجبنى الموت ! ألا إن من نال الخير خليق أن يهنأ به ويغبط عليه ، ولكنى لا أرى الحياة خيراً ولا أعتدّها نعمة .

لقد كثرت مذاهب الناس فى مصدر ما اشتملت عليه الحياة من شر : فمنهم من حمد المادة وأنكر الروح ، ومنهم من ذم المادة وجعلها مصدر الشرور وعلة الآثام ، وزعم الروح بريئاً من كل

عيب خالصاً من كل سوء ، والجسم مصدر آلامه وعلة شقائه .
وما أرى هذه الطائفة من الناس إلا غالية مغرقة . ماذا فعل الجسم المسكين ؟ وماذا جنى ؟ ! لقد كلَّفه الروح مشاق الأعمال وأنواع الآلام فاحتملها طائعا وقام بها مذعنا حتى أدركه البلى وأصابه الفناء . أجلْ ! لقد كلفه الروح من أعاجيبه ما يفوق الطاقة ويتجاوز الحد ، فما عصى أمرا ولا استهان بنداء . أفإن أبلته الخدمة وأفنته الطاعة يكون نصيبه الذم والعيب ؟ ! .

لقد أخطئوا فى ذمهم للجسم وكذبوا فى عيبهم عليه ؛ فما رأينا الجسم فى نفسه إلا مصدرا للخير وسببا للنعمة . وما رأينا الشر والشقاء والغىّ والفساد إلا تابعة للحياة يصحبها الروح . دونك الغصنَ الذى هو جسم صرف ليس له من العقل والروح نصيب ، ودونك الإنسانَ العاقل المفكر ، فانظر أيهما الى الخير أدنى وإلى الفائدة أقرب ، تجد الغصن قد أعطى النعيم واللذة وأجنى الفواكه والأثمار ، والإنسان قد أوجد الجحيم والشقاء وجنى الآثام والشرور .

لقد برئ الجسم الخالص من المين والتكلف ومن الكذب والزور ، فما تبرَّأ مما هو فيه ، ولا حرص على الرجوع إلى ما فاته ، ولا ذاق كذب الآمال ولا جرّب ضلال المنى . أُنظر إلى الإنسان

ذى العقل والفكر كيف ضلّ عقلُه وصغر فكره ! فكَّر فى الشيب وقد أصابه ، وأحب الشباب وقد فاته ، فظن أن الخضاب يدفع عنه ما أتى ، و يردعليه ما فات ، ونسى أن تغير اللون واستحالته لا يدفعان عنه ما دهمه الشيب به من انحناء الظهر وانثناء المتن .

أُنظر إليه كيف خدعته الأوضاع المختلفة والأصول المنتحلة، فحكَّمها فى نفسه وسلّطها على عمله ، مع أنه هو الذى اخترعها ولم تكن موجودة ، وانتحلها ولم تكن معروفة ، واتخذ منها لنفسه قيودا وأغلالا تعوقه عن الخير ، وتثنيه عن الكمال . جعل فى الناس أحراراً وعبيدا، وفرّق بين ابن الحرة وابن الأمة فى الحكم وباعد بينهما فى نظر العقل . وما أرى بينهما فرقا ، كلاهما إنسان يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق . فرّق بين المُحْصَنة والزانية ، وأخذ ابنيهما بحكمهما، فأخذ ابن الزانية بجناية أمه، ور بما كان خيِّرا فاضلا. ومدح ابن المحصنة بطهارة أمه، ور بما كان شريرا آثما . ما أضلَّ عقلَه وأسْفَهَ رأيه وأجدرَه أن يتخلص من هذه الأغلال !

أُنظر إليه بَطِراً أَشِراً يحب الحياة و يرغب فيها، حتى إذا طالت له أنفقها فى الزور والخنا ، وأمضاها فى الإثم والفجور . أُنظر إليه كيف نسى نصيبه من الموت حين حُجب عنه وخفى عليه ، فظن

أنه خالد لن يموت وأنه لا يفنى ، حتى إذا ظهر خطؤه وبانَ خطله تقطَّع قلبه حزناً لفراق الحياة ، وتفرّقت نفسه فزعاً من لقاء الموت . ولو قد كان متبصرا فى الأمور مستقصياً لعواقبها لكان بنجوة من هذا الفزع وذلك الحزن . أُنظر اليه كيف أصم أذنيه عن هذا الصوت المُرِنّ ، وكيف أعمى عينيه عما يقدِّم الدهر اليه من آيات بينة وحجج ناصعة ، تظهر له غروره واضحاً ، وفتونه جليًّا .

أُنظر اليه كيف خدعته أوهام الأقدمين وأضلّته أساطير الأولين ، واتخذ لنفسه شرائع مكتوبة وطقوساً من العبادة ظاهرة ، يزعم أنها تدخله الجنة وتعصمه من النار . لقد فزتَ أيها الشقى التعس إن صدقتك هذه الأوهام وصحّت لك هذه الوعود . فزتَ بالجنة ونعيمها ، وبرئت من النار وجحيمها ، بزيارتك لتلك الأحجار القائمة والأبنية الماثلة بمكةَ ومِنًى .

حياةٌ عناءٌ وموتٌ عَنَا فليت بَعيدَ حِمَامٍ دَنَا
يدٌ صَفِرتْ ولهاةٌ ذوتْ ونفس تمنَّت وطَرْفٌ رَنَا
ومُوقِدُ نيرانه فى الدجَى يروم سناءً برَفع السَّنى
يحاول من عاش سَتْرَ القميصِ ومَلْءَ الخميص وبُرْءَ الضَّنى

وَمَنْ ضمّه جَدَثٌ لم يُبَلْ على ما أفاد ولا ما اقتنى
يصير تراباً سـواءٌ عليـــه مسُّ الحرير وطعنُ القنا
وشُرْبُ الفناء بخُضرِ الفرِندِ كأنٌ على آسِنهن الفنَا
ولا يزدهى غَضَبٌ حِلمَه أَلَقَّبَه ذاكرٌ أم كنا
يُهَنَّأُ بالخير مَنْ ناله وليس الهناء على ما هُنَا
وأقربْ لمن كان فى غِبطةٍ بلُقْيا المُنَى من لِقاء المَنَا
أعائبةٌ جسدى روحُـه وما زال يخـدُم حتى ونى
وقد كلّفته أعاجيبَها فطوْراً فُرادَى وطوراً ثُنَا
يُنَافِى ابن آدم حالَ الغصونِ فهاتيك أجنتْ وهذا جنى
تغـيَّرَ حِنّاؤه شيبَـه فهل غيَّر الظهرَ لمّا انحنى
إذا هو لم يَحْنِ دهرٌ عليـه جاء القَرِىُّ وقال الخنا
وسيّانِ مَنْ أُمُّه حُـرّةٌ حَصَانٌ ومن أمّه فَرْتَنَى
ولى مَورِدٌ بإناءِ المنونِ ولكنّ ميقاتَه ما أنى
زمانٌ يخاطب أبناءه جِهاراً وقد جهلوا ما عَنَى
يبدِّل باليسر إعـدامَه وتهدِم أحداثُه ما بَنى
لقد فزتَ إن كنتَ تُعْطَى الجنا نَ بمكة إذ زرتَها أو مِنى

٣٦

بعلم الله وقضائه خُلقتُ والضعفُ لى طبيعة والعجز فىَّ غريزة، لا أستطيع غدوًّا ولا رواحاً ، ولا أقدِر على سُرًى ولا إدلاج .

لقد أصبحت فى يده أسيراً يائساً وذليلا ضارعاً ، أحوج ما أكون إلى فضل من عفوه ، ونافلة من كرمه .

وليس يصح فى قضية العقل أن أقضى أيامىَ فى هذه الحياة مُوثقاً مكتوفاً ، لا أملك لنفسى نفعاً ولا أدفع عنها ضرًّا ، ثم أُكَلَّف العمل فى الطاعة والجد فى العبادة ، حتى إذا لم آتِ ما أنا عاجز عنه قيل لتَدخُلِ النار كما دخل غيرك من العصاة المفسدين والطغاة المجرمين ، وإن بينى وبينهم لَفَرْقَ ما بين العاجز والقادر أو القوىّ والضعيف .

لئن زعم الناس أن لهم قوة وقدرة ، وأن لهم بأساً وبطشاً ، وأنهم قادرون على ما كُلِّفوا مالكون لما نُدِبوا إليه ، ما أعرف إلا أنى عاجز ضعيف ، قد برئت من الحول والطول ، وعجزت عن الدقيق والجليل . ولئن وقف الناس أنفسهم موقف اليأس والقنوط ، فاستيقنوا بسوء العاقبة حين اعتقدوا فى أنفسهم القوة ،

إنى لكبير الأمل عظيم الرجاء . أنتظر أن ينالنى عفو الله عن ضعيف عاجز فيأمر بى إلى جنته حيث ينعم الأبرار من أصفيائه . ذلك رجاء أرجوه وأمنيّة أبتغيها . وما أرانى إن ظفِرت بها إلا الموفّق السعيد .

بعلم إلهى يُوجَدُ الضَّعفُ شيمتى — فلستُ مُطيقاً للغدوِّ ولا المَسْرَى
غَبَرتُ أسيراً فى يديه ومن يكن — له كرمٌ تُكْرَمْ بساحته الأَسْرَى
أأُصبح فى الدنيا كما هو عالمٌ — وأدخل ناراً مثل قيصر أو كسرى
وإنى لأرجو منه يوم تجاوز — فيأمر بى ذات اليمين إلى اليُسرى
إذا راكبٌ نالت به الشأوَ ناقةٌ — فما أينُقِى الا الظوالعُ والحَسْرَى
وإن أعفَ بعد الموت مما يَريبنى — فما حظِّىَ الأدنى ولا يدىَ الخُسْرَى

٣٧

لا تحقِر الموت ولا تزهد فيه ، ولكن أكبره واسْعَ إليه ؛ فإنه خليق أن يكون مطمعاً للنفس الكبيرة والقلب المطمئن . وأى دليل على شرفه وفضله أوضح من صعوبة الطريق إليه ! فإننا إنما نسلك إليه هذه الحياة محتملين أهوالها متجشمين خطوبها

متجرِّعين غُصصها ، ابتغاء راحته الدائمة ودعته الخالدة ؛ فهو كالمجد المؤثَّل لا يُنال إلا بالجهد والمشقة .

أجلْ ! إن الموت لراحة ، وإن الحياة لتعب ، وإن فى افتراق الأجزاء بعد الموت لتخففاً من ثقل شديد ، كما أن فى التئامها بالحياة تحملا لعبء عظيم .

أُنظر إلى هذا الراعى المكدود ، ما ينفكّ عاملاً مجتهداً فى حياته ، حتى إذا مات سكنت حركته واطمأن جسمه وارتاح بعد العناء . وما أحسبه لو خُيِّر بين الموت والحياة وقد ذاق أولهما إلا مؤثراً للحِمام ومختاراً للفناء .

يدلّ على فضل المماتِ وكونهِ ... إراحةَ جسمٍ أنّ مسلكه صعبُ
ألم تر أن المجد تلقاكَ دونه ... شدائدُ من أمثالها وجب الرعبُ
إذا افترقت أجزاؤنا حُطَّ ثِقْلُنا ... ونحمل عِبئاً حين يلتئم الشعب
وأمسِ ثوى راعيك وهو مُوَدَّعٌ ... ولو كان حيًّا قام فى يده قعبُ

٣٨

فيم تعيب الناس وتتبّعُ زلاّتهم ! وعلامَ تؤنّب الصديق وتكثر الإساءة إليه ! وماذا جنى عليك الدهر فأنكرته ، أو قدّمت لك الأيام من الشر فأنت لها كاره وعليها عاتب ! لقد كنت خليقاً أن تُشْغَل بما أصبحت منتظراً له من موت واقع ، ليس له من دافع ، عن تتبع العيوب وتأنيب الأصدقاء . ولقد كنتَ حجيًّا أن تعرف نفسك وتعترف بسيئاتها ، لا أن تجهلها وتحمل جناياتها على الزمان وآثامها على الأيام ! ما أذنب الدهر ولا جنت الأيام ، وإنما نحن المذنبون الجانون .

أنظر إلى هذا الظالم قد غرّه سلطانه وأطغاه بطشه ، فظن بنفسه الخلود واستبعد عليها الموت ، وإن الموت لمدركه أين كان ولو اتخذ نفقاً فى الأرض أو سُلّماً فى السماء . أحبّ الظلم ورغب فيه ، وطلب العسف وتهالك عليه ، فما ينفك فيه جادًّا وعليه حريصاً . لقد بدّل برقّة العواطف قسوة القلب وغلظة الكبد وجفاء الطبع ، حتى استبدل بما يعشقه الناس من الغوانى الحسان أدوات الموتِ وآلات الفناء . إنه ليرى فى القناة اللَّدْنة السمراء وفى

سنانها المخضوبِ بالدماء ، حسناء فاتنة يضم إليه قدَّها المياس ويلثم ثغرها الشَّنِب . وإنه ليرى فى السيف قد صفا رونقه وخلص جوهره وتلألأ الفرند فيه جدولاً من الماء نقيّ الصفحة ، ولكنه ينم عن صورة الموت ، فلا يكاد يصبُّ منه على رأسْ القِرْن قَطَرات حتى ينبسط منه جدول من الدم المزبد العبيط . إنه ليهوَى الحرب ويكلف بها ويراها هنْدَه وزينبه . وإنه ليقطع إليها المهامه ويتجشّم البيد ويمتطى الأيِّد من الخيل والنوق ، والناس من حوله وادعون مطمئنون . إنه ليفعل ذلك كله فيزعج الآمن ويروع المطمئن ويملأ الأرض شرًّا وإثماً ، ثم أنتم بعد ذلك تَصِمُون الأيام وَصْمته ، وتحملون عليها وِزْرَه وتسبّونها بما كان خليقاً أن يُسَبَّ هو به. أصلحوا أنفسكم فقد فسدت ، وبصِّروا ظالمكم فقد أعماه الغرور . أرشدوه إلى أنه يمد إلى الحياة أسباباً سيقطعها الموت ، وأن ما يدّخر من الوَرِق والنُّضار ، وما يحتمل فى سبيله من الأهوال والأخطار ، وما يقتنى من دُهم الخيل وغُرّها ، ومن قوارح الإبل وبُزلها ، لن تدفع عنه غارة الأيام ، ولن تردّ عنه صولة الزمان. لقد عجزتْ أن

تقيم قدَّه المنحنى وعودَه المُنْآد ، وإنها عن دفع الموت لأضيق باعاً ، وأقصر ذراعاً .

لِيَشْغَلْكَ ما أصبحت مرتقباً له
عن العيب يبدُو والخليلِ يؤَنَّبُ
فما أذنب الدهرُ الذى أنت لائمٌ
ولكن بنو حوّاء جاروا وأذنبوا
سيدخل بيتَ الظالم الحتفُ هاجماً
ولو أنه عنــد السِّماكِ مُطنَّبُ
وقد كان يهوَى الطعنَ أمّا قناتُه
فذاتُ لَمًى والحِرصُ كالناب أشنبُ
ودرعُ حديدٍ عنده درعُ كاعبٍ
من الودِّ واسمُ الحرب هندٌ وزينب
ويطوى الملا بعد الملا فوق كُوره
إذا العيسُ تُزْجَى والسوابقُ تُجْنَبُ
له من فِرِنْدٍ جدولٌ إن أساله
على رأس قِرْنٍ جاش بالدم مِذْنَبُ
وليس يقيم الظَّهْرَ حنَّبه الرَّدَى   قَوامُ رُدَينيٍّ وطِرفٌ مُحَنَّبُ

٣٩

لقد أكثرتَ لوم الدنيا وأطلتَ النعى عليها ، وزعمت أنها لك ظالمة ، وعليك جائرة ، و إليك مسيئة . وما أرى أنها قد اقترفت ذنباً أو اجترحت إثماً . وما أعرف أنهـا ظلمتك أو أساءت إليك ، إنما أنت الظالم لنفسك المسىء إليها. تُوردها موارد الشر ، وتحملها محامل السوء ، ثم تـكلّف الأيام ما كنت خليقاً أن تكلّفه نفسك ، وتعيبها بما أنت فيه واقع . يلذّ لك أن تتكذّب عليها وتصفها بما هى بَريئة منه . ماذا جنت عليك الدنيا و بماذا أساءت إليك ! كل ذنبها عندك أنها حسناء فتانة وهيفاء خلاّبة ، يستبيك حسنها و يستصبيك جمالها ، فأىّ ذنب لها فى هذا الحسن ! وأى جناية لها فى كلَفك بها وميلك إليها ؟ !

عَذيرِى من أولئك الخدّاعين للناس المضلين للعقول المتكذّبين على الأغرار ! لقد زعموا لهم أن نفوسهم خالدة ، وأنها لم تهبط هذا العالم إلا لتبتلى وتجرّب ، متنقلة فيه من جسم إلى جسم ، مستفيدة من هذا التنقل صلاحا لها وتهذيباً لأخلاقها ، وأن السعيد من هذه الأنفس سيلقى من النعمة واللذة ما لا سبيل إلى وصفه ، وأن الشقى منها سيلقى من الألم والنقمة ما يطهّره من أدناس المادة

وأدرانها . كلا ! ما أحسب أن هذا حق ، وما أرى أنه صواب ، وما أعرف أننا نقضى أيامنا مختارين أحراراً نستطيع أن نصلح نفوسنا ونهذّبها ونسلك بها إلى السعادة طريقاً مأموناً ، إنما نحن عبيد مقهورون ، قد أُوثقت أيدينا وأرجلنا بأغلال متينة وأمراس محكمة ، فنحن نرسف فيها مجذوبين إلى ما لا نحب ، مكرهين على ما لا نرضى .

ليس فى هذه الحياة لنا خير ولا سعادة ، إنما هى الشر الدائم والشقاء المقيم . وأُقسم لو أن للحسّ فى ميت بقاء وللشعور فيه وجوداً ، لقد كنا أحرياء أن نجد لطعم الموت من العذوبة وملاءمة الطبع ما لا نجده فى الحياة .

نَقَمتَ على الدنيا ولا ذنبَ أسلفتْ ... إليك فأنت الظالمُ المتكذِّب
وَهَبْها فتاةً هل عليها جِنايةٌ ... بمن هو صَبٌّ فى هواها مُعذَّب
وقد زعموا هذى النفوسَ بواقياً ... تَشَكَّلُ فى أجسامها وتَهَذَّب
وتُنقَلُ منها فالسعيدُ مُكرَّمٌ ... بما هو لاقٍ والشقىُّ مُشذَّب
وما كنتَ فى أيام عيشك منصفاً ... ولكن مُعنًّى فى حِبالك تُجذَب
ولو كان يبقى الحسُّ فى شخص مَيِّتٍ ... لآليتُ أنَّ الموت فى الفم أعذبُ

٤٠

لَعَمْرُكَ مالى فى هذه الحياة أمل أسمو إليه ولا رجاء أطمع فيه . ومالى فيها راحة أبتغيها ولا لذة أكلِّف نفسى لها العناء . وإنى على طول الأيام واختلافها وعلى بقاء الدهر وخلوده ، لمُجْدِبٌ من كل خير، برىء من كل صالحة . وما أرى أن لشىء فى هذه الحياة حظا من سرور ، ولا أن فى هذه الدنيا مصدراً لابتهاج . إنما هى حزن قد ضرب أطنابه ومدّ رواقه على كل شىء . ألم تر إلى المغرورين المفتونين كيف يسمّون صياح الحمام غناء وتغريداً ، وقد كان خليقاً أن يسمى بكاء وإعوالا !

فإنّ حوادث هذه الحياة كثيرة ، ومعظمها على الناس فظ غليظ ، وأقلها الجَدِبُ الشفيق . فما أجدر أصواتَ هذه الحمائم أن تكون بكاء على المكروبين ورثاء للمنكوبين !

وكيف ينعم الإنسان بحياة أو يسعد بلذة وهو لا يرى حوله إلا أديباً إلى مأدبة الموت ، مدعوّاً إلى مائدته ، مكرهاً على أن يغشاها ويتزوّد منها ! !

لعمرُكَ ما بى نُجعةٌ فأرومَها وإنى على طول الزمان لمُجْدِبُ

حملتُ على الأَوْلَى الحمامَ فلم أَقُلْ   يُغَنِّى ولكن قلتُ يبكى و يندُبُ
وذلك أن الحادثاتِ كثيرةٌ   وغالبهُن الفَظُّ لا المتحدِّب
وكلٌّ أديبٌ أى سيُدْعَى إلى الردى   من الأدبِ لا أنّ الفتى متأدِّب

٤١

و يح الإنسان ! ما أشدَّ غروره وأكثر الرياء فيه ! ما أعظم انخداعه بالأسماء والأشكال ، وأقل اطلاعه على الحقائق واعتباره بالمواعظ !! لقد قام منه فى المحاريب أُناس يعظون و يخوِّفون ويُنذرون و يبشرون ، ففتنه مقامهم وخدعه منطقهم . ولو أنه حقق فيهم النظر وأجاد عنهم البحث ، لما وجد بينهم و بين أولئك الشَّرْب يُطْرِبون أنفسهم بالألحان و يغذّونها بابنة الحان ، فرقا ولا خلافا .

فإن صلاة لا يراد بها إلا الكيد والرياء لا تنفع صاحبها شيئا ولا تغنى عنه قليلا ولا كثيرا . وربما كان متعمد المعصية أقرب إلى الله من متكلف الطاعة .

كلٌّ فى نفسه ضال جائر ، يسلك إلى الفناء المطلق سبيلا قد سلكها الناس من قبله . هنالك فى تلك الغاية الخالدة يستوى

التقى والشقى و يأتلف الخيِّر والشرِّير . ألا فلتعرفوا أنفسكم أيها الناس ، ولتكفُّوا من غروركم ؛ فإنما أنتم مادة تتشكل أشكالا مختلفة ، وتتصور صورا متباينة . لا تفخروا ! فما أعرف لكم فى الفخر حقا ، إنما أنتم من الفَخَّار خُلقتم و إلى الفخار تعودون . ألا رُبَّ فاخر منكم قد ملأ فمه الفخر ، وقد أولع بما يقدِّمه إليه الناس من المدح والثناء ، قد عاد إلى أصله ورجع إلى مادته بعد حين ، واتخذ الناس منه الآنية يبتذلونها فى الطعام والشراب متنقلين بها من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر .

ويحى له ! لو درى ماسيُصنع به أو عرف أنه سيتغرَّب بعد موته، فتنتقل الآنية المتخذة من جسمه فى الأقطار والأقاليم ، لما عُنى بالفخر ولا هام به ، ولما كدَّ نفسه وأشقاها فيما تكلِّفه الحياة من آمال وأخطار .

لعل أُناساً فى المحاريب خوَّفوا ... بآيٍ كناسٍ فى المشارب أطربوا
اذا رام كيداً بالصلاةِ مقيمُها ... فتاركها عمداً إلى الله أقرب
فلا يُمْسِ فخّاراً من الفخر عائدٌ ... إلى عنصر الفخار للنفع يُضربُ
لعل إناءً منه يُصنعُ مرةً ... فيأ كل فيه مَنْ أراد ويشرب
وَيُحمل من أرضٍ لأخرى ومادرى ... فواهاً له بعد البِلَى يتغرَّب

٤٢

ما بال أُناس يؤثرون على أنفسهم ، فَيشْقَون ليسعد الناس ، ويكدّون ليرتاح غيرهم ، معتمدين على قضايا كاذبة ، متمسكين بقواعد شائعة ، لا يؤيدها عقل ولا يدعَمها دليل ، قد خلطوا بين الحقوق ولم يحسنوا تقدير الأمور ، فزعموا أن إكرام الصديق واجب ، وأن إيثاره بالفضل حق محتوم . وذلك شيء لا شك فيه ، ولكن إكرام نفسي ينبغي أن يكون أوجب عليّ وألزم لي من إكرام غيري .

لقد ضلت العقول وسفِهت الأحلام . وأُقسم ما أُرى في الإنسان إلا خليقاً بالذم حريًّا بالعيب ، سواء في ذلك الفقير الممتهن والملك ذو الجلال .

ليت هذا النجم المتألق ، وهذا البدر المنير ، يعقلان فيعجبا لما وقع فيه الإنسان من خطل الآراء ، وسفه الأحلام .

إذا كان إكرامي صديقيَ واجباً   فإكرامُ نفسي لا محالة أوجبُ
وأحلف ما الإنسان الا مُذمَّمٌ   أخو الفقر منا والمليكُ المحجَّبُ
أيعقِل نجمُ الليل أو بدرُ تِمِّهِ   فيصبحَ من أفعالنا يتعجَّب

٤٣

لقد قدِّر عليّ البقاء ، وحُجِب عنى الغيب ؛ فأنا بالبقاء كَلِفٌ ، وبما مضى جاهل . وربما كان الموت خيراً لى وأبقى علىّ من الحياة . وربما كان موت الإنسان إدناء له من ربه . لقد نحب البقاء خوفا من الموت . ولعمرى ما البقاء إلا سمٌّ ناقع قد مُلىء بأنواع الأمراض والأسقام وألوان الآفات والعلل .

ولو أن البقاء على كراهته ميسور ، والخلود على آلامه متاح ، لقد كان لنا أن نرغب فيه . ولكن الموت واقع والحمام محتوم ، سواء فى حكمه المقيم والظاعن ، والحاضر والبادى . أجل ! إن الموت لواقع لا بد منه ، وإنما نحن لهذه الأرض غذاء ، تطلبنا على أن نكون لها طعاما ورِيًّا ، كما نبتذل نحن غيرنا لهذين الغرضين .

إن الإنسان لمغرور مخدوع ، وإنه على ذلك لكذوب مُفترٍ . لم يدَعْ شيئاً إلا تناوله بكذبه ، حتى إن الشمس لم تسلم من خطل أُمَيَّة بن أبى الصَّلْت ، فزعم أنها لا تشرق حتى ينالها الضرب والإيذاء . لقد صغُرت العقول وقصرت الأنظار . ولقد كان حقا على هؤلاء الناس أن ينظروا إلى هذه الشمس وأمثالها من

الكواكب والنجوم من حيث هى عاملة على إهلاكهم مُجِدّة فى إفنائهم. فما أرى أن هذا الهلال قد حُدِب وعُطِف إلا ليكون رمحاً يُطعَنون به. وما أرى أن هذا الصباح قد استطال وأضاء إلا ليكون سيفاً مسلولا على رءوسهم، يُورِد كلا منهم حوض المنون إذا انقضى أجله وحانت مدّته.

بَقِيتُ وما أدرى بما هو غائبٌ ... لعل الذى يمضى إلى الله أقربُ
تودُّ البقاءَ النفسُ من خيفةِ الرَّدى ... وطولُ بقاء المرء سَمٌّ مُجَرَّبُ
على الموت يجتاز المعاشرُ كلُّهم ... مقيمٌ بأهليه ومن يتغرّبُ
وما الأرضُ إلا مثلنا الرزقَ تبتغى ... فتأكل من هذا الأنامِ وتشرب
وقد كذَبوا حتى على الشمس أنها ... تُهان إذا حان الشروق وتُضربُ
كأن هلالاً لاح للطعن فيهمُ ... حَناه الرَّدى وهو السِّنان المُحَرَّبُ
كأنّ ضياءَ الفجر سيفٌ يَسُلُّه ... عليهم صباحٌ بالمنايا مُذرَّبُ

٤٤

أذْهِبوا أيها الأغنياء دوركم بالنضار الوهاج، وزينوها بما شئتم من بديع الرياش؛ فإنما أنتم عنها ذاهبون ولها تاركون.

ما أرى إلا أن فى أجسامكم قبسا مهما أضاء فلا بدّ أن يطفئه الموت ويخمده الردى ؛ فما التهابه إلا الى حين ، وما اشتعاله إلا إلى مدى .

أتذهَبُ دارٌ بالنُّضار وربُّها يخلِّفها عما قليلٍ ويذهبُ
أرى قبساً فى الجسم يُطفِئه الردى وما دمت حيًّا فهو ذا يتلهّب

٤٥

ما أخلق النفس باللوم ! وما أحراها بالتثريب ! وما أجدر اللبيب العاقل والحكيم الحازم أن يمنحها منهما حظًّا غير مقطوع وعطاء غير مجذوذ . فقد كلِفتْ بما فى هذه الحياة من باطل، وحرصت على ما لها من زينة فانية ونعمة غير خالدة . ولست أدرى ما الذى يكلف به الإنسان من الثروة والغنى ، وهو يعلم أنه من التراب خُلق وإلى التراب يعود . ما أجد حرص ابن التراب على الغنى والإتراب إلا حمقاً. وما أرى شغف ابن الفناء بالخلود والبقاء إلا سفها.

لقد آن للعقول الضالة أن تهتدى ، وللنفوس الغافلة أن تفيق ، وللآذان الصمّ أن تسمع ؛ فما زالت هذه الحياة منذ كانت تنطق

بكل لغة وتُعرب بكل لسان ، مبرهنةً على ما اشتملت عليه من شر ، ومشيرةً إلى ما شُغِفت به من سوء .

لقد اختبرتها فأحسنت اختبارها ، و بلوتها فأتقنت بلاءها ، لقد أحطت بأسرارها وظهرت على خبيئتها ؛ فما أرى فيها شيئاً أُنكره أو أعجب له أو تدهشنى غرابته ، على حين أرى الحمقى المضللين والبُله المغفَّلين تفجؤهم منها فاجئة الخير أو الشر لم يكن لهم بها عهد ، فيقضون العجب و يلجُّون فى الدهش والاستغراب .

على رِسْلِكم أيها الناس ! إنما خيركم من هذه الحياة لباطلٌ وزور ، و إنكم حين تُعجَبون به لتعجبون بشىء لم يقم على قاعدة ولم يعتمد على أصل ولا حكمة . إنما هى حركات حمق ونزوات خطل ، ما ينبغى للعاقل أن يرجو منها خيراً أو ينتظر منها نفعاً . ما أرى دنياكم هذه إلا أشد حمقاً وأكثر خطلا من دجاجة ليس لها حلم راجح ولا عقل صحيح ، قد حُرِمتْ رزانةَ الحركة ووقار المشية ، فهى نزّاءة وثابة ، ونزقة طائشة ، تحكمها المصادفة أكثر مما يحكمها التدبير . فما أجدرَ العالِمَ بها باليأس منها والقنوط من مستقبل أمرها !

أيها الكَلِفُ بالحياة المشغوف بالبقاء ! لقد تَيَّمَتْك هذه الدنيا

واستأثرت بلبِّك ، فهِمْتَ بها من حيث ينبغي أن تصدّ عنها وأن تستبدل ببكاء الرغبة فيها بكاء الرهبة منها . إنك لتهوَىَ العلة المهلكة والداء المميت . إن حركة الشمس من المشرق إلى المغرب ليست إلا مقربة لأجلك ومقصرة لحياتك . فكِّر في أمرك وأحسن تدبير نفسك ، تجد أن أنفاسك التي تتنفسها وحركاتك التي تتحركها مستلذًّا بها ذوق الحياة مستعذباً بها طعم العيش ، ليست إلاَّ مُفنية لك ، تباعد ما بينك وبين المهد ، وتقارب ما بينك وبين اللحد . ذلك قضاء واقع وحكم نافذ ، ليس لك منه عاصم ولا نصير. أترى أن سُهَيْلاً هذا النجم المتلألىء في السماء الذي هو أحرى منك بالبقاء وأدنى منك إلى طول المدة ، واجدٌ له من الحوادث نصيراً ومن الكوارث مَلْجأ ؟ كلا ! ولكنها عقول ضالة ، وأنظار قصيرة ، ونفوس سبقتها إلى الهدى تلك الإبل الجادّة في سقي الأرض ، والبقرُ العاملةُ في حرثها .

عجباً لكم أيها الناس ! لقد اطمأننتم إلى الحياة واستنمتم إلى لذّاتها ، فما منكم إلا مغرور يملؤه الأمل ويحدوه الرجاء . لقد أمِنتم سطوة لا تُؤْمَن ، وركنتم إلى ما لا ينبغي أن تركنوا إليه . لقد كان حقًّا عليكم أن تفرَقوا من مَطْلَع النهار ومَقدَم الليل ،

وأن تسيئوا الظن بحياة ما أراها إلا مرغبة في الموت مُغْرية بحبه محرِّضة عليه . قصِّروا من آمالكم ، وآثروا أنفسكم بالدعة والراحة حتى تتقضّى أيامكم القليلة .

أغمدوا سيوفكم واركزوا رماحكم ، ولا يبلغ منكم حب الحياة والشغف بها أن يتعجل بعضكم منايا بعض . أريحوا أنفسكم ! لا يقتل بعضكم بعضا ؛ فإن للموت الفطرى يداً أمهر من أيديكم فى القتل ، وحُساماً أمضى من سيوفكم فى الهام ، وسِناناً أثقب من أسِنّتكم للصدور . أريحوا أنفسكم من هذا العناء ؛ فإن الموت سيريح بعضكم من بعض . كلكم ميت ، وكلكم تارك أصدقاءه وأخلاءه ، لا يحفلون به ولا يأسفون عليه . وما هى إلا ساعة وداعه ثم يعودون من اللهو واللعب ومن الغىّ والمجون إلى ما كانوا فيه .

غدوتُ على نفسى أُثَرِّبُ جاهداً وأمثالَها لام اللبيب المثرِّبُ
إذا كان جسمى من ترابٍ مآلُه إليه فما حظِّى بأنِّىَ مُترِبُ
وما زالت الدنيا بأصناف ألسنٍ تُبَيِّنُ عن غير الجميل وتُعرِب
إذا أغربتْ يوما برزء على الفتى فليستْ على نفسى بما حُمّ تُغرِب
وجرّبتهـا أُمَّ الوليد لطامع ويَيأسُ من أم الوليد المجرِّب

يَحِقّ لمن يهوَى الحيَاة بكاؤه — إذا لاح قَرن الشمس أو حين تغرب
وما نَفَسٌ إلا يُباعِد مولدا — ويُدنى المنايا للنفوس فتَقرُب
فهل لسُهيْلٍ فى مَعَدِّكَ ناصرٌ — إذا أسلمته للحوادث يَعرُبُ
وأهدى إلى نهج الهدى من معاشرٍ — نوَاضِح تُسْنو أو عوامل تَكْرُبُ
ألاَ تَفْرَقُ الأحياء مما بَدَا لها — وقد عمَّها بالفجر أزرقُ مُغرِبُ
وشفَّ بقائى صِرْتُ من سوء فعله — أهَشُّ إلى الموت الزؤام وأطرَب
فشِمْ صارماً وارْكُزْ قناةً فللردي — يَدٌ هى أولى بالحِمام وأدرب
أَفَضُّ لهاماتٍ وأرمى بأسهمٍ — وأطعَنُ فى قلب الخميس وأضرَبُ
أرى مُطْعِمَ الرَّمْسِ اللَّهَمِّ خليلَه — سيأكل من بعد الخليل ويشرب

٤٦

ما أحرصَ الناسَ على تصديق الغنيّ والثقة بصاحب الثراء ، قد أقبلت عليه الأيام فأسبغت عليه من النِّعمة ثوباً ضافياً خلاَّباً ، لم يكد يظهر فيه صاحبه حتى خلب العقول والألباب ، فخيِّل إليها أن باطله حق ، وكذبه صدق ، وضلاله هدى .

حدِّثنى بما شئت من تضليل وتغرير ، وأوهمنى بما استطعت

من سطوة وسلطة ، وخيِّل إلىّ أنك تملك نفعى وضرى وتقدِر على خيرى وشرى ؛ فإنك عندى كاذب غير صادق ومائن غير أمين . لقد فقدتَ القدرة فما تستطيع عملا وما تقدر على شيء . إنْ أنت فى الحياة إلا عبد مقهور مستذلّ ، قد خيِّل إليه أنه قادر مختار فعال . لقد خدعك الخيال وكَذَبتك المنى . أظهِرْ النسك والعبادة ، وأعْلِنْ الهدى والطاعة ، وتجافَ بين أيدى الناس عن نعيم الحياة ولذاتها ، وحدّثنا أنك وفىٌّ بالعهود حافظ لغيب الصديق ، فما أنت فى ذلك إلا مختلق منتحل . إنك لتتزهد بين أيدينا عن لحم الحيوان ، ولكننا نكاد نلمس بأيدينا قَرَمَك إلى لحم الإنسان ، ولا سيما إن كان صديقاً أو خليلا .

إذا أقبل الإنسان فى الدهر صُدِّقتْ أحاديثُه عن نفسه وهو كاذبُ
أتوهمنى بالمكر أنك نافعى وما أنت إلا فى حبالك جاذبُ
وتأكل لحم الخِلِّ مستعذباً له وتزعم للأقوام أنك عاذب

٤٧

ألا لا تغبط مُنعَّما بنعمته ، ولا تحسد سعيداً على سعادته ؛ فليس فى الحياة ما يُغْبَط به ولا فى العيش ما يُحْسَد عليه . بئست

الحياة تملؤها اللذة وتُعمها النعمة ثم يعقبها الموت والهلاك !

أجلْ ! ليس فى الحياة شىء يُحْمَد. فما أجد الحسّ الذى هو أخص مميزاتها وأوضح الدلائل عليها إلا مُوقعاً لصاحبه فى السوء ومنتهياً به إلى المكروه . وكيف تُحْمَدُ الحياة أو يُرْغَب فيها وما أرى صاحبها إلا غرضاً مستهدفاً لجيش من الزمان يعمل ويجدّ فى عمله للفناء ، من غير أن يُسْمَعَ له لَجَبٌ ولا صخب .

أفّ لِقصَر العقول وسَفَهِ الأحلام ! لقد أغرقنا فى الغرور ، وتعلقّنا بصغار الأمور ، حتى لو عقَلت الأرض أو فهِمت فرأت ما نحن فيه من ترك للنافع وتشبث بالضار ، ومن عدول عن كبار الأمور إلى صغارها ، لقضتِ العجبَ مما نحن فيه من حمق وسخف .

نرجو السعادة ونَتكْلَف بها ، وإنما نرجو متعذراً ونكلف بمحال . وإنما السعادة ألا نوجد وقد وجدنا ، وألا نخلق وقد خُلقنا . فما حرصنا على ما لا سبيل إليه ! وما رغبتنا فيما لا قدرة عليه ! وهل رأيت شهراً من الشهور قد ضاق بنفسه وأحب أن يستبدل به غيره ، فودّت جُمادَى لو أنها رجب .

إلا إن الشقاء محتوم لا مفرّ منه ، والشر موجود لا مندوحة

عنه . وكلّما أظهر الناس من حب للخير أو حرص على المعروف ، وكل ما أعلنوا من نُسك وطاعة أو زهد وعبادة ، فليس إلا ضروباً من الرياء وألواناً من الخديعة ، ساقتهم إليهما غرائزهم ، وأكرهتهم عليها طبائعهم ؛ فهم كالعُود لا يلحى نفسَه وإنما يلحاه الناس . لم يرغبوا فى الخير وإنما اضطُرّوا إلى إظهاره ، ولم يَكلَفوا بالبر وإنما ألجئوا إلى انتحاله . لقد يبهرك نسك الناسك فتحسبه إنما تنسّك للطاعة ، ويعجبك احتجاب المحتجب فتظنه إنما احتجب للعبادة . كلا ! ما تنسّك مَنْ تنسك إلا للخداع ، وما احتجب مَنِ احتجب إلا ليخلو بالنكراء .

أيتها النفس الضيقة بما فى هذه الحياة من شرور ، المتبرّمة بما فى هذا الناس من آثام ، خفّضى عنك ورفّهى عليك ؛ فتلك طبيعة الحياة ، وهذه غريزة الناس ، لا سبيل إلى تغييرهما ولا قدرة على إصلاحهما ، ولا حَزْمَ إلا الصبر على احتمالهما والتجلد على ما يأتيان به من جرائم وسيئات .

لا يُغبَطَنَّ أخو نُعْمَى بنعمته . بئس الحياة حياةٌ بعدها الشَّجَبُ
والحسُّ أوقعَ حيًّا فى مساءته وللزمان جيوشٌ مالها لَجَبُ

لو تعلم الأرض ما أفعال ساكنها — لطال منها لما يؤتى به العجب
بدء السعادة أن لم تخلق امرأة — فهل تود جمادى أنها رجب
ولم تتب لخيارٍ كان منتجباً — لكنك العود إذ يلحى وينتجب
وما احتجبت عن الأقوام من نسك — وإنما أنت للنكراء محتجب
قالت لي النفس إني في أذى وقذى — فقلت صبراً وتسليماً كذا يجب

٤٨

عجبت للناس يعيبوني حياً ، ويثنون علي ميتاً . لا يحمدون صاحب الرأي إلا حين يغيب عنهم شخصه ، فلا يسره منهم حمد ولا يرضيه منهم ثناء . ولو أنهم أدوا إليه حقه وعرفوا له صنيعته ، لكان له من رضاهم عنه وثنائهم عليه واستجابتهم لدعائه في حياته مشجع على النصح لهم ومرغب له في هدايته . ولكنا جميعا في هذه الحياة مرضى معتلون ، داؤنا حب النفس ، وعلتنا الحرص على الحياة . وهذه العلة وذلك الداء هما اللذان يوقعاننا فيما نكره من كفر النعمة وجحود الجميل .

أعيبوني حياً ثم قام لهم — مثنٍ وقد غيبوني إن ذا عجب
نحن البرية أمسى كلنا دنفاً — يحب دنياه حباً فوق ما يجب

٤٩

لا يَخْدَعنَّك من الناس عذوبةُ الحديث وحلاوة المنطق؛ فإنك تعانى من أخلاقهم دون ذلك عشرة مرة وعذابا أليما . إنما أخلاقهم شرٌّ لا خير فيه ، وإنما ألفاظهم زينة كاذبة تنم على مادونها من كذب ورياء .

إنهم لعشاق أسماء وأخِلاء ألفاظ، ليس لهم فى المعانى والحقائق نظر صحيح ؛ فهم كذبة منافقون . يسمون النجم والهلال والفرقد والسِّماك ، وما لهم فى هذه التسمية علة مفهومة ولا باعث معقول . قد عَظُمتْ آمالُهم ، وصغرت أعمالهم ، فتعلقوا بأهداب الشمس يبتغون الخير ، وإنما يتعلقون فى الحقيقة بأسباب الشر والإفك ووسائل الغىّ والفجور .

أخلاقُ سكان دنيانا مُعَذِّبةٌ　　وإن أتتك بما تستعذب العَذَبُ
سَمَّوْا هلالاً وبدراً والندَى وضُحًى　　وفرقدًا وسِماكًا شدَّ ما كذبوا
ولم يَنُط بحبال الشمس من نظرٍ　　إلّا له فى حبال الشرِّ مُجْتَذَبُ

٥٠

لقد اشتمل الضعف على الناس، حتى إن أحدهم لتعرِض له الحاجة هو اليها مضطر وعليها حريص ، وقد سنحت لنيلها الفرصة

ولكن الحياء، وهو لون من ألوان الضعف، يمنعه ويحول بينه وبين ما يريد. ذلك الضيف يُلِمّ بك فتقريه ظهراً، حتى إذا أمسى الليل فسألته عن ميله إلى الطعام ورغبته فيه، أنكر ذلك وزعم أنه شبعان ممتلئ، وإنه فى الحق لساغب حَرِبٌ، وجائع لغِبٌ. فإن كنت من أهل الإحسان الى الناس والبِرِّ بهم، فأزلف إليهم إحسانك وبِرّك من غير أن تشاورهم فيه؛ فإن مشاورتك إياهم فى ذلك ضارّة لك ولهم: تضرك لأنها تمنعك شيئاً تشتهيه، وتضرهم لأنها تحملهم من الحياء والضعف على الحرمان وسوء الحال.

أحسن إليهم ما استطعت، وقدِّم اليهم ما وجدت. لا تُصغر على الإحسان حقيراً، ولا تزدر هيِّناً. فحسبك من الإحسان إلى الجائع أنك أخمدت جوعه وأطفأت سَغَبه؛ فأما إلذاذه بألوان الطعام المختلفة الطيبة فشيء فوق الحاجة تُتَحَيَّن له الفرصة وتُتَربص به الطاقة والمقدرة.

لا تسألِ الضيفَ إن أطعمتَه ظُهُراً ... بالليل هل لك فى بعض القِرَى أربُ
فإنّ ذلكِ من قول يُلَقِّنه ... لا أشتهى الزادَ وهو الساغبُ الحربُ
قَدِّمْ له ما تأَتَّى لا تُؤامره ... فيه ولو أنه الطُّرْثوثُ والصَّرَبُ

ظهر حديثاً

من الأدب الرفيع

ص		
٢٥	أديب	للدكتور طه حسين بك
٢٠	إنصاف عثمان	للمرحوم محمد أحمد جاد المولى بك
١٢٥	حافظ الشيرازى	للدكتور ابراهيم أمين الشواربى
١٠٠	أغانى شيراز	للدكتور ابراهيم أمين الشواربى

من الأدب العلائى

٥٠	الحياة الانسانية عند أبى العلاء	لبنت الشاطئ
٢٠	على هامش الغفران	للاستاذ كامل كيلانى

من القصص والاجتماع

٢٥	أمريكا الضاحكة	للاستاذ مصطفى أمين بك
١٥	قصص فى البطولة والوطنية	للاستاذ محمد عطيه الابراشى

من العلم المبسط

٤٠	تبسيط اللاسلكى	للاستاذ محمد عاطف البرقوقى
٢٥	الأغذية	للاستاذ حسن عبد السلام
٢٠	عصب الحرب	للاستاذ فؤاد محمد شبل

ملتزم الطبع والنشر
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

قريباً

فصول فى الأدب والنقد	للدكتور طه حسين بك
قصة العرب فى أسبانيا	الاستاذ على الجارم بك
مجمع الأحياء	للاستاذ عباس محمود العقاد
الليلة الثانية عشرة	للاستاذ محمد عوض ابراهيم بك
مع الزمان	للاستاذ محمد فريد أبو حديد
الكيمياء ومسائل الحياة الحيوية	للاستاذ حسن عبد السلام

ملتزم الطبع والنشر
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

من روائع

الأستاذ ميخائيل نعيمه

ص

١) همس الجفون ٤٠

ديوان شعر يمتاز بسمو العاطفة
ودقة التفكير وبراعة التصوير

٢) جبران خليل جبران ٨٠

صورة صادقة وترجمة وافيـة
لحياة جبران وموته وأدبه وفنه

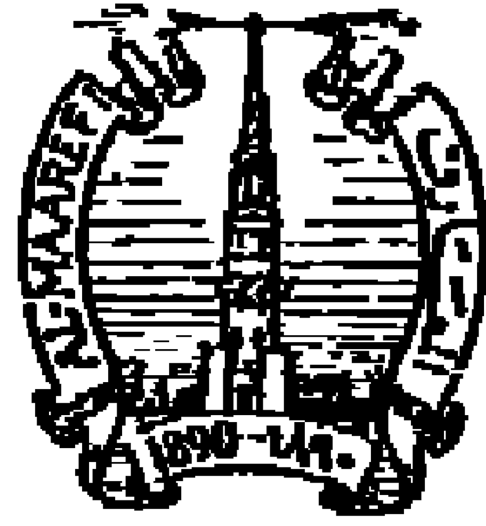
وفي الكتابين رسوم فنية
بريشة
نعيمه وجبران والحويك

بشائر السلام

تدل جميع البشائر على أن طوفان الحديد والنار سينتهى عما قريب فينهض الناس إلى التماس السعادة والرخاء فى عالم جديد مبنى على الاستقرار والعدل .

وسيكون مهمة حملة الأقلام توجيه الشعوب إلى طريق الخير والحق والجمال وتغذية الأذهان بنتاج الفكر الحديث .

ومطبعة المعارف ومكتبتها بمصر بعد أن قامت فى أثناء هذه الحرب بنصيبها فى نشر الثقافة قد أعدت عدتها للمساهمة فى تحقيق تلك الغاية وتزويد العالم العربى بنفائس الأدب والعلم .



رمز

الطبـــاعة الأنيقـــة

وشعار

المؤلفـــات النفيســة

ورسالة

الفن والعـــلم والأدب

إلى قـــراء العربية

جميـــع الأقطار

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

المحل الرئيسى بالقاهرة : ٧٠ شارع الفجالة

فرع الاسكندرية : ٢ ميدان محمد على

وكالة فلسطين وشرق الأردن : شارع مأمن الله بالقدس

ولها متعهدون ببيروت ودمشق وبغداد

اقرأ

عبد الحميد يونس
عبد العزيز أمين

البرجوازية

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

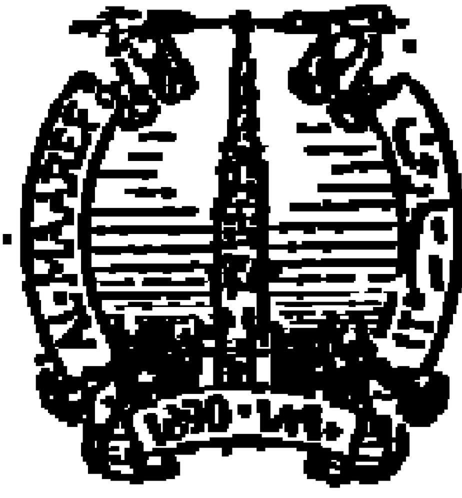
لاڤوازیه

عبد الحميد يونس
عبد العزيز أمين

لافوازييه

اقرأ ٢٤

تصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر
بمعاونة الدكتور طه حسين بك وأنطون الجميل بك
وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف





لاڤوازيه

مقـــــدمة

فى صيف عام ١٩٣٧ وقفت فى شارع « لامادلين » بمدينة باريس غير بعيد عن دار الأوبرا أمام تمثال « لاڤوازييه » العالم الشهيد ، فذكرت أنه ولد عام ١٧٤٣ ، وأن فرنسا خاصة ، والعالم المتحضر عامة سيحتفل بعد ستة أعوام بمرور مائتى عام على مولده . . . .

وانقضت السنوات الست ، فإذا فرنسا ، بل و إذا الإنسانية المتحضرة كلها ، قد صرفتها الغاشية العامة عن لاڤوازييه وغير لاڤوازييه .

وقد رأيت براً بهذا العالم الشهيد الذى أتى فى علم الكيمياء بما يشبه الخوارق ، وهو العلم الذى أعيش له وأعيش عليه ، أن أقدم إلى قراء العربية هذه الترجمة المتواضعة إحياء لذكراه .

* * *

ولكن كيف السبيل إلى الترجمة له ، والناس لا يزالون على

شغفهم القديم بسير الأدباء وأصحاب الفنون ، إما لأن حياتهم تفسر آثارهم ، وإما لأن آثارهم تفسر حياتهم . ولا يزالون على شغفهم بسير الدعاة إلى فكرة أو بدعة ، إما نشراً للفكرة أو البدعة ، وإما تصويراً لما يقوم بين المبتدعين وأصحاب النحل الجديدة وبين معاصريهم من فتنة ونضال ؟ بل ولا يزالون يكلفون بسير الشذاذ ، تمليقاً للعامة وأشباه العامة بالتبسط فى ذكر العجائب فى الأخلاق والأفعال ؟ ....

على أن سيرة لافوازييه جديرة بالتسجيل وإنعام النظر ، لأن هذا الرجل وإن بنيت شهرته على ما كشف من أسرار العلم التجريبي فقد شارك فى الحياة العامة ، وكان من رجال المال والسياسة ، أو قل كما يقول الأوربيون ، « كان من الذين ساهموا فى صناعة التاريخ ! » . . .

وسيجد المتصفح لسيرته من الخلابة ما يجده فى سيرة أصحاب النحل ، فقد هدم نظرية فى العلم تشبثت بعقول العلماء ما يقرب من ألفى سنة ، ولقى فى هذا السبيل ما يلقاه الأحرار من صنوف الإيذاء والاضطهاد ، وإن كانت النظرية لا تمس سنة من سنن الناس أو عقيدة من عقائدهم الدينية ، بل وإن كان الدليل على

فسادها لا يستمد من معجزة مادية أو بيانية ، وإنما تنطق به التجارب المستطاعة فى كل وقت وفى كل مكان !

وسيجد المتصفح لسيرة « لاڤوازييه » كذلك ما يجده فى سير الشهداء . . . . نعم لم يُقتل « لاڤوازييه » دفاعاً عن نظريته ، ولكنه حوكم وقتل ، لأنه جاء بين عهدين يتطاحنان ، وطبقتين تمسك إحداهما بخناق الأخرى ، فلما استقرت الأمور وهدأت الفورة ، تبينت الأجيال التالية براءته مما نُسب إليه وأنه ذهب لأنه من طبقة بعينها ، فسلك اسمه مع اسم « كالا » و « سيرڤن » اللذين حكم عليهما العدل البشرى فى أيامهما أنهما مذنبان ، وأعدمهما ، ثم تبينت الأجيال التالية أنهما بريئان ، وأنهما ذهبا لأنهما كانا على مذهب بعينه . . . .

وسيجد المتصفح لسيرة « لاڤوازييه » فوق هذا ما يجده فى سير العظماء من العظات ، فقد امتازت حياته بثلاث خصال :

فأما الخصلة الأولى فهى سلامته من الشذوذ النفسى أو الخلق ، وعلى الرغم من نشأته فى أسرة غنية لم يصب بما يصاب به بعض أبناء الأغنياء من الأمراض الاجتماعية أو الخلقية ، ولم ينحرف عن غاياته الشريفة طوال حياته ، فقد نبغ فى العلم وظل على

اهتمامه به إلى أن مات ، وتزوج مبكراً ، وكان حسن الموازنة بين أعماله الكثيرة التى تنصرف إليها عبقريته المتعددة الجوانب ، فلا تصرفه السياسة عن العلم إلا إلى حين ، ولا تصرفه نفسه عن الناس ، فهو حسن التوزيع لجهده بين البيت والمعمل والحقل والوطن . . . .

والخصلة الثانية صفاء فكره ، فقد كان بريئاً من السلفية التى تكاد تقضى على كل حركة عقلية حتى أصبح وله فى كل يوم كشف جديد ، تفخر به العلوم الطبيعية والكيميائية ، ولا يغرنك ما أخذه عليه بعض العلماء فذلك قول الذين يريدون أن يقصروا النبوغ فى كل فرع من فروع المعرفة على أمة بعينها دون سائر الأمم والشعوب ! . . .

وتتوج الخصلة الثالثة حياته كلها ، وترفعه فوق مستوى العوام والأوساط ، فقد اتسعت جوانب الخير فى نفسه ، ولم يقصره على أصدقائه و إن تخلوا عنه فى محنته ، وتخلوا عن زوجه بعد مصرعه ، ولم يقصره على طبقة دون طبقة ، فقد أعطى

العامة من فلاحين وعمال من نفسه ومن ماله ، وإن ذهبوا برأسه آخر الأمر . . . .

باسم الحرية قتل الثوار « لافوازييه » أحد الدعاة إلى حرية الفكر . . . . فلنردد إذن مع مدام « رولان » « أيتها الحرية ! كم من الجرائم ترتكب باسمك ! ! . . . ».

عبد العزيز أمين

٢٧ نوفبر سنة ١٩٤٣

باريس

كان بلاط الملك لويس الخامس عشر مليئاً بالدسائس والوشايات . وكان الملك نفسه يساعد هذا الجو الفاسد الذى تختنق فيه النفوس الكريمة . وقد كان لزاماً على جده الملك العظيم أن يضع خطة خاصة للدولة بالتوسع فى الغزو والتأهب للحرب . كما كان له بلاط يضرب به المثل فى الأبهة والعظمة . تشهد عليه قصور ڤرساى . فلما خلفه لويس الخامس عشر حاول أن يقلده حتى زادت حاجيات الملك عن المعقول فحمل الأوساط والفلاحين عبئاً ثقيلا من الضرائب أعفى منها الأشراف ورجال الدين . وقد قاسى الفلاحون الأهوال من المحصلين الذين كانوا يسلبون هؤلاء المساكين آخر ما يملكونه لتسديد الضرائب المقررة كاملة غير منقوصة . وأكلت ضرائب التاج وعشور الكنيسة كل محاصيلهم . وتركتهم يرسفون فى أغلال من الفاقة والحرمان . كانت عليهم فروض قاسية نحو الملاك يعملون أياما بعينها من كل شهر دون مقابل ، ويقدمون خيولهم وبعض محاصيلهم لكى يسمح لهم بخبز عيشهم فى مخابز الملاك . ويعبّدون

الطرق و ينظفونها ، و يدفعون الأموال الطائلة فى مقابل الدفاع عنهم . أما الأشراف فما كانوا يدافعون إلا عن أنفسهم . كانت فرنسا بلد الامتيازات من جانب والفقر من جانب آخر يعيش الأشراف فى قصور مشيدة في باريز أو غيرها من المدن عيشة الترف والنعيم . وقلما يزورون ضياعهم . و يكد الفلاحون و يكدحون طوال العام ليجنى الأغنياء ثمرات جهودهم .

وكانت باريس بلد المتناقضات . فيها الأبنية الفخمة والحدائق الغناء . وفيها أزقة متربة قذرة . والطرقات تعوزها الأرصفة التى يسير عليها الراجلون . فكان على الفقراء أن يفسحوا للعربات المندفعة فى الطريق و إلا سقطوا تحت عجلاتها . أما المترفون من أبناء باريس فيركبون العجلات التى تجرى فى الشوارع غير مكترثين بمن يصادفهم . كما كانت الشوارع خافتة الضوء لا يأمن السائر فيها على نفسه فى الليل . هذه هى باريس سنة ١٧٥٠ وهى بعيدة الشبه عن باريس القرن العشرين ، بعد الأرض عن السماء .

وفى سنة ١٧٤٠ اشتعلت نار الحرب مع النمسا ، وهى الحرب

الضروس التى امتصت دماء الشعب واستنزفت موارد الخزانة العامة
فى هذه الظروف العصيبة تبدأ قصتنا . . . .

بزوغ نجم

فى السادس والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٧٤٣ أى منذ مائتين من السنين بزغ نجم جديد فى سماء العلم والمعرفة ، فقد ولد الطفل « أنطوان » أيام غلبة الأشراف على الفلاحين .

ولد لافوازييه السعيد الحظ فى أسرة عريقة ، فقد كان أبوه جان انطوان لافوازييه محامياً ملحوظا ، وكانت والدته ابنة محام آخر . ثم تطورت الأحوال فى الأسرة، فبعد أن كان جده عاملاً من عمال البريد تدرج فى المناصب حتى بسم له الحظ قليلا فارتقى إلى منصب مدير البريد . ومارست باقى الأسرة التجارة إلا چان الذى اختار المحاماة مهنة له وكانت تلك المهنة وقتذاك من أشرف المهن فى فرنسا .

كان لتلك الأسرة تقليد خاص لا تحيد عنه وهو تسمية الابن الأكبر باسم « أنطوان » لذلك أطلق هذا الاسم على المولود الجديد ، وكان عمه يدعى « لوران » فسمى الطفل انطوان

لوران لافوازييه تمكينا لتقاليد الأسرة وتيمناً باسم عمه . ولما بلغ الطفل الثانية من عمره ولدت له أخت فعاش الأبوان والشقيقان فى دار واحدة ترفرف عليهم السعادة التامة ثلاثة أعوام . ثم نكبت الأسرة نكبتها الأولى بوفاة الأم فلم يتمكن جان من القيام بأعباء الأطفال وحده . فتطوعت لذلك خالتهما « كنستنس » وكانت فى الثانية والعشرين . وخفت الصدمة قليلاً على جان لما رآه من حنو كنستنس على ولديه . فقد ضحت بسعادتها ونعيمها وهى فى ريعان الشباب ، فكرست حياتها لإسعاد هذين الطفلين وأحجمت عن الزواج لتمنحهما من قلبها عطف الأم ومحبتها . واستمر حدبها عليهما بعد زواج لافوازييه « انطوان » .

كانت تشعر أنها أمه لا خالته ، تفخر بما ينال من خير وتعتز بما يصيب من سؤدد ومجد . دخل الطفل المدرسة يشجعه أبوه على التعليم ، وكان له ميل فطرى إلى تحصيل العلوم ، يهتم بكل ما يدرسه ويطالعه . وكان من عادته أن يلخص مطالعاته ويدون ملاحظاته . وقد فاز إبان دراسته بجائزة علمية تقديراً له واعترافاً باجادته فن الخطابة . كما فاز بجائزة أخرى فى الأدب . وشغف

بالتمثيل وألف فيه بعض المشاهد، ولكنه فى آخر عهده بهذه المدرسة هجر الأدب والتمثيل واتجه إلى العلوم .

وما لبثت الأسرة أن رزئت بنكبتها الثانية . وكان بطلنا وقتذاك فى السابعة عشرة من عمره فقد ماتت أخته ولم يعد لجان غير ابن واحد ، فزاد اهتمامه به ، واشتد تعلق الخالة بهذا الابن المدلل الوحيد .

أصبح الطفل يافعاً فأدخله أبوه كلية مازاران المشهورة بالدراسات العلمية فى ذلك العصر ، وأكب على دراسة العلوم فأنساه ذلك واجبه نحو نفسه ، حتى ساءت صحته وهزل جسده نخشى عليه أحد أصدقائه عاقبة الإجهاد . فأرسل إليه بعضاً من دقيق الشوفان وكتب إليه يقول : « أصبحت صحتك يا عزيزى الرياضى كصحة الأدباء تغلب عقولهم على أجسادهم ، فلا تستذكر أكثر مما ينبغى ، واعلم أن عاما واحداً من أعوام الحياة أفضل من مائة عام من الذكرى » .

أتم هذا الشاب دراسته عام ١٧٦٣ فى كلية مازاران التى درس فيها الرياضيات والفلك وعلم الحيوان والجيولوجيا والكيمياء ، وهى دراسات سطحية مستحدثة ، وتخرج على

« جيتار » ذى الشهرة الواسعة فى فرنسا وحدها . وقد كان له تأثير بالغ فى لافوازييه أيام الدراسة كما أثر فيه عند ما اصطحبه فى رحلاته العلمية الطويلة . ودرس الكيمياء على « رويل » الذى أعجب بأعماله أيما إعجاب إبان الدراسة . واستهواه بتجاريبه فى المعمل . وبث فيه حب الكيمياء . ولم يكن لهذا الأستاذ القليل الشهرة أبحاث قيمة إلى جانب تدريسه الكيمياء . بيد أنه كون شخصية لافوازييه العلمية حتى شغف بحب تلك المادة . وعكف على دراستها بالتفصيل . وكان رويل معيداً فى حديقة النباتات تحت إشراف رنارد جيسو النباتى المعروف .

وصف لافوازييه هذا المدرس بأنه غريب الأطوار، يدخل قاعة الدرس متأنقاً فى ملبسه . يرتدى سترة من المخمل ويضع على رأسه شعراً مستعاراً أتقن تصفيفه، فتتقدم خطاه فى الغرفة فى هدوء وتنبعث من فمه أصوات خافتة تصل إلى الآذان بسهولة والكل واجم مصغ شديد الالتفات . وكأن للعبارات التى يفوه بها سحراً يثبت التلاميذ فى أماكنهم . فلا يحولون نظرهم عنه ولا تسمع آذانهم غير صوته ، ثم يرتفع الصوت شيئاً فشيئاً حتى ينقلب إلى الصياح إذا استعصت عليه معضلة . وكان إذا تحمس

فى الدرس خلع شعره المستعار وألقى به جانباً واستمر فى الدرس فى نشوة من الحماسة حتى يحل المعضلة .

تأثر لافوازييه أيضاً بعلماء آخرين أمثال « جاريك » و « بسكال » و « بويل » وأفاد منهم الكثير عن العلاقة بين الهواء والضغط الجوى . ولذلك أكثر من دراسة (البارومترات) مقاييس الضغوط الجوية واهتم بدراسة التقلبات الجوية .

كان يزين معمله بمقياس الضغط الجوى و بلغ من اعتزازه به أن يأخذه معه فى سفره ، وقد اهتم بتلك المقاييس حتى انتهى به المطاف إلى عمل جداول علمية للتنبؤ بحالة الطقس .

أراد العالم جيتار أن يقسم فرنسا تقسيما جيولوجياً فلم يجد أفضل من لافوازييه يعاونه فى هذه المهمة الشاقة . لذلك اختاره مساعداً له . فأقبل على عمله الجديد بهمة واجتهاد واستمرت تلك المهمة ثلاث سنوات أكسبته خبرة ومراناً وعلمته تحمل الصعاب والمشاق فى الحياة .

وتنصب أول أبحاث لافوازييه على الجبس سنة ١٧٦٤ فقد اختبر عينات من تلك المادة مأخوذة من مناطق مختلفة . وأجرى عليها تجاريبه ، فكشف لأول مرة عن السبب فى تجمد عجينة

الجبس و بين أن تلك المادة تمتص المـاء وتكون بلورات متشعبة متماسكة .

وأقامت أكاديمية العلوم مسابقة لتقديم أحسن مشروع لإضاءة مدينة باريس على أن يكون الضوء ساطعاً وأن تكون الطريقة سهلة واقتصادية ، فلما رأى لافوازييه ذلك صمم على القيام بأبحاث لعمل المشروع ، وكان شاباً فى مستهل الحلقة الثالثة من عمره . فوازن بين أنواع الشموع و بين زيوت المصابيح .

كما درس الضوء وانعكاساته . ووازن بين الفتائل وأنواعها وأطوالها ولبث ستة أسابيع فى حجرة مظلمة لا يتسرب إليها شعاع من نور، وكان غرضه أن يزول كل أثر لنور النهار فى عينيه وأشعل أمامه مصابيح مختلفة وأخذ يوازن بينها .

كان ذلك تضحية كبيرة من شاب حديث فى أسرة غنية . لم تفتنه باريس بمباهجها الموقوفة على أمثاله من الأغنياء . ولم يستبد به المال فيجرى وراء الملذات التى ينغمس فى حَمْأتها مَن هم فى مثل سنه .

ولم يطمع فى الكسب المادى ، ذلك لأن قيمة الجائزة المالية

مهما عظمت لا تقاس إلى ثروته وثروة أبيه . فأكب على العمل مدفوعاً بحب العلم والاختراع .

ثم قدم المشروع آخر الأمر إلى أكاديمية العلوم ، كما فعل كثيرون غيره ، وقسمت المشروعات قسمين : الأول هو ما يعالج الموضوع من الوجهة العلمية النظرية . والثانى ما يعالجه من الوجهة العملية، وفاز بالجائزة ثلاثة ، كان لفوازييه أولهم . فنشرت رسالته ومنح مدالية ذهبية فى جلسة خاصة .

وقل اهتمامه بطبقات الأرض لاشتغاله بمصابيحه واهتم ببحوث الطبيعة ، فسجل فى ذلك بضع نتائج عن كثافة ماء نهر السين والرين . كما وازنها بالمياه المعدنية ومياه الشرب . وبحث فى الصخور وبدأ يهتم بالكيمياء ، فاشترى نحو خمسمائة كتاب فى هذه المادة وغيرها .

كان كثير التنقل فى رحلات شاقة مضنية فى سبيل البحث عن الصخور وجمعها . وكانت المواصلات صعبة يتعرض المسافر فيها لهجمات اللصوص ووثبات الحيوان . وكان السفر على متون الخيل . وقد مكث في بعض رحلاته ثلث عام . ماتت جدته وهو مسافر فى إحدى رحلاته فتأثر لموتها وعز عليه ألا تراه في

ساعتها الأخيرة . لكنه كان قوى الإرادة لا تتحكم عاطفته فى عمله . فترك الحزن جانباً واستمر فى عمله بهمة لا تعرف الكلل

واتجه لافوازييه اتجاهاً آخر . فقد نشطت فى فرنسا صناعة البارود تقوم بها شركات تحت إشراف الحكومة . يعين أعضاؤها بعقود مدتها ستة أعوام . وكانت تورد للحكومة حوالى مليون رطل من البارود كل سنة ، ويختلف مقدار ما تورده هذه الشركات بين الزيادة والنقصان تبعاً لحالة البلاد من حرب وسلم .

وكانت الحكومة تبيع ما تنتجه هذه الشركات إلى الدول الأجنبية بأثمان مرتفعة ، فأدى ذلك إلى نقص كمية البارود ، حتى إذا جاءت الحرب لم يكن عندها ما يسد حاجتها لتسيير دفة الحرب التى مكثت حوالى سبعة أعوام . ومُنح أعضاء تلك الشركات امتيازات غير عادلة . فكان لهم حق الانتقال فى مواصلات الحكومة بلا مقابل ، وكان يسمح لهم بالحفر فى أية منطقة للبحث والتنقيب من غير أن يعوض أصحابها بشىء .

وطلب الرئيس العام للشركة إلى لافوازييه أن يرسم نظاماً آخر للشركة يتمشى مع تطور العصر . فكتب لافوازييه تقريراً ضافياً بين فيه أوجه النقد والخطأ واقترح ما يراه . فحدد عدد

الأعضاء المسئولين إلى أربعة وأصلح القانون العام . ثم قدمه للمدير وكان يدعى « تاجور » . فوافق عليه ، وصمم على تنفيذه فوراً رغم المعارضة الشديدة التى أبداها بعض الأعضاء . واختار لافوازييه عضواً عاملاً بين الأعضاء الأربعة . ليفيد من جهوده الفنية فقبل هذا العمل وترك أعماله الأخرى .

ثم عاد مرة أخرى إلى معمله الذى أنشأه على نفقته وزوده بأحدث الأجهزة العلمية التى صنعت وفق رغبته بمساعدة زوجته وأحد أصدقائه . ثم اتجه إلى البحوث العلمية كالتنفس وتركيب الماء والاحتراق والتكليس .

وانتشرت شهرته وذاع صيته وأصبحت داره ندوة القصاد من أهل العلم من جميع الشعوب وأصبح معمل لافوازييه من معالم المدينة التي يزورها العلماء الأجانب عند مايفدون إلى باريس. وكان من بينهم العالم الانجليزى بلَاجْدِنْ (Blagden) سكرتير الجمعية الملكية بانجلترا. وفرانكلين الأمريكى ووَات و بريستلى الانجليزيين

أما علماء باريس فكانوا يترددون على معمله كل يوم ومن بينهم لابلاس ، و برتوليه ، وما كوار . وكثيراً ما كانت تعقد حلقات البحث والنقاش فى داره المتواضعة . فقد جلس فيها

أغلب علماء فرنسا وقتذاك . وكم من مرة وقف لاڤوازييه أمامهم يحاضرهم وهم جلوس يستمعون إليه باهتمام وشغف عظيمين .

بقى لاڤوازييه فى عمله بلجنة البارود مدة طويلة اضطلع فيها بجميع الأعمال الهامة ، ولم يتخل عن عمله فيها إلا مُكرها عندما نشبت الثورة واشتدت متاعب الثوار وأرغم على الاستقالة .

أكاديميـــة العلوم

كان عام ١٧٦٨ من أعظم السنين شأناً فى حياة لاڤوازييه، فقد كان ذلك العام بداية لارتباطه بهيئتين كبيرتين أثرتا فى مجرى حياته تأثيراً عميقا

فقد حفزته أكاديمية العلوم ودفعته فى طريق التقدم العلمى دفعاً وشجعته فى المضى فى أبحاثه ، وما كان أكثرها . كما دربته شركة تحصيل الضرائب على التبريز فى شئون المال وفتحت أمامه ميدان الاقتصاد واسعاً يشبع فيه حبه وولعه بالإصلاح . كما كانت هذه الشركة سبباً فى أفول نجمه قبل الأوان .

أنشأ الملك لويس الرابع عشر أكاديمية العلوم عام ١٦٦٦ لمنافسة الجمعية الملكية بانجلترا . ولعل من المفيد أن تعرف أن من بين الذين أسسوا الأكاديمية (مارْيُوت) العالم الطبيعى الذى كشف العلاقة بين حجوم الغازات وضغوطها ، و إن زعم بويل الانجليزى أنه صاحب هذا الكشف أيضاً .

وكان العلماء يجتمعون قبل تأسيس هذه الجمعية الفرنسية فى بيت « بيير مرسن »[١] وكانوا يراسلون كبار رجال العلم فى جميع أنحاء أوربا . وكان الفتى « پاسكال » يصحب والده فى هذه الاجتماعات العلمية ويتأثر بما كان يسمع من نقاش ، ويستهويه ما يدور أمامه من جدل ، ويسحره ما يحضر من جلسات مع كبار العلماء .

وقد أثمرت هذه الاجتماعات فكشف تورشيللى الضغط الجوى ، كما اخترع له مقياسا (البارومتر) ويعتبر ذلك العهد الأول لأكاديمية العلوم .

وكان رأى الملك بادىء الأمر أن ينشأ مجمع للمعارف ، يضم أقساماً مختلفة تختص بالعلوم والفنون ، والصناعة والأدب إلى آخر

---

(١) Pière Mersenne

ما هنالك من أوجه النشاط المتعددة . وفى سنة ١٦٩٩ استقلت أكاديمية العلوم بنفسها .

وكان دستورها فى أواسط القرن الثامن عشر معقداً . تتفاوت درجات أعضائها . فقد منح أعضاء الطبقة العليا امتيازات حرمت على الطبقتين الأخريين .

كان بها اثنا عشر عضواً من الطبقة الارستقراطية ، وكان لهم الحق دون سواهم فى الانتخاب رؤساء ووكلاء . يليهم ثمانية عشر عضواً لهم حق إدارة الأكاديمية مع أعضاء الشرف . يضاف إلى ذلك اثنا عشر عضواً عاملا ، ومثلهم من المنتسبين ، وهم علماء الهندسة والفلك والحركة والكيمياء والنبات .

وتجتمع الأكاديمية مرتين فى الأسبوع كل أربعاء وسبت من الثالثة إلى الخامسة بعد الظهر بقاعة خاصة بقصر اللوفر .

وكانت العضوية شرفاً عظيما يفخر به الرجال . لا يناله الرجل إلا إذا بلغ مستوى خاصًّا من العمر والنضج العقلى . وكان هذا الشرط عقبة فى سبيل لفوازييه ، ذلك الفتى الحديث السن ، فقد رشح للعضوية سنة ١٧٦٦ ولما يتجاوز الثالثة والعشرين . ولا شك فى

أن (جيتار)[١] هو الذى شجعه على هـذه الخطوة الجريئة و (رويل)[٢] هو الذى أيد ترشيحه وعضده . كما أن (لالاند)[٣] اعتبر عضوية لافوازييه ذات قيمة عظيمة لحداثته وشبابه ونشاطه ولثرائه الذى يغنيه عن السعى فى طلب الرزق . فهو يرى فيه شاباً مخلصاً للعلم والبحث . خلق لأن يكون عالماً وباحثاً .

لـكن توصية هؤلاء لم تكفه لأن يحظى بالعضوية فى ذلك الحين والحق أن مؤهلات لافوازييه العلمية وحدها كان لها أعظم الأثر فى تعيينه بعد ذلك ، فبحثه الجيولوجى الذى فحصه جويتار ونشراته العلمية عن الجبس وعن إضاءة الطرقات كانت شهوداً ناطقة بما له من عبقرية فذة طبعته بطابع العالم الجليل ، وإن كان حديث السن .

وفى عام ١٧٦٨ خلا مكان عضو فى لجنة الكيميائيين . وكان للافوازييه منافس كبير من علماء المعادن يدعى (جبريل چار)[٤] أسدى للعلم خدمة جليلة وساعده مساعدة فعالة فى تعدين الرصاص . جاب جميع أقطار أوربا باحثاً منقباً عن أحدث الطرق، مستنبطاً بتجاريبه الكثير من التحسينات . وكان ملاحظاً مدققاً فى كل

(1) Guettard. (2) Rouelle. (3) Laland (4) Gabriel. Jar

صغيرة وكبيرة ، مما أدى به إلى وضع أحسن طريقة وأسهلها لتنقية الرصاص من خاماته . ولم يكن حصوله على عضوية الأكاديمية إلا بعض ما يجب أن يمنح ، مكافأة له على جهوده الفنية .

فكان يوم ١٨ مايو سنة ١٧٦٨ يوما مشهوداً حدث فيه الانتخاب وظهرت نتيجته فى مصلحة لافوازييه . لكن الملك عين جار لكبرسنه كما أرضى لافوازييه بأن أصدر مرسوماً بانشاء كرسى جديد فى الأكاديمية أقامه عليه . وعاجلت المنية جار بعد عام واحد فعادت الأمور إلى نصابها .

وقد انهالت عليه التهانى من كل مكان . وكان انتخابه حديث الخاص والعام . بيد أن كثيرين امتعضوا لأن شابًّا يافعاً يبلغ هذه المرتبة الفريدة، وتنبأوا بقرب انحلال أعظم جمعية علمية فى فرنسا . لكن الأكاديمية ازدهرت إبان عضوية لافوازييه وشرف قدرها . فقد كان يمدها من آن لآخر بمذكراته القيمة وخدماته الجليلة . ولعل أعظم ما قام به من خدمات لها ، وقوفه موقف المدافع عنها إبان الثورة الفرنسية ، فقد ضحى بالنفس والنفيس لكى يحتفظ بكيانها .

واستهل لافوازييه حياته فى الأكاديمية ناشطاً مثابراً . فقد

وضع خلال الخمسة والعشرين عاماً التى قضاها فى خدمتها ، من التقارير ما يعادل ثمانية فى كل عام . وكانت الموضوعات كثيرة متنوعة . فقد كتب على سبيل المثال ، عن نظرية الضوء ومقاييس الكثافة ومضخات البخار وعن الحبر ومستحضرات الزينة ، والصلب والسموم وغيرها .

ثم تقدم ببحثه فى الجبس فظهر نبوغه الحقيقى . ولكنه عندما أعلن نتائج أبحاثه الفريدة فى الاحتراق ارتفع نجمه وعلا اسمه فوق أسماء العلماء جميعاً .

الضرائب

فى سنة ١٦٨١ تكوّنت شركة لتحصيل الضرائب فى فرنسا بأسرها . وتشمل الضرائب على التبغ والملح والكحول، كما تشمل ضريبة قدرها ٢ ٪ على الواردات الأمريكية . وكانت الشركة تقوم بجباية هذا كله مقابل مبلغ معين تدفعه إلى الحكومة بمقتضى عقد مدته ست سنوات . ولم يكن للدولة موظفون للرقابة على هؤلاء المحصلين .

فأخذت هذه الشركة تقسو على الأهالى . وتأمر رجالها باستعمال الشدة والعنف لتحصيل الضرائب، كما أن الحكومة منحتهم السلطة فى اقتحام المصانع والبيوت لضبط المخالفين، والقبض على المتأخرين فى سداد ما عليهم . وكان لموظفى هذه الشركة الحق فى اقتحام الدور وتفتيشها لضبط المهربات، ومعاملة المتهمين بكل شدة .

ومما دعا إلى انتشار التهريب هو اختلاف أسعار البضائع فى أنحاء المقاطعات المختلفة . واختلاف الضرائب اختلافاً عظيما من مقاطعة لأخرى، فدفع ذلك التجار إلى تهريب بضائعهم من بلد إلى بلد تخلصاً من ضريبة فادحة أو اكتساباً لربح غير مشروع . فدبت الفوضى فى البلاد، و بيعت السلع فى السوق السوداء بأسعار باهظة .

وكانت الحكومة تبرر صنيعها فى إنشاء الشركة برغبتها فى الحصول على مورد ثابت، والتخلص من عبء ثقيل؛ فقد جبل الناس على كراهة المحصلين من قديم .

وأعفت الحكومة الكثيرين من الضرائب و إن كانوا لا يمتون للهيئة التى تحصلها بصلة . ولا يؤدون للدولة عملاً يبرر هذا

الإعفاء . فلم يكن الملك يدفع شيئاً من الضرائب . وكان مثله الوزراء ورجال البلاط ، بل إن مغنى البلاط المقرب من الملكة لم يكن هو الآخر يدفع شيئاً .

هذا وصف إجمالى للشركة التى حشر لافوازييه نفسه فيها سنة ١٧٦٨ ، بعد ترشيحه لأكاديمية العلوم ، وقبيل انتخابه . وكان غرضه من ذلك استغلال أمواله فى عمل مضمون الربح .

والحق أنه ربح الكثير من المال . وظهرت عليه أمارات الترف . وكان منزله مجمعاً للأصدقاء ، وموائده ملأى بأشهى أنواع الطعام . فنال بذلك شهرة بين أصدقائه ومحبيه . وساعده المال على الاستمرار فى أبحاثه العلمية غير مبال بما ينفقه فى سبيل إنجاز ما تصبو إليه نفسه من بحث علمى مفيد .

وقد أدى لافوازييه عمله فى هذه الشركة بأمانة و إخلاص . وقام بما أسند إليه من عمل إدارى أو اقتصادى كما ينبغى . وحاول التخفيف من قسوة المحصلين ، لكنه لم يتمكن من ذلك تماماً .

مشكلة الاحتراق

حسبنا أن نذكر هنا لمحات متفرقة من أعمال لافوازييه الكيميائية الخالدة على سبيل المثال لا على سبيل الحصر.

ولعل أهم ما قام به جرأته على نظرية العناصر الأربعة (١) التي ظلت ألفين من السنين تدرس فى معاهد العلم . والتى تزعم أن الماء يتحول إلى تراب

كما أن القدامى كانوا يقولون إن النار مادة و إن الحرارة تدخل الأجسام فتضيف إليها شيئاً آخر . وأنكر لافوازييه هذا الرأى مبيناً أن الأجسام لا يزيد وزنها إذا سخنت . وأن وزنها ثابت سواء أ كانت ساخنة أم باردة .

ومن ظريف ما يروى أن القدامى زعموا أن الاحتراق إن هو إلا خروج شىء عجيب من المواد المحترقة ينقص من وزنها . وقد أطلقوا على هذا الشىء العجيب اسم (فلوجستن) فالمعادن والحديد والزئبق وما إليها تمتص كمية كبيرة من هذه المادة ؛ فاذا

---

(١) تقول هذه النظرية إن العناصر أربعة وهى الهواء والماء والنار والتراب . لكن العلم الحديث أظهر فيما بعد أن العناصر تزيد عن الثمانين وليس فيها واحد من الأربعة السالفة الذكر

سخنت فقدت ما تحتويه منها ، وتحولت إلى مادة ترابية . والخشب إذا سخن نقص وزنه كثيراً وتحول إلى معادن . وهذا كله لامتصاصه مادة الفلوجستن . دهش لافوازييه لهذه الأراجيف فحشد فكره ، وكرس وقته وماله للهجوم العنيف عليها . فقد كان من السهل على علماء العهد القديم أن يفسدوا الظواهر التى يشاهدونها بالوهم والتخييل بغير حجة دامغة أو تجربة ناطقة . فقد وضعوا كلمة فلوجستن هذه إخفاء لما كانوا يستشعرون من عجز عن الوصول إلى الحقيقة .

دخل لافوازييه معمله الكيميائى وقد أيقن أنه لا بد منتصر على هؤلاء . وكانوا يزعمون أن الكلس — وهى الأكاسيد الآن — إذا سخنت امتصت الفلوجستن و بذلك ينقص وزنها . والحقيقة هى أن هذه الأكاسيد تنقص فى الوزن بالتسخين . وفسروا هذا النقصان بأن مادة الفلوجستن التى تحول الأكاسيد إلى معادن (فلزات) ليست كغيرها من المواد ، إنما هى من نوع آخر . فليست خفيفة الوزن فحسب ، وليس وزنها صفراً ، لكنه أقل من ذلك ، أى أن لها وزنا سالباً ! ! ! ...

حشد لافوازييه أجهزته من بودقات وقنانى وعدسات .

وأخذ يجرب عملية الاحتراق فى كل ما تقع عليه يده من المواد . ويلاحظ كل ما يراه . ويدون نتائج تجاربه ومشاهداته .

كان لافوازييه حراً لا تستبد به نظريات القدامى من العلماء ، ولا يؤمن بغير التجربة . قرأ الكثير عن تجارب (بلاك) — أستاذ الكيمياء فى جامعة ادنبره — التى أجراها على المغنيزيا والحجر الجيرى ، وما أنتجه من غاز أسماه الهواء الثابت . وشغف لافوازييه بهذه التجارب وأراد أن يجريها ، فحرق الكبريت والفسفور . لكنه حصل على غاز آخر ، عند إحراق الكبريت (ثانى أكسيد الكبريت) . ووجد أن وزن هذا الغاز أكبر من وزن الكبريت نفسه . كذلك الحال عند إحراق الفسفور . فرجح أن هذا هو الحال أيضاً فى تسخين المعادن التى تتحول إلى كلس (أكاسيد). وقد كتب هذه النتائج وأودعها أكاديمية العلوم ليحفظ لنفسه الحق فى هذا الكشف العلمى الخطير .

ومن ثم أيقن أن الاحتراق هو اتحاد مادة ما بمادة أخرى فيزيد وزن الناتج . فما سبب هذا الاحتراق ياترى ؟

وسخّن أكسيد الزئبق فى وعاء مقفل، ولاحظ أن الكلس

يتحول إلى معدن الزئبق وينتج كمية من الهواء[١] حجمه أكبر آلاف المرات من حجم المادة الأصلية.

ثم أحرق المواد فى إناء مقفل ولاحظ أن حجم الهواء الذى يحتويه هـذا الإناء ينقص؛ فأيقن أن الهواء عامل من عوامل الاحتراق.

ثم اختزل الأكسيد، ومن هذه التجارب ومن تجارب أخرى مشابهة عرف أن الفحم هو أحـد مكونات (الهواء الثابت)[٢].

وقد بدأ لافوازييه منذ ذلك الحين يحطم نظرية الاحتراق القديمة ويهد صرح « الفلوجستن ». وأخذ العلماء يتحدثون عن لافوازييه وعن هوائه الجديد، ويدافعون عن الفلوجستن الذى بدأ يحتضر.

وكتب لافوازييه نتائجه فى كتاب أرسله إلى علماء فرنسا والبلدان الأجنبية وإلى الجمعيات العلمية فى أوربا وأمريكا. فأعجبوا به أيما إعجاب وقدروه أعظم تقدير.

---

(١) كانوا قديماً يطلقون لفظة « هواء » على أى مادة غازية.
(٢) ثانى اكسيد الكربون.

ثم توصل العالم الإنجليزى بريستلى آخر الأمر ، إلى كشف « الغاز الجديد » المساعد على الاحتراق ، فعثر بذلك على الحلقة المفقودة فى سلسلة أبحاث لاڤوازييه .

وعندما زار بريستلى فرنسا وذهب إلى باريس ، وأخذ يتحدث مع العلماء عن كشفه الجديد وسمعه لاڤوازييه ، سُرَّ عندما علم أن الحلقة المفقودة قد كشفت وأن فى وسعه العمل على ضوء هذا الكشف الجديد . إلا أن بريستلى لم يحسن تفسير ما توصل إليه من نتائج فأخذ لاڤوازييه يفسرها تفسيراً حديثاً بعيداً عن الفلوجستن .

وعمد إلى تجاريبه القديمة يعيد إجراءها مع تحسين فى الطريقة فعرف النظرية الجديدة للاحتراق والتكليس والتنفس الحيوانى . ودلت نظريته الجديدة على السبب فى زيادة وزن المعادن عند تكليسها أى حرقها ؛ ونقصان الأكاسيد عند اختزالها . ولم يجد ضرورة لفرض مادة خيالية كالفلوجستن تفسر ما عجز عن فهمه القدماء .

بيد أن هذا كله لم يرض شيوخ العلماء ، فقد كانوا كدأبهم رجعيين ، يحكمون على كل نظرية جديدة بأنها خرافة أو محض

اختلاق . ويدمغونها بالخطأ جزافاً ، بلا تمحيص .

شقى لافوازييه من نقد الناقدين وتهكم المتهكمين . ولكن ذلك لم يثن من عزمه ولم يقعده لاذع كلهم عن عمله . فما أكثر ما كانوا يقولون وما أكثر ما كان يعمل ! ! ! هم يحاربونه باللسان والبيان ، وهو يرد عليهم بالتجربة والبرهان . كانوا رجال قول ، وكان رجل عمل ، فقام إلى معمله مرة أخرى . وعمد إلى إجراء تجارب أخرى ، مؤكداً نظريته الحديثة عن الاحتراق.

ففى نفس ذلك العام (١٧٧٧) الزاخر بانتصاراته العلمية بيَّن للأكاديمية فى بحث له عن طبيعة الأحماض أن المواد القابلة للاحتراق كالفسفور والكبريت تتحول إلى أحماض . أما المعادن فتتحول إلى كلس (أكاسيد) لاتحادها بالهواء الصالح للتنفس . وكان الكشف هو الذى قاده إلى نظرية الأحماض . فقد قال لا بد من وجود « الهواء الصالح للتنفس » فى تكوين الأحماض . وقال إن الفرق بين الأحماض هو فى العنصر الذى يتحد مع الهواء الحيوى . لذلك سماه بالأكسجين أى مكون الأحماض .

ولهذا الكشف قيمته إلا أن هذه التسمية غير صحيحة لأن تقدم الكيمياء أظهر أن الأكسجين غير ضرورى لتكوين

الأحماض . وأن الحموضة ليست من خواص هذا الغاز .

كان لافوازييه واثقا من نظريته عن الأحماض شديد التعلق بها ، حتى كتب مرة ، إنها ليست نظرية فحسب، بل هى قانون ثابت من قوانين الطبيعة . وشغل لاڤوازييه فى السنوات التالية مع العالم «لاپلاس» فى تجاربهما عن الحرارة وحرارة الاحتراق . وحرارة تكوين ثانى أكسيد الكربون . ومن ذلك توصلا إلى نتائجهما المشهورة عن التنفس الحيوانى . فقد وضعا فأراً تحت ناقوس ، وأخذا يمدّانه بالأكسجين . وجمعا غاز ثانى أكسيد الكربون الناتج من التنفس . فدلتهما هذه التجربة على أن تكوين هذا الغاز هو الذى يكسب جسم الحيوان الحرارة . وأن التنفس ما هو سوى احتراق بطىء داخل الجسم كاحتراق قطعة من الفحم .

وفى سنة ١٧٨٣ كشف كافندش Cavendish عن التركيب الكيميائى للماء . ويعتبر هذا الكشف دليلا جديداً على نظرية لاڤوازييه عن الاحتراق . واشتد الجدل والنقاش ولكنه لم يؤد إلى نتيجة قاطعة . ولم يكن لافوازييه قد طعن نظرية الفلوجستن طعنته النجلاء بعد . فلم يزل العلماء مغرمين بها ،

ر بطتهم بها التقاليد ، ولم يشأ لافوازييه أن يصرعها دفعة واحدة، فراح يوخزها وخزاً خفيفاً فى كتاباته من حين لآخر . ثم طال به الانتظار . فلماذا لا يهاجمها متحدياً هذا الجمع الحافل من الرجعيين المتشبثين ، بالفلوجستن ؟ . فها هى التجاريب التى قام بها فى معمله ، تثبت نظريته بالحجة الدامغة والمنطق السليم . وتهدم تلك النظرية البالية . وها هو ذا يكتب آخر الأمر .

« . . . لقد جعل الكيميائيون من الفلوجستن عنصراً غامضاً غير مُعَرَّف على التحديد . . . فهم يرونه ثقيلا مرة ، وخفيفاً مرة أخرى . ويزعمون أنه النار المطلقة تارة ، وأنه النار متحدة مع عنصر أرضى تارة أخرى . ويقولون إنه ينفذ خلال مسام الأوعية حيناً . وينكرون ذلك حيناً آخر . ويفسرون به الخواص الكاوية وغير الكاوية . ويزعمون أنه يجعل المواد شفافة وأنه يجعلها قاتمة . . . . فهو عندهم عنصر يتغير شكله وتتبدل خواصه فى كل حين . »

كتب لافوازييه هذا النقد اللاذع ، ثم ذكر النقط الأساسية فى نظريته . وبيّن أنه من الضرورى أن يفرق الإنسان بين الحقيقة والخيال :

فقد كانت نظرية الفلوجستن — إذا صح أن تسمى نظرية — سحراً عجيباً وطلسما هائلا يكيفونه ما شاءوا . ويفسرون به ما يريدون . وكانت العبارة السابقة التي كتبها لافوازييه في هذه المرحلة انتصاراً حاسماً ؛ فقد كان يشد أزر الفلوجستن قوم من فطاحل رجال العلم . قولهم مسموع وصيتهم بعيد .

وانجابت المعركة بأن قدم أحد أنصار الفلوجستن إلى لافوازييه سلاحاً لم يكن يدري أن لافوازييه سيقضي به على الفلوجستن القضاء الأخير .

تركيب الماء

كافح لافوازييه كفاحاً مجيداً في سبيل نظريته . فلم يجد من الكيميائيين معيناً . فاستعان عليهم ببعض أصدقائه من الرياضيين والطبيعيين من أعضاء الأكاديمية ، الذين أخذوا يميلون إلى نظريته لأنهم كانوا رجال عقل وتفكير منطقي سليم . كما انحاز إلى جانبه بعض الكيميائيين أمثال كافندش و بريستلي وشيله وفوركروي و برثوليه . (١)

(1) Cavendish Prietley, Scheele, Fourcroy, and Berthollet

* صبر لافوازييه وانتظر الزمن ليقول كلمته . ووقف العلماء من نظريته فريقين. أحدهما يناصرها وهم الأحداث الذين لم يتسنموا قمة المجد بعد ، والآخر يعارضها وهم العلماء الكبار . وبقى حاله على هذا النحو من الانتظار حتى سنة ١٧٨٣ حين بلغ لافوازييه أن كافندش قام فى انجلترا بتجربة على احتراق غاز الأيدروجين وكانوا يسمونه وقتذاك (الهواء القابل للاشتعال) .

ولاحظ هذا العالم أن بريستلى أحرق هذا الغاز نفسه مع الهواء فحدث انفجار نتجت عنه قطرات من الماء . فأراد كافندش أن يستزيد نوراً، فأجرى عدة تجارب لها قيمتها من الوجهة العلمية. فقد جرب إحراق نسب مختلفة من الأيدروجين والهواء . فاستنتج منها أن حجماً من الأيدروجين يحترق مع خجمين ونصف من الهواء العادى . وأن الأيدروجين وخمس الهواء يفقدان مرونتهما ويتكثفان على شكل ندى يتجمع على جدران الجهاز . ثم تيقن من أن هذا الندى هو قطرات من الماء .

ثم أحرق الأيدروجين مع الأكسجين (الهواء الخالى من الفلوجستن) فوجد أن قطرات من الماء تتكون أيضاً . لكنه علل ذلك حسب النظرية القديمة بقوله إن الأكسجين عبارة

عن ماء خال من الفلوجستن ، أو هو الفلوجستن نفسه .

وقُرِئت نتائج كافندش فى الجمعية الملكية سنة ١٧٨٤ ؛ لكن بلاجدن Blagdin سكرتير الجمعية زار باريس قبل ذلك وقابل لاڤوازييه . وأعطاه فكرة عما يقوم به كافندش من أبحاث . فكان لاڤوازييه يجرب من ناحيته احتراق الهواء القابل للاشتعال (الأيدروجين)

فكان يبحث عن الأحماض إذ ذاك ، فلم يلاحظ تكوُّن قطرات الماء . وأجرى كل من ماكيه Macquer ومنج Monge المعاصرين للاڤوازييه تجارب على إحراق الأيدروجين فى الهواء وحصلا على قطرات من الماء أيضاً . لكن لاڤوازييه كان يجهل عملهما حتى زيارة بلاجدن إلى باريس . والحق أن تجربة كافندش هى التى حفزت لاڤوازييه على القيام بتجاربه التى أدت إلى معرفة الحقيقة « أن الماء مركب لا عنصر »

فأجرى لاڤوازييه التجربة بنفسه وتحقق من وجود الماء بعد احتراق الغازين . لكن طُلب منه إعادة التجربة مستعملا كميات أكبر من الغازين ، فأسرع فى إعادتها . وأرسل تقريراً سريعاً عن النتيجة إلى أكاديمية العلوم .

لكنه لم يذكر فى تقريره شيئاً عن زيارة بلاجدن له ولا عما قام به كافندش من أبحاث غير منشورة .

فثارت ثائرة (بلاجدن) فقد كان صديقاً حميماً لكافندش الرجل الطيب الخجول الذى لم يحرك ساكناً إزاء لافوازييه . فأخذ يندد به ويذيع هنا وهناك أن الفضل كله لزميله الانجليزى كافندش.

فلم يرد لافوازييه بشىء ولم يدافع عن نفسه ؛ بل ولم يدافع عنه سواه . وكان لزاما على لافوازييه بعد كشفه تركيب الماء أن يستنتج خطأ نظريته فى الأحماض . فهذه مادة الماء تحتوى على الأكسجين وليست حامضية . وليست كلسا ، ولكنه لم يفعل هذا . فكان موقفه بازائها كموقف أنصار الفلوجستن فى نقضهم لآرائهم .

وبعد أن ركب لافوازييه الماء من عنصريه . فكر فى تأييد هذه التجربة بأخرى يعيد فيها الماء إلى عنصريه . وأفاد كثيراً من تجربة عالم يدعى « برجمان » أوضح بها أن الحديد إذا ترك مغموراً فى الماء مدة طويلة تحول إلى أكسيد الحديد . وتصاعد من الماء غاز هو الايدروجين . فأعاد لافوازييه هذه التجربة وحصل على نفس النتائج .

وقام بريستلى فى نفس الوقت بتجارب عدة على اختزال الأكاسيد بواسطة الأيدروجين فتحولت إلى المعادن نفسها ، ولم يلاحظ شيئاً عن بخار الماء الناتج . فظن أن الايدروجين هو الفلوجستن نقياً . ولم يكن اختزال الأكاسيد معروفا لديهم . فقد كانوا يزعمون أنه اتحاد بين الإيدروجين (الفلوجستن) والأكاسيد . والحقيقة أنه استخلاص الأكسجين منها . ولذلك ينقص وزنها . وظن بريستلى أن كمية الماء الضئيلة الناتجة من التجربة كانت موجودة بالكلس أو بالأيدروجين . ولم يستطع تعليل وجودها بغير ذلك . لكن لاڤوازييه لاحظ تكون الماء ، وأيد به آراءه عن الاحتراق وعن تركيب الماء وأعاد التجربة مرة أخرى وأثبت أن الأكاسيد تنقص فى الوزن إذا سُخنت فى جو من الأيدرُوجين . وأن هذا الأخير يتحد بالأكسجين الموجود بالكلس مكونا الماء تاركا المعدن .

كان لاڤوازييه حينئذ ولوعاً بالتحليل بدلا من التركيب . وعلى ضوء هذه التجارب قام بتركيب جهاز آخر بالتعاون مع عالم آخر يدعى « مُسنيه » Meusnier مستخدماً بخار الماء والحديد فى توضيح تركيب الماء بطريقة تحليلية .

ما أشد ولع لافوازييه بالتجربة وما أقوى ملاحظته ! ! . . هاهو ذا مرة أخرى يبنى لنا جهازاً دقيقاً يثبت به نظريته بطريقة عملية . هذه التجربة التى ما زالت تدرس بمعاهد العلم حتى الآن مؤيدة رأيه عن تكوين الماء من عنصرين هما الايدروجين والأكسجين .

وقد عالج لافوازييه مشكلة تركيب الماء من جهتين التحليل والتركيب ، لذلك كانت طريقته فى الإيضاح ناصعة وحجته دامغة. وفى عام ١٧٨٠ أى بعد إعلان نظرية الاحتراق بعشرة أعوام بدأ حماة الفلوجستن يشعرون بمطرقة قوية تدق باب قلعتهم الحصينة . وطرق لافوازييه هذا الباب بعنف مستعملا فى ذلك تجاربه المتتالية وبراهينه القوية التى لم يجرؤ أحد على نقضها . وكان الكيميائيون أول من حمى هذه القلعة ، وفى هذا العام أيضاً أصيب أنصار الفلوجستن بهزيمة نكراء ، إذ انسل العالم برتوليه من بين صفوفهم وانضم إلى لافوازييه بعد أن كان لهم عونا . وبعد ذلك بعام واحد انضم إليهم مورڤو Morveau ثم فوركروى وأخذوا معهم الكثيرين من علماء الجيل الجديد . ولم يكن الصراع خارج فرنسا موفقاً . ففى السويد تمسك «شيله»

و « برجمان » بالفلوجستن . وفى انجلترا تشبث به « بريستلى » وكافندش إلى أن عاجلهما الموت. ولم ينضم إليه من الكيميائيين الأجانب غير « بلاك » الذى فكر طويلا وتردد كثيراً ثم ألقى بنفسه آخر الأمر فى أحضان لافوازييه فتلقاه راضياً مغتبطاً .

ومن الظريف ما يذكر أن لافوازييه جمع أصدقاءه فى حفل خاص بمدينة باريس وقامت زوجته وكأنها قسيس ، وأخذت كتاب العالم الألمانى شتال Stahl صاحب نظرية الفلوجستن . وألقت به فى النار وسط سكون رهيب يتخلله نغمات الموسيقى الجنائزية . . . لقد مات الفلوجستن غير مأسوف عليه ! ! . .

فلما تسامع الألمان بهذا استشاطوا غضباً وصنعوا للافوازييه تمثالا من الخشب قدموه طعمة للنيران . . لماذا ؟ لأنه أفسد العلم ! ! ! . . .

عمل وزواج

كان من عمل لافوازييه فى شركة التحصيل أن يقوم برحلات تفتيشية فى جميع أنحاء البلاد . وكانت أول رحلاته فى « بيكاردى » فزار مصانع التبغ ومكاتب المكوس .

وأضاعت هذه الرحلات الكثير من وقته ، بيد أن حبه للنظام لم يحل بينه و بين الاستمرار فى أبحاثه العلمية فكان يَمُدُّ أكاديمية العلوم من آن إلى آخر بما يتوصل إليه من نتائج مساهماً بذلك فى تشييد صرح العلم بكل ما يستطيع من الوسائل .

وما كادت تنصرم السنة الأولى من انضمامه إل الشركة حتى بدأ بحثه القيّم فى النظرية القديمة التى كانت تزعم أن الماء يتحول إلى تراب .

فقد قال القدامى إن عناصر المادة أربعة وهى الماء والهواء والتراب والنار . و إن المادة قد تتحول من حالة إلى أخرى، فالماء يمكن أن يتحول إلى تراب مثلا . وظلت هذه النظرية قروناً حتى بدأ لافوازييه تجاربه فبين فسادها منكراً ما زعمه الأولون فى كتب الكيمياء القديمة .

وبدأ تجربته بقدر من ماء المطر حصل عليه خارج المدن ، ليكون خالصاً من شوائبها وهزت تجربته هذه الرأى العلمى هزة عنيفة وحطمت نظرية تحول الماء إلى تراب تحطيما بعد أن عاشت قرابة ألفى سنة .

وقد قام عالم سويدى آخر فى الوقت نفسه بتجربة مماثلة لهذه

واصطنع طريقة تخالف طريقة لاڤوازييه وخلص منها إلى أن الماء لايتحول إلى تراب .

نعود مرة أخرى إلى عمله فى الشركة . فقد سافر فى رحلة إلى ليل ورانس(١) وسواسون و بعض بلدان أخرى صغيرة ، واستغرقت هذه الرحلة ستة شهور ، كان يرسل خلالها تقاريره إلى مراسل يدعى (پولز) . وكانت هذه التقارير دقيقة الوصف مع كثير من التفصيل .

ولما عاد إلى باريس عام ١٧٧٠ وجد عملا كثيراً فى انتظار عودته فأتمه على أكمل وجه، وقضى فى هذا العام شهراً بين ديبب والهافر ناقداً لجهاز علمى جديد قدم إلى الأكاديمية لقياس الارتفاعات وخطوط العرض .

ثم عاد مرة أخرى إلى رحلاته فى سواسون ورانس متصلا من جديد (بپولز) الذى كان يباشر أعماله .

وكان اتصاله بمراسله پولز سبباً فى توثيق الصداقة بينهما . فاطمأن له « پولز » ولمس ما فيه من ذكاء وفطنة . . . وكان لهذا الرجل ابنة تدعى مارى آن بيريت فى الرابعة عشرة من

(١) Reims

عمرها . . . على جانب عظيم من الجمال . ذات عينين زرقاوين وشعر بني ووجه صبوح .

وكان للمراقب العام — وهو الوزير الذى يتحكم فى الشركة ومصيرها — صديق شُغِف بالفتاة وأراد أن يتزوج بها فوسط صديقه الوزير فى ذلك ، وعارض الوالد لأنه لا يريد أن يكون زوج ابنته رجلا قد تخطى الشباب وجاوز الخمسين . كيف تنظر إليه ؟ أتراه زوجاً ؟ أتراه أبا ؟ أم هو أقرب إلى أن يكون لها جداً ! ! !

وكان لزاماً على پولز أن يبحث عن شاب نابه يليق بابنته . تحيا معه حياة أمن ودعة ، وتنعم بعيش راغد هانىء . . . ولم يكن أمامه سوى لاڤوازييه فهو شاب موفور الذكاء واسع الثقافة ، ثاقب الرأى رفيع المنصب ، من أسرة غنية عريقة، فكان من الطبيعى أن يختاره زوجاً لابنته الجميلة . . . ففيه الشباب والعلم والأمل .

وكان لاڤوازييه إلى جانب هذا كله جميل القامة وسيم الطلعة — أنيقاً فى ملبسه . ولما عرض عليه پولز الزواج من ابنته قبل لساعته . وتم الزواج فى حفل مشهود ضم الوزراء والعظماء

وأعضاء الأكاديمية والشركة وسيدات البلاط وكثيراً من الأهل والأصدقاء .

وكانت العروس صغيرة مدللة من أبيها ماتت أمها ، ولما تتجاوز عهد الطفولة . والحق أن لافوازييه قد خاطر بالزواج بها وهى فى هذه السن . فلم تكن شخصيتها قد نضجت بعد وكثيراً ما ينقلب مثل هذا الزواج إلى مأساة .

ولكنه كان بها سعيداً وكانت به راضية مولعة ، تحترمه وتحاول أن ترضى ميوله العلمية وتعاونه فى أغلب أبحاثه . . . عرفت مارى كيف تعاون زوجها فتعلمت الإنجليزية كى تترجم له كتب علمائها . ومن جهودها أنها ترجمت له كتب برستلى وكافندش وغيرهما . . .

والواقع أنها ساهمت بقسط كبير فى أغلب ما توصل إليه من توفيق فى حياته . فكانت ترقب سير العمل فى معمله وتقيد نتائج تجاربه وترسم له الرسوم الإيضاحية فى كتبه . . كانت تقوم بهذا كله فى شغف وإخلاص شديدين . .

ودفعها هذا الشغف إلى العمل بكل همة حتى تصبح الزميلة المخلصة والمساعدة النشيطة . وسرعان ما ظهرت ميولها وبرزت

مواهبها ونضجت شخصيتها على الأيام ، وساعدها اتصالها به فى عمله على تفهم دقائق النظريات العلمية فكانت تشترك فى المناقشات التى تدور بين زوجها وبين زملائه . واستطاعت أخيراً أن تخرج رسمين يوضحان تجارب التنفس .

ووعد پولز أن يدفع صداق ابنته ثمانين ألفاً من الجنيهات ولكنه لم يستطع أن يقدم سوى ربع هذا المبلغ لخسارته فى الشركة . . . وكانت أم لافوازييه على جانب عظيم من الثراء ، تركت له مائة وسبعين ألفاً من الجنيهات ، كما وهبه أبوه مائتين وخمسين ألفاً هدية لزواجه . فكان الزوجان عند بدء حياتهما الزوجية ثريين يعيشان عيشة الترف بعيدين عن كل ما يقلق الأزواج من حاجة إلى المال . فكان المال موفوراً والسعادة كاملة والشباب نضيراً .

ساعد المال لافوازييه فى الكثير من أبحاثه ، بيد أن هذا لا ينقص من قدره ، ذلك لأن هذا الفتى الذى عاش فى باريس لم يحفل كثيراً بما بها من مباهج ومتعة تبهر الشباب فتدفعه إلى تيارها الجارف — كان المال له خادماً لا سيداً .

لم يغير الزواج شيئاً من حياة لافوازييه وإن كان قد قلل من

رحلاته إلى حد ما . كان لاڤوازييه كعهدنا به يقوم بما يطلب إليه فى عزم وإخلاص هذا فضلا عن أبحاثه القيمة الكثيرة التى كان يجريها ومع ذلك فلم يؤثر أن نزاعاً ما نشب بينه وبين زوجته لكثرة أعماله .

وفى السنة التالية لزواجه أنجز أعمالا شتى فى أكاديمية العلوم، وبحث مواضيع مختلفة ونقد الكثير من التقارير التى قدمتها اليه الأكاديمية .

ولعل أهم أبحاثه هو ما اشترك فيه مع ماكيه وكادت عن تأثير الحرارة فى الماس . . . فقد أظهر هذا البحث القيم أن الماس إذا سخن فى الهواء الجوى نقص تدريجياً واختفى ولم يترك أثراً . وقام بهذه التجربة نفسها بويل وماكيه ورويل وغيرهم، وفسروا هذه الظاهرة بأن الماس يتسامى بالتسخين . لكن لاڤوازييه لاحظ وهو فى سبيل تجربته أن الماس لا يتسامى بالتسخين ، واستنتج أن الهواء هو الذى يسبب زوال الماس إذا سخن فى بودقة مكشوفة ، وربما كان ذلك سبباً فى الاحتراق .

ودفعه البحث فى احتراق الماس إلى تجارب عدة ، ليعرف مدى تأثير الحرارة على الكثير من المواد التى أخذها بمحض

المصادفة ، وأخذ يسجل ما يشاهده من التغييرات بالدقة المعهودة فيه . وكان من بين ما فحصه من المواد لمعرفة تأثير الحرارة عليه مادة حمراء كانت تدعى حينذاك بالراسب الأحمر ، وهي أكسيد الزئبق الأحمر. ولم تكن الأكاسيد قد عرفت حتى ذلك الحين .

وفي العام نفسه قدم لافوازييه نتيجة بحثه عن الماس موضحاً أن الماس كالفحم في مادته، إذا احترق أنتج هواء يعكر ماء الجير، ومن ثم قال إن الفحم والماس ماهما إلا صورتان مختلفتان لمادة واحدة .

وانصرف لافوازييه بعد ذلك إلى البحث في تركيب الغازات فأجرى تجارب عدة أثبت بها التركيب الكيميائي لثاني أكسيد الكربون .

ويظن الإنسان أن هذا العالم القدير نبغ في الكيمياء وحدها . بيد أنه كان أيضاً مجدداً في علم الطبيعة .. فقد أجرى عدة تجارب بالاشتراك مع « لابلاس » عن الحرارة النوعية للانصهار . وتوصل أخيراً إلى تقدير القيم الحرارية لبعض أنواع الوقود .

ضمير العلم

عجباً لهذا العقل البشرى يسخر علمه للخير والشر جميعاً ، فهو الذى ابتكر البارود تزال به العوائق وتقطع الجبال وتمهد الطرق وتباد الغابات ، ثم تكتسح به الجماعات الانسانية المعادية قبيلا قبيلا ...

ألست ترى أن « برتوليه » ما إن حضر مادة كلورات البوتاسيوم عام ١٧٨٦ حتى فكر العلماء فى الاستعاضة بها عن ملح البارود ... فى صناعة البارود ... إذ كانت كلورات البوتاسيوم غنية بالأكسيجين .

وأجريت عدة تجارب ، ولكنه ثبت للعلماء أن تحضير هذه المادة يكلف نفقات تفوق نفقات تحضير ملح البارود بكثير ..

ورأى لافوازييه وكان كلفاً بتحضير الغازات أن تحضر هذه المادة تحضيراً صناعياً على مدى أوسع .. واستطاع فى خلال شهر أن يُحضر كمية وفيرة منها ... وفى آخر أكتوبر من هذه السنة توجه لافوازييه تصحبه زوجته إلى مصنع أسونْ حيث أزمعا إجراء التجربة وذهب معهما أيضاً برتوليه ومدير المصنع

وأحد أعضاء لجنة البارود وابنته . . . وقرروا القيام بالتجربة في صباح اليوم التالي لوصولهم إلى آسون .

كان الفجر يسترق الخطى بين هذه السحب القاتمة المنذرة بالشر عندما شرعت الجماعة في خلط الملح مع غيره من مكونات البارود . وضعت هذه المواد جميعاً في طاحونة خاصة . وكان مدير المصنع رجلا طُلَعَةً متحمساً للتجربة . وأبى إلا أن يحرك المخلوط بعصاه حتى لا تلتصق أجزاؤه بعضها ببعض على الرغم من تحذير لافوازييه له .

ولما أشرفت الساعة على تمام الثامنة انتهت عملية الخلط ، وكان المخلوط متجانساً . فصدرت الأوامر للعمال بالانصراف لكي يتناولوا طعام الإفطار ، وتركوا عند المخلوط عاملا للمراقبة فآثر المدير أن يصرفه لأنه كان متزوجاً وله أولاد وأن ينتدب آخر أعزب مكانه ، ولكن لافوازييه بين له أن العامل في مكان أمين وألا خطر عليه حتى ولو وقعت الواقعة .

وانتقلت الجماعة إلى مكان آخر في المصنع لمشاهدة تجارب أخرى ، وأراد المدير أن يبقى إلى جانب المخلوط فاجتذبوه والفتاة معهم ولكنه انسل وإياها وهم عنهما ساهون .

وما هى إلا لحظة و بعض لحظة حتى مادت الأرض تحت أقدامهم وصمت آذانهم من هول الانفجار ، ثم ساد سكون رهيب . . . .

فلما ذهبت الغاشية اندفعوا إلى المكان المعهود . . . وتساءلوا عن المدير وعن الفتاة فلم يعثروا لهما أول الأمر على أثر ، ثم وجدوا الفتاة التى كانت منذ هنيهة تفيض من عينيها الحياة وماء الشباب يجرى فى وجهها . . أشلاء لا تستبان فيها ملامح أو قسمات . .

أما المدير فقد حمله الانفجار بعيداً فإذا به يلفظ آخر أنفاسه بين هؤلاء الأعلام الحانين عليه . .

وروّع الحادث أهل باريس ، فكتب لافوازييه فى صحيفة « چورنال دى بارى » يقول « إن العلم لا بد له من الضحايا والقرابين و إن هذه الحادثة وأمثالها لا تفت فى عضد القائمين على صناعة البارود . . وإنما تعلمهم الأخذ بالأحوط فى مقبل التجارب والاختبارات »

نعم لا بد من الضحايا والقرابين لتقدم العلم . . ونهضة الصناعة . ولكن لأية غاية ولأى هدف ؟

هلا فكر العلماء فى أن بعض هذه النذر ليس ثمناً لتقدم

علم ، أو معرفة ، وإنما هو سورة من سورات الضمير الإنسانى على انصراف بعض العقول إلى صناعة الموت بدلا من عكوفها على فن الحياة والعمران ! ! .

البيت والحقـل

كان لافوازييه الكبير فخوراً بولده كل الفخر ، ولكنه قضى ولما يبلغ ابنه ذروة المجد . ولما رأى الوالد مخايل النبوغ تلوح على ولده ، وشاهد نجمه يبزغ فى أفق فرنسا أراد أن يُكوِّن له ثروة عظيمة تقيـه النوائب وتهيىء له مكاناً رفيعاً بين الأشراف . كانت ألقاب الدولة تشترى وتباع . وكانت المناصب الرفيعة فى فرنسا حوالى أربعة آلاف ، تعطى لمن يدفع فيها أغلى ثمن . فوفق لافوازييه الكبير إلى الحصول على منصب من هذه المناصب الرفيعة وهو مستشار الملك وكاتم سره .

ولم يعمر الوالد طويلا فأصيب عام ١٧٦٧ بمرض عضال اضطره إلى الاستقالة من منصبه فى البرلمان . بعد ذلك تزوج ولده انطوان ثم ظهر كشفه العظيم عن الاحتراق ثم صدرت

مؤلفاته القيمة ثم عين فى لجنة البارود . فعظم فى نفس الوالد وأثلج صدره ولكن سرعان ما عاجلته المنية عام ١٧٧٥ ولم يكن قد تجاوز الستين من عمره .

كان لافوازييه محباً لأبيه باراً به ، فحزن لموته حزناً شديداً . فكتب إلى خالته يقول :

« تعلمين أيتها الخالة العزيزة مقدار الحب الذى أكنه لأبى ، فأنت تستطيعين أن تحكمى كم كان انفصالنا قاسياً ! لم يفعل أبى فى حياته غير الخير وما أضر أحداً . وإنى لا أشك أنه سينال جزاءه عند الله . وإنى لآمل أن أجد فى روحه الطاهرة نوراً يهدينى سواء السبيل ، ومثلا أنسج على منواله »

انتقل لافوازييه إلى دار الصناعة لما عُيِّنَ بها . فذهبت معه خالته ، التى كفلته بعد موت أمه . وكان المنتظر أن ينشب الخلاف لوجودها بين اثنين حديثى العهد بالزواج . لكن شيئاً من هذا لم يحدث . فقد كانت زوجته مارى عاقلة على حداثة سنها . بل إنها اكتسبت من الخالة خبرة فى شئون المنزل . وكم كان يسعدها وجودها إلى جانبها والزوج غائب فى رحلاته الطويلة . كانت الخالة بكراً ، لم تتزوج ، وعقدت آمالها على هذا

الشاب فأحبته محبة الأم لولدها . وعاشت حتى رأته سيد علماء أوربا . ثم ماتت عام ١٧٨١ ففقد بموتها حنان الأم ونصح الأخ ووفاء الصديق .

وكانت داره معقد العلماء ومزار الباحثين ، تقوم الزوجة باستقبال الزائرين . وكانت قادرة على التحدث مع الضيوف في مختلف الشئون . فكانت مثال السيدة الفاضلة ؛ وقد كتب عنها أرثر يونج فى كتابه « رحلات فى فرنسا » ما يلى :

« ومدام لافوازييه سيدة عالمة ، جميلة حساسة . قد أعدت لنا طعاماً انجليزياً » . وبعد أن امتدح ترجمتها لكتاب انجليزى اطلع عليه أعجب بآلات لافوازييه وتجاربه .

كان لافوازييه كما عرفنا على جانب عظيم من الثراء فقد ساعده ماله على أن يولم الولائم عن سعة . وكان ضيوفه من رجال العلم ومن رجال المال والسياسة وغيرهم من الناجحين فى نواحى الحياة الاجتماعية المتعددة . فكانت داره مركز النشاط الاجتماعى والثقافى فى باريس .

ولاحظ لافوازييه فى رحلاته الكثيرة الفلاحين وما يعانونه من شظف العيش ، فتحركت نفسه ؛ وإن كان من رجالات

شركة تحصيل الضرائب . ورأى أن شيئاً يجب أن يعمل للتخفيف عنهم .

فعمد إلى بحث الموضوع من كل نواحيه . وكتب المقالات الطوال فى الصحف مُبيناً أن الزراعة عماد الحياة فى البلاد ومصدر ثروتها . فلا بد من أن يقدم إلى القائمين بها كل عون مستطاع للاستمرار فى عملهم آمنين من الفاقة والبؤس . وأنشأ لهذا الفريق مزرعة نموذجية اشتراها بمائتين وثلاثين ألفاً من الجنيهات يقضى بها أسابيع من كل عام . ويقوم نفر من أصدقائه بالإشراف عليها عند غيابه . وكان الفلاحون يحتكمون إليه إذا حزبهم أمر . ولا يدخر وسعاً فى مساعدتهم وإسداء النصح لهم . وقد أنشأ بها مدرسة يعلّم فيها أولاد الفلاحين ليكونوا أقدر من آبائهم على مواجهة الحياة . فعل لافوازييه هذا كله فى الوقت الذى كان غيره من الأشراف والملاك يعاملون الفلاحين معاملة الدواب . فنظروا إليه نظرهم إلى الخارج على المألوف ، الثائر على النظام .

ثم اتسعت رقعة ضيعته على الأيام ، فقسمها أربعة أقسام ، وأخذ يجرى فيها التجارب الزراعية ، فتضاعفت غلة الأرض . وتكاثرت الماشية أضعافاً مضاعفة .

وقد لفتت تجارب لافوازييه نظر رجال الزراعة فى فرنسا ، فانتخبوه عضواً فى جمعية باريس الزراعية سنة ١٧٨٣. وانتخب بعد ذلك بعامين عضواً فى لجنة الزراعة الحكومية التى ألَّفتها الحكومة لتسدى النصح بأفضل ما يتبع من الطرائق للملاك والفلاحين . وعين لافوازييه كاتم سر هذه اللجنة . فرسم خطة العمل فيها ، ووضع ضيعته تحت تصرف رجالها ليجروا فيها ما يريدون من التجارب الزراعية .

وكتب تقريراً ضافياً عن حالة الفلاح الفرنسى ، ذكر فيه أنه لا يقل كفاءة أو نشاطاً عن غيره، ولكنه يرزح تحت عبء ثقيل من الضرائب . وأن حالة الزراعة لا تقوم فى فرنسا على الأساليب العلمية الصحيحة ، لجشع الملاك ورغبتهم فى الربح من أسرع طريق .

السياســـة

اشتد الجدل حول اشتغال رجال العلم بالسياسة . ويرى البعض أن العالم يجب أن يعكف فى صومعته على الدرس لا ينصرف إلى غيره من الشئون و بخاصة شئون السياسة المتقلبة الخطرة .

لم يكن لا فوازييه ذلك العالم الذى عاش فى صومعته بعيداً عن المؤثرات الخارجية ، بل أثبت خطأ هذا الرأى بشكل واضح .

قرأ لافوازييه التاريخ السياسى لفرنسا فى القرن الأخير وأفاد من ملاحظاته الشخصية ، واستنتج ما يجب أن يقوم به من أعمال إزاء الفلاحين التعساء ليخفف عنهم أعباء الحياة القاسية ، وليزيد من رفاهية الشعب .

وقد أتيحت له فرصة العمل سنة ١٧٨٧ عند ما عين نائباً فى مجلس أورليان النيابى ، وكان أعضاء هذا المجلس يعينون بمرسوم ملكى وعددهم خمسة وعشرون . سِتّةٌ منهم يمثلون الأشراف وستة يمثلون رجال الدين ، والآخرون يمثلون الطبقة العامة من الشعب . ولهؤلاء رئيس هو دوق لكسمبورج . وكان لافوازييه من ممثلى العامة وإن كان يحمل رتبة من رتب الأشراف ، وهذا دليل على ما اشتهر به من نزعاته الديمقراطية .

وكانت الدورة الأولى لانعقاد المجلس فى السادس من شهر سبتمبر من ذلك العام ، فاصطحب لا فوازييه زوجته إلى أورليان قبل انعقاد المجلس بيومين وأخذ يطوف بها لتشاهد البلد الذى يمثله زوجها . وكانت الرحلة ممتعة . وقد أقر المجلس فى الجلسة

الأولى أموراً كثيرة . وكان لافوازييه فى تلك الجلسة عظيم النشاط فاقترح موضوعات للبحث فيها فى الدورة التالية .

ولما كانت الدورة الثانية ، افتتح المجلس برسالة ملكية ، يوم السبت فى شهر نوفمبر ، وفى يوم الأحد أى اليوم الذى تلا افتتاح المجلس سار الأعضاء فى موكب وسط المدينة وعلى رأسهم موسيقى المدينة ؛ وظلوا على هذا النحو من قصر القديس حتى الكتدرائية .

وقضت التقاليد بأن تسير الطبقة الأقل قدراً فى الطليعة . ثم يسير الأشراف فى المؤخرة . لذلك سار الموظفون فى المقدمة ثم ممثلو العامة ثم ممثلو الأشراف ورجال الدين جنباً إلى جنب ، لأنهم كانوا من مرتبة واحدة . وأخيراً سار الرئيس دوق لكسمبورج ، وأخذ أحد الأعضاء يحيى الجماهير وعضو آخر يعظهم .

وفى الجلسة التالية تكونت أربع لجان ، الأولى لتحسين الحالة العامة والزراعة ، والثانية للطرق والجسور ، والثالثة للمالية، والرابعة للضرائب ، وانتخب لافوازييه عضواً باللجنة الأولى . وكانت هذه اللجنة أكثر اللجان نشاطاً وأوسعها مجالا . ففتحت

الباب أمام لافوازييه لبحث المشاكل الاجتماعية ، التى يرغب فى دراستها . وكانت اقتراحاته فى هذا الصدد فريدة فى بابها . وظلت تقاريره التى قُدمت للمجلس موضع الاهتمام والتقدير وكثيراً ما اتخذت لتوجيه السياسة العامة فى المجلس . وأهم ما اقترحه على المجلس هو إنشاء مصرف إقليمى لتشجيع الصناعة، لأنه رأى أن إنشاء مثل هذا المصرف من الضرورة بمكان لمعاونة صغار الصناع حتى يقوموا بعملهم على أكمل وجه .

كما اقترح تأليف هيئة للتأمين على الحياة وتقديم معاش للمسنين ، ليأمن الشيوخ والأرامل شر الفاقة والعوز فى أواخر أيامهم . وقال إن المرء فى هذا الطور من أطوار حياته لا يجد أمامه سوى ذكريات الماضى والحسرة على ضياع الصحة والشباب والمال . فالأفضل أن نمدهم بالمال اللازم لبقية حياتهم لِيُخَفِّفَ عنهم آلام المرض والعجز

وأفاد كثيراً من شركة تحصيل الضرائب ، فقد دربته على شئون المال والإدارة . فأصبح أقدر من غيره على التفكير فى المشروعات .

أراد لافوازييه أن يرفع عن كاهل الأهلين تعبيد الطرق التى

لم تكن الحكومة مسئولة عنها، بل كانت تسخرهم فيها . وأظهر لافوازييه أعضاء المجلس على ما فى هذا العمل من ظلم غير مشروع فثارت ثائرة الأعضاء وبخاصة الأشراف منهم كما انحاز إليهم نفر من ممثلى العامة . وقرر المجلس آخر الأمر عدم تلاوة الاقتراح وأخذ لافوازييه بنصيحة أحد أصدقائه وسحب اقتراحه من المجلس

ومن مشروعاته المفيدة إنشاء دور للصناعة يزورها الصناع بين الحين والحين طلباً للارشاد والتوجيه ، وقدّم لهذا الغرض مصوراً لأقاليم أورليان مبيناً عليه المعادن الموجودة بالأرض ؛ والأرقام التى وضعها بنفسه بالاشتراك مع جيتار وكذلك نتائج أبحاثه الزراعية التى سبق أن قدمها إلى الجمعية الزراعية بباريس .

وفى سنة ١٧٨٠ انتهى عقد شركة تحصيل الضرائب ، فعدلت بنظام جديد وعقد جديد وأصبح لافوازييه من أعضاء الشركة الجديدة أيضاً . فعمل على وضع أسس اقتصادية وإدارية لها . وقد عمد إلى وضع نظام ثابت للضرائب فى فرنسا ، واقترح مشروعا يمنع تهريب البضائع ، فقوبل اقتراحه بالتأييد من كل جانب ، فقد قدر لافوازييه البضائع الداخلة إلى مدينة باريس عن طريق المهربين بقدر خمس ما يدخلها من البضائع .

وأظهر ما فى ذلك من خسارة جسيمة على الشركة وعلى التجار الأمناء الذين لا يبيعون من البضاعة إلا ما سجلت عليه رسوم الدخول . واقترح بناء سور حول باريس . ولم يدخل اقتراحه هذا فى حَيِّز التنفيذ فى الحال ، لكنه عاد إلى الحياة بعد عامين كاملين ، و بُدِئ فعلا فى البناء ثم قو بل بضجة من الأهالى الذين رموا أعضاء الشركة بأنهم يرغبون فى سجنهم داخل مدينتهم . وأخذوا ينادون بوجوب إلغاء هذا الإجراء الشاذ . وكتب البعض نقداً لاذعاً . ونظم البعض أبياتاً من الشعر سخروا فيها من الشركة وتهكموا على أعضائها .

وكان لافوازييه هدف هجومهم العنيف لأنه صاحب الاقتراح ، لذلك اقترح بعض المتهكمين أن تقيم الشركة له تمثالا فوق سور باريس. وما كان لافوازييه فى اقتراحه هذا مُغْرِضاً وما كان يريد أن يزيد فى أرباح الشركة على حساب الأهلين ، لكنه كان يريد أن يحول بين المهربين و بين الإفلات من يد القانون وأن يساعد الأمناء من التجار على النهوض بعملهم دون منافسة غير مشروعة .

ولا يمكن أن يُتَّهَمَ لافوازييه بهذه التهمة الشنعاء ، فقد كان

كرمه مَضْربَ المثل : ينفق الأموال الطائلة فى وجوه الإصلاح . كما قام بتجاربه الزراعية فى ضيعته بفرانشين على نفقته ، وأهدى نتائجه إلى الشعب دون مقابل .

وحدث سنة ١٧٨٨ أن كان محصول الحبوب غير واف بحاجة الشعب ، وكان هذا من أسباب الثورة فى الأعوام التالية . ولقى الناس الأهوال من الجوع والحرمان . وقيدت الحكومة بيع الحبوب لتتأكد من عدالة توزيعها على الأهلين . وقاست مدينة (بلوا) الكثير من هذه النكبة وكان لافوازييه مسؤلا عنها بحكم منصبه لأنهُ من أشرافها . فلم يرقه أن يَتَضَوَّرَ الشعب وخزائنه مفعمة بالأموال . فقدم خمسين ألف جنيه بدون أرباح لتغطية حاجة المدينة . وقد أثر هذا الصنيع فى أعضاء البلدية وشكروا له أريحيته وكرمه . لكنهم لم يقبلوا منه إلا اثنين وثلاثين ألفاً . وكانوا يأملون الوفاء بها . لكن أنَّى لهم ذلك وجو فرنسا بأسرها ينذر بالويل والثبور !!! . . .

الثـــورة

عام ١٧٨٩ — ١٧٩٠

أثرت حرب السنوات السبع وحرب الاستقلال الأمريكى فى مالية البلاد فأنهكتها النفقات ، فكانتا كارثتين على فرنسا أفقرتا الشعب واستنزفتا موارد الحكومة . وكان الملك طيبا يعوزه الذكاء وتغلبت عليه الملكة بقوة شخصيتها وكانت مسرفة غاية الإسراف تتوسل بالدسائس إلى تحقيق أغراضها ، ولم تعبأ الملكة بحالة البلاد المالية السيئة ، ولم تحفل بما اتخذته الحكومة من الإجراءات لمعالجة الحالة . وقد عاونها فى تحقيق أغراضها (كالون) وزير المالية إذ ذاك ، فاستفحل الأمر وسارت البلاد من سيىء إلى أسوأ . حتى تردت البلاد فى هاوية الإفلاس .

وحاول مجلس الأشراف عام ١٧٨٧ أن يخفف من حدة الأزمة . لكنه لم يفلح وكانت محاولات أخرى من بعض الوزراء السابقين باءت كلها بالفشل .

مارس لافوازييه السياسة فى مجلس أورليان . وكان له رأى خاص فى تلك الحوادث الخطيرة ، بسطه فى مذكرة مطولة

عرضها على رئيس الحكومة ولم ينشرها . و بين فيها أن القوة والجبروت وسفك الدماء لا تقوى الملك لكنها تضعفه . ودعا إلى سيادة الملك دون أن يتدخل فى الحكم .

وذكر أن الملك هو شعار الأمة الأسمى . ورمز كرامتها وسيادتها وهو بمثابة الرئيس للدولة . أما الحكم ففى يد الحكومة. فقد كان بذلك ديموقراطياً بكل ما فى هذه الكلمة من معنى . ويقول بعض المؤلفين إنه لو أخذ برأيه ما نشبت الثورة الفرنسية.

وطلب لافوازييه أن يلغى حق القبض على الناس بغير مناسبة ، وأن يرفع الحجر عن الصحافة . وكان الأشراف ورجال الدين يؤلفون الغالبية فى المجلس الوطنى الذى يقوم بالتشريع . ومن ثم لم يكن للعامة مشاركة فى سن القوانين . فاقترح لافوازييه أن يكون ثلثا الأعضاء من العامة والثلث من الأشراف ورجال الدين . فيتجلى من هذا كله نظرة لافوازييه الديموقراطى فى نظام الحكم . فإذا أضفنا إلى هذا أنه كان من الأشراف ، وأنه يتمتع بامتيازات كثيرة ؛ فإننا لا نتردد فى الحكم بأنه كان ديموقراطيا يعمل بدافع نفسانى شريف . فلم يكن مغرضاً . ولم يكن يعمل مدفوعا بدافع الاضطهاد . فاندفع فى

سبيل الخير مستجيباً لنداء الإنسانية والعدالة . مدافعاً عن الطبقة الفقيرة المنكودة الطالع من الشعب الفرنسى . لم يستطع أن ينفذ مقترحاته عند ما كان عضواً فى مجلس أورليان ثم أصبح عضواً فى المجلس الوطنى ؟ أفلا يستطيع أن يقوم بحملته الإنسانية العادلة ضد الظلم والطغيان ؟

وانتصر الشعب انتصاراً فى شهر ديسمبر بتضاعف عدد ممثليه فى الجمعية الوطنية . وكان لافوازييه نائباً عن الأشراف لمنطقة « بلوا » .

ذهب لافوازييه إلى بلوا لانتخاب النواب وعين كاتماً لسر اللجنة . وكتب فى مذكرة له وثيقة أخرى تنطق بانسانيته وديموقراطيته ومحبته للشعب . ومما قاله :

« إن الهدف الذى ترمى إليه أية هيئة اجتماعية هو أن تهيء للذين يخضعون لحكمها حياة أسعد مما هم فيه . فليست السعادة وقفاً على فئة دون أخرى . لكنها ملك للجميع ، وحق من حقوق كل إنسان ، فينبغى توزيعها على كل فرد بالعدل والقسطاس »

وبسط فيها كذلك الوسائل الفعالة فى إسعاد الشعب وفى طليعتها حرية الفرد ، ذاكراً أنها « أقدس حقوق الإنسان »

وأنه يجب ألا يسجن أو ينفى أى فرد دون جريمة أو محاكمة .

ويجب أن يمنح حرية الفكر وحرية الكتابة والنقد ، وأن يحد من سلطة الشرطة ، وأن تتمشى الضرائب مع القدرة على دفعها ، وأن يكون فرض هذه الضرائب فى جميع أنحاء البلاد بإرادة ممثليها . وطالب من الأشراف شيئاً من التضحية وأن يتنازلوا عما منحوه من امتيازات. وأن يدفعوا نصيبهم فى الضرائب كما طالب ألا يعتبر المتهم مذنباً إلا إذا ثبتت إدانته بحكم المحكمة.

ثم تكلم عن النظام المالى ونادى بالغاء المكوس الداخلية، ووضع خطة للتعليم . واقترح إيقاف شراء المناصب الرفيعة والرتب وعدم منحها إلا لمن يقوم بعمل وطنى جليل . ورأى أن يمنع رجال الدين من إرسال المال إلى روما ، فقد كان ذلك أشبه بضريبة أخرى يدفعها الشعب الفرنسى .

وانتخب أهالى بلوا ممثليهم بناء على هذه المقترحات ، وانتخب لافوازييه مساعد نائب . لأن رتبته لا تجعله نائباً . فلما عاد إلى باريس فى ابريل كان عضواً بشركة الضرائب وعالماً بأكاديمية العلوم وعضواً بلجنة البارود . وكان على الرغم من

هذا كله يختلس من وقتــه ليذهب إلى معمله الــكيميائى ليجرى تجربة أو يتم بحثاً .

واجتمع مجلس طبقات الأمة فى شهر مايو ، ولم يكن لهم رئيس ولم يكن عند أعضائه فكرة ما عما ينبغى أن يعملوه ، واستمر الحال على هذا النحو أسابيع ، أعلن بعدها ممثلو الشعب أن يطلق على المجلس اسم « الجمعية الوطنية » . ودعوا ممثلى الطبقتين الأخريين (أى الأشراف ورجال الدين) إلى الانضمام إليهم إذا أرادوا . وشرعوا فى وضع دستور تصان به حقوق البلاد . واستغل الأشراف تلك الخطوة الثائرة على النظام القديم واتخذوا منها وسيلة لإقناع الملك بالانضمام إلى صفوفهم ، فأمر بإغلاق القاعة التى كانوا يجتمعون فيها بفرساى بحجة إعدادها لجلسة قادمة . فانتقل الأعضاء إلى ملعب التنس المجاور للقصر ، وهناك اتفقوا على أن يوالوا الاجتماع بها مهما كانت الظروف حتى يتموا وضع الدستور الذى يرضاه الشعب ، وألا يعودوا إلى بلادهم قبل إنجاز هذه المهمة بحال .

وذعى أعضاء الطبقات الثلاث إلى الاجتماع بالقاعة فى يوم ٢٣ يونيه . وألقى الملك خطابا ، وألغى قرار نواب الأمة . وأعلن

قراره بوجوب انفصال طبقات المجلس بعضها عن البعض الآخر عند المناقشة وأخذ الأصوات . وأنذرهم باستعادة السلطة إلى يده وحده إذا استمر الخلاف .

ترك الملك القاعة يتبعه رجال الدين والأشراف ظافرين بما كانوا يطلبون . وبقى مندوبو العامة وحدهم فى حيرة وخوف . وكان ميرابو (Merabeau) الرئيس غير الرسمى للاجتماع . فلما دخل رسول الملك يأمر الجمع بالانفضاض صاح به ميرابو قائلا : « إننا هنا بإرادة الشعب ، ولن نبرح هذا المكان إلا على أسنة الحراب » . وأخذ الأعضاء بعد ذلك يعملون لحماية أنفسهم فأعلنوا أنهم بحكم نيابتهم غير خاضعين لسلطة القانون من حيث الاتهام أو المحاكمة أو السجن .

تظاهر الملك بالإذعان لمشيئة النواب وأمر رجال الدين والأشراف بالانضمام إليهم ، ريثما يستقدم جيوشاً لا تتأخر عن إطاعة أوامره ، وعزل نكر يوم ١١ يوليه وولى مكانه « بروتى Breteuil » أحد أعوانه المعروفين وسحب ما كان قد منحه من حقوق الشعب .

ثارت ثائرة الشعب فقام بمظاهرات عديدة سفكت فيها الدماء

بتأثير بعض المهيجين الذين نجحوا فى إثارة الخواطر بخطبهم ومقالاتهم .

أخذ الأهالى يدبرون وسائل الدفاع عن أنفسهم . فهاجموا مخازن الانفليد ودار الصناعة فى ١٤ يوليو . واستولوا على كل ما بها من الأسلحة ، ثم اندفعوا إلى الباستيل فاقتحموه ، وقتلوا حاكم الحصن وعددا من جنوده ، ونكلوا بهم أشنع تنكيل .

ثم انتشرت الفوضى وعم الاضطراب فى جميع أرجاء البلاد وحرقت قصور الأغنياء . وما انقضى شهر واحد حتى انهارت حكومة الأشراف وانتصر الشعب ، ووضعت الجمعية الوطنية دستورا جديدا للبلاد ، على نسق دستور الجمهورية الأمريكية الجديدة ، وحُرِّم الإعفاء من الضرائب ومنع إصدار القوانين الجائرة .

وقد دارت عجلة الزمن ، ولم يكن للافوازييه نشاط ملحوظ فى هذه السنة بعد اجتماع « بلوا » . عمل لافوازييه بلجنة البارود التى صنعت منه مقادير هائلة ضاقت بها المخازن فى دار الصناعة . فرؤى أن ينقلوا جزءاً منها إلى مكان آخر ، ولكن بينما كانت شحنة منها تنقل إلى قلعة « تيرى » ضبطها رجال البلدية وأعادوها إلى باريس ، ظناً منهم بأنها مهربة للأعداء . وكان الغرض الحقيقى

إرسالها إلى استون لخزنها . ولم يكن من الجائز أن تخرج أى مادة من مواد الحرب من باريس إلا باذن خاص من رئيس الحرس الوطنى ، الذى عين حديثاً واسمه الجنرال (لافاييت Lafayette) فأرسلوا إليه فى طلب الترخيص لكنه لم يكن هناك ، فوقع نائبه الترخيص المطلوب . واستلزم الأمر نقل البارود فى قارب نهرى يحرسه أربعة من رجال الحرس ، بيد أن أهالى هذه المنطقة ارتابوا فى الأمر وأعملوا فكرهم فى سبب نقل البارود . وأرسلوا بذلك تقريراً إلى الجنرال لافاييت . وكان يجهل أن نائبه وافق على نقل البارود . فأمر أن يعاد ثانية إلى دار الصناعة .

واستحال شك الأهالى يقيناً . وانتشرت الإشاعات والأقاويل عن لجنة البارود وانتهى الأمر باتهامها بتهمة الخيانة العظمى . وتهريب البارود إلى خارج البلاد . فقبض على الحراس الأربعة ثم أعيدت الشحنة المشئومة إلى دار الصناعة . واللجنة فى حيرة من أمرها .

ودعى ممثلو المنطقة للاجتماع فى اليوم التالى وأوضح لافوازييه لهم كل ما حدث بالتفصيل ، وعين اثنان للذهاب إلى دار الصناعة للتأكد من صدق روايته ، وليهدىء من ثائرة الجماهير .

فوقعا بعد ذلك على تقرير عن الحادث يثبتان فيه أن الأمر كان عادياً لم تحدث فيه مخالفة أو خيانة من جانب لجنة البارود .

لم يقتنعوا بهذا ، فطالبوا بإلقاء القبض على لافوازييه نفسه وعضو آخر من أعضاء اللجنة وسيق الاثنان إلى قاعة المحاكمة فلم يجدا صعوبة فى تبرئة نفسيهما من تهمة الخيانة . ثم عرفت الجماهير أن ترخيصاً بنقل البارود إلى خارج باريس قد منح حقاً إلى اللجنة فتركوها وشأنها ، وانقلبوا على رجل الحرس الذى أصدر هذا الترخيص ؛ ولكنه أفلت من أيديهم فى الوقت المناسب . وبذلك هدأت ثائرتهم بالتدريج ونسى هذا الحادث على مرِّ الأيام .

وفى شهر سبتمبر عين لافوازييه عضواً فى مجلس باريس . وكانت السياسة تجرفه فى طريقها بعيداً عن ميدان العلم ، وسطع نجمه فى أفق السياسة كما سطع فى أفق العلوم من قبل . وأخذت واجباته السياسية تطغى على بحوثه العلمية . فلم يكن يتردد على معمله إلا سويعات قليلة لا تفى بأداء أبسط التجارب .

وقد رأى فى شهر أكتوبر صخب الجماهير فى فرساى لنقص محصول السنة السابقة ، كما رأى انتشار المجاعة التى سلبت هؤلاء

المساكين عقولهم ، فثاروا ثورتهم وأخذوا الملك عنوة واعتقلوه فى التوليرى Twileries . وطبعت الحكومة سندات مالية بضمانة الكنيسة التى كانت تملك الكثير من الأراضى . وكانت هذه الفكرة ناجحة . وقد عين لافوازييه مراقباً على هذه السندات ، وكلف بأن ينصح بما يراه نافعاً لمنع تزييفها ، فأدى ذلك إلى البحث فى أصناف الورق والألوان المطبوعة بها ، وأنواع المداد المستعملة فيها . وبذلك عاد المجتمع إلى الإفادة من بحوث لافوازييه العلمية مرة أخرى . وأعجب لافوازييه بالثورة أول الأمر ، فهو الرجل الذى عرف بعطفه على الضعفاء والمنكوبين وبره بالعمال والفلاحين . وكان قلقاً على مستقبل البلاد ، فكتب إلى فرانكلين ذات مرة سنة ١٧٩٠ قائلا : « إن الثورة انتهت وأخشى أن تكون هناك طبقة من الأشراف تميل إلى مقاومة الحوادث بالعنف » . وقال أيضاً : « إن الحزب الديموقراطى هو الأغلبية وإن به أغلب المفكرين والمتعلمين . أما المحايدون الذين لم ينضموا إلى هذا الجانب أو ذاك طوال مدة الثورة فيظنون أن الحوادث دفعت بالشعب إلى أبعد مما ينبغى ، وأنه ليس من الخير أن ندع الحوادث تُسيِّر هؤلاء الناس . وأنه من الحمق أن تترك السلطة فى يد القوم

الذين جبلوا على الائتمار والطاعة لا على الحكم والتدبير » .

ثم ضاق لافوازييه ذرعاً بالحوادث السياسية ، التى عاقته عن الاستمرار فى أبحاثه العلمية ، فكتب إلى العالم بلاك مشيراً إلى ذلك ، مؤملا أن تهدأ الأحوال فيتقدم العلم ثانية بخطى واسعة فى سبيل النجاح .

***

كان عام ١٧٩٠ فى ظاهره عام هدوء سياسى نسبى ، لكنه كان يموج بالأفكار الكثيرة المتقلبة فى عقل لافوازييه ، فهو دائم التفكير فى معمله . وكان يريد أن يبحث فى ظاهرة النمو التى يراها عكس الاحتراق والتعفن فهما هدم لها . إلا أنه لم يستطع أن يتفرغ لهذه البحوث لأن الوقت لم يسعفه .

عين فى لجنتى النقود والصحة ، وطلب إليه مع آخرين أن يبحث عن وسيلة تحول بين أنابيب البنادق وبين الصدأ . وانهمك فى الوقت نفسه فى العمل بنادى ٨٩ الذى كان يعمل لإنهاض الحرية فى البلاد ، والعمل على تشجيع مختلف الفنون . وكان هذا النادى يضم قرابة أربعمائة عضو ، أغلبهم من المتضلعين فى نواحى الحياة المختلفة . ثم حامت الشكوك حول هذا النادى

وأعماله ونيات أعضائه ، حتى إن الفرد إذا اتهم بالانتساب إليه رمى بالعمل على مناوأة الثورة . ولكن على الرغم من هذا الاضطراب السياسى العنيف تمكن لافوازييه من البحث فى معمله هادئاً . وقرأ نتيجة بحثه فى الأكاديمية عن التنفس والعرق والهضم ، وبيّن أن المرض هو نتيجة لاختلال هذه العمليات الثلاث أو إحداها ، وأن الموت هو عجز الجسم عن القيام بهذه الوظائف الثلاث . فاستطاع بذلك أن يجمع إلى حد ما بين متعة العلم ومطالب السياسة .

حِقْد وضغينة

استقرت الأحوال فى فرنسا فجر عام ١٧٩١ بعد اضطراب وهدأت بعد ثورة . وتوطد نظامها الجديد ، نظام التحرير من الطغيان والخلاص من الاضطهاد. فقبل الملك يوم ذكرى دخول الباستيل أن يمنح الشعب الدستور الجديد . وظهر أن البلاد تستطيع أن تسير قدما ناظرة إلى الأمام فى ثقة واطمئنان .

كان ذلك فى ظاهر الأمر ، فثمة تيارات شديدة تدمدم تحت

هذه الصفحة الساكنة . تيارات من الشك والحسد والنميمة . والاتهامات تلقى جزافاً على الناس . والدسائس تحاك حبائلها وتحبك أوصالها للانتقام من بعض الأشخاص ، لأى خلاف شخصى لا علاقة له بالثورة . كانت الملكة ناقمة على التصغير من حقوقها الملكية ، وكانت على اتصال دائم بالمهاجرين الملكيين الفارين إلى الخارج خوفاً من طغيان الثورة على الأغنياء . كما كانت متصلة بأقربائها فى النمسا ، وقد حاولت الفرار سنة ١٧٩١ وفى يونيو سنة ١٧٩٢ حاولت الهرب مرة أخرى وكادت تنجح .

وكانت الحكومة يقظة لكل حركة مناهضة للثورة . فكان الأفراد والجماعات موضع رقابة شديدة . وكانت عينها ساهرة على كل صغيرة وكبيرة مدققة فى تصرفات الناس . مؤولة لها على كل ناحية ومقلبة إياها على كل وجه . واشتدت الرقابة على الذين كانوا فى موضع الصدارة من النظام القديم .

ولم يكن يصدق على الرغم من هذا كله أن يكون لافوازييه هدفاً للتهجم والاتهام ، فقد راشته هذه الحركة الجارفة فيمن راشت . ذلك أن الذين كانوا ينادون بالحرية ، لم يعرفوا لها حدوداً ولم تبرأ حركتهم من الإثم والعدوان .

كيف يهجم أنصار الحرية على هذا العالم الذى عرف طوال حياته بحبه للشعب وحدبه على الفقراء من عمال وفلاحين ، وميله إلى الديمقراطية ، وخدماته العلمية الفريدة ؟

. . . كان الاتهام الأول من ناحية مجهولة للجمهور ، فقد كان صاحبه مدفوعاً بحافز من الحسد والحقد .

. . . وتفصيل الأمر أن رجلا يدعى (مارا) قدم بحثاً إلى أكاديمية العلوم عن النار . وكان هذا البحث ضعيفاً كثير الأخطاء يفتقر إلى الكثير من التجارب والبراهين . فلما تناوله لافوازييه نقده بما يستحق من الشدة ، وسخر بصاحبه الذى حشا بحثه بالكثير من الفروض والنظريات الوهمية . أثار هذا الحادث حفيظة مارا ولم ينس تلك الإهانة بل كتمها فى نفسه إحدى عشرة سنة ، حتى أتى اليوم المنشود ، الذى استطاع فيه أن يفوق سهامه إلى صدر لافوازييه وهو غافل عما يدبر له من كيد .

نشر (مارا) نشرة عرض فيها بأعضاء الأكاديمية متهماً إياهم بالاستيلاء على الأموال المخصصة للأبحاث العلمية وإنفاقها على أنفسهم ؛ وكان اتهامه لهؤلاء الأعضاء ستاراً يخفى وراءه حقده على لافوازييه . فقد قال هذا الرجل كلاماً عجيباً أراد به

أن ينتقص من قدر لافوازييه وشهرته العلمية . « . . إنه عديم الإدراك لما يخترع . لذلك يلجأ إلى اختراعات الآخرين وينسبها إلى نفسه . ويغير قليلا فى الطريقة كما يغير حذاءه ! ! »

واستمر على نقده وراح يلغ فى كرامة لافوازييه ، ويرميه بأن كل ما فعل كان للحصول على إيراد يقرب من مائة ألف جنيه . وإنه اقترح بناء سور لباريس . وقال إن اختراعه العظيم ليس إلا تغييراً لأسماء معروفة .

أثر هذا النقد فى عقول الكثيرين ممن لا يعرفون لافوازييه ، والحق أن هـذه النشرة السوداء لم تكن غير سلسلة فضائح وأكاذيب وضعها مارا من نسج خياله ، مضللاً الجماهير بأسلوبه الجذاب . وأخذ الناس يتناقلون الإشاعات ويتندرون بالوشايات التى كتبها ذلك الموتور .

وقد تأثر لافوازييه تأثراً غير مباشر من صنيع مارا .

ولم تكف مارا هذه النشرة فكان بطلا فى الدعاية السيئة ، وشيطاناً من شياطين بنى الإنسان . فعمد إلى طريقة التهريج وتنميق العبارات سباً فى لافوازييه . من ذلك أنه كتب فى مجلته التى كان يسميها « صديق الشعب » يقول : « إننى أدعوك

بالنصاب ، السيد لافوازييه ابن سالب الأراضى .. التلميذ فى علم الكيمياء . . صبى شركة الضرائب . . كاتب لجنة البارود . . مدير بنك الخصم . . وكاتم سر الملك . . عضو أكاديمية العلوم. أيصدق أن هذا الرجل الذى ينعم بدخل قدره أربعون ألفاً من الجنيهات ، والذى لقبه الناس بسجان باريس . إذ أراد أن يمنع الهواء عنكم بسور يضرب به حول قصبة دياركم يكلف الفقراء ثلاثة وثلاثين مليونا من الجنيهات . وهو الذى نقل البارود من دار الصناعة إلى الباستيل تحت جنح الظلام . وأراد بعد ذلك أن يعين حاكماً لباريس . أليس الأجدر أن يوضع على سفود من أعمدة المصابيح فى السادس من شهر أغسطس ، حتى يخجل الناخبون من ذكر اسمه ؟ »

ولكن هذا الكلام لم يؤثر فى عارفى لافوازييه فقد كانوا يقدرونه حق قدره كعالم كبير وإدارى عظيم . فأهملوا تلك الدعاية المرذولة والمحاولة القذرة للإقلال من شأنه فى عيون الجماهير. لكن الناس الذين لم يعرفوا لافوازييه من قبل أثرت فيهم تلك الدعاية . وعلى أى حال فقد تركت لاسمه أثراً فى عقولهم ، ومن يدرى أكان ينال من الحظ خيراً مما ناله لو لم يكتب مارا عنه

شيئاً ، أم كان نصيبه كنصيب زملائه أعضاء شركة الضرائب؟ .

أعاد مارا حادثة نقل البارود فى أغسطس سنة ١٧٩٠ إلى أذهان الجماهير . وراح يكيل الاتهامات للجنة كيلا . فرد عليه لافوازييه رداً برأ فيه نفسه وزملاءه وأبان للجماهير فى كتاب مطول تفاصيل الحادث قائلا : « إن الموظفين العموميين الذين تسند إليهم مهمات وطنية صعبة ، يجب أن يمنحهم الشعب قدراً وافراً من ثقته . فكلما وقفوا حياتهم المعرضة للأخطار على خدمة الوطن ، عظم شعورهم بالظلم والاضطهاد وزاد التصاقهم برأى الشعب الذى حاول البعض أن يلوثه بما ينفث من إشاعات وأكاذيب » . ثم بين أعمال لجنة البارود ، وكيف زاد الإنتاج وتحسنت الصناعة ونقصت التكاليف . وذكر أن مسألة نقل البارود كانت تنفيذاً لأوامر أولى الشأن ، وبين أن نقل البارود فى شهر أغسطس من دار الصناعة إلى الباستيل حدث فى وضح النهار فى قارب ولم يكن تهريباً . واختتم لافوازييه كتابه منوهاً بما قامت به اللجنة من خدمات علمية واقتصادية لصالح الشعب الفرنسى .

كتب هذه المذكرة فى ستين صحيفة . . هل كان أثرها فعالا ؟ . . هل مسحت ما قام به ماراً من تشهير وتشنيع ؟

سنرى . . . .

خدماته الوطنية

لم يهدم صنيع مارا ثقة الحكومة بلافوازييه . فقد أسندت إليه الكثير من المناصب الرفيعة وناطت به أعمالا جليلة أخرى . ألم يقم بعد ذلك بوضع نظام جديد للمقاييس بدلا من الطريقة العقيمة السابقة ؟ ألم تسند إليه الحكومة العمل فى اللجنة السداسية التى أنشئت سنة ١٨٩١ للقيام بمهام الدولة المالية بعد أن تحولت أموال الدولة من يد الملك إلى الشعب ؟ فليس فى فرنسا بأسرها من كان أقدر على تسيير أمور المال من هذا العبقرى الفذ . هذا العلَم فى سماء أوربا بأسرها . وقد عرف له بعض الناس قدره ورفعوه إلى مصاف أبطال الوطنية عند ما رفض أن يقبض مرتباً على هذه الخدمات. كان فى غنى عن المرتبات . ولم يكن جشعاً حتى يقبل مرتباً عن عمل وطنى

كعضوية اللجنة المالية . وقد كان غرضه من الرفض هو رغبته في البقاء عضواً بلجنة البارود التي كانت تشبع ميوله الفنية .

ولكن رغبته هذه لم تتحقق .

قرر المؤتمر الوطني إعفاءه من العمل في لجنة البارود والاكتفاء بعمله في لجنتي المالية والمقاييس والموازين . فاحتج على هذا القرار عند الوزير المسئول ، طالباً السماح له بالإقامة في دار الصناعة حيث أنشأ معمله الجديد المجهز بأحدث الأدوات العلمية ، فأجيب إلى طلبه .

عمل لافوازييه في لجنة المالية فأبدى نشاطاً فائقاً وقدرة نادرة المثال . فقد اقتبس طرقاً سهلة لإمساك الدفاتر ، وبذلك تيسر ضبط المصروفات والإيرادات ، ومكنه ذلك فيما بعد من نشر رسالة عن حالة فرنسا المالية في أول يناير سنة ١٧٩٢ ، أبان فيها حالة البلاد المالية مدعمة بالأرقام ومزودة بمشروع الميزانية القادمة .

وفي آخر سنة ١٧٩١ طلب منه قبول أمانة صندوق أكاديمية العلوم ثم عين سنة ١٧٩٢ عضواً في الهيئة الاستشارية للفنون والصناعات التي أنشئت قبل ذلك بشهور قليلة لإرشاد الحكومة

إلى ما تراه من المقترحات المفيدة . واستغرقت هذه الأعمال وقت لافوازييه كله ، حتى إنه لم يجد ساعة واحدة يقضيها فى معمله ، بيد أنه كان راضياً بمفارقة العمل فى سبيل خدمة بلاده . وكان على يقين من أن بحوثه الفنية التى شغلت عقول علماء أوربا ستتلوها ولا شك بحوث جديدة يقوم بها بنفسه حينما تسنح الفرصة .

وقد أجهده الانهماك فى العمل ، ولكن هذا الإجهاد لا يقاس إلى ما كان يعانيه من ألم نفسانى عند ما يتأمل فى الحوادث الجسام التى كانت تدور حوله والقلق الذى يعتريه على مستقبل البلاد ، لم يكن المؤتمر القانونى الذى تلا المؤتمر الوطنى بالهيئة الراغبة فى السلام ، على الرغم من أن الملك منحهم الدستور . فقد قام اليعاقبة مطالبين بالجمهورية وعلى رأسهم روبسبير ، ودانتون ومارا .

وكان ميرابو قد مات عام ١٧٩١ وهو الذى تحمل عبء الحركة ، وكان يستطيع أن يجد علاجا للموقف فى ذلك الحين . واكتظت باريس بالمتعطلين واضمحلت الصناعات الكمالية الكثيرة بعد فرار الأشراف ، وكان هؤلاء على اتصال بالملك .

وكانت الحرب مع النمسا لا مفر منها ، كل هذه العوامل مجتمعة أدت إلى أن يقدم لافوازييه استقالته من اللجنة المالية وهو آسف على ذلك أسفاً شديداً . وأكبر الظن أنه كان ينظر إلى الأمور بمنظار أسود ، فقد كانت تزعجه حالة البلاد التى تسير حثيثا نحو الهاوية . عاد بعد ذلك إلى لجنة البارود فوجد أعضاءها تحيط بهم الظنون فانصرف عنها واستقال من اللجنة مختاراً . وبذلك اضطر إلى ترك الإقامة بدار الصناعة . ثم عاد ووجد مقاما طيباً فى شارع مادلين . وكان بعيد النظر حسن التصرف بتركه لجنة البارود . فقد داهم البوليس مقر اللجنة بعد تركه إياها بثلاثة أيام فقط . وضبط ما بها من أوراق واعتقل أعضاءها الثلاثة وانتحر أحدهم مفضلا الموت على ألم السجن والمحاكمة .

ولعل أرفع ما ناله لافوازييه من شرف سياسى هو دعوته لقبول منصب وزير الإيرادات العامة . فقد قدر الملك تجاربه فى شركة الضرائب وما نشره عن نظام الضرائب الجديدة وتحسينها وما أظهره من خدمة فى عمله بلجنة المالية الوطنية . كل هذا جعل الملك والحكومة ينظران إليه بعين التجلة والاحترام . ويريان فيه رجلا كفؤاً لهذا المنصب الرفيع . لكن لافوازييه وجد البلاد

فى حالة لا تسمح له بقبول هذا الشرف ، فالأمور مضطربة ، والوشايات والدسائس منتشرة ، والضائقة المالية شديدة الوطأة . لذلك فضل الانصراف عن كرسى الوزارة إلى العمل فى بحوثه العلمية مرة أخرى . رفض هذا المنصب وكتب إلى الملك رسالة رقيقة يعتذر فيها عن قبول هذا الشرف . وقد ذكر فيها أنه لا ينتمى إلى جماعة معينة فهو ليس من اليعاقبة أو غيرهم . لكنه يقيس الأمور ويزنها بميزان شعوره وتفكيره . ولن يستطيع أن يخضع آراءه لرأى حزب من الأحزاب . وأنه أقسم أن يكون مخلصاً للدستور الذى ارتضاه جلالته للشعب وللهيئة التى منحها الملك الحكم ولجلالة الملك نفسه . وأنه لا يستطيع قبول منصب لا يمكنه أن ينسجم فيه مع جماعة ذهبوا فى الدستور إلى أبعد مما منحهم الملك

وقد يكون لافوازييه مبالغاً فى الرسالة التى بعث بها إلى الملك ، وقد يكون ذلك ضرباً من السياسة أو اللباقة يبغى من ورائها اكتساب عطف جلالته . وفى نفس اليوم الذى كتب فيه هذا الخطاب حوصر قصر التوليرى حيث يقيم الملك مع أسرته . وبعد خمسة أيام أخر اجتاحه الشعب .

تلت ذلك أحداث وخطوب انتهت بمذبحة شهر سبتمبر التى

كان مارا محركها الأول . ثم أعلنت الجمهورية وقبض على الملك وأسرته . وابتعد لافوازييه عن السياسة إلى حين وذهب إلى مزرعته بفرانشين ليستريح من عنف الحوادث الجارية فى باريس

✡ ✡ ✡

عندما التحق لافوازييه بعضوية الهيئة الاستشارية للفنون والصناعات لم يكن عمله قاصراً على بحوث تلك الهيئة فحسب ، بل تعداها بمدى أوسع من ذلك بكثير ؛ كانت هذه الهيئة تضم عدداً كبيراً من المبرزين فى مختلف الفنون والصناعات بينهم بعض أعضاء أكاديمية العلوم . وكانت تجتمع فى غرفة هذه الأكاديمية بقصر اللوفر .

وقد حمل لافوازييه أعباء العمل فى هذه الهيئة ، إذ أصبح فى حل من أعبائه الأخرى التى كان ينوء بها أقدر الرجال . فقد ترك لجنة البارود واستقال من المالية . وأصبح فى مقدوره أن يتفرغ لعمله الجديد ، فبحث مشروعات عن صناعة الورق ، واستخراج الزيت من بذور العنب . .

وكتب لافوازييه تقريراً ضافياً عن التعليم فى فرنسا وعن طريقة إصلاحه كان غاية فى الإعجاز . فلم يكن ممن يتأثرون

بعامل خاص أو رأى معين . فقد كان مدفوعاً بطبيعته الراغبة فى الإصلاح البرىء . فكتب عن عقلية الأطفال وطرق تعليمهم كتابة عالم خبير بأصول التربية . وذكر سبل الإصلاح التى لم يذكرها غيره إلى أيامنا هذه فى برامج التعليم الحديثة . وكان يرى أن التعليم وحده هو الذى يصلح فرنسا ويجمع ما تفرق من شملها فان عقل الطفل قابل للتعلم . ومن ثم كان واجب الدولة أن تلقنه ما ينفعه وينفع أمته . فاقترح إباحة التعليم بالمجان لجميع طبقات الشعب . وذكر فائدة إنشاء مدارس للصناعات والفنون

واقترح إنشاء أربعة أنواع من المدارس . ابتدائية وأولية صناعية ومعاهد وكليات . يبدأ الطفل التعليم فى سن السادسة ثم يستمر تعليمه تبعاً لنمو جسده ومداركه . حيث يتدرج من الصور والأشياء المجسمة إلى القراءة والكتابة ، فالمواد الدراسية كالحساب والجغرافية والتاريخ . وأن تتعلم البنت التدبير المنزلى والصحة وتربية الأطفال .

كان نظامه فى التعليم ديموقراطيا ، ولم يكن للمدرس ، فى رأى لافوازييه ، أن يعاقب تلميذه إلا إذا شهد زملاؤه بإدانته .

انهيار الأكاديمية

عندما انتخب لافوازييه أميناً لصندوق أكاديمية العلوم سنة ١٧٩١ كانت فى حالة من الفوضى والانحلال ، نظراً لما كانت تعانيه من تأخير لطول مرض القابض على زمامها . فلم تدفع منحة الحكومة سنة ١٧٩٠ . وقد أدى ذلك إلى مراسلة وزير الداخلية ومقابلته . ولم يدفع معاش أحد أعضائها المدعو ليمونيه ، ذلك الشيخ الفانى الذى بلغ السابعة والسبعين ، وكان فى أشد الحاجة إلى المال . فقد اهتم لافوازييه به وحفز الأكاديمية على الاهتمام بأمره ومعاونته . وقد كثرت الطلبات على الوزراء لمعاونة هذه الهيئة العلمية العظيمة . وكانت أغلب الرسائل يحررها لافوازييه سواء أكانت مقدمة منه شخصياً أو من غيره من العلماء .

وكتبت عدة تقارير فى سنة ١٧٩٢ عن موضوعات علمية مختلفة مهرت كلها باسم لافوازييه ؛ شملت بحوثا عن تنفس الحشرات وتغذية النبات والصباغة وغير ذلك، وكانت الأكاديمية

إلى ذلك العام بمعزل عن الثورة والثوار، فلم تتدخل فى الأحداث السياسية التى هزت فرنسا. وقد فر بعض أعضائها الأشراف إلى الخارج، لكن الأكاديمية استمرت فى عملها فى هدوء، بالرغم من غيابهم، رغبة منها فى جعلها هيئة مستقلة بعيدة عن السياسة وخطوبها. بيد أن هذا الهدوء لم يدم طويلا، فقد مرت عليها سحابة معتمة، ظهر فى أول الأمر أنها بسيطة سرعان ما تتبدد ويسطع النور عليهم من جديد. لكنها على النقيض من ذلك كانت نذيراً بتقوض أركان الأكاديمية من أساسها.

ظهرت تلك السحابة فى الأفق فى شهر ابريل من ذلك العام إذ قدم فوركروى، وهو كيميائى يرغب فى التقرب من الحكومة، اقتراحا إلى الأكاديمية طالباً أن يشطب اسم كل عضو تحوم حوله شبهة معاداته للحكومة أو مناهضته للثورة، مستنداً فى ذلك إلى أن الجمعية الطبية قد فعلت ذلك من قبل. فاحتج عليه أغلب الأعضاء ودهشوا لهذا الاقتراح المفاجئ وسألوه: من يكون الحكم، وكيف يشطب اسم العضو والأكاديمية لا دخل لها بميول الأعضاء الشخصية ولا بمبادئهم؟ إنها هيئة مستقلة بعيدة

عن السياسة والأحزاب ، لكن هذا الرجل العنيد أصر على اقتراحه ولم يسحبه .

كان موقف الأكاديمية رزيناً أمام هذا الاقتراح . فلو أنها صوتت ضده لأصبحوا جميعاً موضع شك من جانب الحكومة. ولو أنهم وافقوا عليه لهدموا صرحهم العلمى بأيديهم . فلا يستطيعون قبول عضوية أحد إلا إذا كان له ميل سياسى خاص . ستنقلب الأكاديمية حزبا سياسياً جديداً . والسياسة والعلم ضدان لا يجتمعان . واستقر الرأى على أن يترك الأمر للحكومة تشطب اسم من تراه مناهضا لها . لكن الحكومة رأت بعد ذلك ألا تفصل أحدا وأن تهيئ للأكاديمية فرصة العمل على إنجاز بحوثها فى هدوء .

وليت الحال استقرت عند هذا الحد . فقد عصفت العاصفة بعنف فى فرنسا فى آخر ذلك العام وحوكم الملك . وأخذوا ينظرون إلى الأكاديمية نظرة شك وريبة ، فهى من عهد ما قبل الثورة . هى من عهد الملك ، فهى لذلك موقوفة من تلقاء نفسها .

طالب الأعضاء بالحصول على رأى المؤتمر الوطنى . وكتبوا إليه مظهرين ولاءهم للنظام الجديد ومستعرضين أعمالهم الفنية

العظيمة النفع للبلاد ، فتركهم المؤتمر وشأنهم . لكن لما طلبوا قبول عضوية أعضاء جدد بدلا ممن فروا من الأشراف أو من خرجوا للشك فى أمرهم ، لم يصرح لهم المؤتمر بذلك . كانت الأكاديمية فى يأس من أمرها فلم تعد موضع الثقة كما كانت من قبل .

حوكم الملك وتقرر إعدامه ، وهزت تلك الفاجعة القلوب فى جميع أنحاء أوربا . واقشعرت لهولها الأبدان ، والفرنسيون فى هياجهم لم يضبطوا شعورهم ، بل راحوا مندفعين فى تيار الثورة هادمين كل ما كان من عهد الملكية من معاهد . وأخذت الريبة مأخذها ، فصاروا ينظرون إلى أعضاء الأكاديمية نظرتهم إلى الأشقياء أو الخونة . ويعتبرون تركهم أحياء جريمة لا تغتفر أو خطراً يجب استئصاله .

ولم يثن ذلك من عزم لافوازييه ، فظل صامداً أمام تلك الأهوال معاونا الأكاديمية مدافعاً عن كيانها فى كل مكان . وفى خريف سنة ١٧٩٣ اشتد سوء التفاهم بين الحكومة والأكاديمية، فقد أهملت طلبات لافوازييه التى قدمها طالبا الإعانة المالية السنوية للأكاديمية . فوسط أحد أعضاء المؤتمر لدى الوزير المختص ، وبين له أن العلماء ربما رحلوا إلى بلاد أجنبية حيث

المعونة والترحيب . وبذلك تخسر فرنسا شرفاً علمياً عظيما . فواجب الحكومة والمؤتمر إبقاء الأكاديمية وإعانتها . فان هذا واجب وطني مقدس لا يقل أهمية عن الواجبات العظمى . وعينت الحكومة (لا كانال) لفحص شكوى الأكاديمية . فقرر أن مطالبهم عادلة وأنه من الخير إعانتها ، فان بعض العلماء قد ترك باريس باحثاً عن مكان آخر يستطيع الحياة فيه . وكان أول انتصار للافوازييه أن سمح له بتعيين أعضاء جدد بدلا من الفارين . ثم منحوا الإعانة بشروط خاصة . فعادت الحياة إلى الأكاديمية واستأنفت نشاطها . ودارت عجلة الزمن فاكتسحت فى طريقها كل شيء حتى ما يتصل فيها بالعلم ، وصدر قرار ثورى بتعطيل الجمعيات العلمية بأسرها فأقفلت الأكاديمية أبوابها

كان المؤتمر يسمع للافوازييه على لسان (لا كانال) فيعجبه حديثه ، ويحكم بأن الأكاديمية هيئة علمية عظيمة النفع للبلاد يجب الإبقاء عليها وإعانتها . ثم يقف عضو آخر فيصيح فيهم إنهم يشرفون على خطر جسيم من تلك الجمعية التى تضم الكثيرين من الأشراف . وهم الطبقة البغيضة إلى الجمهوريين . فيكشرون لها عن أنيابهم ويوافقون على هدمها . ما أكثر تقلب هذا المؤتمر

الوطنى ، وما أشد تأثره بخطابة الخطباء !.. كان الشك والريبة يدفعانهم إلى هدم معالم حضارتهم ، وقتل أنصار مدنيتهم. وتشريد علمائهم . وقد دفعهم الشك فى كثير من الأحايين إلى سفك دماء زملائهم . فقد قتل حوالى أربعة آلاف من زعماء الثورة أنفسهم أثناء حكم الإرهاب . فما أقسى الثورة وما أطغاها ! . .

طلبت لجنة المعارف الإبقاء على أكاديمية العلوم دون غيرها من الجمعيات العلمية على سبيل الاستثناء لما لها من فائدة كبيرة فان خدماتها للبلاد أكثر من أن تعد سواء ، للتعليم أو للصناعة أو للأداة الحكومية نفسها . وذكرت اللجنة أن الجمهورية تستطيع أن تفيد من أعضاء الأكاديمية المبرزين فى مختلف العلوم. لكن بعض أعضاء المؤتمر كانوا أعضاء فى الجمعيات العلمية الأخرى ، فلم يعجبهم ذلك الوضع قائلين إن شعارهم المساواة . فقرروا تحويل جميع نشاط الجمعيات إلى الحكومة .

ولم يدخر لافوازييه وسعاً ليعيد الحياة إلى الأكاديمية ، فقد أظهر أعضاؤها ولاءهم للحكومة بكل ما يستطيعون من الوسائل أملا فى الإبقاء على جمعيتهم . عقدت الاجتماعات لعودة الحياة إلى الأكاديمية ، وطلب الكثيرون سرعة نشر آخر أبحاثها .

وكتب لافوازييه مرة أخرى إلى لاكانال مبيناً أعمال الأكاديمية وأهميتها للمجتمع وعلى الأخص لجنة المقاييس والموازين التى صرف على أبحاثها مائة وخمسون ألفا من الجنيهات تذهب سدى إذا لم تتم أعمالها . واقترح تحويل الأكاديمية إلى جمعية حرة شعبية تعمل على تقدم العلوم ، على أن تحول جميع إعانات الأكاديمية السابقة إلى هذه الجمعية المقترحة وأن تخضع لرقابة لجنة من المؤتمر .

أخذ لاكانال يدافع مرة أخرى عن الأكاديمية فى المؤتمر فأثر على بعض زملائه الذين لا يعرفون عن العلوم شيئاً فشدوا أزره. وعاونوه على التأثير فى بقية النواب . لكنه لم يجد نصيراً ممن اشتغلوا بالعلم من زملائه . فقد كان فوركروى عضواً بالأكاديمية كما ساهم فى تقدم العلوم . فأصبح نائباً فى المؤتمر وعضواً فى لجنة المعارف العمومية . وعلى الرغم من هذا كله لم يحرك ساكنا فى سبيل نصرة العلم بمساعدة الأكاديمية . فقد كان أنانياً لا يقف إلى جانب أصدقائه عند الشدة ، إذا رأى فى ذلك خطراً على نفسه .

ترك رفاقه خوفاً من أن يصاب بأذى أو أن يتطرق إلى المؤتمر الشك فى أمره ، ففضل التخلى عنهم فى سبيل المحافظة على بقائه .

فلو أن النصر كُتب للأكاديمية لرأينا فوركروى يهرع إليهم مستأنفاً عمله معهم فى جو من الاطمئنان ، مدعياً أنه أحد مناصريهم . وقد قرر المؤتمر بعد ذلك فى الرابع عشر من شهر أغسطس أن يمنح الإذن للعلماء المشتغلين قبل ذلك ببحوث ذات فائدة عامة بالاستمرار فى أعمالهم إلى أن تصدر إليهم أوامر أخرى . وأن يستمروا فى الحصول على نفس الاعانات التى كانت تدفع لهم . واعتبر هذا القرار انتصاراً للاكانال وقضيته . ودعا لافوازييه إلى عقد اجتماع يبحث فيه الموقف الجديد . فذهبوا إلى قاعتهم بقصر اللوفر فوجدوها موصدة الأبواب وقد أنكرهم الحراس . فان المؤتمر لم يصدر الأمر بفتحها لأنه لم تكن تهمه الأكاديمية ولا العلوم . إنما كان الذى يهمه استمرار لجنة المقاييس والموازين فقط لما تسديه إليهم من معونة مباشرة .

حاول لافوازييه أن يبعث فى الأكاديمية حياة جديدة لكن دون جدوى ، فقد كتب عليها الموت ، رغم كفاحه الجبار . وأنكرت لجنة المعارف العمومية أعمال لجنة المقاييس والموازين وعينت لجنة أخرى تحت إشرافها كان أغلب أعضائها من

أعضاء اللجنة القديمة وكان لافوازييه أميناً للصندوق . والحق أنه كان رئيساً غير رسمى لها .

عز الأمر على لافوازييه فقد ولع بالأكاديمية وأعمالها . واهتم بأمرها فلم تقعده أعماله المتشعبة عن حضور جلساتها مدة خمسة وعشرين عاماً ، قام خلالها بأعمال مجيدة خالدة . فأحدث إلغاء الأكاديمية فجوة هائلة فى حياته .

لم ينس لافوازييه أعمال لاكانال الجليلة حتى فى أصعب ساعات الفشل . فقد كتب إليه شاكراً له جهوده فى سبيل إحياء العلوم . وأكد له أن الأعضاء لن يعمدوا إلى وسائل غير مشروعة ، ولن يعقدوا اجتماعاً علمياً فى شكل ناد أو ما يشبهه .

وهكذا ضاعت جهود أمة بأسرها فى سبيل تقدم العلوم . وتقوضت أركان أعظم مؤسسة علمية على يد جماعة من المغرضين والمتشككين . ولكل ثورة ضحاياها ولكل ثورة أخطاؤها . وياليت أخطاء الثورة الفرنسية وقفت عند هذا الحد .

قبض واعتقال

عانى الأهالى كثيراً من قسوة شركة تحصيل الضرائب ، فقد كانت تبتز من جيوبهم آخر سنتيم دون شفقة أو رحمة . وكان عمالها أقوياء الشكيمة ذوى طمع . وقلما سلم منهم فرنسى . وكان الناس ينظرون إلى أعضاء الشركة نظرتهم إلى قطاع طريق يسلبونهم الأموال ليعيشوا بها عيشة الترف والنعيم . يسرقون ثمرة كفاحهم فى الحياة لمتعتهم ولذائذهم. والحق أن بعض أعضاء الشركة كانوا قساة أعمتهم شهوة المال عن العدل فلم يدخروا وسعاً ليجمعوا من الشعب الأموال بنهم شديد وقسوة بالغة . بيد أن الشعب لم يفرق بين هؤلاء و بين أعضاء الشركة الأمناء الذين كانوا يقومون بواجبهم بكل إخلاص دون الالتجاء إلى ما كان يخوله لهم القانون من سجن الأهالى ، وهتك حرمة الدور بحجة تفتيشها بحثاً عن المهربات . وقد كان بين أعضاء الشركة بعض ذوى المروءة ، ومن بينهم من رقت مشاعره مثل لافوازييه ؛ الذى لم يعرف عنه قط أنه استغل منصبه لجمع أموال لا حق له

فيها . بل كان على عكس ذلك محبا للفقير وصديقاً وفياً له .

ولكن الثورة الجارفة هددت كل شيء ، فلماذا تدع هذه الشركة وشأنها وقد حانت الفرصة للانتقام منها ؟ . كالوا لها التهم جزافاً ورموا أعضاءها بالسرقة وابتزاز الأموال ووجدوا آذانا صاغية من الحكومة والمؤتمر الوطنى . فأمروا بالغائها . وأحلوا مكانها لجنة أخرى تشرف على أعمالها وتُصَفّى ما بقى من حسابها . ولم يعين لافوازييه فى هذه اللجنة .

أخذت تلك الجماعة تنظر فى أوراق الشركة وتراجعها ، ولم تكن دفاترها منظمة فتعطلت أعمالها ولم تتمكن من تصفية الشركة فى الوقت المحدد .

وغلبت الشكوك والريب على جميع النفوس ؛ فثارت ظنون أعضاء المؤتمر بهذه اللجنة ، وكانت تضم نفراً من أعضاء الشركة الملغاة . فقيل إن هؤلاء الأعضاء القدماء يحاولون تعطيل اللجنة لعلهم يجدون فسحة من الوقت يجمعون فيها ما يستطيعون من المال ، ثم يفرون خارج البلاد .

تكلم الكثيرون فى هذا الموضوع الخطير ، وكالوا التهم للأعضاء ، وقرروا القبض عليهم قبل أن يتمكنوا من الفرار .

ولم يكن لافوازييه إذ ذاك عضواً فى هذه الشركة أو فى اللجنة . بذلك كان بعيداً عن المعركة ، لكنهم لم يتركوه بل فكروا فى اعتقاله هو أيضاً . فبين لهم انقطاعه عن الشركه ثلاث سنوات. وذكرهم بأنه قائم بأعمال لجنة المقاييس والموازين ، و بيّن ما لها من نفع . وأكد لهم ولاءه . فبعد أن أغلقوا معمله أمروا ثانياً بفتحه وتفتيشه خوفاً من أن يكون وكراً من الأوكار المناهضة للثورة .

وعينت الحكومة جماعة لفحص المعمل ومحتوياته من أدوات وأوراق ورسائل، أخذت كلها وأرسلت إلى هيئة لفحصها وترجمة ما كان منها بلغة أجنبية . وخشى لافوازييه أن تؤول عبارة من العبارات تأويلاً ليس فى مصلحته ، أو أن يستغل أحد خصومه عبارة من العبارات فيفسرها بالشكل الذى يراه صالحاً لأغراضه الشيطانية . فيكون كغيره ممن ذهبوا ضحية ذلك العصر الرهيب . لذلك أصر لافوازييه على ختم جميع هـذه المضبوطات بخاتمه خشية أن تدس عليه ورقة تكون سبباً فى هلاكه . ولم يكن هناك من يأمن على نفسه فى تلك الأيام حتى الزعماء أنفسهم . فقد كان بعض الزعماء ينطقون بلسان الشعب يوما ، فينقلب الشعب عليهم و يقودهم إلى المقصلة بين عشية وضحاها . ومنهم

(مارا) الذى بدأ التهجم على لافوازييه . فقد قتل فى يوليو وتبعه دانتون فى الشهر نفسه . فحصت أوراق لافوازييه ، ومن بينها رسائل كتبت إلى بعض العلماء الأجانب مثل بريستلى ، ودقق فى فحصها ، وظهرت آخر الأمر براءته من كل ريبة ، فهو عالم موالٍ للهيئة الحاكمة . وميوله ديموقراطية ، فسمح له ثانية بفتح معمله ، والعمل فيه من جديد .

ولـكن نجم لافوازييه كان قد أخذ فى الأفول منذ تهجم عليه (مارا) الحقود . ومنذ ذلك اليوم وهو لا يستشعر طعم الراحة والسعادة والصفاء . وهل أبغض إلى النفس من رجل يكبت حقده أحد عشر عاما يتحين الفرصة السانحة ليطعن غريمه من الخلف . كان مارا رجلا فاسد الضمير ، يريد أن يرتفع بأى ثمن . حاول الشهرة على حساب العلم ففشل . ثم حاول الشهرة على حساب السياسة فخاب . ولو أن تهجمه الدنىء على لافوازييه قد رفعه إلى مصاف رجال السياسة إلا أن السياسة طوحت به إلى قاع الهاوية .

لم يمهل لافوازييه طويلا . فقد صدر الأمر بالقاء القبض عليه . وكان أعضاء المؤتمر لا يثبتون على رأى ، وينقضون فى الغد

مايقررونه اليوم . لـكن أمر القبض تأخر قليلا . فعلم به لافوازييه وأعمل فكره فيه حتى قر رأيه على الاختفاء ، أملاً فى محاولة لو نجحت أطلق سراحه مرة أخرى . كان يريد الحياة ككل إنسان فاستتر فى اللوفر عند رجل شيخ طيب القلب ، عرفه أيام أكاديمية العلوم . وجازف هذا الشيخ وقامر بحياته فى سبيل لافوازييه فأخفاه عنده ، و بقى هناك حيث وجه كتابا إلى المؤتمر يستوضح الأمر مظهراً ولاءه لهم مؤكداً رغبته فى العمل لمصلحة البلاد . وشرح فيه أنه خاضع لكل ما يقرره المؤتمر . أرسل الـكتاب إلى لجنة المعارف التى أرسلته إلى المؤتمر . فقرىء فى الجلسة الأولى فى الليلة نفسها . ولـكن أحداً من النواب لم يقل كلمة يدافع بها عن لافوازييه خشية أن يقرر الباقون إدانته هو فيعرض نفسه إلى الهلاك . قوبل كتاب لافوازييه بالصمت التام . بل إن الرئيس وكان من أخلص أصدقائه لم ينبس ببنت شفة

لم يرق هذا التصرف للافوازييه ، ولم يجد بداً من توجيه كتاب آخر إلى إدارة الأمن العام طالباً التصريح بحجزه فى داره تحت رقابة اثنين من الجمهوريين . فقد ترك الشركة منذ

ثلاثة أعوام وأموَاله تعد ضماناً لمسئولياته جميعاً . لكن لافوازييه لم يُعفَ من أمر القبض عليه بالرغم من هذين الكتابين ، فقرر تسليم نفسه إلى إدارة البوليس بعد يومين من تاريخ كتابه الأخير . فأودع في سجن (بورت ليبر) وكان يدعى (بورت رويال) وهو دير له شهرته في تاريخ الاصلاح الديني ، ثم أصبح معتقلا إبان الثورة . ولا يزال هذا البناء قائماً في باريس .

وهكذا نسى الشعب الفرنسى فضل هذا العالم الخالد الذى أنفق شبابه وثروته في سبيل العلم وأوقف حياته على العمال والفقراء . هذه هى الثورة . والثورة لا تفرق بين خير وشر . ولا تقيم وزناً لتضحية أو بذل .

في السجن

. . . . . . كان السجن يفرق بين طبقات الشعب . فلم تكن معاملة ضباطه لضيوفهم سواء . يقطن الطبقة السفلى بعض الأشراف مثل لافوازييه . وكانت الأبواب غير موصدة بأقفال متينة أو ذات قضبان من الفولاذ . ولم تكن النوافذ شديدة الإحكام ،

والسجانون لا يقفون على الأبواب . بل كانوا يسيرون فى ممرات السجن . فضعفت رقابتهم . وكان بالسجن تدفئة مركزية . لكن لافوازييه كان أسعد حظاً من غيره من السجناء ، فكان بغرفته تدفئة خاصة .

أما بقية المسجونين الفقراء فأودعوا بالطبقات العليا يعاملون فيها معاملة قاسية ، ووضعت عليهم رقابة شديدة . ولم يكن منتظراً أن تكون هناك تفرقة بين الطبقات فى السجون فى عهد الثورة ، عهد الحرية والإخاء والمساواة . وكان يشاركه فى غرفته حموه « بولز » . وقد كان السجانون يصرحون لهؤلاء الأشراف بالاجتماع فى غرفة واحدة متى شاءوا . فقد اجتمع فى غرفة لافوازييه بعض المسجونين من أعضاء شركة الضرائب ليتموا بعض الحسابات بينهم . ولم يكن للافوازييه نصيب فيها . وكثيراً ما كانوا يضايقونه فى سجنه . لكن الرجل الطيب القلب لم يشتك منهم ، بل كان يتركهم وشأنهم ليفرغ إلى مذكراته .

لم يرض لافوازييه بالكسل والخمول حتى وهو سجين . فبدأ كتابة المذكرات فى اليوم التالى لدخوله السجن . وشرع فى تصنيف مؤلف ضخم يقع فى ثمانية مجلدات عن الكيمياء الحديثة

تضم جميع أبحاثه مع الإشادة بأبحاث غيره من الكيميائيين المعاصرين.

كان المنتظر أن يجد لافوازييه سبيلا إلى الخلاص عن طريق إخوانه المطلق السراح. لكن أمراً من هذا لم يحدث. ولم يجرؤ أحد على العمل من أجل تحريره سوى زوجته التي أخذت تستنجد بمن تعرف ومن لا تعرف من أصدقائه، وقد أصبحت السلطة في أيديهم، فلم تنجح وصرح لها فقط بزيارته.

راحت تحاول أن تنقذه عن طريق العلم ودافعت عنه بكل جرأة، مشيدة بعلمه فلم تفلح. ووجدت أن هذه الوسيلة إذا خلصت زوجها فلن تخلص أباها. لم تقنط وعمدت إلى ضرب جديد من ضروب الدفاع، فصارت تدافع عن شركة تحصيل الضرائب كلها فلم يستمع أحد لها. فثارت عليهم، وبدأت الهجوم بدلا من الدفاع. هاجمت هؤلاء الذين يتهمون الشركة ويلقون القبض على أعضائها. وقالت لهم في صراحة «إنكم تقبضون على أعضاء شركة الضرائب لأنكم تريدون التهام أموالهم، ولو أنهم كانوا فقراء أو أنفقوا أموالهم ولم يبق منها شيء لعاشوا أحراراً وماتوا أبرياء». وبمثل تلك العبارات أخذت تهاجمهم

فلم يعطف عليها أحد ؛ بل زاد سخطهم عليها ، وبخاصة لأنها طعنت فى بعض من أصبح بيدهم الأمر والنهى فى البلاد .

وكانت تزور زوجها فى سجنه . فلاحظ أمارات الضعف بادية عليها فقلق عليها أكثر من قلقه على نفسه . وكتب إليها مرة يحذرها من الإجهاد مبيناً ما لاحظه عليها من وهن وضعف. ذكر أنه يخشى عليها الهزال ولما تزل فى ريعان الشباب . وأنه يأمل الخلاص من السجن فيعود إليها ، أما الصحة التى تبذلها من أجله فربما لا تعود . كان قلقه عليها عظيما ، وأمله فى النجاة كبيراً . لم يكن يعرف ما يخبئه له القدر . بيد أنه كان يتأثر ويضطرب عندما يرى بعض السجناء ممن اقترفوا جرائم هينة يساقون إلى المقصلة .

كرهت مدام لافوازييه أصدقاء زوجها لما أظهروه من عدم المروءة. فقد كان يعمل كل ما فى وسعه لمعاونتهم، وها هم ينصرفون عنه ويلتفون حول صاحب السلطان . ألم يكن فى مقدورهم أن يمدوا إليها شيئاً من المساعدة ولو من طرف خفى ؟ أليس للصداقة والزمالة حقوق ؟ ربما كان تصرفهم المنكر هذا خوفاً على أنفسهم من حكم الإرهاب .

.... وهيهات أن تجد مدام لا فوازييه من يحرك ساكناً . أو ينبس ببنت شفة . فأسقط فى يدها وصرحت بأن تبعة آلام زوجها تقع على عاتق علماء فرنسا .

بقي لافوازييه فى سجنه شهرين كاملين حتى شعرت لجنة المقاييس والموازين بحاجتها إليه وعدم استطاعتها الاستمرار فى عملها دون معاونته . فكرت وتدبرت ، ثم تجرأت ونطقت بعد صمت طويل . فطلبت من إدارة الأمن العام أن تطلق سراح لافوازييه ليعود إلى رئاسة اللجنة لاستحالة العمل بدونه . وبديهى أن اللجنة لم تكن تريد أن تخدم لافوازييه بهذا الطلب ، إنما كانت تريد الحياة لنفسها والسلامة لأعضائها. كان عند لافوازييه بعض الأدوات اللازمة لها ، فى داره بشارع مادلين . وكانت السلطة قد أمرت بإغلاق هذه الدار ، كما أغلقت قصره فى ضيعته بفرانشين .

رفض طلب لجنة المقاييس فعادت تطلب التصريح لها بفتح منزل لافوازييه للحصول على ما به من أدوات لازمة لعملها . فصرح لها بذلك وانتدب اثنان من أصدقاء لافوازييه لفتح الدار وأمر أن يؤتى بلافوازييه نفسه فجيء به محروساً ليقرر

أى الأدوات ضرورى لعمل لجنة المقاييس والموازين . ومن سخرية القدر أن فوركروى صديق لافوازييه كان ثانى اثنين أشرفا على فتح داره ، أما الأول فهو مورفو صديق لافوازييه من قبل عهد الثورة . ألم يشعرا بالحسرة والخجل لاقتحامهما هذه الدار العزيزة ، التى كانت مجمعاً للعلماء وندوة للأصدقاء ؟ ولعلك تذكر أن فوركروى هـذا هو الذى خذل لافوازييه بالمؤتمر عند ما طلب الإبقاء على الأكاديمية . وقد رفعت الأختام عن الدار مرة أخرى إجابة لطلب مدام لافوازييه ، وذلك لحاجتها إلى أوراق كانت ضرورية لـكتاب يصنفه صاحب الدار وهو سجين . وكانت تعاونه فى إنجازه . وهكذا لم يضيع لافوازييه وقته فى السجن عبثاً ، فقد كتب مؤلفه الذى طالما فكر فيه (مذكرات فى الـكيمياء) وأتم جزءين منه فى نهاية شهر ابريل وأرسلهما للطباعة ، وأشرفت زوجته على إعداده بالاشتراك مع عالم آخر يدعى ميجان .

واهتدى المؤتمر إلى فكرة عجيبة حقاً . فرأى أن يخرج أعضاء شركة الضرائب من سجنهم ويودعهم مكاتب الشركة نفسها بعد تحويلها إلى سجن ليتموا أعمالهم بها . وقد قاسوا فى سبيل ذلك

الأهوال . فلم تكن بمكاتب الشركة من وسائل الراحة ما يسمح لهم بالعيش فيها . وقد اضطر بعض الأعضاء إلى افتراش الأرض لعدم وجود الأسرة . لكنهم كانوا يشعرون بشيء من السعادة لاعتقادهم أن اجتماعهم في دار الشركة يمكنهم من إتمام تقريرهم عنها . وأن إطلاق سراحهم متوقف على فراغهم من هذا العمل . فنشطوا وشمروا عن سواعد الجد ، وكانوا يعملون عشر ساعات في اليوم في حسابات مطولة حتى أنجزوه في شهر واحد .

وشاء سوء طالعهم أن يختلف تقريرهم عن تقرير اللجنة الحكومية التي أشرفت على هذا العمل بمعاونة الموظفين السابقين بالشركة. فرأت الحكومة في ذلك سبباً جديداً لإدانتهم وتعقيد قضيتهم .

ولم يعلموا بما قررته الحكومة في شأنهم إلا عرضاً عن طريق أصدقائهم الذين كان يسمح لهم بزيارتهم . فقرروا كتابة رد على ذلك ، ولم يكن لافوازييه ممن اشتركوا في وضع التقرير إلا أن زملاءه طلبوا منه أن يساهم في رد اتهام الحكومة . وكان أعظم ما وجه إلى أعضاء الشركة من اتهام هو سرقة مائة وثلاثين مليونا من الجنيهات كان يجب أن تصل إلى خزانة الدولة ، والتأخر

فى دفع ما تستحقه الخزانة وحصولهم على فائدة قدرها عشرة فى المائة على رءوس الأموال بدلا من أربعة فى المائة ، ويضاف إلى ذلك أنهم كانوا يضيفون الماء إلى التبغ الذى يبيعونه توصلا إلى ابتزاز مال غير مشروع .

كتب لافوازييه ردا على هذه الاتهامات الخطيرة . وكان أغلب ظنه أنه يبرىء ساحتهم فى الحال . فبين أن فائدة رأس المال لم ينص عليها فى عقد الشركة مع الحكومة ، بل اتفق على مبلغ معين مع الوزير المختص ، وبين أن كمية الماء التى أضيفت إلى التبغ لم تتجاوز ما يسمح به القانون . وأكد بيانه بأرقام مستقاة من أوراق المصانع الرسمية . وقال إن إضافة الماء إلى التبغ أمر ضرورى فى الصناعة حتى لا يجف التبغ بعد خروجه من المصنع . ثم ختم ذلك بتأكيد حسن نية الشركة بقوله : « لو أن الشركة أرادت الغش والتدليس لما رفضت التبغ الردىء الذى كان يصل إلى المصانع . كما أن ثمن بيع التبغ للجمهور كان يقدر بنسبة ما تحتويه اللفائف من التبغ الجاف وليس فى ذلك حساب للماء المضاف . »

وأثر هذا الرد تأثيراً حسناً فاقتنع به الرأى العام ، كما اقتنع

المؤتمر بأن إضافة الماء لا يضر المستهلكين . وأن الشركة لم تسرف فى جمع المال لنفسها ؛ ومع ذلك فقد ظلوا فى غياهب السجون . فتدبروا الأمر فيما بينهم من أجل حريتهم . بيد أنهم أيقنوا أن الطرق السلمية لن توصلهم إلى ما يريدون ، كان شبح المقصلة ماثلا أمامهم فى كل لحظة ، فليكافحوا إذاً . ولكن أنى لهم ذلك وهم يرسفون فى القيود والأغلال ؟ . وشغل لافوازييه بمذكراته إلى شهر أبريل سنة ١٧٩٤ . ثم شرع يحضر دفاعه عن نفسه للمحاكمة التى أصبحت قاب قوسين أو أدنى . وكان عصر الإرهاب فى أعنف أدواره ، وسلاح المقصلة يلمع كل يوم عدة مرات على رقاب العباد . والناس يذبحون لجرائم أقل وزراً من غش التبغ أو ابتزاز أموال الحكومة ! .

اتفق لافوازييه مع رفاقه أن يدخروا أنفسهم للدفاع أمام محكمة الثورة . فوضع الخطة مبتدئاً بطلب شهادات من الجهات العليا ذات الشأن ، وتوصيات منهم فطلب من الهيئة الاستشارية شهادة عن أعماله العلمية النافعة للبلاد ، ولتلك الهيئة . فقبلت طلبه وكتبت إليه شهادة نفيسة عددت فيها ما قام به من اختراعات عظيمة فى عالم الكيمياء والنبات والحيوان وطبقات

الأرض . وقالت إن لافوازييه يعتبر فى نظر علماء أوربا من مفاخر فرنسا .

ولكن هذه الشهادة على قيمتها لم تحمل المؤتمر على إطلاق سراحه ، فطرق باب لجنة البارود يطلب منها شهادة أخرى . ولم يلب نداءه سوى صديقيه « كادت » و « بوميه » اللذين لم يكتبا أكثر من رأيهما الشخصى فيه .

لم يبق فى جعبة لافوازييه سوى سهم واحد يدافع به عن نفسه . فقد فشلت جهود زوجته من قبل . بقى له لسانه ينطق به أمام المحكمة مدافعاً عن نفسه بنفسه . وقد جمع لهذا الدفاع كل تاريخ حياته الحافل بالأعمال المجيدة ، دون تهويل أو مبالغة ، سواء أكان فى مجال العلم أو السياسة أو المال . وانتظر اللحظة الرهيبة ليقف فى ساحة العدالة . فهو لا يدرى أقضاته ملائكة أم شياطين ؟

النهـــاية

... وجاء اليوم الخامس من شهر مايو سنة ١٧٩٤ كئيباً محزناً ، فقد قرر المؤتمر إرسالهم جميعاً إلى محكمة الثورة . قام دو بان وأسهب فى الكلام و بالغ فى سرد التهم التى وجهت إلى شركة الضرائب . وكان من أشد مناهضيها . وهى التهم التى صورت أعضاء الشركة ظلاما للشعب نهبوا أموال الأمة . ولم يذكر شيئاً عن المذكرات المفصلة فى الرد على هذه التهم . ومن هو دوبان ؟ إنه رجل قفز إلى سلم الشهرة الرخيصة على أكتاف الثائرين فى ذلك العهد المتقلب المضطرب . وأضاف اتهاماً جديداً هو أن اللجنة التى عينت لوضع تقرير عن حالة الشركة المالية لم تقم بعملها بأمانة بل عمدت إلى تعطيل هذا التقرير رغبة منها فى إعادة الحال إلى ما كان عليه . ولم يذكر شيئاً عن أن هذا التعطيل نشأ عن مصادرة الحكومة لأموال الشركة وأوراقها مدة طويلة تعطلت اللجنة فيها عن أداء مهمتها . وكان دو بان لبقاً فى اتهاماته مؤثراً فى أدائه فلم يعارضه أحد .

علم لافوازييه بالمرسوم الصادر من المؤتمر بتقديمهم للمحاكمة ولم يكن ذلك مفاجئاً له ، فقد كان موقناً أن لا مناص من المحاكمة، فالضربة واقعة لا مفر منها . وتهيأ السجناء للانتقال إلى أحد السجون العامة ، فأخذوا يحرقون أوراقهم الخاصة ، ويودعون بعضهم بعضاً .

وخارت قواهم وضعفت عزائمهم ففكر بعضهم فى الانتحار بتناول الأفيون ، ودعوا لافوازييه إلى مشاركتهم فرفض . فلماذا ينتحر ولم يقترف إثماً ؟ ليقف أمام القضاء وليدافع عن نفسه فإن سُمع قوله و برئت ساحته ، عاش عيشة الأحرار ، و إن كانوا قساة غلاظ القلوب ، فليمت ميتة الشهداء . وقال لهم: « إننى أفضل أن أقف أمام المحكمة أدلى إليها بحجتى على أن أموت بيدى جباناً . إننى بذلك أظلم نفسى .. فالانتحار دليل قاطع على إدانتى ، وهو يعفى أعدائى من جريمة قتلى ... ! ! »

ولما أسدل الليل ستاره ، أُخذ اثنان وثلاثون رجلا من أعضاء شركة الضرائب من سجنهم المؤقت يحرسهم ثلة من الفرسان وحملة المشاعل إلى (الكونسيرجرى Conciergerie ذلك السجن البغيض الذى وصف بأنه المعبر إلى المقصلة .

ويتألف من غرف مظلمة فاسدة الهواء تسرح فيها الحشرات والهوام . قضى أغلبهم الليل فى تلك الغرف ، أما الآخرون ، وكانوا أقل بؤساً ، فقضوا الليل فى الغرفة التى سجنت بها الملكة مارى أنطوانت قبيل إعدامها . وقد كان السجن مزدحماً إلى حد كبير . ينام فيه المسجونون على الأرض . وهم يتمنون أن يجدوا مقعداً خشبياً ، لو أتيحت لهم الحياة ليلة أخرى . وهكذا انقضت الليلة الأولى . وفى الثانية أرسلت العناية الإلهية رجلا خيراً منحهم بعض الأغطية ، وأمر بتخصيص ثلاث غرف لهم ، وأسرة ينامون عليها ، وعرف المسنون منهم قدر هذه المكرمة ، وكانوا ثمانية جاوزوا الستين ، وواحداً فى الخامسة والسبعين .

وعقدت المحكمة فى اليوم التالى وهو السابع من مايو فاستجوب المذنبون شكليا كل على انفراد . وأعيدوا إلى محبسهم وهم حيارى كيف ومن أين يأتيهم الغذاء ، بعد أن صودرت أموالهم؟ أرسلت العناية الالهية رجلاً خيراً فى الليلة السابقة أراحهم فى نومهم ، وهاهو يبعث إليهم بالطعام دون أن يعرفوا من هو ومن أين أتى ؟ ؟

وكانوا يعتقدون أن الأمور تسير مسرعة ، فلا بد أنهم سيطلبون إلى المحاكمة فى الصباح ، فقضوا ليلتهم فى حيرة وقلق.

وضعفت حالتهم المعنوية ضعفاً شديداً . وكتب لافوازييه فى تلك الليلة إلى ابن عمه خطاباً مؤثراً ، قال فيه إنه ربما لا يستطيع الكتابة إليه مرة أخرى :

كانت ليلة طويلة لا يكاد يطلع فجرها . فما كاد يبزغ نور الصباح حتى أخذوا خارج السجن وفتشوا وسلبوا ما كان معهم . وبعد تفتيشهم أخذوا إلى غرفة أخرى قابلوا فيها أربعة رجال وكل إليهم أمر الدفاع عنهم .

بدأت المحاكمة فى « قاعة الحرية » ! ! . . وأحاط الشرطة بالمتهمين ، وكان المحلفون تجاراً وصناعاً ، أما الرئيس فكان يدعى كوفينال ، فى الحادية والثلاثين ، طويل القامة ممتلىء الجسم جهورى الصوت ، طويل الوجه ، أسود العينين ، عريض الحاجبين . وكان فظًّا غليظاً ، يدخل الفزع فى نفوس المتهمين ، يعاونه قاضيان . وكان المدعى العام حاضراً . واكتظت القاعة بالجماهير الصاخبة الراغبة فى التشفى من هؤلاء الأشراف المعادين للثورة . وكان الجمهور يقاطع المحاكمة بضحكات الهزء والسخرية من إجابات المتهمين ، ويجد فى ذلك لذة لا تعادلها لذة ، والرئيس يتغاضى عن سلوكهم .

ولما اتهمهم المدعى العام بأنهم قدموا بيانات مزورة عن إيراد الشركة طمعاً فى حصولهم على شروط أفضل فى السنة التى تليها . رد عليه أحد المتهمين قائلا : إن الحكومة لا الشركة هى التى حددت ثمن كل عقد . عند ذلك غضب الرئيس وصاح فيه بعنف أن يجيب بنعم أو لا فقط . إذ لا يصح له أن يناقش المحكمة.

ثم قوطعت المحاكمة بأمر إخلاء سبيل ثلاثة من المتهمين ، لأنهم كانوا أعضاء منتسبين فقط فى الشركة ولم يوقعوا عقودها ، فبذلك نجوا والمقصلة على وشك السقوط على رقابهم . ثم أطلق سراح عضو آخر بتدخل شخصى من روبسپير . فبقى ثمانية وعشرون متهما أمام المحكمة .

ثم تكلم المدعى العام فوجه بضعة أسئلة . ألقى بعدها خطاباً اتهم فيه أعضاء الشركة بأنهم نظموا سرقة الدولة ، ووصفهم بأنهم كانوا السبب فى الشرور التى حاقت بفرنسا .

وقفت هيئة الدفاع تريد الكلام ، فماذا يردون على هذه التهم ؟ وهل فى استطاعتهم أن يقاوموا هذا السيل الجارف الذى لا بد مكتسحهم مع من يدافعون عنهم . بيد أنهم أشادوا بأعمال لافوازييه المجيدة فى سبيل العلم . فما كان من الرئيس إلا

أن رد عليهم بصرخة غاضبة (إن الجمهورية ليست في حاجة إلى العلماء ! ويجب على العدالة أن تأخذ مجراها ! ! ! ..) فماذا يقول الدفاع بعد هذا ؟ بل وماذا يقول المحلفون ، أغلب الظن أنهم كونوا رأيهم قبل الجلوس على مقاعدهم .

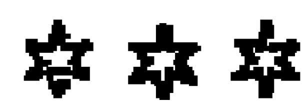
كانت المحاكمة صورية تصطنع الجد ولا نتيجة لها سوى إدانة المتهمين إرضاء للجمهور وإشباعاً للذة الانتقام فيه . وكان كوفينال محامياً يعرف القانون حق المعرفة لم يفته أن هناك نقطة ضعيفة في القضية التي أمامه . لأنه ليس من اختصاص المحكمة أن تنظر هذه القضية التي ارتكبت جرائمها قبل الثورة . ولا ينتظر الإنسان من رئيس لمحكمة مثل تلك أن يدقق في هذه الناحية . كان قاضياً ولكنه كان محتاطاً لنفسه . فلم يرغب في أن يتحمل مسئولية إرسال ثمانية وعشرين من عظماء فرنسا إلى المقصلة . لا حباً في العدالة ولا عطفاً عليهم ؛ ولكنه كان يخشى أن يتذرع خصومه بهذا فيشنوا عليه هجوماً قد يؤدي به هو أيضاً إلى المقصلة . لذلك طلب من المحلفين أن يجيبوا على السؤال التالي :

« أحقاً أن مؤامرة دبرت ضد الشعب الفرنسي لمصلحة الأعداء ، بإضافة الماء والمواد الغريبة الضارة إلى التبغ ؟

وأخذ الربا الفاحش على أموال الشركة وسرقة أموال من الشعب والدولة لمحاربة الحركات المضادة للثورة ؟ كان يجب أن تودع فى الخزانة العامة ؟

وبذلك حمى نفسه من خصومه وضمن إدانة المتهمين . فأجمع المحلفون على كلمة واحدة هى « مذنبون » .

ثم وقع كوفينال على ورقة أمامه ، وأكبر الظن أن الحكم كان مسطوراً فيها من قبل . فقضى على كليميا وديلاج وپولز ولافوازييه وأربعة وعشرين اسماً آخرين بالإعدام ، على أن ينفذ الحكم فيهم قبل مضى أربع وعشرين ساعة .



. . . . وشدت أوصال هؤلاء المساكين وألقى بهم فى العربات التى كانت تنتظرهم خارج المحكمة ، والجموع تسير من خلفهم ومن حولهم ، مصفقة مهللة تارة ، وصاخبة غاضبة تارة أخرى ، وكثيراً ما اضطر الشرطة إلى إفساح الطريق لمرور العربات . وكم من مرة أوقفت العربات ليتسنى لسكان بعض الأحياء أن يكيلوا الشتائم والإهانات لهؤلاء المساكين . . . .

وأخيراً وصلوا إلى ميدان الثورة (ميدان الكونكورد الآن) حيث نصبت المقصلة . .

شعب ثائر ينشد الأناشيد ، ومزامير ترسل نغمات الفرح والسرور . ورجال ونساء يتراقصون . ودموع تنهمر من مآقى زوجات وأمهات وأطفال . وقلوب تنفطر من الهول . ورءوس تحزها سكين تلك الآلة الجهنمية ، فتسيل الدماء من حولها كما تسيل دماء الخراف . ولكنها الثورة . . . . قسوة وجنون .

نودى الاسم الأول ولقى حتفه . ونودى الثانى فكان مصيره كالأول ، ونودى بالثالث وهو حمو لافوازييه « پولز » الشيخ الفانى الذى جاوز الخامسة والسبعين . ولم تشفع له السنون الطيبة التى قضاها .

وجاء دور الرابع فكان لافوازييه ، صعد إلى المقصلة رابط الجأش . وما هى إلا لحظة حتى كانت الثورة الفرنسية قد ارتكبت أشنع جريمة فى تاريخها ، إذ حزت المقصلة رأسه . وفصلت بذلك عن فرنسا أعظم عظمائها .

ورصت الجثث والرءوس فى سلال أرسلت إلى المقابر . وحفرت فى الأرض حفرة عميقة ألقيت فيها هذه الجثث وتلك

الرءوس الساكنة التى لم تستطع الحركة . ولعل أبلغ رثاء قيل فى لافوازييه هو ما قاله أحد أصدقائه : « لقد احتاجوا إلى لحظة قصيرة لحز رقبتك ، لكنهم لن يستطيعوا إنجاب مثلك فى مئات السنين . »

كانت وفاته حديث القوم فى كل مكان . كتبت عنه صحافة العالم . واحتجت الصحافة الأجنبية على ذلك الجرم البشع فى بلاد مختلفة .

* * *

ودارت عجلة الزمن دورات وعينت الحكومة لجنة أخرى لمراجعة أعمال الشركة أثبتت أن الأعضاء لم يبتزوا مائة وثلاثين مليوناً من الجنيهات . وقررت أن الحكومة مدينة لها بثمانية ملايين . وهكذا اتضحت براءة هؤلاء المساكين . ولكن بعد فوات الأوان . وقد سبق السيف العزل .

* * *

وهكذا أصبحت مدام لافوازييه ولا عائل لها . فلم تجد مالاً تتعيش به . فقد صودرت أموالها وأموال زوجها وأبيها . ولم تجد صديقاً تركن إلى معونته .

حاولت أن تسترد أموال زوجها وأبيها فلم تفلح ، فاستغاثت بنفر من ذوى النفوذ لدى الجمعية الوطنية . ولكن دون جدوى . وأدهى من ذلك وأمرّ ، أن إدارة الأمن العام ألقت القبض عليها بتهمة العيب فى الهيئة الحاكمة . و بقيت فى السجن شهرين ثم أمر بالإفراج عنها .

خرجت من السجن صفر اليدين . ولم تجد ما يقوم بأودها . ولم يشفق عليها أحد من أصدقاء لافوازييه . ولم يخلص لها فى محنتها الكبرى سوى بعض خدمها السابقين . وكانوا يجودون عليها بما يكسبون .

ومع ذلك فقد ظلت مدام لافوازييه فى كفاح متواصل ، وراحت تتوسل إلى الحكومة حتى استطاعت آخر الأمر استعادة أموال زوجها وأموال أبيها . ولم تنس مكافأة خدمها الذين ذكروها فى محنتها .

وعادت الحياة تبسم لها ، وفتحت دارها ، ولكن أحداً من أصدقاء لافوازييه لم يجرؤ على أن يطرق بابها . وتوطدت أواصر الصداقة بينها و بين آخرين نذكر منهم الكونت رمكورف . الذى نزل باريس ضيفاً — وهو صاحب الأبحاث العلمية

المشهورة فى الطبيعيات . وتوثقت العلاقة بينهما حتى طلب يدها عام ١٨٠٥ . ولم يكن زواجهما موفقاً ، فاتفقا على الانفصال بعد أربع سنوات من الخلاف والشقاق .

وماتت فى العاشر من شهر فبراير سنة ١٨٣٦ بالغة من العمر سبعا وثمانين سنة . وزال بموتها كل أثر للافوازييه . ولم يبق لأهل باريس شيء من ذكراه سوى سطور فى كتب الكيمياء . وعفت آثار قبره . ولو بقى لأصبح مزاراً يحج إليه الناس من جميع بقاع العالم . لكنه زال وحل مكانه حى من أكبر أحياء باريس . واكتسحت الأحداث منزله . وما زالت الأجهزة العلمية التى كان يستعملها باقية فى متحف الفنون والصناعات .

نسى الفرنسيون لافوازييه أو تناسوه وأهملوا ذكراه إلى عام ١٩٠٠ ، فقد ثابوا من غفلتهم وعرفوا قدر عالمهم الشهيد ، فأقاموا له تمثالا بالقرب من كنيسة « لامادلين » غير بعيد عن داره القديمة .

وها نحن أولاء بعد مائتى سنة من مولده نسجل قصة حياته المجيدة .

الوحـــــــدة

قديماً قال الشاعر العربى :

كونوا جميعاً يا بَنىَّ إذا اعترى
خطبٌ ولا تتـفرّقوا آحادا
تأبى الرماحُ إذا اجتمعن تكسّراً
وإذا افترقن تكسّرت أفرادا

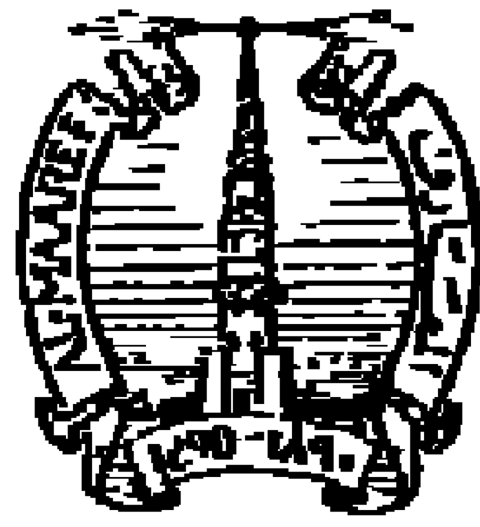
ومنذ عشرات السنين نشط زعماء الشرق العربى فى بث الدعوة إلى اتحاد البلاد العربية وتأليف جبهة متراصة تستطيع الدفاع عن حقوق العرب . . .

وفى أوائل اكتوبر (تشرين الأول) من عام ١٩٤٤ عقدتَ اللجنة التحضيرية لمؤتمر الوحدة العربية اجتماعاً

بالاسكندرية شهدته وفود البلاد العربية وخطت فيه خطوة مباركة فى سبيل الوحدة المنشودة . . .

ومما لا شك فيه أن الوحدة الثقافية هى دعامة قوية من الدعائم التى ترتكز عليها الوحدة العربية فالبلاد التى تجمع بينها أواخىُّ اللغة والتقاليد والعادات لا مَعْدَى لآدابها وفنونها وإن تفرّقت جداول عن أن تجتمع فى مصبٍّ واحد هو الثقافة العربية . . .

ومطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ما برحت منذ ٥٤ عاماً تعمل على تحقيق الوحدة الثقافية حتى أصبحت مطبوعاتها المدرسية والعلمية والأدبية تتداولها الأيدى بمصر وفى جميع الأقطار العربية . . .



مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

المحل الرئيسى بالقاهرة : ٧٠ شارع الفجالة

فرع الاسكندرية : ٢ ميدان محمد على

وكالة فلسطين وشرق الأردن : شارع مأمن الله بالقدس

ولها متعهدون ببيروت ودمشق وبغداد

اقرأ

الدكتور مصطفى عبد العزيز

محمد عبد الحميد سلامة

قصة البنسلين

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

قِصّة البنيسلين
أو
تنازع البقاء بين الكائنات

« الباحث عن ظواهر الأشياء إن مشى
إليها من طريقها القويم انتهى إلى العلم . »

جوته

الدكتور مصطفى عبد العزيز

قِصّةُ البنسلين

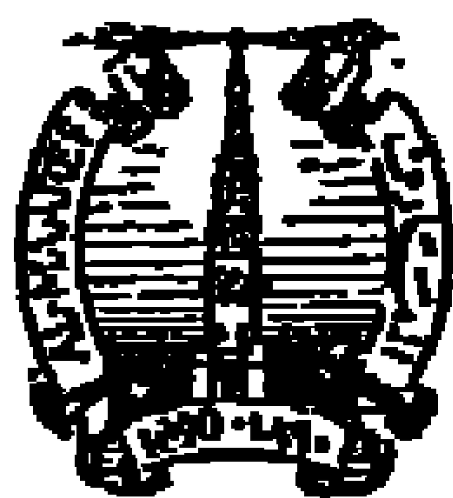
أو

تنازع البقاء بين الكائنات

اقرأ ٢٥

تصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر
بمعاونة الدكتور طه حسين بك وانطون الجميل بك
وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف

اقرأ ٢٥ — ديسمبر ١٩٤٤



١

مقـــــدمة

جرت العادة بين الناس ، خاصتهم وعامتهم ، إذا أرادوا اجتلاء محاسن الطبيعة ، أن يصفوا مرئياتها ، من تربة وسماء ، وما بينهما من فضاء ، حسب طاقتهم الحاسية ! . . . فالحواس الإنسانية الكاملة تستطيع أن تدلنا على التربة وما حوت من بذور تنبت نباتاً مزدهراً ، ومن معادن وكنوز تتخذ لها فى حياتنا اليومية فوائد متعددة متباينة . وتستطيع حواسنا أيضاً أن تدرك ما يحتويه الفضاء من هواء ، إن شاءت الأقدار جعلت منه نسيما عليلا صافياً ، أو شاءت جعلته ريحاً صرصراً . أما السماء ، فترى فى نجومها اللامعة وشمسها المشرقة ، رمز الآمال لكل مخلوق أراد أن يتأمل نعمة خالقه . . . هذه هى المرئيات التى تتناولها مراقم الأدباء ويترنم بها الشعراء ، ونحن إذا انتقلنا من عالم الأدباء والشعراء إلى عالم الباحثين والعلماء ، فإنما ننتقل من حيز المرئيات

إلى حيز المجهولات ، وهذا الحيز الأخير قد استعنا فى كشف معالمه بالآلات العلمية الدقيقة كالميكروسكوبات وغيرها لنعوض بها ما قد ينقصنا من طاقة حواسنا البشرية ، فليس الكون فى نظر العالم الباحث ذلك الكون المرئى المحدود من تربة وماء وفضاء وسماء . كلا ، فكون العالم هو كون معقد يتركب من مرئيات ومجهولات ! . . . وقد وفى الشعراء والأدباء ، خصوصاً فى بيئاتنا الشرقية ، عالم المرئيات تأملا وغزلا ووصفاً ، وأصبح عالم المجهولات ، وهو عالم البحث والتنقيب ، أحوج إلى دراستنا فى حاضر مدنيتنا ، ومستقبل نهضتنا ! . . . .

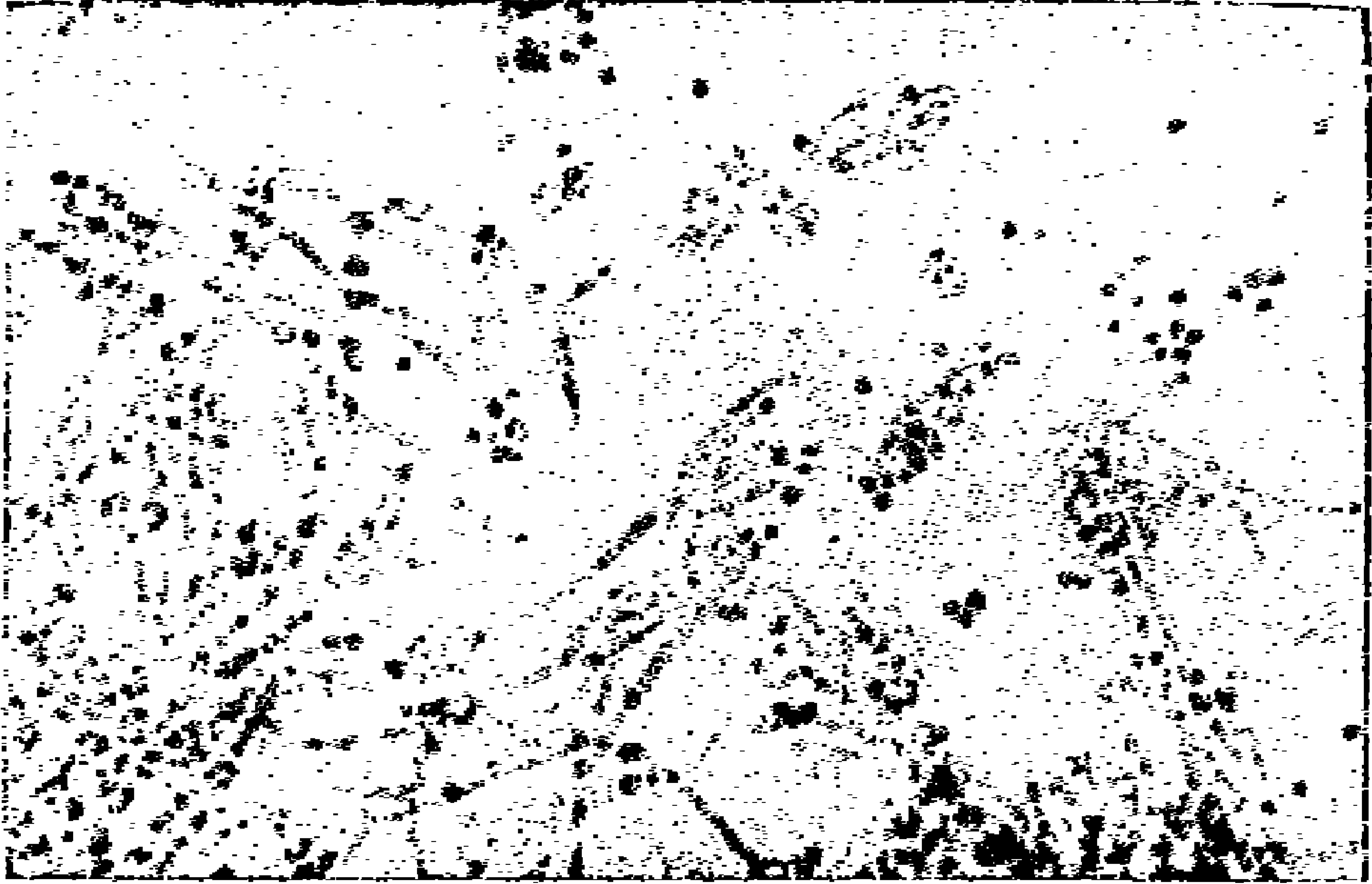
تعيش فى عالم المرئيات ، بين جزئيات التربة ونسمات الهواء ، ملايين كثيرة من الكائنات المتناثرة الدقيقة التى لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة ، والتى كان الفضل فى كشفها والوقوف على حقيقتها للحواس العلمية الدقيقة كالعدسات الضوئية وغيرها ، وهذه الكائنات تتخذ لها فى حياتها مثلا مصغراً للحياة الإنسانية ، وتخضع لنفس الناموس الطبعى الذى يضم سائر المخلوقات ، فهى تتغذى وتتناسل ، وتكافح فيما بينها ، لتحافظ على حياتها ، وتأمن غائلة منافسيها وأعدائها ! . . . وبما أن بعض هذه

الكائنات الدنيئة تتطفل على الإنسان وقد تسبب له آلاما مبرحة وأمراضاً قاتلة ، فقد عرف العلماء وسائل الكفاح التى تستخدمها الكائنات فيما بينها ، فاتخذوا بعضها سلاحا قوياً لمقاومتها ، والحد من أضرارها ، إذا قدر لها واتخذت طريقها إلى جسم الإنسان!... فالبنيسلين فى الحقيقة ما هو إلا مادة تكونها بعض الكائنات الدقيقة لتقاوم بها كائنات أخرى تعيش بين أحضانها ، لتشاركها فى غذائها ، أو لتسلبها حياتها ! . . . . فاستطاع العلماء بنافذ بصائرهم أن يتخذوا من هذه الظاهرة الحيوية سلاحاً قوياً لمحاربة الأمراض وفتك الميكروبات ! . . . وقبل الخوض فى وصف البنيسلين وخواصه ، والتوسع فى دراسة ظاهرة تنازع البقاء بين الكائنات النباتية الدنيئة على اختلاف أنواعها ، سندرس ماهية هذه الكائنات وخواصها ، فى تربتها وفى هوائها ! ....

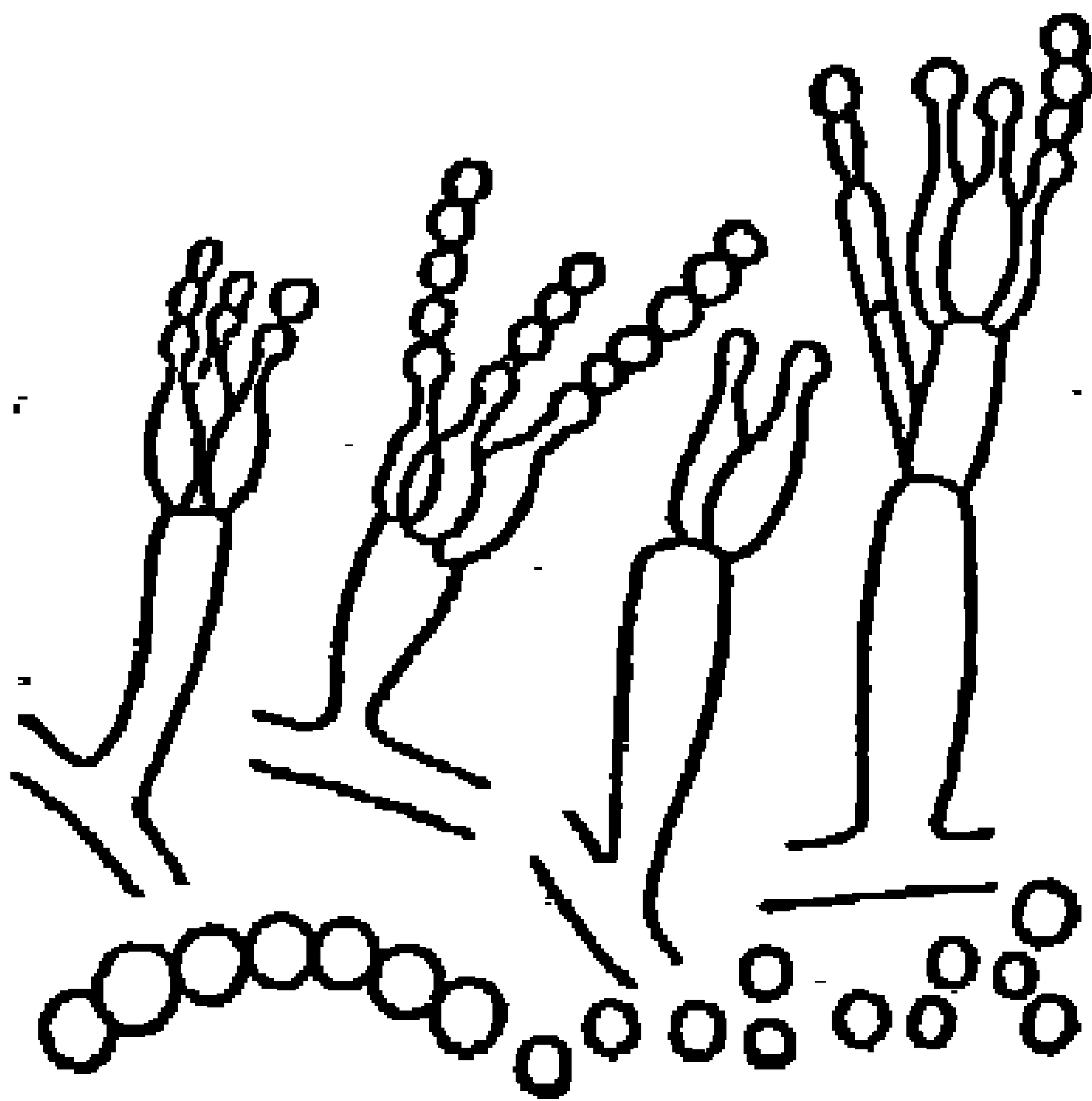
٢

كائنات التربة

تتكون التربة من جزيئات صغيرة تحتوى فيما بينها على كائنات حية تختلف فى درجة تكاثرها باختلاف كمية الغذاء ودرجة حرارة التربة ورطوبتها ، ويتغير نوع هذه الكائنات وكميتها حسب تغيير الخواص الطبيعية والكيميائية للتربة ! ... وهذه الكائنات الحية إما حيوانية كالديدان والحشرات ، وإما نباتية كالفطريات والبكتريات والطحالب ، وسيكون البحث هنا مقصوراً على الكائنات النباتية ، وقد اتخذت الفطريات حديثاً مكاناً مهماً فى عالم الطب الوقائى ، إذ أثبتت التجارب أن كثيراً منها يستطيع تحت ظروف خاصة ملائمة أن يفرز أو يكون مواد مقاومة لنمو البكتريات (الميكروبات الإنسانية) ، فالبنيسلين هو فى الحقيقة مادة مضادة لنمو الميكروبات وتكاثرها ، وتتكون فى المحاليل الغذائية نتيجة لنمو فطر يسمى « بنيسليوم نوتاتم » ، وسنرى فيما بعد أن هناك أنواعاً أخرى كثيرة من الفطريات لها



(شكل ١)



بعض أنواع الفطر « بنيسليوم »
مكبر تحت الميكروسكوب . . . .
ويرى حاملات الجراثيم التناثرية مكبرة
(إلى اليسار)

القدرة على أن تفرز فى أثناء مكافحتها البكتريات مواد مضادة لها ، تسبب موتها ، أو تقاوم نموها ! . . . . . .

٣
الفطريات

تتكون الفطريات من خيوط دقيقة ممتدة ومتشابكة ، لا يمكن رؤيتها إلا بالمجهر « الميكروسكوب » ، وهذه الخيوط ذات تجويف داخلى ، وهذا التجويف الداخلى إما مقسم بحواجز عرضية إلى جملة خلايا متجاورة ، وإما أن يكون تجويفاً مستقيما ممتدا بامتداد جسمها ! . . . والفطريات تتناسل وتتكاثر بواسطة جراثيم صغيرة ، قد أمدتها الطبيعة بقوة من المقاومة والنضال ، لتستطيع إتمام رسالتها فى الحياة تحت أسوأ الظروف . وهكذا تساهم الطبيعة فى إمداد هذه الكائنات الدقيقة بالطاقة الكفاحية الكافية لتستطيع بها أن تحافظ على جنسها وتستمر فى حياتها بين مختلف الأجواء ! . . . تتناثر هذه الجراثيم فى التربة وتنتشر فى الهواء بفضل هبوب الرياح وتيارات المياه ، والفطريات تمتص غذاءها من المواد الذائبة فى محاليل التربة

فتنتقل بذلك إلى داخل جسمها حتى تتم تكوينها ! .... وجسم الفطر ، بخلاف النباتات الأخرى ، خال من المادة الخضراء « الخضير » أو « الكلورفيل » التى تتمكن بواسطتها النباتات، على اختلاف أنواعها ودناءة مرتباتها ، أن تمتص غاز الكربونيك من الجو وتثبيته فى جسمها لتحوله إلى مواد سكرية لازمة لحياتها وإتمام نموها ! . . . . ولانعدام هذه المادة الخضراء اللازمة لغذائها اتخذت الفطريات وسائل شتى للكفاح فى الحياة ، حفظاً لكيانها وازدياد بنيانها . . . فهى تكافح للوصول إلى غذائها إما باضعاف غيرها من مختلف الكائنات أو إماتته ، أو تتخذ لها فى الحياة طريقاً أشرف وأكثر اعتدالا ، وتعيش مع الكائنات الأخرى وتبادلها المنفعة ، فتعطيها الكائنات من السكر ما يزيد عن حاجتها ، وتعطيها الفطريات بدلا عنها مواد غذائية أخرى مما يفيض عندها ، وهكذا تضرب لنا هذه الكائنات الدنيئة أحسن الأمثال ، فى مقدار تعاونها ، للتغلب على متاعب الحياة . . . .

والفطريات منتشرة انتشاراً كبيراً فى التربة ، فقد وجد أن عدد الفطريات فى جرام من التربة يتراوح بين ٤٢٠٠٠

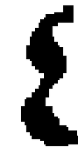
و ١٣١٠٠٠ ، وتزداد نسبة وجود الفطريات فى التربة كلما ازدادت درجة حموضتها وتقل كلما ازدادت درجة قلويتها ، وتختلف أنواع الفطريات فى تربة معينة باختلاف أنواع المواد العضوية الموجودة فيها ، فإضافة النشاد يساعد على نمو العفنيات ، وإضافه السليلوز يساعد على نمو أنواع أخرى من الفطريات لها القدرة على تحليل السليلوز ، وللفطريات تأثيران رئيسيان فى التربة ، فهى تسبب أولاً الانحلال السريع للمواد العضوية المركبة كالسليلوز وغيره ، وثانياً النقص فى كمية المواد الأزوتية غير العضوية فى التربة لامتصاصها إياها : . . فهى تلعب دوراً هاماً فى ازدياد خصوبة الأرض أو نقصها ، ومن هنا كان الكفاح شديداً بين جذور النباتات المزدهرة وفطريات التربة ، وسنتحدث فيا بعد عن بعض وسائل هذا الكفاح ! . . وما زال اسم الفطريات ، رغماً عن فوائد بعضها ، مقروناً بالأمراض التى تنشأ عنها وبالخسارة التى تسببها ، فالفطريات فى كفاحها الحيوى لاستمداد غذائها ، تصيب النبات والحيوان ، كما تتلف المواد المخزونة والأخشاب وتفسد الأطعمة ، فمن مرض البياض فى العنب إلى صدأ القمح ، ومن مرض التفحم فى الشعير إلى شلل

القطن ، كل هذه أمراض تفتك بالنباتات فتحرمنا خيرات أراضينا ، وتحول بيننا وبين ثمرات جهادنا فى إنبات أقواتنا ، وإكثار حاصلاتنا ! . . . .

ولا يقتصر وجود الفطريات على التربة ، بل هى منتشرة انتشاراً عظيما فى الهواء وفى المـاء ، وقد أجريت عدة تجارب لقياس المسافة التى تنتشر فيها فى أجواز الفضاء ، فأخذت جملة أطباق مغطاة يحتوى كل منها على المواد الغذائية الضرورية لنمو الفطريات ، وعقمت هذه الأطباق بما فيها من غذاء ، وهى على ظهر البسيطة ، تعقيماً حرارياً محكماً ، ثم أخذت على متن طائرة وعرضت للهواء على مسافات شاسعة متباعدة ، فوجد أن جراثيم هذه الفطريات منتشرة فى أجواز الفضاء على مسافات بعيدة مترامية ! . . . ومع أن هذه الفطريات تسبب للنباتات أمراضاً قاتلة ، فقد كان من فضل الله على عباده أن أمد الإنسان بسلاح طبعى يستطيع به أن يقاوم الأمراض الفطرية ، فدرجة حرارة الإنسان العادى الداخلية تقرب من ٣٧° سنتيجراد ، وبما أن الفطريات لا تستطيع عادة أن تعيش فى هذه الدرجة العالية (إذ أن درجات الحرارة الملائمة لنموها تتراوح بين ٢٠° س

و ٢٥° س) فأمكن الإنسان بفضل ارتفاع درجة حرارته عن الحرارة الملائمة لنمو الفطريات أن يتحاشى من الأمراض ما قد يزيد فى ويلات الإنسانية ! . . . . وتقتصر الأمراض الفطرية التى تصيب الإنسان على أمراض خارجية غير قاتلة كمرض القراع وبعض الأمراض الجلدية الأخرى ! . . .

مثل الفطريات فى وسائل معيشتها ، كمثل سائر الكائنات ، لها سيئاتها ولها حسناتها ، فمن سيئاتها أنها تلتهم بعض المحصولات الزراعية الاقتصادية بتطفلها عليها ، فتحرمنا ثمارها أو أليافها أو أخشابها ، وأنها دائماً مصدر إقلاق لراحتنا فى حفظ غذائنا ، وإتلاف أقواتنا ، فمن عفن الخبز والمربيات إلى اللون الأخضر المكروه الذى يصيب الفواكه فيتلف منظرها ، ويفسد رائحتها . ومن حسناتها أنها تلعب دوراً فى التربة له أهميته الزراعية فى تغذية النباتات الراقية ، ومنها ما يصيب الحشرات الضارة وينقذنا من شرها ، وكلما ازدادت الأبحاث العلمية فى دراسة الفطريات تكشفت أمام أعيننا نواح جديدة تلعب هذه الكائنات الدقيقة غير المرئية دوراً هاماً فيها ، وكثير منها يزيد فى رفاهية الإنسان ويساهم فى تقدم الإنسانية !



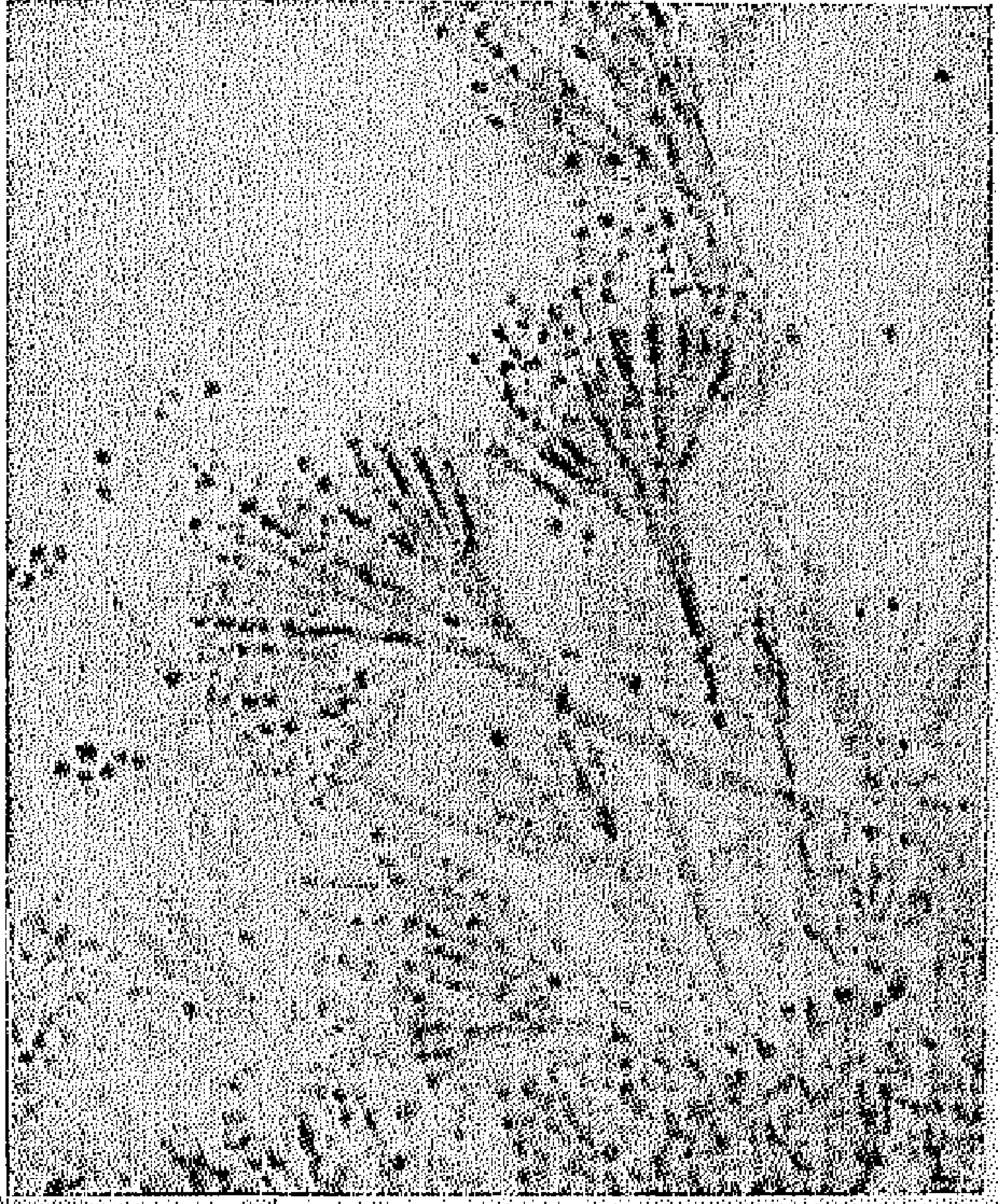
فوائد الفطريات

كانت دراسة الفطريات ، قبل اكتشاف البنيسلين ، وقفاً على نفر قليل من العلماء المختصين ، وكان لفظ فطر ثقيلاً على أسماع الكثيرين من غير المشتغلين به والباحثين فيه ! . . . تطور الزمان وتقدم بالعلم الإنسان فأصبح لفظ فطر ، وإفرازه البنيسلين ، من الكلمات الشائعة التي تتداولها الصحف اليومية والمجلات العلمية وتلوكها ألسنة الناس جميعاً عوامهم وعلمائهم ! ... ومثل الباحث فى علم الفطريات كمثل غيره من المربين ، يتعهد الكائن منذ نشأته ، يبحث فى تاريخ حياته ، وما يسببه للانسان من متاعب فيقاومها ، وما يسديه له من حسنات فيتعهدها وينميها ! . . . . فهناك نفر من العلماء قد تخصص بدراسة الأمراض الفطرية للنباتات وابتكر لها المواد الكيميائية اللازمة لمقاومتها وإبادتها. وهناك آخرون تخصصوا بعلم حفظ الأغذية ، من فواكه وخضراوات ولحوم ومربيات ، ودرسوا أحسن الوسائل العلمية ليبعدوا عنها مهاجمة الفطريات وما تسببه لها من عفونة وتلف !..

تلك بعض المتاعب التى تسببها الفطريات فيتعهدها البحث العلمى الإنسانى بالتهذيب للحد من سطوتها والإقلال من أضرارها ! . . . وبما أن هذا الحديث خاص بقصة البنيسلين ، وهو إحدى حسنات الفطريات وفوائدها ، فسيكون الكلام موجهاً إلى الإشادة بذكر الفوائد الأخرى للفطريات ، إذ جرت العادة بين الناس إذا أراد الإنسان أن يقدم كائناً من الكائنات أن يشيد بحسناته ، ويتغاضى عن سيئاته . . .

تستعمل بعض أنواع الفطريات كالعراهين « عيش الغراب » وغيرها طعاماً للانسان ، فهى الغذاء الأساسى لفقراء المناطق التى تحد بحر البلطيق وشمال شرقى روسيا . وكان الفرنسيون أول من اشتغل بزراعتها لإدخالها فى طعامهم ، وذلك لشدة شغفهم بها وميلهم الطبيعى إلى التنويع فى مواد غذائهم ! . . ومن ثم امتدت زراعتها إلى الأنحاء الأخرى من أوربا وأمريكا وآسيا ، وهى تزرع الآن فى العراء فى جنوب شرقى انجلترا ، وأصبحت زراعتها رابحة من الوجهة التجارية ! . . وكل إنسان ساعدته الظروف المواتية للاقامة فى انجلترا حيناً من الدهر ، يتذكر تلك الغابات المترامية من أشجار الصنوبر ، وقد كست بوارف ظلها ،

وتشابك أغصانها ، مساحات شاسعة من الأرض التى تراكمت عليها مياه الأمطار ، وتكدست فوقها المواد العضوية المتحللة ! ... فى مثل هذه التربة الوارفة ظلالها ، الغنية بمائها و بمواد غذائها ، تتناثر كثير من أنواع الفطريات كعيش الغراب وغيره ، وهى متعة للناظرين فى تناسق أشكالها وازدهار ألوانها ! ... وتحضرنى الآن بعض الذكريات الجميلة عن حلو مذاقها وطيِّب نكهتها ، فقد قدم لى ذات يوم فى أثناء إقامتى بانجلترا صنف من الطعام لم أتردد فى الحكم عليه بذوق الشرقى بأنه مزيج من البطاطس والكلى المحمرة ، وتكرر تقديم هذا الصنف مراراً بين آونة وأخرى مما زاد فى حيرتى لندرة اللحوم فى ذلك الوقت ! ... فإذا كانت اللحوم من الندرة بمكان فى هذا الوقت فكيف يتسنى لهم تقديم هذه الكثرة الهائلة من الكلى ، ونحن نعرف جيداً ضآلة نسبة الكلى إلى باقى اللحوم فى المواشى على اختلاف أجناسها ! ... دار بخلدى خاطران لتعليل هذه الظاهرة ، فإما أن تكون النسبة فى مصلحة الكلى فى المواشى الإنجليزية ، أو أنهم استطاعوا بفضل أبحاثهم العلمية أن يزيدوا حجمها صناعياً !... تبددت تلك الخواطر فيما بعد حينما علمت أن هذه الكلى المغرية



(شكل ٢)

نوع من أنواع الفطريات مكبر تحت الميكروسكوب . . . والفطر مكون من خيوط دقيقة تنتهي بالحاملات التناسلية . . .



(شكل ٣)

« عيش الغراب » نوع من أنواع الفطريات ! . . .

ما هى إلا الفطر « عيش الغراب » قد تفننت فى صنعه حذاقة الطاهى و براعته لتجعل منه طعاماً لذيذاً شهياً ! . . .

و يستهلك الصينيون واليابانيون كثيراً من الفطريات فى غذائهم ، وتباع نضيرة أو مجففة أو محفوظة ، وهناك فطرة تسمى « كورتينلس » محببة إلى نفوسهم ، يقيمون الحفلات المتعددة عند جمعها فى مواسم ازدهارها ، وقد ورد ذكر ذلك فى أشعارهم وفى رسومهم ، وهكذا كانت تلك الفطرة بطيب رائحتها وحلو مذاقها مثار خيال الشعراء ومحك قرائح الفنانين ! ... و ينمو الفطر «فلفاريا» كثيراً فى المناطق الاستوائية كالفلبين وجاوة ومدغشقر وغرب إفريقيا ، ولفائدته الغذائية يتسابق الأهالى فى إكثار انتشاره وتشجيع إنمائه ، فهو يزرع على المخلفات النباتية مثل قش الأرز و بقايا قصب السكر وما يتخلف من أشجار الموز وأغلفة ثمار البن وغيرها ، فتترك هذه المخلفات النباتية فى أماكن رطبة ظليلة بين الأشجار و يلقى عليها بين حين وآخر الماء المالح الناتج من غسل الأرز أو النفاية المتخلفة من عصير القصب ، وليس هناك من حاجة إلى القيام بتلقيح هذه المخلفات تلقيحاً صناعياً بالفطر ، إذ أن بقايا النباتات تكون ملوثة به ، فضلا عن

أن النمل وغيره من الحشرات المنتشرة هناك تقوم بنقل الجراثيم اللازمة ، ولما كان هذا النوع من الفطريات يكثر وجوده ويشتد إزدهاره بعد هطول الأمطار ، وما يصحبها عادة من قصف الرعد ووميض البرق ، فلذلك يسميه أهالى الفلبين « زهرة الرعد والبرق » ! . . . فازدهار هذا الفطر وتكاثره هو فى الحقيقة ثمرة يقتطفها الأهالى الآمنون بعد أن يقاسوا الكثير من غضب الطبيعة وويلاتها ، فتبدل من سكون حياتهم برقاً ورعداً ، ومن صفاء سمائهم مطراً غزيراً مدراراً ، فيه حياة لأقواتهم ، وفيه إنعاش لأرزاقهم ، وهكذا تضرب لنا الحياة أحسن الأمثال بأن لكل ظاهرة فيها فوائدها وأضرارها ! ... وتنمو الكمأة «ترفزياً» فى شمال إفريقيا وجنوب إسبانيا وفى البرتغال ، وتشاهد أحياناً فى الأسواق العامة ، وهى معروفة تمام المعرفة عند بدو مريوط ويتخذون منها غذاء عند الحاجة ، وهى تكسو أكوام السماد فى الواحات الخارجة ويسميها الأهالى هناك « طواقى الأرض » !

تلك نبذة صغيرة عن فائدة الفطريات كمادة للتموين ، فيها إشباع للبطون وفيها غذاء للآكلين ، ولم تقتصر فوائد الفطريات على قيمتها الغذائية فحسب بل تعدتها إلى قيمتها فى إنتاج

« الفيتامينات » ، فلقد أظهر العلم الحديث أن الغرض الأساسى من التغذية ليس فقط هو ملء المصارين ، بل الغرض الأسمى منه هو سد حاجات الجسم بالعناصر الضرورية المتباينة لحفظ كيانه وازدياد مقاومته للأمراض ، واكتشفت مواد غذائية هى « الفيتامينات » أثبتت التجارب المختلفة أن نقصها يسبب أعراضاً مرضية هامة ، وأحياناً قد يودى بالمريض إلى شفا الموت والهلاك ! . . . وهذه الفيتامينات موجودة بكثرة فى بعض أنواع الفواكه والخضراوات النضيرة ، وأمكن إنتاجها صناعياً بواسطة تأثير الفطريات ، كأنواع الخميرة وغيرها ، على محاليل غذائية خاصة ! . . . لم يعرف عن ماهية هذه الفيتامينات شىء إلا فى أواخر القرن السادس عشر حينما شوهدت أعراض مرض الاسكربوط ، الناتجة من سوء التغذية ، على بحارة السفن الذين كانوا يقومون برحلات طويلة ، ويعيشون طوال مدتهم على اللحوم المقددة والأطعمة المحفوظة ، إذ وجد أن هذه الفيتامينات تحتفظ بحيويتها وقوة تأثيرها وهى نضيرة ، ثم تفقد قوتها ، وتزداد سرعة تحللها، عند حفظ الأطعمة أو فى أثناء عملية الطهى ، وقد ثبت أن مرض الأسكربوط سببه نقص أحد هذه

الفيتامينات ا . . . وقد حار العلماء فى تسمية هذه الفيتامينات ، فتارة يسمونها بالحروف الهجائية المتداولة مثل فيتامين ا — ب ج — د — هـ ، ومرة يسمونها حسب وظيفة كل منها فى الجسم مثل الفيتامين الواقى من الكساح والفيتامين المضاد للبلاجرا وغيرها ! . . . . والفطريات ، وخصوصاً النوع المسمى بالخميرة ، تستطيع إذا نمت فى محاليـل غذائية خاصة أن تكون هذه الفيتامينات ، كفيتامين ب١ مثلا ، وهذا الفيتامين مضاد لبعض الأمراض العصبية ، والشلل والتشنجات ، وخلو الجسم منه يسبب للانسان إضطرابات فى القلب ، وآلاماً فى الأطراف ، وفقدان الجلد للحساسية ! . . . . والخميرة تعدّ أيضاً من أغنى المواد الحاوية لفيتامين ب٦ ، وهو الفيتامين الواقى من مرض البلاجرا ، ويسبب نقصه من الغذاء فقراً فى الدم ، واضطرابات متعددة فى المعدة والأمعاء والأعصاب ! . . . ويحضر فيتامين د أو الفيتامين الواقى من الكساح من تأثير الأشعة فوق البنفسجية فى المادة المسماة « بالأرجوستيرول » ، والتى تستخرج من الخميرة ومن فطر الجويدار ، وخلو الطعام من هذا الفيتامين يعوق نموّ العظام ويسبب تلفاً فى الأسـنان ، وأخيراً يؤدى إلى مرض

الكساح ، وهو مرض شائع بين الأطفال ، ومن أعراضه تقوس العظام ولينها ! ... وهكذا تساهم الفطريات فى إمداد الإنسان باحتياجاته من الفيتامينات الضرورية التى تساعده على أن يتخذ طريقه ليكافح فى الحياة سليما معافى ! . . . ولم تتخذ بعد دراسة تكوين الفيتامينات بواسطة الفطريات مكانها اللائق فى مجال البحث العلمى أو فى الميدان التجارى ، رغماً عن فائدتها العظمى فى مقاومة الأمراض ، فإذا كان البنيسلين ، وهو أحد خيرات الفطريات وحسناتها ، قد اتخذ طريقه فى الطب الحديث كسلاح قوى ضد الأمراض البكتيرية ، فإن الفيتامينات ، وهى أيضاً من منتجات الفطريات ومميزاتها ، قد سبقته فاتخذت طريقها كعقار طبى ناجع دون بعض الأمراض الفسيولوجية ، من جلدية وعصبية وغيرها ، والتى لم يكن للميكروبات دخل فى إحداثها !

« البنيسلين » و « الفيتامين »

إن تلك الطاقة الكامنة التى تستطيع بها الفطريات فى ظروف ملائمة أن تكون مواد مقاومة لأعدائها من البكتريات كمادة « البنيسلين » ، أو مواد تكثر من أصدقائها أو تزيد من قوة

إنمائها كالفيتامينات ، لآية من آيات الله سبحانه وتعالى ، إذ هيأ لكل هائمة فى الأرض وسائل أرزاقها وأسلحة كفاحها ، وهكذا يتم الله نعمته على الكائنات جميعاً من أرقى أنواعها إلى أدنى مرتباتها ! . . فبقوة « البنيسلين » وما شابهه من المواد تقدر الفطريات أن تبعد عنها غائلة الأعداء من الميكروبات الفتاكة ، التى قد تحرمها نعيم الحياة أو تشاركها فى لذة الغذاء ! .. و بفضل « الفيتامين » تمكنت الفطريات من أن تجذب إليها غيرها من الكائنات التى قد يكون لمعيشتها بجوارها تعاون لمواجهة متاعب الحياة ، وتآزراً لمقاومة عوامل الإبادة والهلاك ... تلك العوامل القاسية التى تحيط بهذه الكائنات الدنيئة فى مختلف بيئاتها ومتباين أطوارها ! . . وإذا كانت الفيتامينات قد اتخذها الإنسان وسيلة للكفاح فى الحياة بمصارعة الأمراض ، فقد اتخذت منها الفطريات وسيلة متشابهة لزيادة نموها واجتذاب الكائنات إلى جوارها ، ولن يستطيع الإنسان أن يتم هذه القصة المغرية من وسائل الكفاح بين الكائنات حتى تتقدم الأبحاث العلمية فى هذا المجال الحيوى الجذاب ، وحتى يكون الرأى العام الشرقى قد أصقلته الثقافة العلمية الناشئة ، وهذبته تلك النهضة

الوثابة من حب الاستطلاع ، والميل فى الاستزادة من مناهل العلوم !

اللحم الصناعى

الخمائر ، وهى أحد أنواع الفطريات ، كائنات أحادية الخلايا غالباً تنمو وتتكاثر بسرعة فائقة فى المحاليل السكرية ، ولغناء مادتها بالفيتامينات المختلفة أجريت البحوث العلمية المتعددة لاستعمالها كمادة مغذية نافعة ، تحد من سطوة الجوع بمحتوياتها ، وتقلل من فتك الأمراض بفيتاميناتها ! . . ولما كانت الحروب هى مثار عبقريات العلماء ، ومحك قرائح قادة الأبحاث ، فقد كان لها الفضل الأول فى توجيه نظر الباحثين إلى هذا العنصر الجديد من عناصر الغذاء ، إذ أن فى سهولة إنماء الخميرة وسرعة تكاثرها تكييفاً لسرعة تموين الجيوش الكثيرة المتحاربة ! .. بدأت هذه المحاولات إبان الحرب العظمى الماضية ، إذ أنقصت الحكومة الألمانية ناتج البيرة إلى ستين فى المائة من إنتاج قبل الحرب ، فتحولت معامل كثيرة للبيرة إلى مصانع لاستكثار الخميرة فقط ، فكانت تزرع الخميرة « تورلا » فى محلول مخفف جداً من العسل

فيه المواد الغذائية اللازمة ، ويمرر الهواء باستمرار فى هذا المحلول حتى لا تتكون المواد الكحولية الضارة بالصحة ، وكان ينتج من كل ١٠٠ جرام عسل ١٣٠! جرام خميرة فى خلال ثمانى ساعات ، وهذه الخميرة كانت مكملة لجرايات الخبز ! . . انتهت الحرب العظمى الماضية بآلامها وويلاتها ، ومضى العالم فى حياة الهدوء والاستقرار حيناً من الدهر قصيراً ، إذ لم يلبث أن اندلع لهيب الحرب العظمى الحالية ، وتجددت الأبحاث مرة أخرى لاستنباط المواد الغذائية الصناعيـة اللازمة لتموين الجيوش المتحاربة وسد حاجات المدنيين ! . . وقد تمكن الأمريكيون حديثاً من تحويل نوع من الخميرة إلى لحم طيب لذيذ ، كأنه لحم الذبائح التى ظلت سنتين كاملتين تكلأها عين الراعى وتتعهدها رعاية الزارع ! . . وقد بلغت سهولة صناعة هـذا « اللحم » الكيميائى المركب مبلغاً كبيراً ، جعل أولئك الذين اخترعوه يتطلعون إلى الإتيان بمعجزة جديدة ، لسد حاجات الجيوش المتحاربة فى أثناء القتال ، ولإطعام الشعوب الجائعة المنهوكة القوى بعد الحرب ! . . وهذه المادة الجديدة هى فى الواقع نوع خاص من الخميرة ، قد تعهدتها يد الباحث بإضافة روائح شتى ،

فأصبحت لا يكاد يفرق بينها و بين اللحم الطبيعى فى طعمها ، بل تفوقها فى قوة غذائها ، وتتميز عليها بغنى فيتاميناتها ! . .

وطريقة صنع هذا اللحم الصناعى هى أن يوضع ١٢٥ رطلا من الخميرة فى ٧٠٠٠ جالون من الماء ، ثم يضاف إلى هذا المحلول طن ونصف طن من العسل الأسود لاستعماله كمصدر للسكر لغذاء الخميرة ، ثم أمونيا « النشادر » الذى يتحول نتروجينها بفضل نمو الخميرة وتكاثرها إلى مواد بروتينية ، ثم يحرك المزيج جيداً لتختلط به ألف قدم مكعبة من الهواء كل دقيقة ، إذ أن نمو الخميرة فى غياب الهواء يسبب تحويل المواد السكرية إلى مواد كحولية ضارة بالصحة ، و بعد ١٢ ساعة من العملية السابقة تجد الخميرة قد نمت نمواً سريعاً ، وازداد عددها ازدياداً عظيما ، وتضاعف وزنها الأول ١٦ ضعفاً ، فأصبحت طناً من طعام طيب الرائحة ، هو ، قبل نضجه ، مسحوق جاف أسمر ، إن شاءت يد الصانع جعلت منه لحماً لذيذاً طرياً ، و إن شاءت جعلت منه جوزا شهياً ! . . ويتولى إنتاج هذا اللحم الصناعى مصنع أنهوزر بوش لصناعة البيرة بمدينة سانت لويس بولاية ميسورى الأمريكية ، وقد أقام المصنع الأدلة الكافية على أن هـذا اللحم غذاء طيب

بأن أعد وجبات من اللحم والحساء والفطائر وكذلك الجبن وكلها مصنوعة من هذا المسحوق الأسمر ، فنالت جميعها حسن القبول والاستحسان ، وتبنى الحكومة البريطانية فى جزيرة جاميكا مصنعاً كبيراً يستطيع أن يصنع ألفى طن من هذه الخميرة فى السنة !.. وهذا اللحم الصناعى فضلا عن تفوقه على اللحم الطبيعى بقوته الفيتامينية المقاومة للأمراض ، فإن مقدار ما يحتويه من المواد الغذائية الزلالية ضعف ما فى اللحم الحيوانى !.. وإذا كان ثمن الرطل من الخميرة لا يزيد على خمس ثمن الرطل من اللحم ، فقد ذهب خيال المتحمسين لهذا الاكتشاف إلى القول بأنه سيقضى قضاء مبرماً على البقية الباقية من فوائد الماشية فى المستقبل ! . .

الانزيمات الفطرية

فوائد الفطريات قصة متشابكة الأطراف ، متعاقبة الحلقات ، فلقد ابتدأنا بها كمادة لغذائنا ، ثم تدرجنا بها لتبيان قيمتها ، بفضل فيتاميناتها وبنيسلينها كعقار طبى فيه شفاء لأمراضنا ، وكان طبيعياً أن نسائل أنفسنا بعد ذلك هل تضم هـذه القصة

فصلا خاصاً بالترويح عن أعصابنا و بالترفيه عن آلامنا ! . . . ساهمت الفطريات أيضاً فى هذا المجال الحيوى ، إذا اعتبرنا أن المواد الكحولية هى احدى الوسائل المشروعة للترويح عن النفوس وطرد الهموم والأحزان . . . والمشروبات الروحية على اختلاف أنواعها وتباين تأثيرها ، ستبقى فى الحياة البشرية ما بقيت فيها همومها ومتاعبها ، مهما تعاونت الأديان السماوية المختلفة على تعداد مساوئها وأضرارها ، ومهما ازدادت ويلاتها وكثر عدد ضحاياها ! . . فهى ملاذ كل إنسان ضعيف قد رأى فى احتسائها استرواحاً لمواجهة الحياة بكفاحها ، واستجماماً لاحتمال كوارثها وأحزانها ، وكل نفس بشرية لابد أن يعتريها الضعف ويدركها الوهن ، فى وقت من الأوقات ، إذا بلتها الأيام بصدماتها . . . وقدرة الفطريات على إنتاج المواد الكحولية المختلفة تتوقف على إفراز مواد مذيبة أو إنزيمات ، وهذه الإنزيمات إما أن تكون موجودة بداخل أجسام الفطريات ، فتمكنها من تحويل المواد الغذائيــة الممتصة بداخلها إلى مواد أخرى أكثر تعقيداً تندمج فى مادتها الحيوية ، لتجعلها قادرة على تأدية مختلف وظائفها ، والاستمرار فى حياتها وتكاثرها ! . . وإما أن تكون

إنزيمات خارجية تفرزها الفطريات إلى الوسط المحيط بها لتتمكن من تكييفه لمصلحتها ، ولتحويل المواد غير القابلة للهضم إلى مواد أخرى أولية بسيطة تستطيع أن تمتصها وتستعملها فى غذائها . . . وبواسطة تلك الإنزيمات الخارجية استطاعت الفطريات أن تكافح فى الحياة وسط مختلف البيئات ومتباين الحالات ، واستطاعت أيضاً أن تتخذ طريقها وتمد ممصاتها إلى داخل انسجة النباتات المختلفة ، الحية منها والميتة ، لتمتص غذاءها ولتلتهم خيراتها ! . . وكل فطر يستطيع أن يفرز عدداً كبيراً من الإنزيمات المتباينة ، يختلف عددها وماهيتها باختلاف ظروف البيئة المحيطة به من رطوبة وماء وحرارة وغذاء ، فقد استخرج من الفطر « اسبرجلس نايجر » حوالى الثلاثين من مختلف الإنزيمات ، ومن « اسبرجلس أوريزى » حوالى تسعة عشر إنزيماً ! . . وتأثير الإنزيمات الخارجية فى تحويل المواد الغذائية المختلفة إما أن يكون فى مصلحة الفطريات النامية ، وإما أن ينتج عنه مواد كيميائية فيها ضررها أو إهلاك أعدائها ، فالبنيسلين هو فى الغالب مادة تتكون بتأثير الإنزيمات الخارجية للفطر « بينسليوم نوتاتم » فى بعض المواد التى يحتويها المحلول الغذائى ،

وهذه الإنزيمات تتخذ وقتاً طويلا لتظهر فى الوسط الخارجى وليكون لها فيه أثر كبير ظاهر .

ويغلب على الظن أن السبب الأساسى فى صعوبة تحضير البنيسلين فى وقت وجيز مناسب راجع إلى بطء توالد الإنزيمات الفطرية المختلفة فى الوسط الغذائى الخارجى ليكون لها فيه تأثير ملموس أو قوة كافية ! . . . ولقدرة هذه الإنزيمات الخارجية المختلفة على تحويل المواد الغذائية المعقدة التركيب إلى مواد أخرى أولية بسيطة سريعة الامتصاص ، استخدمت بعض الإنزيمات الفطرية كمهضمات طبية ، فيتناولها الإنسان لمكافحة الحالات العسيرة من سوء الهضم أو فى علاج بعض الأمراض !. وقبل أن يتخذ الفطر « بنيسليوم » شهرته العالمية الواسعة كمفرز لمادة « البنيسلين » ، كانت لبعض أنواعه شهرتها المحترمة بين حيز محدود من رجال الصناعة والأعمال ، لقدرتها الإنزيمية الفريدة على التأثير فى الألبان وتحويلها إلى الأنواع الفاخرة من الجبن كروكفورت وستلتون وغيرها ، ويضيق حيز هذا الكتيب عن أن يتسع لسرد سائر الفوائد الصناعية والاقتصادية الهامة للإنزيمات الفطرية ، وسنقتصر هنا على سرد جزء يسير منها

مما قد يكون فى متناول أبصارنا أو فى حدود استعمالاتنا ! . . . .

المشروبات الكحولية ، على اختلاف أنواعها ، يتوقف تحضيرها على قدرة الإنزيمات الفطرية على تحويل المواد النشوية والسكرية المختلفة إلى كحول ، وقد استغل الإنسان هذه الخاصية منذ قديم الأزل فى تحضير بعض أنواع مأكله ومشربه ، فقام قدماء المصريين والبابليون بتحضير الأنبذة من عصير الفواكه بوساطة الخميرة ، ثم تتبع أثرهم غيرهم من مختلف الأمم والشعوب ، وأصبح لكل شعب مشروب كحولى يكاد يكون خاصاً به ، فمثلا فى المكسيك يجهز مشروب « بولك » بوساطة تخمير نوع خاص من الصبار ، وهذا المشروب يماثل اللبن الحامض فى مذاقة ويستعمل كمبرد ، وهو كثير الانتشار فى هذه البلاد ! . . وهناك أيضاً شراب آخر يعرف « بتيبى » وينتج من تفاعل خميرة وبكتريا مع المحلول العسلى الناتج من عصير التين الشوكى ، وهذا الشراب له مذاق حمضى خاص ومحبب جداً إلى نفوس طبقة العمال فى هذه البلاد ! أما فى مصر فتحضر البوظة بتأثير أنواع معينة من الخمائر فى الذرة الرفيعة أو الدخن ! . . . والبيرة والوسكى يحضران من الشعير بوساطة تأثير الخميرة

« ساكاروميسيس سرفيسى » فيتحول النشاء الموجود فى الشعير إلى سكر الدكسترين ، وهذا إلى سكر الملتوز ، الذى يتحول بدوره أخيراً إلى كحول ، وفى البيرة لا تترك الخميرة وقتاً طويلاً لتنفذ مفعولها فى المحاول الغذائى حتى لا يتحول جزء كبير من الدكسترين إلى ملتوز ، وهذا الأخير يتحول بدوره ليزيد من كمية الكحول الناتجة ! . . . أما فى الوسكى وغيره من المشروبات القوية التى تحتوى على نسب كبيرة من الكحول فتترك الخميرة مدة طويلة كافية و بذلك يتحول معظم الدكسترين إلى ملتوز فتزداد بذلك نسبة الكحول فيها ! . . . أما النبيذ فيحضر نتيجة لتحويل السكر الموجود فى العنب إلى كحول بوساطة خميرة خاصة موجودة فى قشرته ، وكذلك السدر يُحضر من عصير التفاح والكمثرى بتأثير خمائر موجودة فى قشور هذه الفواكه ! . . . وأصناف العرق كثيرة ، فنى جاوة يحضر من نشاء الأرز بوساطة تأثير الإنزيمات المختلفة التى تفرزها الفطريات « رايسو بس أوريزى » و « مونيليا جافانينسيس » وغيرها من الخمائر ، وفى سيلان يحضر بتأثير الإنزيمات الفطرية المختلفة فى العصير الذى يجمع من شماريخ نخل البلح أو نخل

الدوم أو غيرهما ، وفى الهند يستخرج العصير من النخل أو الأرز أو مخلفات معامل السكر ! . . . والفطر « اسبرجلس » له قيمته الاقتصادية الكبرى فى هذا المضمار إذ بوساطة إنزيماته المختلفة أمكن تحضير مشروبات كحولية مختلفة ، ففى اليابان يحضر المشروب « ساكى » بتأثير الإنزيمات التى تفرزها بعض أنواع هذا الفطر بمعاونة بعض الخمائر ، فيتحول النشاء فى الأرز إلى سكر ثم إلى كحول ، ويحضر المشروب اليابانى « الكوجى » من تأثير بعض أنواع هذا الفطر فى فول الصويا ، وتحضر جملة أطعمة من فول الصويا (كالصلصة والجبن وغيرهما) بتأثير الإنزيمات المختلفة التى يفرزها هذا الفطر ، والمستحضرات المختلفة من فول الصويا أصبحت لها قيمتها العظيمة فى مجال علم التغذية الحديث ، إذ أثبتت التجارب الحديثة أن الرطل من دقيق الصويا يعادل فى قوته الغذائية من المواد البروتينية ما تحتويه إحدى وثلاثون بيضة ، أو جالون ونصف جالون من اللبن ، أو رطلان من اللحم الخالى من العظام ، وفيها المواد المعدنية اللازمة لطعامنا وبناء عظامنا ، وهى أيضاً ، فضلاً عن قيمتها الغذائية القوية ، مليئة بكثير من الفيتامينات المختلفة

المقاومة للأمراض كالجرب والبلاجرا وغيرها ! . . .

وللإنزيمات الفطرية ، فضلاً عن فائدتها فى تحضير المشروبات الروحية ، مميزات أخرى كثيرة فى المجال الصناعى فالكحول المستعمل فى الوقود يحضر بتأثير الخمائر المختلفة فى المواد النشوية والسكرية الموجودة فى سكر البنجر وعسله أو فى عسل القصب أو غيرها ، ويتوالد كل من غاز ثانى اكسيد الكربون والجليسرين كمواد ثانوية فى أثناء عملية التخمر الكحولى ، ويستعمل الأول فى تحضير الثلج والثانى يحضر منه النيتروجليسرين الذى يستعمل كثيراً فى المفرقعات ، والنيتروجليسرين هو سائل ثقيل شديد الانفجار ، يميل لونه إلى الإخضرار ، وهو أحد المفرقعات والمهلكات الإنسانية الحساسة جداً ، لدرجة أن نقله من مكان إلى آخر يسبب غالباً انفجاره ، وإذا امتص هذا السائل فى مادة طفلية مسامية فإن ذلك ينقص من حدته ويقلل من استعداده للانفجار ، ويسمى الناتج باسم الديناميت ، ويرجع الفضل فى ابتكار طريقة ناجحة لاستخلاص الجليسرين المتكون فى عملية التخمر الكحولى ، لاستعماله كمادة أولية فى تحضير المفرقعات والمهلكات الإنسانية ،

إلى الظروف القاسية التى مرت بها ألمانيا إبان الحرب العظمى الماضية ، فقد جرت العادة فيها بتحضير الجليسرين من الزيوت النباتية المختلفة التى كانت تنهال عليها من مستعمراتها ومختلف حلفائها ، فلما اشتد الحصار عليها وتعذرت وسائل التموين فيها ، اكتشف علماؤها إمكان تحضير الجليسرين فى أثناء عملية التخمر الكحولى ، ووجدوا أن كمية الجليسرين المتكونة يمكن ازدياد إنتاجها بازدياد درجة قلوية المحلول السكرى الذى تنمو عليه الخمائر ، فأمكن بواسطة إضافة بعض الأملاح القلوية التأثير كفوسفات ثنائى الصوديوم وخلاته وغيرها ازدياد كمية الجليسرين ازدياداً عظيماً ، وهكذا تفتق حاجة الحروب عن حيل العلماء فى اختراع المهلكات المختلفة التى تحصد أرواح إخوانهم من بنى الإنسان ! . . .

المشروبات الروحية والكحول والجليسرين وغيرها ، كل هذه مواد تجارية تدخل فى إنتاجها الفطريات ولها قيمتها الاقتصادية فى ميادين الصناعة و بين رجال المال ، وقبلة كل مشتغل بتحضير هذه المواد هى الاستكثار من إنتاجها مع الإقلال من المصاريف اللازمة لصناعتها ، فالبحث عن الفطر المناسب الذى يزيد من

سرعة إنتاجها وقوة تأثيرها هو أحد المرامى الأساسية المتعددة التى يتطلبها المنتجون ، وأحد الميادين الفسيحة التى يتردد على ساحاتها العلماء الباحثون ! . . . وميدان الصناعة ميدان فسيح الأرجاء مترامى الأطراف يتطلب جيشاً عظيما من مختلف العلماء وسائر المختصين ، والهدف الأساسى لهؤلاء جميعاً هو العمل على تقليد الطبيعة بأساليبها ، والعمل على زيادة العمليات البيولوجية النافعة فيها ، هذه العمليات الهامة التى تقوم بإدائها الفطريات والخمائر على اختلاف أنواعها ! . . . . وتدخل الفطريات فى صناعات كثيرة كصناعة تحضير أنواع متعددة من الأحماض كحمض الأكساليك والدباغيك والليمونيك ، وحمض الدباغيك له قيمته الصناعية فى تحضير الحبر وفى عمل الصباغة اللازمة للملابس ، وحمض الليمونيك يستخرج عادة من عصير الليمون ، ونحن إذا أمعنا النظر فيما وصلت إليه الليمونة المصرية ، فى بلادنا الزراعية ، إبان الحرب من مشابهتها للبرشامة الطبية فى حجمها وفى سعرها ، لتمنينا من صميم أفئدتنا إدخال تحضير حمض الليمونيك فى صناعاتنا ، ولجعلنا لهذا الفطر الذى يدخل فى إنتاجه مقامه السامى الرفيع بين أبطالنا ! . . . وتستعمل الفطريات فى صناعة

الأخشاب للنجارة كوسيلة لاكتسابها الألوان التجارية المرغوب فيها ، فخشب البلوط يكتسب لونه البنى أو الأخضر حسب نوع الفطر الذى تتلقح به هذه الأخشاب بوساطة الإنسان ! ....

تلك بعض الفوائد الأساسية للفطريات ، وهذه الكائنات الدقيقة ، المتناثرة فى التربة والمنتشرة فى الهواء ، إن لم نستطع أن نراها بأعيننا ، فلا يفوتنا أن نتلمس آثارها وأعمالها فى حياتنا ، وهناك من الظواهر اليومية المختلفة ما يقع تحت أبصارنا ولا ندع للتفكير سبيلا لتعليل مظاهرها ، أو تفهم مصادرها ، فكل إنسان يعلم مثلا أن الخبز لا بد له من خميرة لينتفخ الرغيف ويكتسب هذا الشكل المألوف لدينا ، ولكنه لا يعلم أن هذه الخميرة تحتوى على الملايين الكثيرة من الفطريات الأحادية الخلايا (الخمائر) التى تتغذى على المواد السكرية الموجودة فى العجين ، فتخرج غاز ثانى أكسيد الكربون الذى ينحبس ويتمدد بين المادة الجلوتينية (الزلالية) الموجودة فى العجين فيسبب هذا الانتفاخ المرغوب فيه ، وكل منا قد تذوق اللبن الرائب بطعمه الحمضى اللاذع ويعرف أنه يحضر من اللبن العادى بتأثير بعض الخمائر التى تنتج أحماضاً خاصة بوساطة تأثير أنزيماتها الخارجية فى المواد الغذائية

الموجودة ، وهكذا تأبى الفطريات إلا أن تثبت وجودها فى مختلف مظاهر حياتنا ومصادر غذائنا ! .... ولم تخص الفطريات بنعمها وفوائدها بنى الإنسان بل شملت بمنافعها وخيراتها سائر الحيوانات ، ففى بعض الجزائر الغربية من شيلى يأخذ الأهالى بعض الفروع المتساقطة من الأشجار ، ويعطنونها بوساطة الفطريات ، لتتحول إلى مواد غذائية لينة ولتكون للحيوانات علفاً صالحاً ، ووجد أن بعض أنواع الفطريات إذا ما اضيفت إلى التبن المندى بمحلول مخفف من أملاح النشادر نمت بقوة عظيمة وأنتجت نتاجا حسناً من المواد البروتينية ، تلك المواد التى تزيد من القوة الغذائية لهذا المخلوط وتجعل منه غذاء صالحاً للمواشى على اختلاف أنواعها ، وتستعمل بعض أنواع الخمائر كعلف فتجفف وتقدم للحيوانات لتكون لها طعاماً مستساغاً شهياً ! . . . . وهكذا تلعب هذه الكائنات النشيطة ، بفضل جهادها الذاتى أو بمعاونة العلماء دوراً كبيراً هاماً فى تخفيف آلام الإنسانية وتسهيل سبل المعيشة والأرزاق للكثيرين من بنى الإنسان والحيوان ! . . . .

كفاح

كفاح الحياة ظاهرة قديمة ولدت منذ بدء الخليقة ، فالإنسان منذ قديم الأزل يكافح أعداء كثيرين ، منهم الفقر والمرض ، ومنهم منافسوه من الآدميين ، ومفترسوه من الحيوانات والحشرات ، وقد استعان الإنسان فى أيام فطرته الأولى بقوته الجسدية واعتقاداته السحرية للتغلب على أعدائه والمحافظة على حياته ، وعند ما صقلته المعرفة وتقدمت به المدنية أخذ يكافح لحياة مستقرة ناعمة بفضل ما وهبه الله من قوة البحث وطاقة الاختراع ، فأخذ يكافح الأمراض وميكروباتها بالوسائل العلمية ، وأخذ يكافح الفقر بشتى الوسائل البدنية والعقلية ! . . . وليست ظاهرة كفاح الحياة وقفاً على المخلوقات الآدمية الراقية فحسب بل تعدتها إلى غيرها من سائر الكائنات مهما صغرت أحجامها وتدانت مراتبها ، فتلك الفوائد المتعددة التى تقدمها الفطريات ، وتغمر بأفضالها الإنسان ، من بنيسلين وفيتامين فيهما شفاء للأمراض ، ومن كحول وجليسرين ومشروبات روحية فيها منافع جمة لاستعمالاته الصناعية

ومستلزماته الغذائية ، هى فى الحقيقة سلاح من أسلحة الكفاح القوية لحياة الفطريات، ليضمن لها الإنسان غذاءها ولا يحد من حياتها ووسائل تكاثرها ، فبوساطة تلك المغريات الفطرية تكالب الناس على تربيتها ، وإمدادها بما تطلبه من مختلف الغذاء ومتباين الاحتياجات ، واستعان العلماء بأبحاثهم لكى يفصلوها من التربة والهواء ، وليبعدوا عنها أعداءها من مختلف الكائنات ، وليحفظوا لها حياتها وإكثارها فى مزارعها الصناعية فى مأمن من سائر المهلكات ! . . . وللكفاح فى الحياة وجهتان ، وجهة دفاعية وأخرى تعاونية ، فالكفاح الدفاعى هو ذلك الكفاح الذى يراد به مقاومة الأعداء ، وإفراز « البنيسلين » بوساطة الفطريات هو مثل ظاهر من أمثلة كفاحها الدفاعى لمقاومة أعدائها من الميكروبات « البكتريا » ، أما الكفاح التعاونى فتستعين فيه الكائنات بعضها ببعض لمواجهة احتياجات الحياة مكاتفة متآزرة ، ويستمر هذا الكفاح التعاونى قائماً إلا إذا طغت موجة من حب النفس والاستئثار على أحد الشريكين فجعلت التعاون أثراً بعد عين ، ولذلك فهناك نوعان من التعاون، تعاون منفعى وهو تعاون المتكافئين ، وتعاون عدائى وهو تعاون

القوى مع الضعيف ، فالتعاون المنفعى هو ذلك النوع من الحياة التى تكون مرماها المنفعة المتبادلة بين كائنين ، فيمد كل منهما الآخر بما علك من فوائد ومميزات ليمكن شريكه من أن يتخذ طريقه فى الحياة قوياً ناجحاً ، أما التعاون العدائى فهو ذلك النوع من الحياة المشتركة التى تكون لحمتها حب النفس وسداها الأنانية ، فيستغل الكائن القوى شريكه الضعيف بسلبه غذاءه وإضعاف بنيانه ، ليستطيع هو أن يعيش معززاً مكرماً ، وهذا التعاون الأخير هو فى الحقيقة نوع من ألوان السخرة والعبودية ، والتعاون بين الإنسان والفطريات أقرب إلى النوع المنفعى منه إلى النوع العدائى !.. ولا تستطيع الفطريات على اختلاف أنواعها أن تعيش مستقلة بذاتها، نظراً إلى خلوها من مادة الخضير «الكلوروفيل» التى تمكنها من امتصاص غاز الكربونيك من الجو وتثبيته لتكوين المواد السكرية اللازمة لغذائها ، فلذلك إما أن تعيش على بقايا النباتات والحيوانات الميتة أو متطفلة على غيرها من الكائنات الحية ، وهذا التطفل هو فى الحقيقة نوع من التعاون العدائى !. . . ولكن هناك أنواع من فطريات التربة تعيش مع جذور النباتات الراقية معيشة تعاون منفعي، وهذا التعاون يعرف «بالجذر فطريات»

٥

البكتريا أو « الميكروبات »

البكتريا أو الميكروبات هى كائنات تفزع النفس وتضطرب الأعصاب لمجرد ذكرها ، لأن منها أنواعا تفتك بالإنسان وتودى بحياته ، فكم من عزيز لدينا فتك به ميكروب السل فأصبح تحت الثرى أثراً مطوياً ، وكم من حبيب قضت عليه ميكروبات التيفود والدفتريا وغيرها فأمسى فى قبره نسياً منسياً ! . وهكذا كان النزاع شديداً مستمراً بين الإنسان وهذه الكائنات المؤذية منذ قديم الزمان ، وما زالت تلك الحرب الضروس قائمة ، يتجدد سعيرها بتجدد نشاط تلك الميكروبات وأضرارها ! . . وهذه البكتريات أو الميكروبات أحياء واسعة الانتشار لا يكاد يخلو منها مكان ، إذ تبلدت لمختلف الأوساط ومتباين الأوطان .. تخللت التربة وطارت فى الهواء ، وتسللت إلى الرمم العفنة وسبحت فى الماء ، ومنها ما يقتحم الأجسام الحية فيبدل من بعد قوتها ضعفا وهزالا ، ومن بعد راحتها مرضا وآلاما ، ومنها ما يندس فى المأكل والمشرب فيجعل منها مصدراً غنيا لمختلف الحميات

وشر الأوبئة ! . . وقد يتناسى الإنسان وسط هذا المدد الكثير من مصائب البكتريات من أن يتبين بعض فوائدها ومزاياها ، فإن منها مالا غنى للنبات ولا للإنسان عنه ، ومنها ما هو أنفع للإنسان من الكثير من عدده وآلاته ! . .

والبكتريا أو الميكروبات كائنات تتميز بصغر أجسامها ودقة تركيبها ، ولا يمكن رؤيتها إلا بأقوى العدسات وأحكم الميكروسكوبات ، وأفرادها تتباين فى أحجامها وفى أشكالها ، فمنها ما يشبه لفافة التبغ ومنها ما يتخذ شكلا كرويا أو حلزونياً ، وتتكاثر هذه الكائنات بسرعة فائقة ، فمثلا ينقسم ميكروب الكوليرا فى الظروف الملائمة إلى قسمين وينتج الفرد فردين فى مدة عشرين دقيقة ، فلو فرض واستمر هذا النشاط السريع من جيل إلى جيل لأنتج الفرد الواحد حوالى مائة طن من مادة البكتريا خلال أربع وعشرين ساعة ، وإنه لمن نعم الله الوافرة أن لم يتح لهذا التكاثر السريع الظروف المواتية ، فهناك من الحالات الطبيعية ما تحد من سرعة تكاثرها ، وهناك من الكائنات المتجاورة ما تعمل على وقف نموها وتناسلها ! . . . لأن بعض أنواع من الحيوانات الدنيئة كالبروتوزوا وغيرها تعمل

على إقلال عدد الميكروبات بالتهامها لغذائها ، وهناك الفطريات التى تزاحم الميكروبات فى هوائها وفى أرضها ، وتعمل على إهلاكها بما تفرزه من المواد المقاومة لنموها كالبنيسيلين وغيره ! .

فوائد البكتريا

تلعب البكتريا أو الميكروبات دوراً هاماً فى تكييف التربة الزراعية لنمو النباتات المختلفة والمحاصيل المتنوعة ، ولما كان الأزوت من المواد الضرورية اللازمة لصلاحية التربة للزراعة ، فقد كان لهذه الكائنات شأن كبير فى ازدياد كمية الأزوت ، فبعضها تستطيع أن تمتص غاز الأزوت الموجود فى الهواء وتثبته فى أجسامها لاستغلاله فى غذائها ، وعند ما يدور الزمن دورته ، وتموت هذه الكائنات ، تنطلق محتوياتها إلى التربة وتتحلل أجزاؤها لتنضم إلى غيرها من البقايا العضوية المتخلفة ، فتزداد بذلك المواد الازوتية فى الأرض الزراعية ! . . . وهناك أنواع أخرى من بكتريا التعفن ، تعيش فى التربة ، وتستطيع أن تحول المواد العضوية الزلالية المعقدة إلى مواد أخرى بسيطة تمتصها النباتات لغذائها ، ولما كان عنصر الأزوت موجوداً فى المواد

العضوية المركبة بحالة لا يتمكن بها النبات الأخضر من استعماله استعمالا مباشراً ، فقد كانت هذه البكتريات واسطة نافعة لاستخلاص هذا العنصر الأساسى من مركباته المعقدة غير الفعالة وتحويله إلى مواد بسيطة أولية . . . فالتربة الزراعية تتراكم عليها بمضى الزمان أكوام مكدسة من بقايا النباتات الميتة ، ومخلفات الحيوانات المتعفنة ، وهذه المواد غنية بموادها الأزوتية التى لا تستطيع النباتات استعمالها فى حالتها العضوية المعقدة ، وهذه المواد إذا تركت وشأنها لتراكمت على وجه البسيطة ، وأصبحت بعد حين منبعاً للروائح الكريهة ، ومصدراً لمختلف الأوبئة والأمراض ، ولكن تلعب البكتريات والفطريات دورها الحيوى فى التخلص من هذه المواد وتحويلها إلى ما فيه سعادة الإنسان ورفاهيته ! . . فالبكتريات والفطريات تستطيع بما تحتويه من طاقاتها الإنزيمية المتباينة ، أن تؤثر فى المواد العضوية الزلالية الموجودة فى التربة وتحولها إلى نشادر ، ولما كانت النباتات الخضراء لا تستطيع أن تستخلص الأزوت من أملاح النشادر ، فقد وجدت أنواع أخرى من البكتريا لها القدرة على أكسدة أملاح النشادر ، وتحويلها أولاً إلى أملاح الأزوتيت ثم أملاح

الأزوتات ، وهذه الأخيرة تمتصها النباتات بسهولة لسد حاجاتها الأزوتية ، فلولا وجود هذه الأنواع الخاصة النافعة من البكتريات لذهب النشادر هباء منثوراً بين أجواز الفضاء ، ولما استطاعت النباتات من الاستفادة به فى تركيب أجسامها وازدياد بنيانها ! .

وتمتاز أنواع من البكتريات باتباعها حياة تعاونية منفعية مع جذور نباتات العائلة البقولية كالفول والبرسيم وغيرها ، فتوجد على جذور هذه النباتات عقد بكتيرية ، وهذه البكتريا لها القدرة على تثبيت الأزوت الجوى ، و إمداد النبات باحتياجاته الأزوتية اللازمة ، فلا يحتاج الفلاح لتسميد هذه النباتات إلى سماد أزوتى كما يفعل مع غيرها من الحاصلات ، وعند ما يأتى وقت الحصاد تتفتت جذور النباتات البقولية بين ذرات التربة ، فتنطلق المادة البكتيرية والخلايا الجذرية إلى الأرض الزراعية لتزيد من قوة خصوبتها ومقدار محتوياتها الآزوتية ، وقد كانت هذه الظاهرة سبباً من أهم الأسباب فى توجيه نظر الحكومات إلى تحتيم نظام الدورات الزراعية ، والغرض من ذلك عدم اضعاف التربة الزراعية بانتزاع محتوياتها الأزوتية انتزاعاً مستمراً ، فهناك مثلا نباتات مثل القمح والذرة والقطن وغيرها تستنفد مقادير كبيرة من المواد

الأزوتية عند انمائها ، فالدورة الزراعية تحتم على الفلاح أن يتبع هذه المحاصيل بأخذ النباتات البقولية لتعوض للأرض بعض ما استنفدته من المواد الأزوتية ، وحتى لا تزداد فقراً على فقر فى هذه المواد الأساسية إذا ثابر الفلاح على زراعتها بنوع واحد من الحاصلات المغرية ، إذ أن الزارع يجعل نصب عينيه دائماً المصلحة المادية فى إنبات محاصيله واستغلالها ، قبل النظر إلى منفعة أرضه!..

وقد استغل الإنسان نشاط البكتريا النافعة استغلالاً صناعياً فى تحضير الكثير من احتياجاته الغذائية ، فهذه الكائنات تدخل فى كثير من عمليات التخمير والتخليل ، وفى صناعة أنواع مختلفة من الجبن واللبن الزبادى والخل وغيرها ، فما اللبن الزبادى وما على شاكلته من الألبان إلا مزارع بكتيرية غنية بميكروباتها المفيدة ، ولقد كان لقدرة هذه الميكروبات النافعة على إنتاج مختلف الأحماض من الألبان شأن ملحوظ فى حفظ صحتنا وعدم تعرضنا للأمراض ، فهذه الأحماض تنطلق إلى المعدة والأمعاء فتبيد ما فيها من ميكروبات التعفن وتجعل من الجهاز الهضمى للإنسان وسطاً رديئاً غير صالح لنمو الميكروبات المؤذية وتكاثرها ، ويقال إن نسبة المعمرين فوق المائة فى بلغاريا أكثر

منه فى أى مملكة أخرى ، وذلك لأن طبقات الشعب تتغذى كثيراً بالياغورت (اللبن الزبادى) ، وهذا قد يقيها غائلة الموت المبكر بما يحتويه من بكتريات نافعة وأحماض مضادة لمختلف الميكروبات القاتلة ! . . .

صراع

الميكروبات ، مهما تعددت منافعها ومزاياها ، ستبقى على مَرّ الدهر وتعاقب الأجيال أشد أعداء الإنسانية فتكاً للنفوس وأقساها حصداً للأرواح ، وسيردد الإنسان ويلاتها كلما مرت بخاطره ذكريات غابرة ، من حبيب اختطفه الموت بعد اعتدائها ، أو عزيز طواه الثرى بفضل تأثيرها ! . . . وقد كان القدماء إذا ما اعترت أحدهم إحدى الحميات ، وانتابته سكرات الموت ، عزوا ذلك إلى أحد الشياطين التى شاءت أن تختار المريض من بين سائر الناس لتجعل منه فريسة لأهوائها ، وضحية لاعتدائها . . . تخيل هؤلاء الناس هذا الشيطان مارداً من المردة الطغاة أو عملاقاً قوياً ضخماً تقشعر لرؤيته الأبدان ، وهكذا كانت صورة شيطان الأمراض فى نظر الإنسان الأول إبان أيام

فطرته وماضى جهله وظلماته ! ... تقدمت العلوم وارتقت المدنية فبدا للإنسان شيطان المرض على صورته الحقيقية ، فإذا هو كائن من أبسط الكائنات وأدناها ، ومخلوق من أصغر المخلوقات التى لا تراها العين المجردة ، وتعجز الحواس البشرية ، على متباين قوتها ومداها ، عن أن تميز هذا الشيطان الدقيق وهو يتأرجح فى نشاطه بين ذرات التربة ونسمات الهواء . ولو كانت هذه الكائنات المؤذية شياطين قساة ، فى أحجام المردة أو ناطحات السحاب ، لما استطاعت بنشاطها وتكاثرها أن تغشى هذه الملايين الكثيرة من الأجسام الإنسانية وتحصد هذه الألوف المؤلفة من الأرواح البشرية ، بمثل هذه السرعة الفائقة التى تقوم بها الميكروبات، فإن شبه الأقدمون الميكروبات بالشياطين فى أضرارها وأذاها ، فإنها تفوقها فى قوة تأثيرها وفى مقدار ضحاياها ! . . .

وحياة الميكروبات حياة صعبة قاسية ، فهى تصارع الطبيعة والكائنات والإنسان فى سلسلة متواصلة من الكفاح المرير فى سبيل حفظ حياتها ! . . . أما الطبيعة فتكثر من ازدياد عدد الميكروبات أو تحد من انتشارها حسب تغير عواملها المختلفة من حرارة ورطوبة وغيرها ، وقد تبلدت غالبية الميكروبات

بإنتاج جراثيم خاصة تستطيع بها أن تساير الظروف المؤذية ... وهكذا تنكمش الميكروبات داخل جراثيمها حتى تتهيأ لها الظروف الطبيعية المواتية فتستعيد قوتها لاستمرار نموها وازدياد انتشارها، ولهذا كانت الأمراض البكتيرية، كالتيفود والدفتريا وغيرهما، يتضاعف تأثيرها بانتشار فصل الصيف حيث تكون درجة الحرارة مناسبة لتكاثرها واعتدائها! . . .

والصراع بين الميكروبات والفطريات صراع مستمر متبادل، فكلاهما تجمعهما نقيصة واحدة هي عدم وجود المادة الخضراء المعروفة الملونة للنبات «الخضير» أو «الكلوروفيل»، فلا بد لإشباع احتياجاتهما إلى المواد السكرية والنشوية من أن ينهجا منهجاً خاصاً في وسائل معيشتهما، فإما أن يتبعا حياة طفيلية مع غيرهما من الكائنات الحية، وإما أن يعيشا حياة رمية على المواد العضوية المتخلفة من بقايا النباتات والحيوانات الميتة، وكان ذلك التنافس الشديد على استنفاد مصدر غذائي مشترك سبباً مباشراً في أن يتلمس كل منهما للآخر وسائل إهلاكه . . . . فالبنيسلين وما شابهه من المواد هو أحد أمثلة الكفاح التي تتخذها الفطريات ضد الميكروبات للحد من سرعة تكاثرها

وازدياد عددها ، ولم تقف البكتريا إزاء هذا السلاح العدائى مكتوفة اليدين ، بل اتخذ بعضها طرقاً مختلفة إما لإبطال تأثير المواد الفطرية المقاومة لنموها ، و إما بتغيير الوسط الغذائى الذى تعيش فيه تغييراً شاملا منغصاً لحياة الفطريات المتجاورة ! . . .
فإن من أشد العقبات فى تحضير مادة « البنيسلين » تحضيراً تجاريًا بكميات متوافرة هو ذلك الدور المضاد الذى تلعبه بعض الميكروبات الهوائية فى العمل على إزالة تأثيره و إبطال مفعوله ، فتتخذ هذه الميكروبات طريقها إلى المحلول الذى يحتوى « البنيسلين » ثم تطلق عليه عدداً من إنزيماتها الخارجية لتحوله إلى مادة أخرى ليس فيها ضررها أو إهلاكها ! . . .
وتعيش فى الأمعاء الغليظة للإنسان أنواع كثيرة من الميكروبات المفيدة التى تساعده على التخلص من المواد المتحللة القابلة للتعفن . وهذه الميكروبات تفرز أيضاً مواد إنزيمية خاصة تبطل عمل البنيسلين وتقاوم تأثيره ، وكان ذلك من العقبات الهامة فى استعمال البنيسلين كمادة مضادة للميكروبات المؤذية التى تعيش داخل المعدة والأمعاء وتسبب الأمراض ، فإن هناك طريقين ممكنين لإيصال هذه المادة إلى هذه الأجزاء ، إما عن طريق

الفم أو بوساطة حقنة شرجية ، أما عن الطريق الأول فقد وجد أن العصارة المعدية تحتوى على مواد حمضية تفسد عمل البنيسلين وتحد من تأثيره المضاد للبكتريا ، وأما عن الطريق الآخر ، طريق الأمعاء الغليظة ، فهناك هذا الصراع العنيف الذى تحارب به الميكروبات المعوية غريمها من الإفرازات الفطرية ! . . .

ولا يقتصر الصراع بين الميكروبات والفطريات على استنباط الوسائل اللازمة لإبطال تأثير إفرازاتها المضادة لنموها ، بل إن هناك أنواعا من الميكروبات لها القدرة على إفراز مواد لها تأثير قاتل ضار فى كثير من الفطريات فتقف من نموها أو تحد من ازدياد عددها ، كما أن هناك أنواعا أخرى تستطيع بفعل نموها أن تغير الوسط الذى تعيش فيه تغييرا مضراً بحياة الفطريات ، وقد اتخذ العلماء الأمريكيون من هذه الظاهرة سلاحا قوياً لمحاربة بعض الأمراض الفطرية الخطيرة التى تصيب النباتات ، فقد وجد أن بعض البكتريات إذا نمت فى تربة غنية بموادها الكبريتية أكسدتها لتنتج حامضاً قوياً هو حامض الكبريتيك ، وتراكم هذا الحامض يزيد من درجة حمضية التربة الزراعية فيجعلها غير صالحة لحياة الفطر الذى يسبب مرض جرب

البطاطس !... وتمكنوا من استئصال شأفة المرض بوساطة معالجة الأرض ، المزروعة بالبطاطس ، بإضافة المواد الكبريتية اللازمة لتشجيع نمو الميكروبات النافعة لتنتج أحماضا تبيد الآفة الفطرية المؤذية ، وبذلك أمكن إنقاذ محصول البطاطس من الآفات بفضل ذلك الصراع المستمر بين الكائنات ، من ميكروبات وفطريات ! . . .

والصراع بين الإنسان والميكروبات صراع مستمر متواصل ، لأنه صراع بين الحياة والممات ، وهو أشد أنواع الكفاح بأساً وأعظمها أثراً ، ويتخذ هذا الصراع مظاهر متعددة ، بعضها نعم أسبغها الله سبحانه وتعالى على الإنسان ليقاوم بها أعداءه من الميكروبات القاتلة ، وبعضها وسائل وقائية صناعية ابتكرها العلماء ليحاكوا بها تلك المعجزة الربانية ، فهناك نوعان من المناعة ، مناعة طبيعية وأخرى مكتسبة .

المناعة الطبيعية هى تلك التكييفات الخاصة التى يتمكن بها الجسم الإنسانى من مقاومة أعدائه من الميكروبات ، وهى غالباً مناعة ضعيفة يزول تأثيرها إذا زادت الميكروبات من قوة سمومها أو تكاثر عدد أفرادها ، وتختلف قوة هذه المناعة باختلاف

عوامل كثيرة ، منها اختلاف السن والأشخاص وتباين الشعوب والألوان ، فقد وجد أن بعض الشعوب كاليهود مثلا لديهم مناعة طبيعية أكثر من غيرهم لمقاومة مرض السل ، وبعكس ذلك فإن السودانيين فى مصر هم أكثر الأجناس قابلية لذلك المرض، وليس مثار هذه التفرقة فى مناعة الأجسام هو استظراف ميكروبات السل لدماء إخواننا السودانيين واستثقالها لدماء مواطنينا من بنى اسرائيل ، بل ترجع تلك التفرقة فى المعاملة على الأرجح إلى وسائل الصراع الناجحة التى تنتهجها بعض الشعوب فى العمل على سلامة أفرادها وحفظ كيانها ، فتتبع فى حياتها نظاما صحياً خاصاً يكفل لها مقاومة بعض الأمراض المعدية، فتكتسب أجسامهم بمرور الزمان المناعة الكافية لمكافحة الميكروبات، وتصبح هذه المزايا الصحية صفات مكتسبة يتوارثها الأحفاد عن الأجداد ! ... والمناعة الطبيعية ضد الأمراض هى صفة إنسانية تختلف فى قوتها باختلاف الأشخاص وتخضع فى انتقالها من الآباء للأبناء لقوانين الوراثة المعروفة ، ولذلك كانت القوانين المدنية التى استنتها بعض الأمم الراقية للتحقق من سلامة الأشخاص قبل الزواج من أنجع السبل لتنشىء لوطنها جيلا صحيحاً

ناجحا !... والأطفال يكونون عادة أكثر مقاومة للأمراض إبان ولادتهم ومدة رضاعتهم ، فيندر أن يصاب الطفل الرضيع فى الستة الأشهر الأولى من حياته بأحد الأمراض المعدية ، وقد أمكن تفسير هذه الظاهرة بأن دم الطفل قد يحتوى مواد مضادة للميكروبات وسمومها قد اكتسبها من دم أمه أو لبنها ، وهكذا يهيىء الله لهذه المخلوقات الناشئة الضعيفة وسائل مقاومتها وكفاحها ، ليستطيعوا بها مواجهة باكورة الحياة بمحاسنها وأضرارها ...

ويجدر بنا إذا أردنا إدراك ماهية هذه المناعة الطبيعية أن نتتبع حياة هذه الميكروبات منذ ابتدائها ساعية لأرزاقها بين ذرات التربة وأجواز الفضاء ، باحثة عن غذائها فى الأجسام الحية المختلفة من نبات وإنسان وحيوان ، وفيما هيأته الأيدى الآدمية لاستعمالاتها الغذائية فى مأكلها ومشربها ، فتتخذ هذه الميكروبات طريقها إلى الفم أو تلتصق بالبشرة الخارجية للانسان، ومن هنا تبدأ المناعة الطبيعية فى إبراز وسائل كفاحها وسبل مقاومتها ، فإذا اتخذت الميكروبات طريقها إلى الفم فإن الإفرازات المعدية كفيلة بوقف تقدمها وإهلاكها ، لأن هذه الإفرازات حمضية التأثير لاحتوائها على حامض الهيدروكلوريك ، ولما

كانت الميكروبات لا تستطيع مقاومة الأحماض القوية فيكون مصير معظمها الإبادة والفناء ! . . . أما الميكروبات التى تلتصق بالبشرة الخارجية للانسان فلا تتمكن من أن تنفذ إلى داخل الجسم إلا إذا اعتراه خدش أو جرح مهما كان صغيراً ، لأن الجلد السليم من أهم وسائل المناعة الطبيعية لمقاومة نفاذ هذه الأعداء ، وقد اكتشفت حديثاً بعض المواد الهامة التى توجد فى الدموع وفى غيرها من الإفرازات الخارجية للإنسان ، وتستطيع هذه المواد المضادة أن تضعف أو تبيد الميكروبات الخارجية فى عنفوان هجومها ، فلا تتيح لها الفرصة الملائمة لأن تركز قواتها وتتخذ طريقها إلى داخل الجسم الإنسانى ، وليس بمستبعد أن العرق الذى يزداد فى كميته وفى قوة تصببه إبان الصيف هو أحد أسلحة الكفاح الخارجية ضد الميكروبات ، لأن درجة الحرارة تكون أكثر مناسبة لزيادة تكاثرها وهجماتها ، كما أن هذه الروائح الكريهة التى تصاحب الإفرازات الخارجية عند بعض الناس قد تكون أيضاً وسيلة ناجعة لابتعاد المخلوقات المتكدسة فى الترام وغيره واتقاء عدوى الأمراض ، ولم يثبت العلم الحديث إثباتاً قاطعاً أن العرق والروائح الكريهة من

الوسائل المعروفة فى اجتناب عدوى الأمراض حتى يتخذ بعض الناس ذلك عذراً لمضايقة غيرهم من المخلوقات البريئة المتجاورة ، فهى خواطر ما زالت تتأرجح بين الشك واليقين ، وسيكون لعالم الأبحاث فيها الكلمة العليا ! . . . . . فإذا لم تستطع هذه المناعة الطبيعية الخارجية أن تبسط سلطانها ، وتقاوم أعداءها ، نفذت هذه الميكروبات إلى داخل الأوعية الدموية وغيرها من الأنسجة المختلفة ، لتنفث فيها سمومها ولتسبب للإنسان مختلف الأمراض من تيفود وكوليرا وسل ودفتريا وغيرها ، فتنتقل الميكروبات بذلك من صراع خارجى إلى آخر داخلى أشد قوة وأكبر أثراً . ولما كانت الأوعية الدموية هى الشبكة الأساسية المتفرعة فى الجسم الإنسانى ، فقد انحصرت وسائل المناعة الطبيعية الداخلية فى تلك الشبكة الحيوية ، فالدورة الدموية هى الأداة الفعالة لحفظ الحياة واستمرارها ، فهى التى يستطيع الجسم بوساطتها إتمام تبادل الغازات اللازمة فى عملية التنفس وتوزيع المواد الغذائية الضرورية للجسم ، فالمحافظة على سلامة هذه الدورة هى فى الحقيقة محافظة على سلامة الإنسان من الأمراض ومساعدته على إتمام رسالته الأساسية فى الحياة الدنيوية .

والأوعية الدموية هى عبارة عن أنابيب شعرية متعددة متفرعة فى الجسم الإنسانى ، وتحتوى بداخلها على سائل يعرف بالسائل الدموى أو المصل ، و يسبح فى هذا السائل نوعان من الخلايا ، أحدهما كرات الدم الحمراء والأخرى كرات الدم البيضاء (أو الخلايا الأكالة) ، وقد توزع العمل بين هــذين النوعين من الخلايا توزيعاً كاملا فيه مصلحتهما المتبادلة وحفظ حياتهما ، فالخلايا الحمراء هى التى تقوم بالوظائف الحيوية فى الجسم من تنفس وتغذية وغيرها ، أما وظيفة الخلايا البيضاء فتنحصر فى القيام بعمل التاكتيــكات اللازمة للدفاع عن نفسها وعن الكرات الحمراء إذا هاجمها أحد الأعداء من مختلف الميكروبات، والصراع بين الخلايا البيضاء والميكروبات صراع مستمر شديد ، فإذا وجد فى السائل الدموى (المصل) كائن عدائى لوحظ على الخلايا البيضاء ظاهرتان غريبتان ، أولها أنها تزيد من عدد أفرادها ازدياداً عظيما هائلا ، وثانيهما أنها تندفع بجاذبية قوية نحو الموضع الذى فيه الميكروبات ، فتبذل مجهوداً جباراً عنيفاً فى العمل على التهامها و إهلاكها ، ويخر كثير من الخلايا البيضاء صرعى فى ميدان القتال ، إذ تفتك بها الأعداء أو تتسمم من

الميكروبات التى تأكلها ، ونتيجة هذا الصراع الحيوى من الأهمية بمكان فى إعلان انتصار الأمراض أو سلامة الأبدان ، فإذا تغلبت الميكروبات على أعدائها من الخلايا البيضاء للدم كان ذلك نذيراً بالأمراض وما يكتنفها من آلام وأوجاع ، وإذا تغلبت الخلايا البيضاء على أعدائها من الميكروبات أو كان القتال سجالاً كان ذلك بشيراً بالصحة وسلامة الأبدان ، وهكذا فالتوازن بين القوتين المتصارعتين هو حلقة الاتصال بين الصحة والمرض ! . . .

ولا يزول الخطر الناشىء من هذه الأمراض بزوال الميكروبات المسببة لها ، إذا قدر للخلايا البيضاء أن تنجح فى صراعها ، بل إن هذه الميكروبات تفرز فى السائل الدموى (المصل) سموما قاتلة هى التى تسبب ارتفاع دزجة الحرارة وغير ذلك من أعراض الأمراض وأوجاعها . وقد وجد أن الجسم الإنسانى يصنع لكل ميكروب مواد مضادة خاصة به ، وهذه المواد المضادة تعمل على تعادل السموم البكتيرية وإزالة مفعولها ، وعلى إهلاك الميكروبات نفسها ، فهى تساعد الخلايا البيضاء فى صراعها ، وتعمل على مقاومة السموم القاتلة بإزالة تأثيرها ، وتتكون هذه

المواد المضادة في السائل الدموى أو المصل نتيجة لمهاجمة الميكروبات العدائية ، فإذا تمكن الجسم الإنسانى من تجهيز نفسه بالكمية الكافية من المواد المضادة تغلب على المرض وحاز الشفاء ، أما إذا ضعف عن ذلك فتنتابه الأمراض أو يصرعه الفناء ! . . . وهكذا فمقاومة الخلايا البيضاء للميكروبات وتأثيرها ، وتكوين المواد المضادة فى المصل وعملها على إزالة البكتريا وسمومها ، كلها مظاهر مختلفة من وسائل المناعة الطبيعية الداخلية فى الجسم والتى تعمل مثابرة على مقاومة الأمراض وفتكها ، وتعتمد هذه المناعة على عوامل كثيرة تختلف باختلاف الأشخاص ، كالمقاومة الوراثية والحالة الغذائية وغير ذلك من الصفات الصحية الغالبة ! . . .

قد وجد العلماء أن المواد المضادة التى تتكون فى الجسم الإنسانى نتيجة لمهاجمة بعض الميكروبات يبقى تأثيرها نافذاً لمدة طويلة بعد زوال المرض ، بحيث يقى الإنسان شر المرض نفسه مرة أخرى فى المستقبل ، وربما استمرت تلك المناعة طول حياته الباقية ، أى أن الجسم يكتسب مناعة من المرض بالمرض ، وقد توصل الباحثون من دراسة هذه الحقائق إلى إمكان اكتساب

الجسم مناعة صناعية بتقليد تلك الظواهر الطبيعية ، وهناك طريقتان لاكتساب هذه المناعة الصناعية ، فالطريقة الأولى هى التى تستعمل فيها أنواع اللقاح أو الفاكسين ، وتنحصر هذه الطريقة فى قدرة السائل الدموى أو المصلى على تكوين المواد المضادة للميكروبات وإفرازاتها ، فتحضر الكميات اللازمة من أحد أنواع الميكروبات المراد الوقاية من أمراضها مقتولة وقليلة العدد ، أو على مقادير مخففة من سمومها ، فإذا حقنت هذه الميكروبات الميتة أو إفرازتها السامة إلى الأوعية الدموية دفعت الجسم إلى تحضير المواد المضادة التى تساعده فيما بعد على اكتساب المناعة الصناعية ، ففى حالة الفاكسين يقوم جسم الإنسان نفسه بعمل المواد المضادة اللازمة لمقاومة الميكروبات وسمومها ، وتستعمل هذه الطريقة لاكتساب مناعة صناعية ضد الكثير من الأمراض الخطيرة القاتلة كالجدرى ، والتيفود والباراتيفود ، والدفتريا والطاعون والكوليرا وغيرها ! . . . أما الطريقة الثانية فتقوم على تحضير المواد المضادة اللازمة لمقاومة ميكروبات الأمراض خارج الجسم الإنسانى ، أى أن الجسم لا يقوم بصنعها لنفسه بل يأخذها جاهزة كغيرها من الأدوية الطبية ، فتحقن

الحيوانات السليمة ، خصوصاً الخيول ، بمقادير متزايدة من الميكروبات أو سمومها ، فتتكون فى دماء هذه الحيوانات بعد مدة كافية كميات عظيمة من المواد المضادة للميكروبات المحقونة ، وإذ ذاك يستنزف جزء من دم الحيوان ، وتفصل منه الخلايا الدموية من كرات حمراء وبيضاء ، فيبقى المصل أو السائل الدموى للحيوان صافياً محتوياً على المادة المضادة اللازمة ، ولذلك يسمى بالمصل الواقى ، فيحقن حقناً صناعياً إلى الجسم الإنسانى ليزيد من قوة مقاومته ومناعته للأمراض ، وتستعمل هذه الطريقة لاكتساب المناعة الصناعية ضد أمراض الدفتريا والتيتانوس وغيرها ! ...

الفاكسين والمصل الواقى هما من الوسائل الصناعية التى يستعملها الأطباء لتمكين الجسم الإنسانى من تهيئة المواد المضادة اللازمة لمقاومة الميكروبات تقليداً لإحدى ظواهر المناعة الطبيعية الداخلية ، أما الظاهرة الأخرى ، وهى الصراع بين الخلايا البيضاء والميكروبات ، فقد تمكن العلماء أيضاً من العمل على ابتكار الوسائل الصناعية اللازمة للحد من نمو البكتريا وتكاثرها ، لتستطيع بذلك الخلايا البيضاء الأكالة من التغلب

عليها والفتك بها ! . . . وقبل اكتشاف البنيسلين ، كانت مركبات السلفوناميد ، وهى إحدى المركبات الكيميائية ، تعد من أروع الاكتشافات العلمية فى عالم الطب ، إذ تستطيع بتأثيرها من وقف نمو الميكروبات ، فتتمكن الخلايا البيضاء للدم من ابتلاعها و إهلاكها ، فكانت بذلك إحدى الوسائل الصناعية الناجحة لجعل توازن الصراع الداخلى فى مصلحة خلايا الدم البيضاء الأكالة . . . إلا أن مركبات السلفوناميد كان بها نقيصتان ، فهى أولا لا تتغلب على الميكروبات إلا إذا قل عددها ، فإذا نمت نمواً سريعاً أو ازداد عددها ازدياداً ملحوظاً لا تستطيع هذه المركبات الكيميائية وقفها أو الحد من تكاثرها ، وهى ثانيا ذات تأثير سامّ فى بعض الأجسام الإنسانية ، ومثل تلك المواد الوقائية لا بد أن تجمع فضيلتين أساسيتين ، فضيلة إهلاك الميكروبات العدائية وفضيلة عدم التأثير السام فى الجسم الإنسانى ، فإذا فقدت إحدى هاتين الميزتين فقدت بذلك ميزتها الطبية كعلاج وقائى ، وقد كانت تلك المركبات تستعمل لعدم وجود غيرها من الأدوية المشابهة ، فكانت تقوم بواجبها من حيث إهلاك الميكروبات المؤذية ، إلا أنها

كانت تسبب للمريض بعض الآلام والأوجاع بسبب تأثيرها السام فى بعض الأجسام ، وهكذا كان من أهم أهداف أبحاث العلماء إيجاد مواد لها قوة مركبات السلفوناميد فى فتكها بالميكروبات ، ولكن ليس لها تأثيرها السام فى الأجسام ! . . . تكللت تلك المجهودات الجبارة بالنجاح المنقطع النظير عند اكتشاف دواء « البنيسلين » ، فسبب اكتشافه هزة عنيفة فى الأوساط العلمية والطبية فى جميع بقاع العالم من أدناها إلى أقصاها ، ويعده كبار المشتغلين بالأبحاث الطبية من أهم الاكتشافات فى تاريخ الطب كله ، فهم يقولون عنه إنه أقوى دواء عرف حتى الآن فى علاج الأمراض الناتجة عن الميكروبات كما وصفه بعضهم بأنه حجر الفلاسفة فى عالم الطب الحديث !..

إن الفائدة الأساسية من استعمال « البنيسلين » كعقار طبي هى قدرته العجيبة على مساعدة الخلايا البيضاء فى صراعها ضد الأمراض بوساطة الحد من نمو الميكروبات وتكاثرها ، فالبنيسلين مادة أوجدتها وسائل الصراع المختلفة بين الفطريات والميكروبات من جهة و بين الميكروبات والخلايا البيضاء للدم من جهة أخرى ، فالصراع الأول ساعد على الحد من انتشار الميكروبات وتكاثرها

فى الطبيعة ، والصراع الثانى هو صراع بين المادة الفطرية « البنيسلين » والميكروبات داخل الجسم الإنسانى ، ذلك الصراع الذى استفاد منه الإنسان ليحد من قوة البكتريا وزيادة تكاثرها داخل الجسم فيمكن بذلك الخلايا البيضاء للدم من صرع هذه الأعداء القاتلة ، وقد تحقق العلماء من أن البنيسلين ليس له تأثير سام فى الأجسام ولا يضر بكريات الدم البيضاء ، فهو بذلك عون لهذه الخلايا فى كفاحها الحيوى ضد الميكروبات وفتكها .

وقبل أن نخوض فى قصة « البنيسلين » يجب علينا أن نصف بعض الأمراض القاتلة الخطيرة التى استطاعت هذه المادة الفطرية العجيبة من أن تنقذنا من ويلاتها ، نخير للقارىء أن يتلمس تأثير هذه الأمراض البكتيرية وأضرارها ليستطيع أن يقدر لهذا الدواء العجيب مكانته الممتازة فى علم الطب الوقائى ! . . .

أمراض إنسانية

تسبب الميكروبات للانسان أمراضاً متعددة . ولقدرة هذه الكائنات الدقيقة على الانتقال والانتشار من مكان إلى آخر تسمى الأمراض التى تسببها بالأمراض المعدية ، لأن العدوى تنتقل

بسهولة من المصاب إلى السليم ، إما انتقالا مباشراً بالملامسة أو ماشابهها ، أو بوساطة إفرازات الفم والأنف أو البراز أو البول أو غيرها ، وتسبب الميكروبات كثيراً من الأمراض والأوبئة الخطيرة كالحمى التيفودية والباراتيفودية ، والدفتريا والسل الرئوى والدرن ، والحميات المختلفة من نفاسية وقرمزية وراجعة ومخية والدوسنطاريا والحصبة والطاعون والكوليرا ، والأمراض السرية التناسلية كالزهرى والسيلان وغيرهما ، ولا يتسع مجال هذا الحديث لاستيعاب تفاصيل هذه الأمراض المعدية جميعها ، ودراسة مختلف أعراضها ومؤثراتها ، وسيكون الحديث مقصوراً على وصف بعض الأمراض البكتيرية التى كان للبنيسلين فضل فى مقاومتها والحد من ويلاتها وأضرارها ! . . .

يخر فى ميادين القتال عدد كبير من الجنود ضحية لشظايا القنابل وفريسة لقذائف المدافع والبنادق ، والجرحى منهم يعانون أشد الآلام وأقساها من تأثير إصاباتهم ، وما تسببه لهم من مضاعفات خطيرة لتعرضهم للجو الخارجي زمناً طويلا ، حتى تتيسر السبل المواتية لإسعافهم ونقلهم إلى المستشفيات القريبة ، ويسبب تعرض الجروح للوسط الخارجى كثيراً من المتاعب ،

إذ تتخذ كثير من الميكروبات الجوية طريقها إلى الجروح العميقة لتبحث عن غذائها فى مختلف الأنسجة الداخلية ، تلك الأنسجة الغنية بموادها الزلالية والتى تكون للميكروبات طعاماً سائغاً شهياً . . . تتكاثر الميكروبات بذلك داخل الجسم تكاثراً كبيراً متزايداً ، فتسبب موت الخلايا بتأثيرها وتسمم الدم بإفرازاتها ، وينتج عن ذلك تعرض العضو المجروح لمرض خطير مميت يسمى بمرض الجانجارين الغازى ، وكان الأطباء فيما مضى يبذلون قصارى جهودهم للتخلص من هذه الأعراض الخطيرة إما بإطلاق غاز الأكسيجين داخل الأنسجة المصابة حتى تفقد الميكروبات اللاهوائية قدرتها على الحياة ، وإما باستعمال مركبات السلفوناميد الكيميائية ، وكثيراً ما تذهب تلك المجهودات الجبارة سدى لعدم قدرة الأكسيجين على أن يتخلل أجزاء الجسم بقوة كافية، ولقصور مركبات السلفوناميد عن إظهار مفعولها إذا نمت الميكروبات نمواً سريعاً أو ازداد عددها ازدياداً مطرداً ، فلذلك كان الدواء الوحيد فى مثل هذه الحالات ، وما أقساه من دواء ، هو بتر العضو المصاب بتراً كاملا ، إذ كان الطبيب لايجد أمامه إلا إحدى وسيلتين ، أحلاهما مر المذاق وأخفهما صعب المراس .

فإما أن يترك العضو المصـــاب لمشيئة الأقدار فتتسرب منه الميكروبات إلى سائر أجزاء الجسم السليمة فتسمم الدم وتودى بالمصاب إلى ساحة الموت والفناء ، وإما أن يفصل العضو الموبوء ليهب لسائر الجسم نعمة الصحة والبقاء .

ظهر دواء البنيسلين فى ميدان الاكتشافات الحديثة فنزل برداً وسلاماً على ضحايا الجروح ، وكان له سحر عجيب فى تطهير الجروح من الميكروبات المتناثرة وفى تجنيب الجرحى ويلات البتر فى الحالات المستعصية من الجانجارين الغازى !... ولم تعد فائدة البنيسلين مقصورة على علاج الجانجارين الغازى فى حالاته الخطيرة المزمنة ، ولكنه أصبح سبيلا لاتقاء شر هذا المرض منذ ابتداء ظهوره ، فهو وسيلة وقائية لرد غائلته قبل أن يكون علاجاً ناجحاً لإزالة آثاره ، إذ أن هناك أنواعاً كثيرة من الميكروبات السابحة فى الهواء من جنس ستافيلوكوكس أو الميكروبات العنقودية تتخذ طريقها إلى الجسم الإنسانى فتحدث فيه البثور والدمامل والجمرات وغيرها ، فإذا نجحت هذه الميكروبات فى ترسيخ أقدامها وإحداث هذه الجروح مهدت الطريق لغيرها من الميكروبات المؤذية لتتخذ طريقها إلى داخل الجسم فتسبب

الجانجارين الغازي أو غيره من مختلف الأمراض القاتلة ، ولا تقتصر الفائدة الأساسية من مزايا البنيسلين على قدرته الفريدة على وقف نمو الميكروبات وإزالة سمومها ، بل إنه يساعد أيضاً على إتمام التئام الجروح وسرعة شفائها ! . . . وهنالك طرق كثيرة لاستعمال البنيسلين فى معالجة الجروح ، وأسهل هذه الطرق وأقلها تعباً هى إنماء الفطر « بنيسليوم نوتاتم » على محلول غذائى حتى يفرز فيه كمية كافية من سائل أصفر ذهبي اللون هو «البنيسلين» ، فيؤخذ السائل المحتوى على المادة المضادة للميكروبات ويرشح ترشيحاً خاصاً للتخلص من المواد الضارة ، ثم يرش على الجروح بعد تعقيمها فيزيل آلامها ويحد من أضرارها ، وقد توصل أحد العلماء إلى إمكان استعمال الفطر استعمالا مباشراً ، فيربى الفطر على قطن معقم يحتوى على المواد الغذائية اللازمة ، ثم يغطى الجرح بالقطن فينمو الفطر نمواً سريعاً ويفرز كمية من البنيسلين كافية لشفاء الجروح والتئامها ! . . . وهنالك طرق أخرى كثيرة تتوقف على استخلاص البنيسلين من المحلول الغذائى وتحضيره على هيئة مسحوق جاف ، فيرش المسحوق كما هو على الجروح أو على هيئة مرهم لزج ، أما فى الاستعمالات الداخلية فيذاب

مسحوق البنيسلين فى الماء المعقم ثم يحقن داخل الأوردة أو العضلات ، وتستدعى مثل هذه الحالات خبرة علمية وطبية واسعة للتأكد من خلو المحلول من سائر الميكروبات المؤذية وعدم تأثيره تأثيراً سيئاً فى الأنسجة الداخلية ! . . .

كانت الحروق الخطيرة فيما مضى إحدى المتاعب التى أعيت نطس الأطباء ، وكان المصاب بمثل تلك الحروق يعد فى أنظار الناس فى حكم الأموات ، لندرة شفاء هؤلاء الضحايا إذا تفاقمت إصاباتهم أو تلوثت جروحهم ، فالنار تلتهم غالبا الطبقة الخارجية للجسم لتجعل منها مادة عضوية ميتة تتراكم عليها مختلف الميكروبات السابحة فى الهواء ، تتغذى بفضلاتها وتتكاثر بتوافر خيراتها ، ولما كانت طبقة الجلد السليمة الخارجية المانعة لنفاذ الميكروبات قد دمرتها النيران فإن تلك الكائنات تتوغل داخل الجسم الإنسانى كيفما تشاء ، فتنفث فيه سمومها التى تحملها الدورة الدموية وغيرها الى مختلف أعضاء المريض ، لتشل حركاتها أو لتحد من قوتها ، وتكون النتيجة الحتمية تسمم الدم وما يتبع ذلك من موت المصاب ، فإذا وجد السلاح الطبى الناجح الذى يستطيع أن يحول بين الميكروبات الخارجية و بين نفاذها إلى

داخل تسلخات الحروق وجروحها ، تمكن المريض من الكفاح ضد الموت كفاحا قويا أكيدا ، وقد وجد هذا السلاح العجيب فى دواء « البنيسلين » ! ... ففى حالات الحروق تنتزع الطبقة السوداء الخارجية للمصاب ، لعدم تراكم الميكروبات وتكاثرها ، ثم ترش الطبقة التى تليها بمادة « البنيسلين » ، فيتمكن الجسم بذلك من مقاومة أعدائه من الميكروبات الخارجية حتى تتهيأ له الفرصة المناسبة لتكوين طبقة جلدية جديدة يستطيع بها أن يواصل مناعته الطبيعية السابقة ضد هذه الكائنات المؤذية ، ويأخذ المصاب فضلا عن ذلك حقنا داخلية من محلول « البنيسلين » ليقاوم بها ما قد يتسرب إلى داخل جسمه من الميكروبات وسمومها ! ... وهكذا كانت تلك الآلات الجهنمية الفتاكة التى يستعملها الإنسان لصراع أخيه إبان الحروب ، وما تسببه له من حروق وجروح ، سببا من أهم الأسباب التى دفعت العلماء إلى اكتشاف البنيسلين ، وكانت الحروب بويلاتها وضحاياها من أشد المغريات على إتمام هذا الاكتشاف العظيم ، ولما كانت المقادير التى تحضر من هذا الدواء ما زالت إلى الآن قليلة أصبح استعماله مقصوراً على جرحى الحروب ، وسيظل كذلك إلى أن

تضع الحرب أوزارها أو يبتكر العلماء طرقا جديدة للعمل على سرعة إنتاجه وزيادة مقداره ! . . . ولا تقتصر استعمالات البنيسلين على مداواة الجروح وشفاء الحروق ، بل إن له فوائد جمة أخرى أعظم نفعا وأشد أثراً ، فهو يستعمل لعلاج أمراض أخرى خطيرة مثل الالتهاب الرئوى (النيمونيا) والسحائى والدفتريا والحمى المتقطعة والسيلان وغيرها . وسنتحدث حديثا مقتصراً عن بعض هذه الأمراض وأعراضها، وما تسببه للإنسانية من نكباتها وآلامها ! . . .

الالتهاب الرئوى أو النيمونيا

بينما كانت الحرب الحالية محتدمة السعير ، و بينما كان الناس فى سائر الأقطار معجبين لذلك الجهود الجبار الذى يبذله الحلفاء فى تسيير دفة الحرب وتعجيل انتهائها ، كان هناك ميكروب خفى دقيق يشتغل لحساب الأعداء ، هذا الكائن العدائى هوميكروب الالتهاب الرئوى أو « النيمونيا » ، فقد تطاول بأعراضه وسمومه إلى المستر تشرشل حينذاك فى إحدى رحلاته العسكرية بمختلف بلدان الشرق الأوسط ، فتطايرت أسلاك البرق تعلن للعالم أجمع

نبأ مرض هذا الزعيم الخطير ، ثم تتابعت النشرات والأخبار عن صحة ذلك الزعيم ، و بين طيات هذه النشرات الصحية كانت هناك صفحة فريدة استرعت الأنظار لغرابتها واستهوت النفوس بمعجزاتها ، هي صفحة مجد وفخار لعالم الأبحاث والاختراع ، إذ أعلن للملأ جميعا أن دواء «البنيسلين» كان المنقذ الأكبر لحياة هذا الزعيم، فكانت نجاة المستر تشرشل إيذانا لهذا العقار الحديث بأن يتخذ طريقه الناجح فى عالم الطب الوقائى ، وكانت بشيراً حسنا ليبلغ ما بلغه الآن من ذيوع الصيت وواسع الانتشار ؟ . . .

وتتوقف قوة البنيسلين فى القضاء على مرض الالتهاب الرئوى على قدرته الفريدة فى وقف نمو الميكروبات وتكاثرها ، فيجعل الصراع الداخلى فى مصلحة الجسم ليستطيع أن يبيـد الأعداء البكتيرية ويزيل سمومها ، ولنقرب إلى الأذهان الدور الهام الذى يلعبه البنيسلين فى القضاء على هذا المرض ، سنضرب للقراء مثلا بسيطا من صميم الحيـاة ، فإذا وجد هناك خصمان يتنازعان نزاعا جسمانيا وأتينا لأحدهما بأحد أنواع المنومات كالكلوروفورم مثلا فإننا بتخديره قد أتحنا للخصم الآخر الفرصة المناسبة للفتك بخصمه، فالكلوروفورم يعمل فى هـذه الحالة كأحد الأسلحة فى هدم

الأعصاب وفقدان الإحساس ، والبنيسلين مثله فى مصارعة الأمراض كمثل الكلوروفورم فى هذا النضال ، فهو يخدر الميكروبات و يقف نموها وتكاثرها ، فيقلل من قوتها و يضعف من جبروتها ، و يتيح الفرصة الملائمة لخصومها من خلايا الجسم الأكالة لتفتك بها وتلتهمها ، وقد أثبتت التجارب التى عملت خارج الجسم الإنسانى أن البنيسلين المخفف بنسبة واحد إلى ربع مليون يقضى على ميكروبات الالتهاب الرئوى ، وهكذا يتم نعمته فى شفاء المصابين مهما تضاءل مقداره أو قلت كميته ! . .

الالتهاب السحائى

الالتهاب السحائى أو الحمى المخية الشوكية من أكثر الحميات خطراً وأعظمها ضرراً ، إذ تبلغ وفيات المصابين بها مبلغاً كبيراً ، وتكثر إصاباتها بين الأطفال والشبان ، ويشتد خطرها على الأطفال فى أثناء رضاعتهم وعلى الكهول إذا تقدمت بهم سنهم . و يسبب هذا المرض ميكروبات كروية الشكل تهاجم سحايا المخ والنخاع الشوكى ، فتحدث التهاباً وتهيجاً فى هذه المراكز العصبية وتقيحاً فى السائل النخاعى .

- إن مثل هـذه الأمراض التى لا تزول أضرارها وعاهاتها بزوال مؤثراتها لمن أشد النكبات التى تنتاب الإنسان ، وخصوصا أنها تصيب الرضع من الأطفال ، فإذا تركت وشأنها أنتجت للأمة جيلا ضعيفا هزيلا ، ثم تطاولت على الشبان ، وهم عدة الأوطان وحماتها ، فجعلت منهم أداة ناقصة عاجزة ، تشوههم العاهات ويعتريهم سوء الفهم وقلة الإدراك ، فالدواء الناجع الذى يعمل على معالجة الإنسان من مرض الالتهاب السحائى ، وما يسببه له من مختلف التشويهات والعاهات ، هو فى الحقيقة عدة الوطن القوية فى كفاحه لينتج للأمة جيلا صحيحاً قويا ، وقد وجد هذا الدواء الناجح فى عقار « البنيسلين » . . .

ابتدأت المحاولات الأولى فى إجراء تجارب مختلفة لاختبار قوة البنيسلين على ميكروبات الالتهاب السحائى خارج الجسم الإنسانى ، فأعطت هذه التجارب نتائج مدهشة ، إذ وجد أن البنيسلين المخفف بنسبة واحد إلى مليون يقضى على ميكروبات الالتهاب السحائى قضاء مبرماً ، فشجعت هذه النتائج العلماء على اختبار تأثير هذا الدواء داخل الجسم الإنسانى الملوث بتلك الميكروبات ، وكانت للتجارب نتيجة ناجحة تعد فتحاً جديداً

فى عالم الطب الوقائى ، ومن الأمثلة على ذلك أن كان هناك مريض بالالتهاب السحائى أخفقت فى علاجه كافة العقاقير ومنها مركبات السلفوناميد المشهورة ، وقد يئس الأطباء من علاج هذا المريض فقدم ليكون موضعاً للتجربة ، فأخرج الأطباء كمية من السائل النخاعى الموجود فى قناته الشوكية ، ثم وضعوا مكان هذا السائل كمية من « البنيسلين » ، كما أعطوا المريض حقناً أخرى من الدواء نفسه فى العضلات ، فأصبح هذا المريض الميئوس من شفائه بشراً صحيحاً قوياً بعد معالجة عشرة أيام متتالية ، ثم تتابعت التجارب بعد ذلك فكانت ناطقة بفضل « البنيسلين » فى شفاء المرضى وعلاج الميئوس من شفائهم ، وهكذا يثبت هذا الدواء العجيب مقدرته على الإتيان بالمعجزات كلما ازدادت التجارب وتقدمت الأبحاث !...

الدفتريا والسيلان

الدفتريا والسيلان من الأمراض المنتشرة والخطيرة النتائج والتى كان للبنيسلين فضل فى معالجتها ووقاية الإنسان من شرورها وأضرارها ، فالدفتريا مرض من أشد الأمراض المعدية انتشاراً

وأكثرها فتكا بالأطفال إلى سن الخامسةعشرة ، و يزداد خطرها كلما كان الطفل صغيراً ، ولا تصيب الكبار إلا قليلا .

قد نجح العلماء فى تحضير « مصل » و « طعم » للوقاية من مرض الدفتريا ، أما المصل فيعطى مناعة مفتعلة سريعة ولكنها مؤقتة لمدة ثلاثة أو أربعة أسابيع فقط ، وأما الطعم فهو مركب من سم الدفتريا مقتولا بالفورمالين ، ولا تحدث المناعة مباشرة بعد استعمال الطعم ولكنها تكتسب بعد مضى بضعة أسابيع ، والمصل والطعم وسيلتان وقائيتان لإكساب الجسم المناعة الكافية ضد مرض الدفتريا ، ولكن مفعولهما مشكوك فيه عند ما يبلغ المرض أشده وتنهك الميكروبات الأجسام بهجماتها العنيفة ، ففى مثل هذه الحالة تكون الوسيلة السريعة الوحيدة للتخلص من هذه الميكروبات وويلاتها هى استعمال دواء « البنيسلين » ، فله من قوة مفعوله وسرعة تأثيره ما يكفل للطفل المريض حياة صحية هنيئة ! . . .

ومرض السيلان هو أحد الأمراض السرية الخطيرة ، ويعد من أهم أسباب العقم بين الرجال والنساء .

ولا تقتصر مصائب مرض السيلان على الآباء والأمهات ، بل..

قسيمة

جائزة اقرأ لسنة ١٩٤٤

ما هو الكتاب الذى ظفر باستحسانك وكان له أوقع الأثر فى نفسك بين الكتب التى نشرت فى سنة ١٩٤٤ من هذه السلسلة ؟

اسم الكتاب ....

اسم المؤلف ....

ما رأيك فى هذه السلسلة وما هى الموضوعات التى تفضل أن تقرأها فيها ؟

....

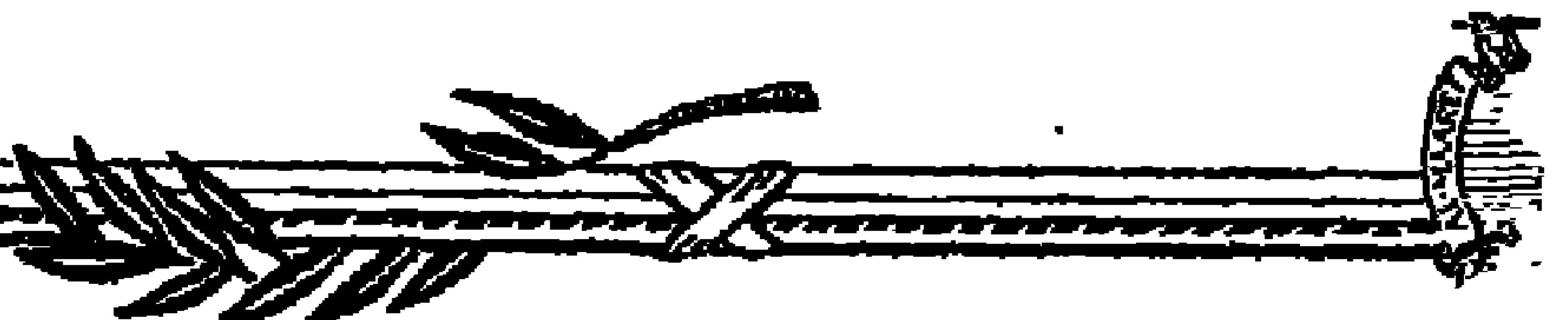
....

....

التوقيع ....

الاسم بالخط الواضح ....

العنوان ....



اقرأ

المؤلفات التي ظهرت فى السنة الثانية لهذه السلسلة

١٣	جميل بثينه	(أدب)	للاستاذ عباس محمود العقاد « من اعضاء لجنة اقرا »
١٤	من يوميات فتاة عصرية	(قصص)	للاستاذ حسين شوقى
١٥	بايرون	(ترجمة)	للسيدة أمينه السعيد
١٦	دمشق	(تاريخ)	للاستاذ محمد كرد على
١٧	شكسبير	(ترجمة)	للاساتذة محمد فريد ابو حديد وزكى نجيب محمود واحمد خاكى
١٨	قنديل أم هاشم	(قصص)	للاستاذ يحيي حقى
١٩	سيدة القصور	(قصص)	للاستاذ على الجارم بك
٢٠	الملك فاروق	(دراسة)	للاستاذ كريم ثابت بك « عدد خاص »
٢١	أبو نواس	(ترجمة)	للاستاذ عبد الحليم عباس
٢٢	جحا فى جانبولاد	(قصص)	للاستاذ محمد فريد أبو حديد
٢٣	صوت أبى العلاء	(أدب)	للدكتور طه حسين بك « من اعضاء لجنة اقرا »
٢٤	لافوازييه	(ترجمة)	للاستاذين : عبد الحميد يونس وعبد العزيز امين
٢٥	قصة البنيسلين	(علم)	للدكتور مصطفى عبد العزيز

تصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

اقرأ

جائزة سنة ١٩٤٤

● الموضـــــوع :

معرفة الكتاب الذى ظفر باستحسان القراء وكان له أوقع الأثر فى نفوسهم بين الكتب التى نشرت فى السنة الثانية من سلسلة اقرأ .

● الجـــــوائز :

٥٠ جنيها تمنح للكاتب الذى يفوز كتابه باستحسان العدد الأكبر من القراء .

٥٠ جنيها تمنح بطريق الاقتراع لثلاثة عشر قارئاً ممن استحسنوا الكتاب الفائز وتوزع فيما بينهم على النحو الآتى :

جنيه
٢٥ للفائز الأول
١٠ « الثانى
٥ « الثالث
١٠ للفائزين العشرة بعدهم ونصيب كل منهم جنيه واحد

● النتيجـــــة :

تنشر النتيجة فى الصحف اليومية بالقاهرة يوم ١٥ فبراير ١٩٤٥

● الشروط :

(١) يجب تحرير الإجابة على القسيمة المواجهة لهذا الكلام وإرسالها إلى إدارة مطبعة المعارف ومكتبتها بشارع الفجالة رقم ٧٠ بالقاهرة قبل ٣١ من يناير سنة ١٩٤٥ فى ظرف يكتب عليه : جائزة اقرأ .

(٢) يستثنى من المباراة الأعداد الخاصة والكتب التى يؤلفها أعضاء لجنة اقرأ .

(٣) إذا تساوت الأصوات فى كتابين أو أكثر يقترع بينها على الكتاب الفائز .

(٤) لا يجوز لموظفى مطبعة المعارف ومكتبتها فى مختلف إداراتها وفروعها ووكالاتها ولا لأفراد أسرهم الاشتراك فى هذه المباراة .

(٥) كل قسيمة لا تراعى فيها هذه الشروط تعتبر ملغاة .

(٦) تتولى لجنة اقرأ الإشراف على فرز الأصوات والاقتراع .

يتوارثها الأبناء من بعدهم تراثاً مستمراً متواصلا ، فإذا كانت الأم مصابة بالسيلان ، وقدر لها أن تضع حملها ، أصيب الطفل بالمرض ، فتدخل العدوى فى عينيه فى أثناء ولادته ، لتجعل منه مخلوقاً فاقد البصر فى مقتبل حياته ، يائساً فى مستقبل كفاحه ! .

كانت الطريقة المتبعة فى علاج مرض السيلان فيما مضى هى عمل غسيل بمحلول مطهر أولاً ثم بمحاليل قابضة كالبرمنجنات أو البروتارجول أو غيرها مع عمل حقن بالفاكسين ، ولم تكن هذه الطرق ناجحة لاستئصال شأفة المرض استئصالاً كاملا ، فجاء البنيسلين ليكون لهذا المرض دواء فعالا أكيداً ، إذ أن البنيسلين المخفف بنسبة واحد إلى مليونين يقضى على ميكروبات السيلان قضاء مبرماً عاجلا ! . . .

تلك نبذة صغيرة عن بعض الأمراض الإنسانية التى كان للبنيسلين فضل فى معالجتها ، وإنقاذ المرضى من شرورها وأضرارها ، وما زالت تلك الأبحاث فى بدء أدوارها ، وستزيدها الأيام رسوخا وتأييداً ! . . . ويستعمل البنيسلين بنجاح تام فى معالجة جميع هذه الأمراض السابقة ، وفى الوقاية من غيرها من الأمراض كالتسمم الدموى وتقيحات العظام المزمنة ! . .

تدرجنا فى وصفنا السابق من دراسة الفطريات وكنهها ، إلى ما تنتجه فى صراعها من مادة « البنيسلين » التى تقاوم بها الميكروبات وتبيدها ، إلى ما يفعله هذا الدواء العجيب فى معالجة الأمراض الإنسانية وشفائها ! . . . هذه حلقات متصلة متتابعة عن تطورات هذا الاكتشاف العظيم ، فتطورت بذلك المعرفة الإنسانية تطوراً تدريجياً ، من العمل على اجتلاء الطبيعة وأسرار كائناتها ، إلى اكتشاف ماهية الأمراض ومعالجتها ، وسنجد فى قصة البنيسلين الآتية تلخيصاً لهذه المحاولات المتتالية ! . .

٦

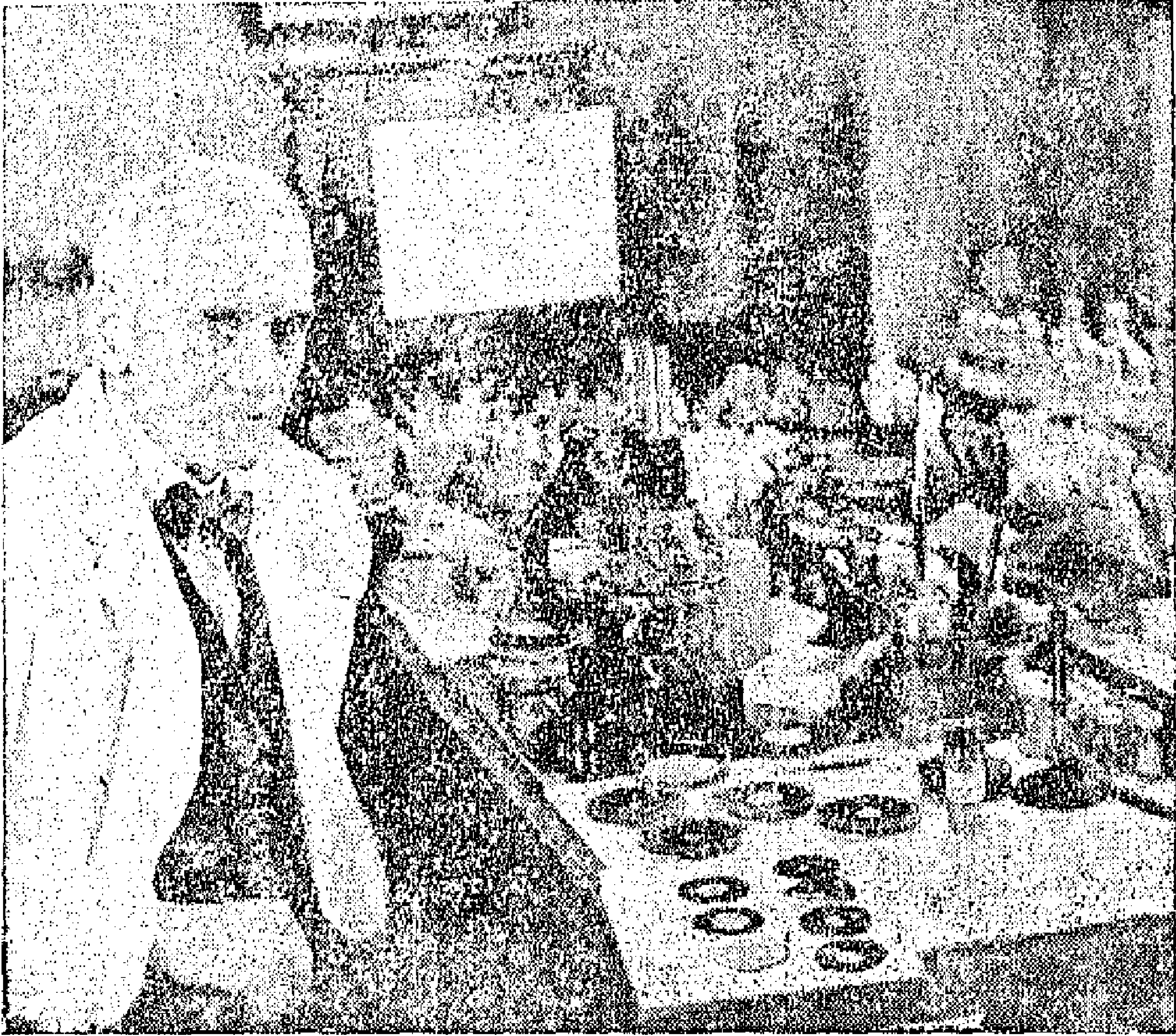
البنيسلين

البنيسلين ، كما وصفنا، مادة يفرزها الفطر « بنيسليوم نوتاتم » لمقاومة منافسيه من الميكروبات المؤذية والحد من تكاثرها وأضرارها، وقد وجد أن كثيراً من الميكروبات والفطريات لها القدرة ، فى ظروف ملائمة خاصة ، على مقاومة نمو الميكروبات الأخرى ، وهذه المقاومة ناتجة عن تغيير كيميائى فى المحلول الغذائى بسبب

نمو هذه الكائنات المضادة ، ولم يكن اكتشاف البنيسلين نتيجة مجهودات فرد من الأفراد ، ولكنه ثمرة محاولات متعاقبة متتالية اشترك فيها الكثيرون من أفذاذ الأطباء وجهابذة العلماء ، فمهما اختلفت الأمم فى وسائل أطماعها وسبل منافستها ، فإنها تتفق فيما بينها فى صراعها العلمى المتواصل لمكافحة الأمراض الإنسانية ، واتقاء شرور الميكروبات المؤذية ! . . .

إذا أردنا أن نتتبع المحاولات الأولية التى قادت العلماء لاكتشاف البنيسلين يجب علينا أن نرجع القهقرى إلى حوالى سبعة وستين عاماً خلت ، ونستعرض أول محاولة بذلت لاستعمال خاصّة الصراع بين الكائنات الدنيئة كوسيلة من وسائل الطب العلاجى ! . . . ففى عام ١٨٧٧ وصف العالم البكتريولوجى الأشهر باستير قوة مقاومة بعض الكائنات لنمو ميكروبات مرض الجمرة الخبيثة «انثراكس» ، ولم تأخذ هذه الظاهرة المهمة مأخذها العملى حتى سنة ١٨٩٩ ، عند ما وجد العالمان إمرش ولو أن البكتريا المسماة « سيدوموناس بيوثيينيا » إذا نمت على محاول غذائى لمدة كافية ، اكتسب هذا المحلول خاصة عجيبة هى خاصة إذابة و إهلاك كثير من الميكروبات الضارة التى تفتك بالإنسان،

وقد نسب هؤلاء العلماء اكتساب المحلول لهذه الخاصة المضادة للميكروبات لوجود خميرة معينة تسمى « بيوثيانيس» ، وقد لبثت هذه الخميرة تستعمل فى المانيا حتى عام ١٩٣٦ كاحدى الوسائل العلاجية الناجحة لمقاومة مرض الجمرة الخبيثة والدفتريا وغيرها من الأمراض ، وتواترت التجارب بعد ذلك لاختبار القوة التى تقاوم بها الميكروبات بعضها بعضاً ، ثم امتدت الأبحاث من بعدها إلى اختبار تأثير الكائنات الدنيئة المختلفة فى إبادة الميكروبات وإهلاكها ! . . . ففى عام ١٩٢٤ وجد العالمان جراتيا وداث أن بعض أنواع كائنات التربة المعروفة «بالأكتينومايسيتس» تفرز مادة تعرف «بالأكتينومايسيتين» لها القدرة الغريبة على إذابة الكثير من الميكروبات العدائية وإبادتها ، أما تأثير الفطريات فى نمو الميكروبات فلم تكن شيئاً مذكوراً قبل اكتشاف « البنيسلين » ، وقد كان معروفاً منذ أمد بعيد أن الفطريات تتنافس فيما بينها لحفظ حياتها وتمكين بنيانها ، وكان معروفاً أيضاً أن هناك مادة تسمى « البنيسلين » تفرزها بعض أنواع الفطر « بنيسليوم » لتقلل من تكاثر الفطريات الأخرى وتحد من منافستها ، وقد استخدمت خاصة



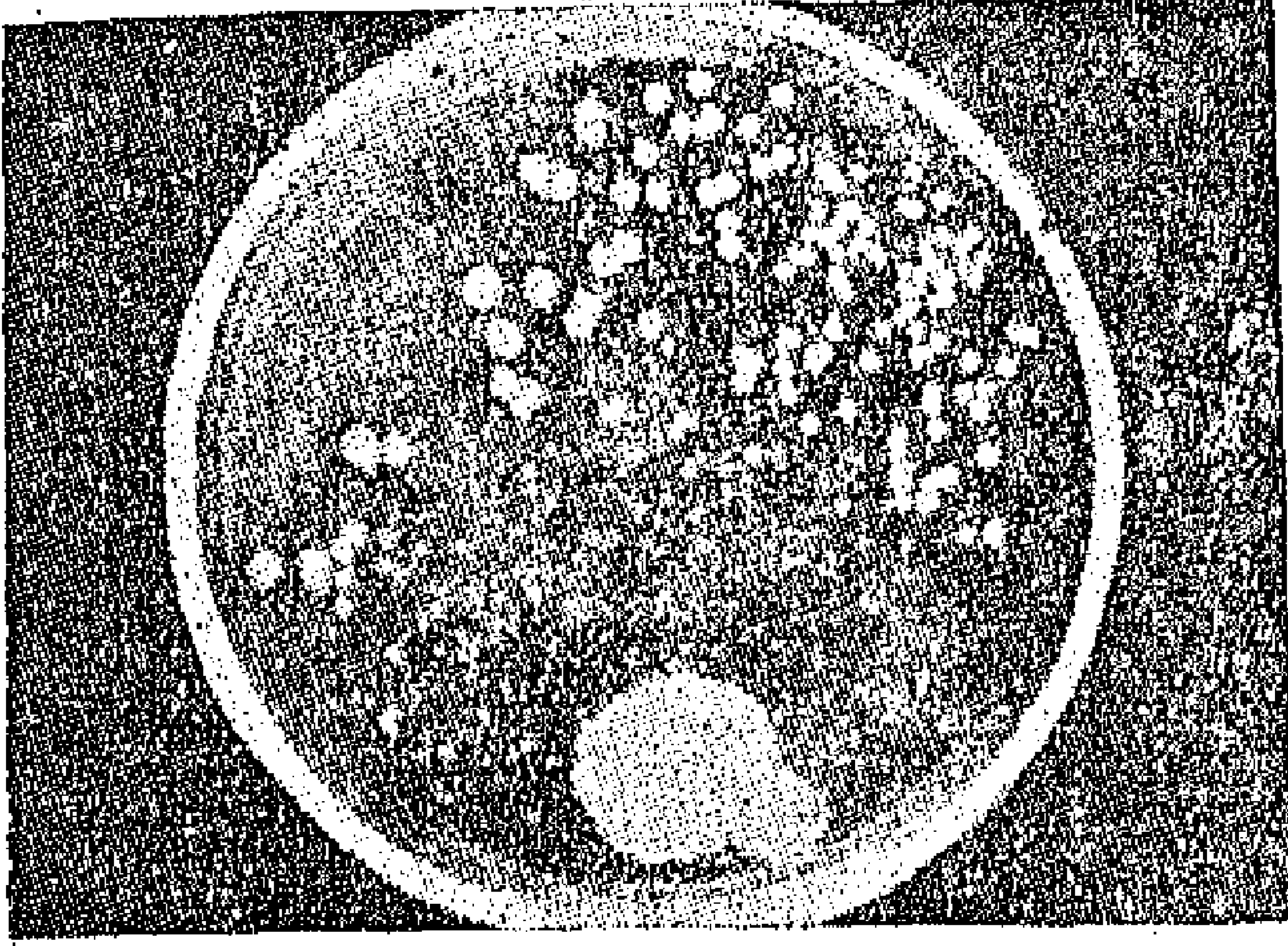
(شكل ٤)
« الدكتور الكسندر فلمنج »

المقاومة هذه كاحدى الوسائل الوقائية لمعالجة بعض أمراض النباتات الفطرية ! . . . هذه نبذة تاريخية مقتضبة عن بعض المحاولات الأولية التى استخدمها العلماء لإبادة الميكروبات المؤذية للانسان باتخاذ خاصة الكفاح للحياة فيما بينها وسيلة لمحاربتها واتقاء شرورها، ولكن هذه المحاولات لم تتخذ مظهرها الجدى الهام فى معالجة الأمراض الإنسانية حتى اكتشف «البنيسلين» واتخذ طريقه فى العالم الطبى كأهم عقار قوى لمقاومة الميكروبات وسمومها ، ووقف نموها وتكاثرها ! . . .

بدأت قصة البنيسلين عام ١٩٢٩ فى مستشفى سان مارى بلندن ، حيث كان العالم البكتريولوجى الدكتور الكسندر فلمنج يجرى أبحاثه الخاصة على إنماء الميكروبات المختلفة وتكاثرها فى أطباق زجاجيـة خاصة تحتوى على المواد الغذائية اللازمة ، ويعرف كل من له صلة وثيقة بدراسـة الميكروبات وتربيتها الصعوبات الجمة التى يلاقيها الباحث فى حفظ مزرعته البكتيرية خالية خلواً تاماً من الكائنات الأخرى السابحة فى الهواء ، والتى تجتهد دائماً فى اتخاذ طريقها إلى أى محلول غذائى ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، تعرض فلمنج لهذه الصعوبات الطارئة العادية

التى يتعرض لها كل باحث فى علم البكتريولوجيا (الميكروبات)، فوجد فى أحد مزارعه البكتيرية نوعاً من الفطر أو العفن الأخضر، مثله كمثل العفنيات المختلفة التى تكسو الخبز المقدد أو الجبن المحفوظ، تسرب هذا الفطر الدخيل من الهواء وعاش جنباً إلى جنب مع الميكروبات النامية فى الطبق الزجاجى ليشاركها فى غذائها ويفسد عليها نقاوتها ووحدتها ! . . . نمت الميكروبات وانتشرت انتشاراً سريعاً فى جميع أنحاء المزرعة الغذائية إلا فى منطقة معينة تحيط بالعفن من جميع الجهات، ففى هذه المنطقة أذاب الفطر الميكروبات التى تنمو بجواره، فبدل من قوتها ضعفاً وهزالا، ومن جبروتها استكانة وموتاً ! . . .

فصل فلمنج الفطر الدخيل أو العفن الأخضر لينقيه تنقية تامة من الميكروبات المحيطة به، ثم رباه واختبر تأثيره القاتل فى الميكروبات التى تهز الإنسان بويلات ضحاياها، وتعكر صفو الحياة بأضرارها وآلامها! . . . درس فلمنج تاريخ حياة هذا الفطر وأثبت أنه من النوع المسمى « بنيسليوم نوتاتم »، ثم عمل على إنماء الفطر فى محلول غذائى خاص، وبعد أربعة أيام ظهر فى السائل فجأة لون أصفر براق، ذلك هو لون المادة



مزرعة فلمنج الأصلية ويرى الفطر الدخيل « بنيسليوم نوتاتم » فى أسفل الطبق ، أما البقع البيضاء الصغيرة فهى مستعمرات من الميكروبات المنقودية . ويلاحظ أن الميكروبات القريبة من الفطر قد وقف نموها أو اختفت اختفاء تاماً !

(شكل ٥)



الفطر « بنيسليوم نوتاتم » نامياً نمواً طبيعياً فى مزرعة صناعية

(شكل ٦)

الكيميائية التى بدأ الفطر فى إفرازها ، والتى أطلق عليها فلمنج اسم البنيسلين نسبة إلى الفطر « بنيسليوم » . استرعت هذه المادة الجديدة أنظار فلمنج لغرابتها ، فألقى بالعفن جانباً ووجه اهتمامه إلى المادة الصفراء ليرى تأثيرها فى نمو الميكروبات المختلفة وتكاثرها ! . . . أخذ فلمنج يربى الميكروبات على حدة فى سائل غذائى أودعه أنبوبة اختبار ، فنمت الميكروبات وتكاثرت وبدلت من صفاء السائل ونقاوته لوناً لبنياً عكراً ، فأخذ نقطة من السائل الأصفر أو « البنيسلين » ووضعها فى المزرعة البكتيرية العكرة فأمست بفضله سائلا صافياً رائقاً ، فكأن السائل الأصفر قد عمل بسحره على إبادة الميكروبات ووقف نموها ، وقد بلغت من قوة هذه المادة الجديدة أنها تستطيع أن تؤذى عملها فى وقف نمو الميكروبات حتى ولو خففت ٨٠٠ مرة ! . . .

كانت هذه الظاهرة الطبيعية العجيبة إحدى ظواهر ثلاث وجدها العالم فلمنج فى أثناء دراساته المتعددة لتأثير المواد المختلفة التى تحد من نمو الميكروبات وانتشارها ، أما المادة الأولى فهى نوع من الخمائر توجد فى الدموع وفى غيرها من الإفرازات

البدنية ، فهى بمثابة مواد مطهرة تنطلق من الجسم الإنسانى ليستطيع أن يقاوم بها الأعداء الخارجية من الميكروبات المؤذية، وقد وجد أن هذه المادة الانزيمية لها تأثير قاتل فى بعض أنواع الميكروبات ولو خففت مليونى مرة ! . . . أما المادة الثانية فهى مركب كيميائى يعرف بتيلوريت البوتاسيوم وله تأثير مضاد فى نمو كثير من الميكروبات كالتيفود والدفتريا وغيرها ، وتأثير هذه المادة فى ميكروبات التيفود تأثير قوى ملحوظ ، فهو يقف نموها ولو خفف بمقدار واحد إلى عشرة ملايين ! . . . أما المادة الثالثة فكانت « البنيسلين » ! . . . كان الاتجاه الوحيد فى أبحاث هذا العالم هو اختبار تأثير هذه المواد المختلفة ، من طبيعية وكيميائية وفطرية ، فى نمو الميكروبات فى المزارع الصناعية ، والعمل على الاستفادة من قوة تأثيرها على بعض الميكروبات دون غيرها فى فصل الأنواع المختلفة من البكتريا فصلا نقياً خالصاً ، وفى تقسيمها تقسيماً علمياً كاملا ، وقد أمكنه بذلك إثبات أن ميكروبات الأنفلونزا توجد بكثرة عظيمة فى أفواه جميع الأصحاء من بنى الإنسان ! . . .

بدأت المحاولات الأولية فى عام ١٩٣٢ لاستخلاص هذه

المادة الصفراء الساحرة أو « البنيسلين » فى حالة نقية خالصة ، فقد عمل كل من كلاتر بوك ولا فل ورايستريك على استخراج هذه المادة من المحاول الغذائى بوساطة إنماء الفطر نمواً صناعياً لمدة كافية ، ثم معاملة السائل الأصفر معاملة خاصة بسائل الأثير ! . . . وعند ما عرض هؤلاء العلماء الأثير بما يحتويه من « البنيسلين » لتأثير الحرارة ، ليتمكنوا بذلك من التخلص من الأثير وترسيب المادة الصفراء الفطرية ، فقد « البنيسلين » قوته المضادة للميكروبات لتحلله بالحرارة ، فكانت المحاولة بذلك يائسة فاشلة ، وثبطت هذه النتائج من عزائم العلماء فى مواصلة مجهوداتهم أو تكملة أبحاثهم ! . . . تركت هذه الأبحاث الأولية جانباً حيناً من الدهر كان العالم يرفل فيه في بحبوحة من العيش وفى حياة ملؤها الاستقرار والطمأنينة ، وفى عام ١٩٣٨ اكفهر وجه الأرض وتلبدت سماء السلم وانطلقت قذائف المدافع ودوى البنادق لتعلن للناس جميعاً أفول حياة الاستقرار والهدوء وابتداء زمن التشرد والحروب ، فتعالت أنات الجرحى وعويل المصابين ، وأصبحت الجيوش بتكدس جنودها وازدحامهم عرضة لانتشار الأمراض المعدية وفتك الميكروبات

المؤذية ، وكان مما يفتت القلوب مناظر هؤلاء الآلاف المؤلفة من الجنود الشبان الذين إذا أصابتهم إحدى شظايا القنابل سببت لهم شتى الإصابات ومختلف الجروح ، وكانت هذه الجروح سبيلا سهلا لاستعمار الميكروبات العدائية التى تعيش فى الهواء والتى تتخذ طريقها إلى الجسم الإنسانى ، ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، لتجعل منه مصدراً لأقواتها ، ومجالا حيوياً لتكاثرها و إفراز سمومها !.. وكان الجرحى إذا تركوا فى ميدان القتال وشأنهم زمناً طويلا ، حتى تتهيأ لهم سبل إسعافهم ، تراكمت الميكروبات المختلفة على الجروح المكشوفة فملأتها وسممتها وسببت لها ما يسمى بالجانجارين الغازى ، فلم يكن هناك من علاج حاسم فى هذه الحالة إلا بتر العضو المصاب ! . .

أثارت هذه العوامل الأليمة عاطفة نفر من الباحثين فاستعادوا ما فى جعبة العلوم ، ماضيها وحاضرها ، من محاولات لمقاومة هذه الأعداء الإنسانية ، وفى عام ١٩٣٩ فكر بعض علماء جامعة أكسفورد فى استكمال الأبحاث الخاصة بالبنيسلين ، فبدأ الدكتور ابراهام بالاشتراك مع الدكتور كايين فى عمل مزارع للفطر « بنيسليوم » واختبار قوة إفرازه « البنيسلين »

على مختلف الميكروبات، وسرعان ما حصل هذان الباحثان على نتائج ناجحة مدهشة كانت فتحاً جديداً فى علم الطب الوقائى ، فقد وجد أن البنيسلين يفوق فى قوة تأثيره فى الميكروبات ما كان معروفاً حينذاك عن المواد الكيميائية المشهورة كمركبات السلفوناميد وغيرها ، وكانت مركبات السلفوناميد فى ذلك الوقت قد بلغت أوج شهرتها كأحد مهلكات الميكروبات ومبيداتها ، ولكنها كانت تنقصهاخاصتان أساسيتان ، الخاصة الأولى هى عدم قدرتها على مقاومة الميكروبات إذا تضاعفت سرعة تكاثرها وازداد عدد أفرادها ، والخاصة الثانية هى عجزها عن القيام بعملها إذا كانت الجروح محتوية على دم أو صديد أو ما شابهما ، فكانت هذه المركبات بسبب هاتين النقيصتين محدودة الاستعمال مشكوكة العواقب ! . . . فكان أهم أغراض العلماء عند اكتشاف عقار جديد ضد الميكروبات هو اختبار خواصه المختلفة للتأكد من خلوه من العيوب التى توجد فى مركبات السلفوناميد الكيميائية ، وقد اختبر دواء البنيسلين لهذا الغرض فوجد أنه عقار قوى فعال يستطيع أن يقف نمو الميكروبات وتكاثرها مهما زاد عدد أفرادها ، ومهما تلوثت الجروح

بالدم أو الصديد أو غيرها ! . . . كانت هذه النتائج مشجعة لتتجدد قصة البنيسلين بعد ركودها ، وتتواصل الأبحاث لتحضيره بعد رقودها ، وكان أول من عمل على تحضيره هما الدكتوران كايين وجيننجز ، فاستخرجا من السائل الأصفر الذى ينمو عليه الفطر « بنيسليوم نوتاتم » مقادير ضئيلة من مسحوق رمادى اللون ! . . . لم يكن هذا المسحوق عنصرا نقيا خالصاً من البنيسلين وحده ، ولكنه كان مزيجا متباينا من البنيسلين مخلوطا مع غيره من العناصر المختلفة التى يحتويها السائل الغذائى ، ومع ذلك فقد كان هذا المسحوق رغما عن عدم نقاوته ذا أثر شديد فعال فى إهلاك الميكروبات العنقودية والسبحية ، وهى التى تسبب البثور والدمامل والقروح وغيرها، وفى إبادة الميكروبات التى تسبب الدفتريا والالتهاب الرئوى وغيرها من مختلف الأمراض الخطيرة التى تصيب الإنسان ! . . .

كان النجاح العظيم الذى صادف العلماء ، فى اختبار قوة البنيسلين على المزارع البكتيرية أو الميكروبات ، مشجعا لهم على مواصلة الأبحاث لعلهم يجدون فى هذه المادة عقاراً طبياً جديداً لمقاومة الميكروبات داخل الأجسام الحيوانية والإنسانية ، -

وابتدأت هـذه التجارب الأولية فى إحدى جامعات انجلترا المشهورة بقدم عهدها وعلو كعبها فى مختلف الأبحاث والعلوم ، وهى جامعة اكسفورد ! . . . هناك فى قسم الباثولوجيا الطبية فى هذه الجامعة كان عالم فذ يشتغل ونفراً من مساعديه الأخصاء ليخرج للعالم أنجع عقار علاجى عرف حتى الآن فى علم الطب الوقائى . أما هذا العالم فهو الأستاذ فلورى ، أستاذ الباثولوجيا بجامعة أكسفورد ، فقد واصـل العمل ليل نهار ليتم هذا الاكتشاف العظيم ، ومع أن الدكتور فلمنج كان المـكتشف الأول لمادة « البنيسلين » إلا أنه لولا فضل الأستاذ فلورى وأعوانه لأمست هذه المادة شيئا مجهولا منسيا ، ولـكن علماء أكسفورد أبوا إلّا أن يجعلوا من هذه المادة عقاراً مشهوراً وأن يعملوا على الاستفادة منها فى مختلف الميادين الطبية والإنسانية ، وقبل أن نصف ماهية هذه التجارب ونتائجها الحيوية يحسن بنا أن نلقى نظرة خاطفة على تاريخ حياة الأستاذ فلورى ! . . .

لا نريد من الإشادة بتاريخ حياة هذا العالم أن نعظم من شأنه أو نزيد من مكانته ، فليس هو إلا أحد الأفراد الكثيرين الذين عملوا على الانتقال بمادة البنيسلين من عالم الأبحاث النظرية إلى

عالم التجارب الطبية الإنسانية ، ولكن نريد من دراسة تاريخ حياته أن نذكر للقراء مثلا مصغرا لحياة العلماء والمخترعين فى مختلف الإمبراطورية البريطانية ، فقد تعهدت هذه الإمبراطورية أبناءها النابغين منذ نشأتهم لتجعل منهم جيلا منتجاً قوياً ، فهيئت لهم إبان طفولتهم وشبابهم سبل العيش الهنىء والحياة الرغدة ، ومهدت لهم الطرق للأسفار وتبادل الآراء مع غيرهم من علماء الممالك الأخرى المتمدينة ! . .

الأستاذ فلورى

إذا كان لكل عالم قصة ، فقصة الأستاذ فلورى مثل من أمثلة التوجيه الثقافى الأول فى نشأة النابغين وفى خلق جهابذة العلماء والباحثين ، فقد ابتدأ فلورى حياته الجامعية كطالب فى جامعتى أدليد وأكسفورد ، ومن ثم تبسم له الحظ السعيد فتوصل بنبوغه وعبقريته إلى إحراز عدة مكافآت مالية أتاحت له الفرصة للتجوال فى بقاع العالم المتعددة والارتشاف من مناهل الثقافات العلمية من مختلف البلدان ، فأحرز جائزة رودس عام ١٩٢١ فمكنته من الذهاب إلى جنوب أستراليا ، ثم جائزة جون لوكاس



(شكل ٧)
« الأستاذ فلوري »

عام ١٩٢٤ التى تمتع بمزاياها كطالب أبحاث فى جامعة كمبردج ، وكان من حسنات مؤسسة روكفلر وخيراتها أن أتاحت له الفرصة فى عام ١٩٢٥ لأن يذهب إلى أمريكا ليرتوى من موارد المعارف والعلوم فى هذا العالم الجديد الذى أصبح لساكنيه القدح المعلى فى تقدم الأبحاث ورقى الفنون ! . . . تلك كانت البداءة الطيبة لحياة الطالب الباحث فلورى ، حياة يكتنفها التقدير والنبوغ ، وتحيط بها الظروف المواتية ! . . .

وصل الطالب فلورى بعد هذه المرحلة الثقافية المتباينة إلى مركز علمى محترم أهّله لأن ينتخب فى عام ١٩٣٦ عضواً فى كلية كونفيل وكايس بجامعة كمبردج ، ولا ينتخب لمثل هذه العضوية إلا النابغون من جهرة العلماء وفطاحل الباحثين ! . . . وجامعة كمبردج هى جامعة أهلية تمدها الحكومة بإعانات سنوية ، إلا أنها وصلت بطاقتها العلمية وقدرتها المادية إلى مركز كبير علمى لم تبلغه بعد إحدى الجامعات الحكومية الشرقية أو الغربية ، فأصبحت بذلك محط رحال الطلاب الذين يفدون عليها من مختلف مشارق الأرض ومغاربها ! . . . وقد تفردت جامعة كمبردج وزميلتها

أكسفورد باتباع نظام جامعى صحيح ينال فيه الطالب والباحث ثقافة علمية واسعة ممزوجة بكفاية رياضية ممتازة ، فقسمت الجامعة إلى مدارس وكليات ، أما المدارس فهى أمكنة الدراسة وميادين العلوم والأبحاث ، وأما الكليات فهى مجال النشاط الرياضى ومجال ينال الطالب فيه قسطه من الراحة ونصيبه من الغذاء الصحى الكامل ، فتعهدت هذه الجامعة الأجسام برعايتها مع تعهد العقول بثقافتها وعلومها ، ليقينها أن صحة الأجسام وسلامتها من أهم الأسباب فى صفاء العقول ونبوغها ! . . . وهكذا أتاحت هذه العضوية للطالب فلورى حياة طيبة رغدة فى جامعة كمبردج ، وكفلت له جملة مميزات أدبية ومادية تقلل من تكاليف الحياة وتحد من متاعبها ، فهو يستطيع أن يواصل أبحاثه المختلفة فى جو من الطمأنينة وهدوء النفس ، فيجد فى الكلية المسكن الذى يؤويه والمأكل الصحى الذى يقويه ، وفضلا عن ذلك فإن هذه العضوية تمده بمكافأة مالية شهرية محترمة يستطيع بها أن يرفه عن نفسه وتعينه على قضاء حاجاته الخاصة ! . . .

كانت حياة فلورى فى كمبردج فاتحة عهد جديد ، فبعد

مضى عام على عضويته فى كلية كونفيل وكايس أختير محاضرا فى علم الباثولوجيا الخاصة فى الجامعة نفسها ، وهكذا قضى فلورى جانباً محترماً من طلائع حياته العلمية من عام ١٩٢٦ إلى عام ١٩٣١ بين جدران جامعة كمبردج ، يتمتع بنتائج أبحاثها المتعددة المتباينة ، ويرتشف من مناهل علومها ومميزاتها ! . . . وفى عام ١٩٣١ كان قد ذاع صيته بذيوع أبحاثه الخاصة وارتقى مقاماً علمياً ساميا أهله لأن تختاره شيفيلد أستاذاً لعلم الباثولوجيا الطبية فى جامعتها ، وبعدذلك بأربع سنين انتقل إلى منصب أستاذية هذه المادة فى جامعة اكسفورد ، وهكذا وصل إلى أسمى المراكز العلمية التى يتطلع إليها أكبر العلماء صيتا وأعظمهم مقدرة وعلما ، فانتقل بذلك بين جدران جامعتى كمبردج وأكسفورد ، وهما أعظم الجامعات الانجليزية شأناً وأقدمها عهداً ! . . .

أنتج الأستاذ فلورى فيضاً من الأبحاث الباثولوجية والفسيولوجية التى ملأت المجلات الفنية الكثيرة ، فكانت وحى محتوياتها ، ومصدر غذائها ، وكانت تقابل فى الأوساط العلمية المختلفة بحسن التقدير وعظيم التمجيد ! . . . تواترت هذه

المؤلفات بتعاقب الأيام وتوالى السنين إلى أن أظهر الأستاذ فلورى للعالم هذا الاكتشاف الفذ العظيم ، اكتشاف الفائدة العلاجية للبنيسلين كأهم عقار طبي حديث فى مقاومة الميكروبات العدائية التى تصيب الإنسان ، فتجعل منه ضحية لاعتدائها وهدفاً لإفراز سمومها وأضرارها ! . . . كان هذا الحادث الفريد سبباً فى رفع اسم هذا العالم إلى مستوى العظماء من أفذاذ الباحثين وأبطال المخترعين . وقد انتخب بفضل هذا الاكتشاف عضواً فى الجمعية الملكية البريطانية عام ١٩٤١ ، وعضوية هذه الجمعية لا ينال شرف الانتساب إليها إلا عدد محدود من فطاحل العلماء ، الذين أسدوا للعلوم خدمات جليلة مختارة ، وأفادوا الإنسانية فائدة عظيمة ممتازة ! . . .

وحياة الأستاذ فلورى لم تكن جميعها جافة متعبة ، فلم ينس هذا العالم ، وقد انهمك فى مختلف أبحاثه ومتباين مخترعاته ، ما لجسده عليه من حق الراحة وواجب الاستجمام ... فهو كغيره من الانجليز ، يقدرون الألعاب الرياضية تقديرهم لغيرها من ضروريات الحياة ومستلزماتها ، ومن أحب أنواع الرياضة إليه التنس ، فتلك الرياضة المحببة إلى نفسه تنسيه بين آونة وأخرى

متاعب الأفكار ومصاعب الأبحاث ! . . . وإذا كانت الرياضة البدنية إحدى سبل الترفيه عن النفوس وإراحة الأعصاب فهناك أيضاً رياضة نفسية مصدرها حسن التشجيع ، وتتسامى تلك الرياضة النفسية فى مقاصدها ويتعالى مقامها إذا كانت صادرة من نفس ملهمة مشفقة ! . . . وإن المستمع للمحاضرات العامة التى يلقيها الأستاذ فلورى ليستشف تلك النبرات العاطفية الظاهرة التى تنتاب صوته كلما ذكر اسم زوجته كعامل من العوامل النفسية المشجعة على نجاح أبحاثه وعلى ما بلغه من سمو المقام وذيوع الصيت ، وهكذا تستطيع المرأة دائما ، بقدرتها النفسية الفريدة ، على إتيان المعجزات فى خلق العلماء والعظماء ! . . .

الخواص الأقراباذينية

توالت فصول قصة البنيسلين فيما قبل ، من فطريات تعيش فى التربة والهواء فتكافح الميكروبات وتصرعها بإفرازاتها المختلفة المهلكة ، ومن ميكروبات تعيش فى الأجسام الإنسانية فتصارعها خلايا الدم البيضاء ، فإما صرعتها وأمسى الجسم صحيحاً سليما ، وإما أهلكتها فأصبح الإنسان مريضاً عليلا ، فذلك التوازن

بين قوة الخلايا البيضاء للدم ومقاومتها و بين الميكروبات وشدة فتكها هو فى الحقيقة العامل الحيوى فى انتصار الأمراض أو انهزامها ! . . .

. . . ولما كان البنيسلين هو العامل الفعال فى نتيجة هذا التوازن ، إذ أنه يعمل على انتصار الخلايا البيضاء للدم فى هذا الكفاح بالحد من نمو الميكروبات وتكاثرها ، كانت الخطوة الطبيعية التالية لاكتشاف تأثير البنيسلين فى الميكروبات فى المزارع الصناعية أن يختبر تأثيره فى خلايا الدم البيضاء و فى غيرها من خلايا الجسم الإنسانى ، فليس هناك من فائدة ترجى إذا كان هذا العقار يميت الميكروبات ويقتل أيضاً حامليها من إنسان أو حيوان ، وقد كانت مركبات السلفوناميد المستعملة حينذاك ذا مفعول سام خفيف على الأجسام وكان تأثيرها السام قوياً شديداً على بعض الأبدان ، فاختبار قوة البنيسلين فى التأثير فى الأجسام ، من حيث سلامتها أو تسميمها ، كان عاملا أساسياً عظيما فى الحكم على هـذا العقار الجديد بالفناء الدائم أو البقاء المقيم ! . . . وقد عمل الأستاذ فلورى ، بمصاحبة نفر من مساعديه الأخصاء أمثال كابين وفلتشر وجاردنر وهيتلى وغيرهم ، على

مواصلة الأبحاث الطبية لاختبار الصفات الأقراباذينيـة لهذا العقار الجديد !....

يقصد بالصفات الأقراباذينية لعقار طبي هى اختبار خواصه المختلفة على الميكروبات وعلى مختلف أجزاء الجسم الإنسانى ، وتجارب الفيران هى تجارب يقصد بها دراسة تأثير العقاقير الطبية الجديدة فى خلايا أجسام الفيران لاختبار قوة نفعها أو مضار تسميمها ، فهى التجارب الأولية التى يستطاع بنجاحها الانتقال بهذه المواد الجديدة من عالم الأبحاث والتجارب النظرية إلى ميادين العمليات الجراحية الإنسانية ، وقد كانت تلك التجارب دائماً المجال التجريبى الأول لدراسة ماهية المناعة الطبيعية الإنسانية ضد الميكروبات وخواصها ! ... وإذا كان لكل باحث هدف أساسى قد امتلك عليه حواسه واستنفد قوة تفكيره ، فقد كان الهدف الرئيسى لمختلف أبحاث الأستاذ فلورى هو دراسة ماهية المناعة الطبيعية ضد الميكروبات فى الإنسان ، وقد واصل الأبحاث فى هذا الاتجاه الإنسانى العظيم ، ففى عام ١٩٣٠ اشتغل مع جولد سورسى ، بدراسة المميزات الفسيولوجية والخواص المختلفة لمادة طبيعية ، اكتشفها العالم فلمنج ، توجد فى الدموع

الإنسانية وتسمى « ليسوزيم » ، وهى نوع من الأنزيمات أو المواد المذيبة التى لها القدرة على قتل الميكروبات وإهلاكها ، وقد وجد أن هذه المادة منتشرة انتشاراً كبيراً فى الطبيعة فهى توجد فى بياض البيض وفى بعض الميكروبات وفى النباتات وفى كثير من الأنسجة الحيوانية ! . . .

إن اكتشاف هذه المادة الطبيعية ، المقاومة للميكروبات العدائية ، فى بياض البيض لهو إحدى النعم الجزيلة التى أسبغها الله سبحانه وتعالى على عباده الضعفاء ، ليستطيعوا بها مكافحة الحياة بآفاتها وأضرارها ، فالبيض يكاد يكون طعاما شعبياً متداولا بين مختلف الطبقات فى القطر المصرى ، وقد كان لفوائده ومميزاته الكثيرة فضل عظيم فى تجنيب الإنسانية ويلات أمراض كثيرة خطيرة ، فهو يحتوى على المواد الغذائية الضرورية التى يتطلبها الجسم الإنسانى لاستمرار حياته وتقوية بنيانه ، كالأملاح المختلفة والمواد الزلالية والدهنية ، ويحتوى صفاره على جملة فيتامينات يستطيع بها الإنسان أن يقاوم بها كثيراً من مختلف الأمراض ، ففيه الفيتامينات المضادة لأمراض ملتحمة العين والبرى برى والتهاب الأعصاب والكساح وغيرها ... أما

بياض البيض فقد اكتشفت فيه تلك المادة الطبيعية العجيبة أو « الليسوزيم » التى تسبغ على الأجسام الإنسانية نعمة المقاومة وخاصة المناعة ضد كثير من الأمراض المعدية ، وهكذا فهناك صلة وثيقة بين وسائل التغذية وأنواعها وبين مقاومة الأمراض وصراعها ، تلك الصلة التى يجب أن تكون هدف العلماء والباحثين عند دراسة طرق انتشار الأمراض ومقاومتها ! . . .

كانت النتائج الباهرة التى حصل عليها فلورى فى دراسة مادة « الليسوزيم » واكتشاف مميزاتها مشجعا له على مواصلة الأبحاث لاستجلاء خواص غيرها من الإفرازات الطبيعية التى تقاوم بها الفطريات أضرار الميكروبات المتجاورة ! ... وقد كان من محاسن الأقدار أن كان البنيسلين أول هذه المواد التى استرعت الأنظار بأعاجيب تأثيرها ، فهى المادة الوحيدة التى استطاعت أن تمنع إصابات الستافيلوكوك والستربتوكوك ، وكلاهما من أخطر الميكروبات أثراً وأعظمها انتشاراً ! . . . . .

والستافيلوكوك ، أو الميكروبات العنقودية ، تشابه عناقيد الكروم فى تركيبها . . . والستربتوكوك ، أو الميكروبات السبحية ، تشابه المسبحة فى تسلسل حباتها . . . وكلاهما يسببان الالتهابات

القيحية كالدمامل والخراجات والغلغمونى وتقيح الجروح ! . . . والميكروبات السبحية أشد خطراً من العنقودية ، إذ أن بعض أنواعها يسبب الحمرة وحمى النفاس والتهاب صمامات القلب والروماتزم الحاد والحمى القرمزية وتسمم الدم ، وجميعها من الأمراض الخطيرة القاتلة ، والأنواع التى تسبب تسمم الدم كثيراً ما كانت سبباً مباشراً فى قتل الأبرياء من الجراحين عند حدوث وخز أو جرح لهم فى أثناء العمليات المتقيحة ! . . .

كانت أول الخطوات التالية لدراسة خواص البنيسلين طبياً هو الاجتهاد فى فصله فصلا خالصاً نقياً ، و بعد مضى عام من من ابتداء هذه الأبحاث نجح الأستاذ فلورى بمعاونة غيره من علماء أكسفورد فى تحضير عقار البنيسلين على هيئة مسحوق أصفر اللون . . . وتتلخص طريقة تحضير هذا العقار الجديد فى تربية الفطر « بنيسليوم نوتاتم » على محاول غذائى خاص لمدة أربعة عشر يوما على الأقل ، ثم معاملة السائل الأصفر الناتج من نمو الفطر ببعض المذيبات العضوية غير القابلة للاختلاط بالماء ، ثم تعريض المذيب العضوى بما يحتويه من مادة البنيسلين للتبخير تحت الضغط العالى ، لأن التبخير الحرارى يؤثر فى

خواص البنيسلين الطبية ويحيله إلى مادة أخرى غير فعالة ! ...
كان النجاح فى تحضير هذا المسحوق نتيجة مجهودات متواصلة جبارة ، ولكنها لم تصل فى نجاحها إلى مرتبة الكمال المرجوة ، فلقد وجد أن هذا المسحوق إنما يحتوى على حوالى واحد فى المائة من البنيسلين النقى مختلطاً بغيره من مختلف المواد الغريبة ، ولكنه رغما عن نسبته الضئيلة فتأثيره قوى واضح فى الستافيلوكوك والميكروبات الأخرى ، إذ أنه يقف نمو هذه الميكروبات وتكاثرها وهو مخفف بنسبة واحد إلى خمسمائة ألف ، وهى خاصة تعادل فى قوة تأثيرها أقوى المطهرات البكترية المعروفة حينذاك كالأكريفلافين وغيرها ! . . . وقد أثبت الدكتور ابراهام القوة العجيبة لهذا العقار الجديد بمقارنته بغيره من أحسن العقاقير المعروفة المستعملة فى مقاومة الميكروبات ، فعمل محلولا مركزاً كل التركيز من السلفابيريدين والسلفاتيازول ، ووضع قدراً من كل من هذين المحلولين فى بعض المزارع الغاصة بمختلف الميكروبات القاتلة ، فلم يستطع أحدهما أن يقف نموها وقفاً كاملا ولكنه قام بتجربة البنيسلين على هذه المزارع البكترية فوجد

أن هذا العقار الجديد لا يترك ميكروباً واحداً داخلها دون أن يقف نموه ويحد من تكاثره ! . . . .

تتابعت الأبحاث بعد ذلك فى تنقية هذا المخلوط من المواد الغريبة المختلفة ، ولكنها كانت غالباً محاولات فاشلة غير مجدية ، لأن الكميات المحدودة التى كانت تحضر من هذا المخلوط تستنفدها سريعاً الضروريات العسكرية الطارئة ، ولأن هناك عقبات جمة فى تحضير هذا المخلوط بكميات كبيرة وافرة ، وقد بين العالمان إبراهام وكايين أهمية هذه الصعوبات فى الأبحاث الخاصة بتنقية البنيسلين تنقية خالصة ! . . . وترجع هذه الصعوبات إلى عاملين مهمين ، فالعامل الأول هو عدم قدرة العلماء على إنتاج البنيسلين بكمية وافرة بسبب الصراع الهائل الذى يبديه بعض الميكروبات الهوائية فى العمل على إزالة تأثير الإفرازات الفطرية المضادة لنموها ، والعامل الثانى يرجع إلى فقدان البنيسلين لخواصه الطبية عند معاملته ببعض المركبات الكيميائية لتنقيته من المواد الذائبة الغريبة ! . . . أما بخصوص العامل الأول ، فقد وجد أنه إذا أريد إنتاج البنيسلين إنتاجا كبيراً وجب تربية الفطر « بنيسليوم نوتاتم » فى زجاجات كبيرة واسعة ، وهذه الزجاجات كلما ازدادت

سعتها ازدادت الفرصة أمام الميكروبات الهوائية لتتخذ طريقها إلى المحلول الأصفر الداخلى ، لتنفث فيه إفرازاتها المختلفة التى تفسد عمل البنيسلين وتزيل تأثيره العدائى نحوها . . . . وهكذا فالصراع مستمر شديد بين الميكروبات الهوائية والبنيسلين من جهة و بين الباحثين وتطفل هذه الميكروبات من جهة أخرى ، ذلك الصراع الذى يسود الحياة جميعها فى مختلف ميادينها ! . . . ولم تقتصر هذه الصعوبات فى تنقية البنيسلين على عدم وفرة كميات موارده الخامية ، بل تعدته إلى عدة عوامل أخرى ، فالبنيسلين شديد الحساسية لتأثير الحرارة والأحماض والقلويات ، فيفسد مفعوله فساداً تاماً عند محاولة تنقيته بإحدى هذه العوامل الشائعة الاستعمال ، كما أن خواصه الطبية المضادة للميكروبات تزول بتأثير بعض الأملاح و بوجود المواد الكحولية الأولية والأمينية والكيتونية والعوامل المؤكسدة المختلفه . . . . وهكذا فالمزايا السحرية للبنيسلين ، فى مقاومة الميكروبات العدائية ، قد يزول تأثيرها زوالا أبدياً بسبب مختلف العوامل الطبيعية والكيميائية ! . . . .

لم تكن هذه الصعوبات لتحد من نشاط نوابغ الكيميائيين

لمواصلة أبحاثهم فى استخلاص مادة البنيسلين استخلاصاً كاملا نقياً ، فهذا العقار الجديد كلما ازدادت معرفة الناس بمميزاته السحرية فى إهلاك الميكروبات ألهمت الأفكار ونشطت العبقريات فى العمل على استكشاف ماهيته واستجلاء خواصه المجهولة ... وفى عام ١٩٤٢ نجح العلماء كاتش وكوك وهايلبرون، بعد مجهودات متواصلة مضنية ، فى ابتكار طريقة جديدة كروماتوجرافية لاستخلاص البنيسلين النقى وتركيزه تركيزاً قوياً، فأمكن بذلك تحضير كميات قليلة من أملاح البنيسلين المتبلورة !.

لم تكن هذه الطريقة لتشفى غلة المتعطشين لإنتاج البنيسلين إنتاجاً تجارياً كبيراً ، ولكنها كانت سبيلا ناجحاً لتحضير كميات قليلة نقية ، يستطيع بوساطتها العلماء أن يواصلوا أبحاثهم التجريبية على تأثير هذا العقار العجيب ودراسة تركيبه الكيميائى . . . وقد وجد أن هذه المواد النقية الخالصة لها تأثير سحرى شديد فى الميكروبات المسببة للأمراض الإنسانية ، فهى تقف نمو الستافيلوكوك (الميكروبات العنقودية) وقفاً تاماً إذا خففت بنسبة واحد إلى خمسين مليوناً ، وتثابر على هذه القوة العدائية ولو خففت إلى نسبة واحد إلى مائة وخمسين مليوناً ! ...

وتأثيرها فى ميكروبات الحمى المخيـة الشوكية (مننجوكوك) وميكروبات السيلان (جونوكوك) أشد قوة وأبعد أمداً ! . . . وهكذا كان العمل على استخلاص البنيسلين استخلاصاً كاملا نقياً أحد الميادين العلمية الإنسانية التى يكافح للنجاح فيها عباقرة الباحثين وجهابذة الـكيميائيين ! . . .

تشعبت الأبحاث بعد ذلك على البنيسلين إلى وجهات مختلفة ، فمنها ما هو خاص بتحسين الطرق المستعملة فى استخلاصه من السائل الفطرى ، ومنها ما هو خاص بالعمل على دراسة تركيبه الـكيميائى لإمكان إنتاجه إنتاجاً تجارياً واسعاً ، ولما كانت الحرب لا زالت قائمـة والقوات المتحاربة فى أشد الاحتياج السريع إليه لمعالجة إصاباتها والتئام جروحها، فقد تركت الأبحاث الخاصة بدراسة التركيب الـكيميائى للبنيسلين لتجرى مجراها الطبيعى البطىء ، وتركزت المجهودات فى استنباط الوسائل الممكنة لتحسين إنمـاء الفطر « بنيسليوم نوتاتم » فى المحاليل الغذائية ، والعمل على ابتداع أنجح الطرق لاستخلاص البنيسلين من هذا السائل بطرق سهلة سريعة ... ويوجد الآن فى كل من انجلترا وأمريكا عدد من المعامل الضخمة لإنتاج البنيسلين إنتاجاً

تجارياً ، وتزداد هذه المعامل فى عددها وفى حسن استعدادها كلما سمحت بذلك الظروف الإنشائية المواتية ، إذ أن المعمل الواحد يحتاج إلى مئات الآلاف من الزجاجات الكبيرة التى يزرع بداخلها الفطر ، كما أنه يحتاج إلى كثير من المواد الكيميائية والأجهزة العلمية ، هذا عدا مختلف الكيميائيين والعمال الذين يقوم كل فريق منهم بإحدى عمليات الإنتاج ، وعدا العدد الكبير من الفتيات اللواتى يقمن بغسل الزجاجات وتعقيمها ، وتحضير المحلول الغذائى للفطريات وعمل المزارع اللازمة لنموها ، وجمع السوائل المحتوية على البنيسلين وتركيزها ! ....

لقد كان من عجائب الأقدار أن كانت الحرب — وهى إحدى المغريات للاكثار من كمية البنيسلين لمقاومة أضرارها وانتشال ضحاياها ، سبباً مباشراً فى الحد من توافر المواد الكيميائية وتكامل الأجهزة العلمية ، وهما من ألزم الضروريات فى تحضير هذا العقار الجديد المفيد ! ... وهكذا فإن المقادير التى تستخرج من هذا الدواء محدودة جداً فى الوقت الحاضر ، ويرسل الجزء الأكبر منها إلى القوات المتحاربة ، ولا يترك لاستهلاك المدنيين إلا جزء يسير لا يسمح باستعماله إلا فى الحالات الخطيرة التى

لم يجرب البنيسلين من قبل فى معالجتها .... وليس هناك من أمل فى الحصول على كميات كبيرة من هذا الدواء الفريد إلا بعد معرفة تركيبه الكيميائى والعمل على تحضيره تحضيراً كيميائياً بحتاً ، والأبحاث الجبارة مازالت متواصلة فى هذا الاتجاه العلمى الجديد .

ابتدأت الأبحاث الخاصة بدراسة التركيب الكيميائى للبنيسلين عام ١٩٤٢ فى مدرسة سير وليم دن للباثولوجيا الطبية بجامعة أكسفورد ، حيث ابتدأ العالمان إبراهام وكايين فى مواصلة التجارب المختلفة للنجاح فى هذا المضمار الإنسانى المفيد ، واستعان هؤلاء لإتمام أبحاثهم بغيرهم من نوابغ الكيميائيين أمثال الدكتور بيكر والسير روبرت روبنسون . . . وترددت أخبار محاولات هؤلاء الباحثين فى سائر أنحاء العالم ، فاقتفى آثارهم غيرهم من مختلف العلماء فى انجلترا وأمريكا وغيرها ، وما زالت تلك الأبحاث إلى الآن فى مستهل تقدمها ! . . . ولا يتسع المجال هنا لذكر التفصيلات العلمية الخاصة بهذه التجارب الكيميائية ، ولكننا نستطيع أن نقول إن الغرض الأساسى منها هو العمل على تحليل مادة البنيسلين المعقدة إلى مركباتها الأولية ، ودراسة هذه المركبات ومميزاتها ، ثم الاجتهاد فى مزجها وتأليفها بنسب

مخصوصة لتركيب العقار تركيبا كيميائيا خالصا ... وقد وجد أن معاملة البنيسلين بالأحماض ينتج مركبين أوليين مختلفين أحدهما حامض أميني يسمى « بنيسيلامين » والآخر يعرف بحامض « البنيليك » . . . ووجد العلماء كانش وكوك وهايلبرون أن معاملة البنيسلين بالأحماض والقلويات المخففة وبالقواعد العضوية المختلفة (كمشتقات الأنيلين) تنتج مخلوطا من مواد متباينة ، منها ما هو حامض شفاف يذوب فى الماء ، ومنها ما هو نوع من الصبغيات غير القابلة للذوبان ، ومنها ما هو نوع من الألدیهیدیات ! . . ولا نستطيع الآن أن نتكهن بنتائج هذه الأبحاث ومميزاتها ، ولكن نرجو من صميم أفئدتنا لهذه المحاولات كل تقدم ونجاح ، حتى تستطيع الإنسانية المعذبة ، وقد قاست ما قاست من أضرار الحروب وويلاتها ، أن تجد ما يكفيها من البنيسلين لمداواة أوجاعها والتئام جروحها ! . .

توالت قصة البنيسلين فى فصول متعددة متتالية ، فكان هناك فصل خاص بالمحاولات الأولية التى أجريت لاختبار قوة البنيسلين على نمو الميكروبات فى المزارع الصناعية ، وكان هناك فصل خاص بوصف التجارب المختلفة التى قام بها العلماء لتحضير دواء

البنيسلين خالصاً نقياً ! . . . وهناك فصل آخر لا يقل عن هذه الفصول روعة وجمالا ، بل ربما فاقها فى مدى تأثيره وماهية نتائجه . . هذا الفصل الجذاب خاص بتلك التجارب التاريخية التى أجراها العلماء لاختبار تأثير هـذا العقار الجديد فى الجسم الإنسانى ، إذ أن هنـاك عدداً كبيراً من المواد الكيميائية والفطرية التى تؤثر فى الميكروبات فى المزارع الصناعية ، ولكنها إذا حقن الجسم الإنسانى بها سببت له مختلف الآلام ! .

تجارب الفيران

تمر بالإنسان فى هذه الحياة الدنيا فترات هامة ولحظات حرجة تتنازعه فيها الأفكار ، وتشتد هـذه الفترات خطورة وحرجا عندما يكون مقدما على إحدى المحاولات الجدية أو المشروعات الهامة ، التى قد يكون فى نجاحها إعلاء لشأنه وتمجيد لذكره ! . تلك كانت المؤثرات المعنوية التى استولت على أفكار نفر من العلماء عند محاولاتهم الأولية التاريخية للانتقال بمادة البنيسلين من عالم التجارب العلمية البحتة إلى ميدان التطبيقات العلاجية الإنسانية ، ولم تكن هذه التجارب من السهولة بمكان ، إذ أن

القوانين التشريعية جميعها تعاقب المعتدين على الأرواح البشرية سواء أكان هذا القتل سببه النزعات الإجرامية أو كان هدفه التجارب الطبية العلاجية ! . . ولقد استقر رأى العلماء عند اختبار تأثير أى عقار طبي حديث أن يجربوا تأثيره أولاً فى بعض الحيوانات كالفيران والكلاب والأرانب البرية وغيرها ، وعلى مختلف خلايا الأجسام الإنسانية بعد فصلها وتربيتها ، فإذا كانت هذه التجارب الأولية محمودة الآثار مأمونة العواقب كان ذلك بشيراً ناجحاً بإمكان استعمالها ، وكان فألا حسناً بامتداد أفضالها لتشمل الإنسانية بفوائدها وخيراتها ! .

عمل الأستاذ فلورى بمصاحبة نفر من مساعديه الأخصاء على اختبار قوة تأثير البنيسلين فى أجسام الفيران وقوتها ، وفى الميكروبات التى تتطفل عليها وتهلكها ، فأخذوا خمسين فأراً تتمتع بكامل الصحة وتمام العافية ، وحقنوها جميعها بالميكروبات السبحية (ستربتوكوك) والعنقودية (ستافيلوكوك) وما شابهها من الطفيليات المهلكة المسببة لمرض الجانجارين الغازى الخطير ، وهذه الفيران المحقونة لا بد أن يكون مصيرها الموت الزؤام إن لم تسعفها رحمة الباحثين بالعقاقير الطبية المضادة . . وقد

قسمت هذه الفيران المصابة إلى مجموعتين متساويتين : أما أفراد المجموعة الأولى فقد تركت وشأنها لتعانى سكرات الموت وآلام المنون ، فطواها الردى جميعها بعد يومين كاملين من ابتداء إصاباتها . . . وأما أفراد المجموعة الثانية فقد تعهدتها رعاية الباحثين ، فسهر على معالجة علاتها وتخفيف آلامها نفر من فطاحل الأطباء وأئمة العلماء ، وواصل الأستاذ فلورى وأعوانه المخلصون العمل ليل نهار ليحقنوا هذه الفيران المصابة بدواء البنيسلين كل ثلاث ساعات . ! . . . كانت هذه اللحظات تمر عليهم مرور الأعوام والقرون ، إذ أن فى حياة هذه الفيران بعد معالجتها حياة آمالهم ومبعث مجدهم ، والأمل والمجد هما أسمى أهداف النفوس البشرية الوثابة . . . وهما محك همم الباحثين ووحى عبقريات العاملين ، فضلا عن الخير العميم الذى يعود على الإنسانية ! . . . انهمك هؤلاء العلماء فى مواصلة مجهوداتهم الجبارة لمعالجة مرضاهم من الضحايا الحيوانية ، وكانت ملامحهم مرآة صادقة لما يقاسيه الفيران من راحة أو تعب ، فترتفع درجة حرارتهم ، فزعاً ورعباً ، بارتفاع درجة حرارة الفيران ، وتنخفض بانخفاضها . . . وتنفرج أسارير وجوههم ، فرحاً

واطمئناناً ، بانفراج أسارير وجوه الفيران ، وتنقبض بانقباضها ! . وهكذا قضى هؤلاء العلماء ردحاً طويلا من الزمن تحدوهم الآمال وتنتابهم الآلام ، إلى أن ظهرت نتائج مجهوداتهم واضحة جلية ، فتغلبت جميع فيران أفراد المجموعة الثانية على المرض وأصبحت كسابق عهدها سليمة قوية ، فصرعت الميكروبات القاتلة بقوة البنيسلين العلاجية ، وصارعت الموت المؤكد بتأثيراته الفذة السحرية ! . . .

كان نجاح تجارب الفيران أول إكليل من أكاليل المجد والفخار لهذا الدواء الجديد ، فنشطت العزائم وقويت النفوس ، وتوالت الأبحاث بعد ذلك لاختبار قوة تأثير البنيسلين فى مختلف خلايا الجسم الإنسانى ، واختبار قوة هـذه الخلايا وإفرازاتها على نشاط البنيسلين وتأثيره !... وقد وجد أن دواء البنيسلين النقى الخالص ليس له تأثير سام فى الأجسام وأنه لا يفقد قوة مفعوله بتأثير الأنسجة المختلفة وإفرازاتها المتعددة ، فهو يقاوم الميكروبات ويحد من أضرارها إذا كانت الجروح ملوثة بالدم أو الصديد أو غيرهما من مختلف الإفرازات التقيحية ، وتستمر هذه الطاقة المقاومة مهما زادت الميكروبات من قوة

نضالها أو كثرة عددها ! . . . وقد كانت هذه الصفات الفريدة للبنيسلين من أهم سبل نجاحه وأسباب شهرته ، خصوصاً عند مقارنته بغيره من العقاقير الطبية المعروفة المتداولة ، ولا سيما مركبات السلفوناميد الذائعة الصيت . . . فإن هذه المركبات الكيميائية الأخيرة يزول تأثيرها العلاجى إذا كانت الجروح ملوثة بمختلف الإفرازات التقيحية أو كانت الميكروبات قوية فى سبل مقاومتها وكثرة عددها ! . . . ولم تقتصر أفضلية البنيسلين على مركبات السلفوناميد على هذه المميزات بل تعدتها إلى صفات أخرى عظيمة ، فبينما تحدث هذه المركبات الكيميائية أثراً سيئاً فى القلب والكليتين ، وتسبب أحياناً تسمماً عاماً فى بعض الأجسام ، فإن المعالجة بدواء البنيسلين لا تسبب تلك الظواهر ولا تحدث مثل هذه الآلام ! . . .

تتباين العقاقير الطبية الخاصة بمقاومة الميكروبات فى سبل تأثيرها وطرق علاجها ، فمنها ما هو قادر على قتل الميكروبات وإهلاكها ، ومنها ما يستطيع أن يزيل تأثير سمومها وآلام أعراضها ، ومنها ما يعمل عملا متواصلا على وقف نموها وتكاثرها ليمكن بذلك خلايا الجسم الأكالة من ابتلاعها وهضمها ، ويقع

دواء البنيسلين، من حيث كيفية تأثيره العلاجى فى هذا القسم الأخير . . . فالوظيفة الأساسية للبنيسلين هى العمل على تخدير الميكروبات ووقف نموها ، لتستطيع الخلايا البيضاء للدم ، أو ما شابهها من خلايا الجسم الأكالة ، أن تناضل فى سبيل صراعها وافتراسها ! . . .

وقد أجريت عدة تجارب علمية لاختبار تأثير البنيسلين فى خلايا الدم البيضاء ، إذ لا فائدة علاجية ترجى من استعماله إذا كان له تأثير مضاد أو سام على مثل هذه الخلايا الأكالة ، وقد وجد أن الخلايا البيضاء للدم تستطيع أن تحتفظ بقوة حيويتها ودرجة مقاومتها إذا خفف البنيسلين الذى قوته أربعون وحدة ، إلى نسبة واحد فى الألف . . . وهذه النسبة تبلغ من قوة التركيز مبلغاً كبيراً إذا قورنت بقوة التركيز الكافية لوقف نمو الميكروبات العنقودية (الستافيلوكوك) وتكاثرها ، إذ تبلغ هذه النسبة الأخيرة واحداً إلى مليون ! . . . وقد وجد أيضاً أن الخلايا البيضاء للدم تستطيع أن تستمر فى حياتها وتحتفظ بنشاطها إذا خفف البنيسلين ، الذى قوته مائتان وخمسون وحدة ، إلى نسبة واحد فى المائة . . . مع أنه يكفى لمقاومة نمو

الميكروبات العنقودية وتكاثرها نسبة واحد إلى خمسة وعشرين مليوناً ! . . . وهكذا كانت المقادير من البنيسلين الكافية لمقاومة الميكروبات وصراعها لا تؤثر بأى حال من الأحوال فى حيوية خلايا الدم البيضاء ولا تحد من نشاطها ! . . . وقد توالت التجارب بعد ذلك فى اختبار قوة البنيسلين على مختلف خلايا الجسم الإنسانى بعد فصلها وتربيتها ، فوجد العالمان مدور وجاكوبى أن خلايا الأنسجة الضامية وخلايا البشرة المخاطية والخلايا الأحادية تحتفظ بحياتها وقوتها بعد وضعها فى محلول من البنيسلين مخفف بنسبة واحد إلى الألفين لمدة ثمان وأربعين ساعة !.. توالت بذلك المميزات الأقرباذينية لدواء البنيسلين الجديد ، تتحدث بنجاحها المنقطع النظير فى تجارب الفيران ، وبانتصاراتها المتتالية المدهشة فى الأبحاث الخاصة باختبار قوة تأثيره على مختلف خلايا الأجسام الإنسانية فى المزارع الصناعية ، ولم تبق من صعوبات كأداء فى استعمالاته العلاجية الإنسانية إلا دراسة ماهية مفعوله وكيفية تأثيره فى مختلف العمليات الحيوية كالتنفس وضربات القلب وضغط الدم وغيرها . . . وقد عملت عدة تجارب أقرباذينية على القطط لاختبار تأثير هـــذا العقار

العلاجى الجديد فى مثل هذه العمليات الفسيولوجية ، فأثبتت التجارب أنه إذا حقنت هذه الحيوانات بالكميات اللازمة من البنيسلين لوقف نمو الميكروبات وتكاثرها لا ينتج عن ذلك أى آثار ضارة لاستمرار هذه الوظائف الحيوية ! . . . وأثبتت التجارب التى أجريت على الأرانب أن هذا العقار الجديد يستطيع أن يتخذ طريقه إلى سحايا المخ والسوائل المخية الشوكية بدون أن يسبب لها مفعولا ساما أو مضاعفات مؤذية ! . . .

الاستعمالات الانسانية

تطورت قصة البنيسلين تطوراً سريعاً بعد نجاح هذه التجارب الأقرباذينية الأولية ، إذ تجمعت بذلك الأدلة العلمية الكافية ناطقة بعدم تأثيره السام على مختلف خلايا الأجسام البشرية فى المزارع الصناعية ، وبعدم مساسة الضار بالعمليات الفسيولوجية الأساسية فى التجارب الحيوانية ! . . . وقد كان مثار حدس وتخمين بين هيئات العلماء والباحثين بعد ذلك وتساءلوا هل النجاح الذى صادف هذا العقار فى عدم تأثيره الضار فى العمليات الفسيولوجية الحيوانية ، يستمر نافذاً فى العمليات المماثلة

فى الأجسام الإنسانية ! . . . انهمك الأستاذ فلورى ومساعدوه مجدين عاملين على تحضير الكميات الكافية من البنيسلين لمعالجة حالة واحدة من المرضى المصابين الميئوس من شفائهم ، ثم أعطيت أول حقنة من هذا الدواء الجديد . . . كانت النتيجة الأولى مثبطة للعزائم مخيبة للآمال ، إذ شعر المريض بقشعريرة وارتفعت درجة حرارته ارتفاعاً كبيراً . . . لم تثن هـذه الأعراض من إرادة هؤلاء العلماء فى مواصلة أبحاثهم ، بل زادتهم حماسة وشغفاً لاستجلاء مسببات هذه الأعراض ومعالجتها ، وقد وجد أن هذه الآلام لم يكن سببها البنيسلين بذاته ، ولـكنها ترجع إلى وجود عدة مواد أخرى غريبة ممتزجة بهذا الدواء الجديد ، وقد تمكنوا بسهولة كبيرة من التخلص من هذه المواد المؤذية باستخدام الوسائل الكيميائية ، ثم تابعوا بعد ذلك دراساتهم المستفيضة لمعرفة أنجح الطرق لاستخدام هذا العقار فى معالجة مختلف الأمراض الإنسانية وشفائها ، وابتداع أنجع السبل لتقدير الوحدات اللازمة من هذا الدواء وعيارها ! . . . وفى عام ١٩٤٣ تعاون علمـاء أكسفورد والمختصون بالصناعات الكيميائية الإمبراطورية على تحضير الكميات الكبيرة اللازمة

من هذا العقار المفيد لمداواة خمسة عشر مريضاً من المصابين بحالات خطيرة من العفونة والتسمم ، والذين خابت فى علاجهم مختلف العقاقير الطبية المعروفة ! . . . كانت هذه الحالات سبيلا حسناً لاستكمال الدراسات الطبية المختلفة لابتكار أجدى الطرق لاستعمالات البنيسلين الطبية ، وأنجع الوسائل لتعيين الوحدات العلاجية اللازمة منه لتظهر مفعولها وتبدى آثارها.. وقد توصل العلماء بهذه الدراسات التكميلية إلى إيجاد أحسن طرق استعماله وأنسب وحدات عياره ، وتأكدت هذه النتائج فيما بعد بالتجارب المشابهة التى عملت حديثاً فى أمريكا ! . . . وهكذا انتشل هذا الدواء العجيب من الموت المحقق هـــذه الحالات اليائسة الخطيرة من ضحايا الميكروبات ، وتوالت بعدذلك الحالات ناطقة بأفضاله شادية بمعجزاته ! . . .

وتتباين طرق استعمالات البنيسلين حسب أنواع الأمراض وماهيتها ، ففى حالات الجروح والتقيحات الخارجية يستعمل البنيسلين على هيئة محلول أو مسحوق أو مرهم ، أما فى حالات الإصابات الداخلية فيعطى على هيئة محلول ذى وحدات علاجية خاصة ، ويحقن داخل الأوردة أو العضلات أو تحت الجلد ،

ليحمله التيار الدموى إلى سائر أجزاء الجسم المصابة . . . والحقن الوريدية والعضلية وتحت الجلدية هى الطرق الوحيدة لضمان انتشار البنيسلين داخل الأجسام الإنسانية ، إذ أن هذا الدواء لا يستطاع استعماله كجرعات بالفم أو حقنات شرجية . . . ففى حالة استعماله عن طريق الفم تقابله إفرازات المعدة الحمضية فتبطل تأثيره العلاجى وتزيل خواصه الأقرباذينية ، وفى حالة استعماله كحقن شرجية يمر بالأمعاء الغليظة فتبدد مفعوله الطبى ، بوساطة الميكروبات المختلفة التى تعيش بكثرة على خيرات المخلفات الإفرازية . . . . . والميكروبات التى تعيش داخل الأمعاء الغليظة ليست ميكروبات عدائية مسببة للأمراض ، ولكنها كائنات حليفة نافعة ، تعمل على إذابة الفضلات الغذائية الصلبة ، التى لم يتمكن الإنسان من استعمالها وهضمها ، لتحولها إلى مواد سهلة بسيطة ، يستطيع الجسم إخراجها والتخلص من أضرارها ! . . . . ويمتاز البنيسلين عن سائر العقاقير الطبية المعروفة بإمكان حقنه داخل الأجسام الإنسانية بكميات متزايدة كبيرة بدون أن يكون لها تأثير ضار أو مفعول سام . فبينما نرى فى الحالات العلاجية التى تستعمل فيها مركبات السلفوناميد يراعى

فيها التقليل من مقاديره خوفاً من تسمم الجسم وآلامه ، يراعى في استعمال البنيسلين كل التقتير ، ليس خوفاً من تأثيره السام ، ولكن اقتصاداً لكمياته لندرة وجوده وصعوبة تحضيره ! . . . وقد أثبت هذا العقار الطبي قدرته الفريدة الممتازة على معالجة مئات الحالات من الجروح الخارجية الخطيرة ، وإهلاك الميكروبات المسببة لها ، والمساعدة على سرعة شفاء هذه الجروح والتئامها ! . . .

وإذا كان لكل قصة من قصص الحياة حوادثها المثيرة وفصولها الجذابة ، فلها أيضاً مآزقها الحرجة وظروفها السيئة ، وهذه السنة الطبيعية لم تنحرف قصة البنيسلين عنها ، في انتهاج سبيلها واتباع ناموسها ! . . . وإذا كانت قصة البنيسلين مليئة بالمفاجآت الجميلة والأخبار السارة ، ففيها أيضاً فصول شاذة تنطق بمساوئها وتعدد نقائصها . . . وأول هذه النقائص وأبرزها هي صعوبة تحضير هذا العقار وندرة كمياته ، ولا نستطيع أن نجزم جزماً قاطعاً أسبب هذه النقيصة عيوب الدواء أم مصدرها تقصير العلماء ، وستبقى هذه النقيصة متأرجحة بين الجانبين حتى يثبت الزمن ، وهو خير البراهين ، إلى أي الجهتين

نتسبها أو نمحوها ! . . . وقد كانت هذه الصعوبات فى تحضير الكميات الكافية من البنيسلين سبباً مباشراً فى عدم نجاح كثير من العمليات الجراحية ، ونستطيع أن نفهم ذلك عند ما ندرس كيفية تأثير هذا العقار فى الميكروبات داخل الأجسام الإنسانية ! . . . فقد أثبتت التجارب العلمية المختلفة أن العمل الأساسى للبنيسلين هو الحد من نشاط الميكروبات ووقف نموها ، لتستطيع الخلايا الأكالة فى الجسم من مهاجمتها و إهلاكها . . . . فالبنيسلين لا يستطيع أن يقتل الميكروبات قتلاً مباشراً ، فقد وجد مثلا أن الميكروبات العنقودية « الستافيلوكوك » تستطيع أن تستمر فى تنفسها وفى أداء مختلف وظائفها الحيوية وهى موجودة فى محاليل مركزة قوية من البنيسلين لمدة عدة ساعات متتالية ، كما أنها تستطيع أن تستعيد قوتها ونشاطها بعد ذلك إذا عمل على انتشالها من السائل البنيسليني وتربيتها تربية جديدة على مزارع غذائية صناعية ، و يعمل البنيسلين أيضاً على وقف تكاثر هذه الميكروبات وازدياد عددها ! . . . ولما كان وجود البنيسلين بذاته ضرورياً لوقف نمو الميكروبات وتكاثرها ، كان لزاماً على الأطباء عند معالجة مثل هذه الحالات أن يحقنوا الأجسام المصابة

بكميات كبيرة منه ، ليضمنوا وجود هذا العقار دائما جنبا إلى جنب مع الميكروبات لمدة كافية ، لتستطيع الخلايا الأكالة من إتمام رسالتها وصرع خصومها ! . . .

ولم تكن العمليات الفسيولوجية داخل الأجسام الإنسانية لتساعد على ازدياد تركيز قوة البنيسلين ، أو تجاهد فى سبيل حفظ وحداته العلاجية ضد الميكروبات العدائية ، بل سرعان ما تعمل هذه العمليات على إفرازه فى البول أو فى إفرازات الصفراء الكبدية ، وهكذا فلا بد من استعمال مقادير هائلة من هذا الدواء فى المعالجات الطبية الداخلية ، ولا بد من استمرار حقن جسم المريض فى فترات منتظمة متقاربة بمقادير جديدة من البنيسلين لتحل محل غيرها من الكميات المفقودة فى الإفرازات الخارجية ...

وإذا عرفنا أن الجرام الواحد من مسحوق البنيسلين يستخرج من حوالى مائة جالون من السائل الفطرى أمكننا أن نتصور مقدار الصعوبات العلاجية الجمة التى تواجه المشتغلين بهذا الدواء العجيب ، فلمعالجة مريض واحد يجب زرع كميات عظيمة من الفطر « بنيسليوم نوتاتم » لاستخلاص مقادير صغيرة ضئيلة من مادة البنيسلين ! . . . وقد كان عدم توافر الكميات الكبيرة من

هذا الدواء ، والسرعة العظيمة التى تعمل الأجسام الإنسانية للتخلص منه فى إفرازاتها البولية والكبدية ، سبباً مباشراً فى عرقلة كثير من العمليات الجراحية الناجحة ، وفى فقدان كثير من الأرواح البشرية . . . فقد حدث فى إحدى الحالات التى كانت موضع التجربة أن نفدت كمية البنيسلين فى أثناء المعالجة ، وكان المريض يسير سيراً سريعاً مطرداً نحو التقدم والشفاء ، ولكن عدم وجود الكميات الكافية من الدواء حينذاك كانت سبباً فى وفاته ! . . . ومثل هذه الحالات التى تؤلم النفوس ، لا بد أن تتكرر بين حين وآخر ، حتى يهيىء الله للإنسانية المعذبة بأمراضها ، من يواسى جروحها و يشفى آلامها ، ويعمل عملاً جليلاً خالداً فى ابتكار الوسائل العلمية اللازمة لإنتاج الكميات الوافرة من البنيسلين إنتاجاً كبيراً واسعاً !..

ولم يكن تأثير البنيسلين فى الميكروبات جميعها تأثيراً مضاداً قاتلاً ، ولكن تختلف الميكروبات — المسببة للأمراض الإنسانية — فى ماهية نضالها وقوة مقاومتها . . . فمنها مايستطيع أن يستمر فى نشاطه ونموه مهما ازدادت كميات هذا الدواء ، ومنها ما هو شديد الانفعال والحساسية لوجود الكميات الضئيلة

منه فتفقد بذلك قوة نموها وتكاثرها ! . . . ومن الميكروبات التى أثبتت التجارب العلمية والعلاجية المختلفة إثباتاً قاطعاً أنها تتأثر بدواء البنيسلين الميكروبات العنقودية (ستافيلوكوك) والميكروبات السبحية (ستربتوكوك) وكلتاهما تسبب مختلف الالتهابات القيحية التى تزداد سرعة انتشارها وخطورتها فى الجروح المسببة عن المعارك الحربية . . . والميكروبات السبحية من أشد الكائنات فتكاً بالنفوس وحصداً للأرواح إذ أنها تسبب مضاعفات هامة وأمراضاً إنسانية قاتلة ، كالحمرة وحمى النفاس والتهابات صمامات القلب والروماتزم الحاد والحمى القرمزية وتسمم الدم وغيرها ! . . . ولا يخطر على البال أن أمثال هذه الميكروبات قد وقفت صامدة مكتوفة اليدين أمام هذا العدو اللدود من الإفرازات الفطرية ، بل جاهدت وما زالت تجاهد جهاداً متواصلا عظيما فى ابتكار مختلف الطرق لاستمرار حياتها وحفظ كيانها ، وقد أثبت إبراهام — عام ١٩٤١ — أن هناك أنواعاً من الميكروبات العنقودية استطاعت بقوة مواصلة مقاومتها واستمرار ممارستها من إنتاج سلالات جديدة لها القدرة على مكافحة تأثير البنيسلين ، فتستمر فى نشاطها وتكاثرها مهما بلغت هذه المادة

الفطرية مبلغاً عظيما فى قوة تأثيرها ودرجة تركيزها . . . كما أثبت تومسون — عام ١٩٤٣ — أن هناك حوالى أربعة فى المائة من بعض أنواع الميكروبات العنقودية (ستافيلوكوكس أوريس)— التى تسبب جروح الحروب — تستطيع أن تقاوم قوة البنيسلين ولا تتأثر بمفعوله ! . . . وينفرد البنيسلين عن سائر العقاقير الطبية المعروفة فى مقدرته العجيبة على التأثير فى الميكروبات اللاهوائية التى تسبب مرض الجنجارين الغازى ، والتى أعيت نطس الأطباء من قبل فى إيجاد سبل معالجتها وطرق مقاومتها . . . وهذه الميكروبات الفتاكة كانت إذا اتخذت طريقها إلى أحد أعضاء الجسم نفثت فيه سمومها القتالة ، فكان ليس هناك من مناص لاتقاء شرورها إلا ببتر العضو المصاب لإنقاذ بقية الجسم أو بتركها لتواصل أضرارها وتودى بالمريض إلى هاوية الموت والفناء ! . . . ومن الميكروبات التى أثبت البنيسلين قدرته القوية على مكافحة أضرارها والحد من نموها وتكاثرها ميكروبات الالتهاب الرئوى (النيوموكوك) ، وميكروبات الالتهاب السحائى أو الحمى المخية الشوكية (المننجوكوك) ، وميكروبات الدفتريا (نوع من الباشلسات) ، وميكروبات السيلان (الجونوكوك) .

تجارب أمريكية

تتفاوت الاكتشافات العلمية فى قيمتها الطبية ورسالتها الإنسانية ، فمنها ما يولد عليلا فيموت فى مهده ويندثر فى طفولته ، ومنها ما يبعث قويا فينتشر صيته وتعم فوائده ! . . . والبنيسلين هو أحد هذه الاكتشافات التى ولدت قوية ليذاع صيتها فى طفولتها ويعم استعمالها فى حداثتها ! ... ويرجع الفضل الأول فى اكتشاف الفوائد الطبية للبنيسلين لنفر من أئمة العلماء الانجليز أمثال فلمنج وفلورى وغيرهما ، ولكن مسئوليات الحرب ومستلزماتها لم تمكن العلماء الانجليز من أن يتفرغوا للأبحاث الخاصة بالبنيسلين ، فأخذ زملاؤهم الأمريكيون على عاتقهم استكمال الدراسات الخاصة باختبار الاستعمالات العلاجية لهذا العقار الجديد ، والعمل على استنباط أسهل الطرق وأسرعها لإنتاجه إنتاجا تجاريا واسعا !... وقد قامت بالإشراف على هذه الأبحاث الحيوية وإنجازها لجنة علمية خاصة تابعة لمجلس الأبحاث الوطنى ، فاختبرت مختلف الحالات المرضية التى قد يكون للبنيسلين فضل فى شفائها ، أو التى لا يستطيع معالجتها . . .

وكان مما استرعى اهتمام الباحثين دراسة الحالات الميئوس من شفائها ، والتى لم يكن لمركبات السلفا الكيميائية أو لغيرها من العقاقير الطبية المعروفة قدرة على مغالبتها أو الحد من أعراضها ! .

فى إحدى الحالات المستعصية أحضرت فتاة صغيرة إلى مستشفى جامعة ستانفورد الأمريكية ... كانت الفتاة ، ولما تبلغ الربيع السابع من عمرها : فريسة جملة أمراض قاتلة ، فقد أنهك قواها مرض الالتهاب الرئوى (النيومونيا) ، وأضعفها مرض فقر الدم (الأنيميا) ، وازدادت حالتها سوءا على سوء بوجود كميات كبيرة من القيح بداخل تجويفها الصدرى . . . والقيح أو الصديد يحتوى على ملايين الميكروبات المؤذية التى تفسد الدم بإفرازاتها ، وتسمم الأجسام بوجودها ! . . . كانت الفتاة فى حالة خطيرة تتأرجح بين الموت والحياة ، فارتفعت درجة حرارتها ارتفاعا عظيما واعترت جسدها عوارض الضعف والهزال ، ولم تكن الوسائل الطبية المعروفة قبل اكتشاف البنيسلين كفيلة بتخفيف آلامها أو إنقاذ حياتها ! . . . أجرى الأطباء للفتاة المريضة الإسعافات الأولية السريعة ، ففتحت لها قناة فى الغلاف الصدرى وتدلت منها أنبوبة صرف لامتصاص

الصديد المتراكم داخل صدرها ، ولكن هذه الطريقة لم تجد نفعا فى العمل على إنقاذها ، بل استمرت المريضة تقاسى ما تقاسى من تدهور حالتها وازدياد هزالها ! . . . وأخيراً لم يجد الأطباء بدا من اختبار البنيسلين فى معالجتها ، عسى أن يكون فيه الشفاء . . . فاستعملت أنبوبة الصرف كأداة لتوصيل الكميات اللازمة من البنيسلين إلى التجويف الصدرى ،

فلم تمض اثنتا عشرة ساعة على استقراره حتى كان للبنيسلين سحر عجيب ، فهبطت درجة حرارة المريضة واستردت صحتها ، وأثبت الفحص البكتريولوجى خلو التجويف الصدرى خلواً تاماً من كافة أنواع الميكروبات المؤذية ! . . . . وهكذا أنقذ البنيسلين الفتاة المسكينة من عذاب المرض ، وانتشلها من بين مخالب الموت ، وأتاح لها الحياة لتكون بشيراً حسناً للملايين المرضى من بعدها ، ممن قد يصابون بمثل أعراض أمراضها ، أو ينكبون بمثل ما نكبت به من فتك الميكروبات وويلاتها !...

وقد حدث فى مدينة نيويورك أن أصيب طفل رضيع ، لم يبلغ من العمر إلا ثمانية عشر يوماً ، بالتهاب الغشاء المخاطى للأنف واعتراه زكام حاد شديد . . . . والأطفال فى مثل هذه

السن المبكرة يكونون عادة عرضة للموت من أقل الأسباب !..
تراكمت طبقة مخاطية سميكة بداخل الأنف والفم ، وتكون غشاء نزفى داخل الحلق، فساءت حالة الطفل وأصبح من المتعذر عليه أن يتنفس تنفساً طبيعيًا !.... وقد دل الفحص البكتريولوجى على وجود ميكروبات الستافيلوكوك (الميكروبات العنقودية) فى الأجزاء المصابة ، وامتداد إفرازاتها وسمومها إلى الجهاز الدموى ، بل كان من مضاعفاتها أن أصيب الطفل بحالة خطيرة من مرض الالتهاب الرئوى !... كانت حالة الطفل ميئوساً من شفائها ، واتفقت آراء الأطباء جميعاً على استحالة معالجتها ... ولكن لم تثبط الهمم بعد عن إجراء آخر المحاولات لإنقاذ الطفل من بين مخالب الموت ، فوضع المريض فى مفأم اكسيجينى وأعطى مركبات السلفا الشهيرة ، وهى عقاقير طبية ما زالت تحتفظ بقيمتها العلاجية فى مقاومة الميكروبات وصراعها ... لم تجد هذه الطريقة نفعاً فى إنقاذ الطفل من أمراضه ، وكان جل آثارها أن أضافت إلى عمره القصير خمسة أيام أخرى ليذوق فيها مختلف الآلام والأوجاع !... وكان آخر سهم فى جعبة الأطباء هو اختبار القوة العلاجية لدواء

البنيسلين ، فحقن الطفل بمحلول منه . . . ولم تمض على حقنه أربع وعشرون ساعة حتى كان الطفل يرفل فى ثياب الراحة ويسير سيراً سريعاً فى طريق الشفاء ، وقد تحسنت صحته فى الأيام التالية تحسناً ظاهراً فاقت كل ما كان مقدراً لها ... فاختفى الغشاء النزفى ، وزالت أعراض التسمم الدموى ، ودل الفحص بأشعة إكس على زوال ميكروبات مرض الالتهاب الرئوى خلال الأسبوع الثالث من ابتداء المعالجة ! . . .

وإذا كان لكل زمان دول ورجال ، فقد نالت مركبات السلفا الكيميائية مركزها الممتاز فى وقت من الأوقات كاحدى العقاقير الطبية الناجحة لمقاومة الميكروبات ، فلما اكتشف البنيسلين تغلب بصولته ومعجزاته على دولة السلفا وشهرتها . . . ولما كان الناس على عادتهم مختلفى المشارب والنزعات ، فمنهم من لايزال على عهده القديم وفيا لمركبات السلفا الكيميائية ، ومنهم من بهرته معجزات البنيسلين السحرية ، وكان من آثار ذلك أن أخذ العلماء فى مقارنة القيمة الطبية لكل من العقارين . . . وقد أيدت التجارب المختلفة أن الطاقة العلاجية للبنيسلين تفوق فى قوتها مركبات السلفا حوالى ألف مرة ! . . . وقد نجح

البنيسلين فى استئصال بعض حالات مرضية خطيرة . . . ففى بعض حالات مرض الالتهاب الرئوى المستعصية ، التى عجزت مركبات السلفا عن مقاومتها ، أمكن للبنيسلين أن يشفيها فى مدة وجيزة لا تتجاوز يومين أو ثلاثة ! . . . وفى الحالات الناتجة من مهاجمة ميكروبات الحمى المخية (المننجوكوك) لسحايا المخ يتبوأ البنيسلين مركزه الممتاز فى الدفاع عن حياة المريض ، فى حين أنه ليس لمركبات السلفا تأثير فى مثل هذه الحالات ! . . ومما يمتاز به البنيسلين عن مركبات السلفا قدرته الفريدة على استئصال الميكروبات المسببة لالتهاب الغشاء المبطن للقلب ، ففى مثل هـذا المرض الخطير تصبح صمامات القلب ملوثة بالميكروبات ، وينصب منها باستمرار سيل جارف إلى السائل الدموى عند مروره ، فتسبب تسمم الجسم بأكمله ، وتورده موارد التهلكة . . وهكذا كان البنيسلين رسول الحياة لكل مخلوق رمته الأقدار بأرزائها ، أو اصطفته الميكروبات بسمومها وآلامها ! . .

وقد سجل العلماء الأمريكيون للبنيسلين انتصارا عظيما فى معالجة الأمراض السرية كالسيلان والزهرى ، فشفيت جميع

حالات السيلان التى عولجت به خلال مدة قصيرة ، تتراوح بين أربع وعشرين وثمان وأربعين ساعة ! . . . وقد نجح البنيسلين نجاحاً باهراً فى استئصال بعض حالات السيلان المزمنة التى لم تستطع التغلب عليها من قبل كافة أنواع العقاقير الطبية المعروفة !.. أما أثر البنيسلين فى شفاء المصابين بالزهرى فقد كان أشد قوة وأبعد أثراً . . . فشفى المرضى به بعد معالجة لا تتجاوز ثمانية أيام ، ودلت الاختبارات البكتريولوچية للقرحات المصابة بعد المعالجة على زوال الميكروبات ، وأثبت فحص الدم اختفاء مسببات المرض وأعراضه ! . . . وقبل اكتشاف البنيسلين كان الأطباء يعالجون المصابين بالزهرى بحقنهم بمركبات الزرنيخ أو غيرها لمدة طويلة قد تبلغ العام أو أكثر ، وكانت هذه الطريقة رغم طول مدتها غير مأمونة العواقب ولا مضمونة النتائج ، إذ أن مركبات الزرنيخ وغيرها من العقاقير كان لها تأثير سام شديد فى الأجسام ، كما أن المريض يظل مدة طويلة يقاسى فيها وخزات الحقن بين كل أسبوع وآخر . . . ولما كانت الغالبية العظمى من هؤلاء المرضى تعوزهم قوة الاحتمال وطاقة المثابرة كانوا ينقطعون عن العلاج بعد بضع حقن معدودة . . . وينتشرون

بعد ذلك فى الأرض ، وهم ما زالوا ملوثين بالمرض ، ليوزعوا الميكروبات الخبيثة على غيرهم من الناس ! . . .

كانت النتائج الباهرة التى توصل إليها العلماء الأمريكيون فى إثبات مقدرة البنيسلين على معالجة الأمراض السرية باعثة لهم غيرهم من الأطباء فى سائر البلدان على اقتفاء آثارهم واتباع أساليبهم . . . وقد كانت مصر من أسبق البلدان إلى العمل فى هـذا المضمار الإنسانى ، وقد أشارت كافة الصحف والمجلات إلى هذه التجارب ونتائجها فى حينها ! . . . ويجدر بنا فى هذا المقام أن نذكر أننا لم نكن فى هذه التجارب مبتكرين ، ولكننا كنا مقلدين ، وكان ينقصنا أن نعمل على تهيئة الوسائل اللازمة لتحضير مادة البنيسلين محلياً ، إذ من المعروف أن هذا العقار شديد الحساسية لدرجة الحرارة وغيرها من مختلف العوامل الخارجية ، فيفسد مفعوله العلاجى عند تعريضه لدرجة حرارة عالية أو بتأثير الرطوبة الجوية . . . ولا يخفى ما قد يكون لتأثير بعض هـذه العوامل فى العمل على إنقاص أو إفساد الطاقة العلاجية للبنيسلين عند نقله من أمريكا إلى مصر ، وهو طريق طويل معرض لمتباين العوامل ومختلف الأجواء ! . . .

وقد كانت التجارب الطبية التى قامت بها وزارة الصحة فى اختبار القوة العلاجية للبنيسلين فى شفاء الأمراض السرية كالزهرى والسيلان ، والنتائج الباهرة التى حصلت عليها ، مثار تأويلات وأحاديث كثيرة فى مختلف الصحف والمجلات المتداولة.

وتتجه الأبحاث الآن إلى اختبار قوة هذا الدواء فى معالجة مرض الرمد الصديدى ، إذ ثبت علمياً أن الميكروبات المسببة لمرض السيلان هى بعينها التى تسبب مرض الرمد الصديدى ، والمرض الأخير من أهم الأسباب المباشرة فى حرمان الكثيرين نعمة الإبصار، حتى سميت مصر ببلد العميان ! . . .

على أن تجارب البنيسلين فى علاج الأمراض السرية قد أثارت جدالا عنيفاً بين طائفة من قادة الفكر والباحثين . . . فيرى بعض علماء الأخلاق أن هذه الأمراض التناسلية يكون سببها عادة الاتصال الجنسى غير الشرعى ، ومثل هذه الحالات لابد من عدم تهيئة الوسائل السهلة السريعة لعلاجها ، و إلا كان ذلك مدعاة لذيوع الفساد وانتشار البغاء . . . فخير لإصلاح الأخلاق أن يترك هؤلاء المفسدون يقاسون وزر أعمالهم و يتحملون نتائج غيهم ! . . . وقد فات هؤلاء السادة أن بعض الأمراض

السرية كالزهرى قد يكون وراثياً ، فينتقل من الآباء إلى الأبناء ، ومن الظلم أن نأخذ الأبناء بوزر الآباء ، ومن العار أن نهمل فى تهيئة سبل العلاج اللازمة للوالدين لنخرج للوطن أطفالا مشوهى الخلقة أو محدودى الذكاء ! . . . وإن فشل رجال الأخلاق فى العمل على إصلاح اعوجاج النفوس وفسادها ، فقد نجح أساطين العلوم فى مداواة أجسام النفوس المعوجة ، والحد من أضرار نزقها والتوائها ! . . .

وهناك أنواع من الميكروبات القاتلة الخطيرة قد أثبتت التجارب العلمية المختلفة أن البنيسلين لا يستطيع مقاومة نموها أو وقف تكاثرها . . ومن هذه الميكروبات الأنواع المتعددة من الباشلسات التى تسبب التيفود ، والسل ، والدوسنطاريا وغيرها ، وهذه الأمراض كثيرة الانتشار ، خطيرة الآثار ، وتسبب موت الكثيرين من ضحاياها ! . . . والحمى التيفودية أو المعوية يزداد انتشارها ويتضاعف عدد مرضاها كلما أقبل الصيف ويموت من المصابين بها نحو ١٥ — ٢٠ ٪ ! . . . ومرض السل من أكبر أعداء الإنسانية وأشدها فتكا بالأرواح البشرية ، ولا يقل عدد الذين يموتون به فى القطر المصرى عن عشرة آلاف شخص

سنوياً ، ولا يقل عدد المصابين به عن مائة ألف أو ما ينوف من المصريين ، ويعزى سبب انتشاره إلى عدة عوامل كسوء الحالة الصحية فى المساكن وسوء التغذية وجهل الجمهور جهلا فاضحاً بأصول الحياة الصحية . . وإذا كان البنيسلين لا يستطيع أن يؤثر تأثيراً مباشراً فى ميكروبات السل فهو يعمل على إهلاك ميكروبات الالتهاب الرئوى ، فيمنع بذلك المضاعفات المؤذية التى تسببها ، وتكون سبيلا ممهداً لاستعمار غيرها من ميكروبات السل ! .. وقد كانت الصعوبات الجمة التي واجهت العلماء فى سبيل تحضير دواء البنيسلين بكميات متوافرة ، وعدم تأثير هذا العقار فى بعض الميكروبات المسببة للأمراض القاتلة كالسل والتيفود وغيرهما ، من أهم المغريات للعلماء ليتابعوا أبحاثهم فى الأنواع الأخرى من البنيسليوم وما شابهها من الفطريات ، لعلهم يجدون من بينها أنواعا تفرز مواد جديدة من العقاقير ، تكون أكثر كمية وأسهل منالا ، وتقوم بإهلاك الميكروبات التى لم يستطع البنيسلين التأثير فيها . . وسنسرد هنا وصفاً مقتضباً لبعض هذه المحاولات وهى ما زالت إلى الآن فى بدئها وستثبت الأيام فيما بعد قوة مفعولها أو عجز تأثيرها ! :

٧

نوتاتين

قد كان اكتشاف البنيسلين فى المحلول الغذائى الذى ينمو عليه الفطر « بنيسليوم نوتاتم » سبباً فى ارتكاز أبحاث العلماء ومجهوداتهم لاستكمال التفصيلات الخاصة بصفات هذا المحلول ومميزاته . . وقد وجد أن هناك سلالات مميزة من هـذا الفطر إذا نمت على محاليل غذائيـة خاصة أنتجت مادة قوية مضادة لنمو بعض الميكروبات وتكاثرها . . وهذه المادة تختلف فى جميع صفاتها وخواصها عن مادة « البنيسلين » وقد سميت هذه المادة أولاً « بنيسلين ا » تمييزاً لهـا عن البنيسلين المعروف ، ثم أعطيت فيما بعد اسم « نوتاتين » اشتقاقا من الشطر الثانى للفطر « نوتاتم » ! . . وقد أمكن تحضير كميات كبيرة من هذه المادة الفطرية الجديدة بسهولة عظيمة ، بوساطة استخلاصها من السائل الفطرى باستعمال المذيبات العضوية كالاسيتون ، وقد استطاع العلماء كولتارد وميخائيلس وشورت وغيرهم استخلاص

حوالى ثلاثة إلى أربعة جرامات من هذا العقار الجديد من كل مائة لتر من السائل الفطرى ! .. وهذه المادة مسحوق أصفر اللون وهى نوع من أنواع المواد المذيبة أو الانزيمات الفطرية ، وقد اختبر تأثيرها فى المزارع الصناعية البكتيرية ، ووجد أن لهما تأثيراً شديداً عجيباً فى بعض أنواع الميكروبات العنقودية (الستافيلوكوك) فهى تقف نموها وقفاً تاما وتبيدها ، مهما بلغت هذه المادة من ضآلة كمياتها أو قوة تخفيفها . . ولها تأثير قاتل فتاك فى كثير من الميكروبات المؤذية كالميكروبات التى تسبب الالتهاب الرئوى (النيمونيا) ، والحمى الباراتيفودية ، والكوليرا والجمرة الخبيثة وغيرها ! . . وما زالت التجارب الحيوية الأولية جارية لاختبار تأثيرها فى معالجة هذه الميكروبات القاتلة داخل الأجسام الإنسانية ! . .

وتختلف طريقة تأثير النوتاتين عن البنيسلين فى سبل مقاومة الميكروبات العدائية ، فالنوتاتين لا يسبب فقط إيقاف نمو هذه الكائنات المتطفلة وتكاثرها ، بل يعمل أيضاً عملا سريعا فى سبيل قتلها واندثارها . . . ولا بد لتحقيق أغراضه الوقائية فى صراع الميكروبات وصرعها من وجود الكميات اللازمة من الأكسيجين

وسكر الجلوكوز . . فني حالة توافر هذه الشروط وتحقيقها يفتك النوتاتين بالميكروبات العدائية فتكا ذريعاً قويا !

وكما أن المحلول الغذائي الذي ينمو عليه الفطر «بنيسليوم نوتاتم» يحتوي على مادتين مختلفتين مقاومتين لنمو الميكروبات ، هما البنيسلين والنوتاتين ، فقد أثبتت التجارب العلمية الحديثة أن مادة البنيسلين لا تتكون فقط نتيجة لنمو هذا الفطر وحده ، بل إن هناك أنواعاً أخرى من الفطريات تستطيع أن تعطى هذه المادة ! . . . فكل من الفطريين « بنيسيليوم كريسوجينم » و « اسبرجيلس فلافس » يستطيع أن يكون مادة البنيسلين تحت ظروف إنمائية خاصة ! . . وتختلف الآراء في تفسير ماهية تكوين البنيسلين ، فلم يعرف أتتكون هذه المادة أولاً داخل خلايا الفطر ثم تفرز إلى الوسط الخارجي ، أم إنها تتكون بتأثير الانزيمات الفطرية الخارجية في بعض المركبات الغذائية ! . وهكذا فالبنيسلين ، وغيره من الإفرازات الفطرية المقاومة لنمو الميكروبات ، تختلف كلية في وسائل تحضيرها عن غيرها من العقاقير الطبية المتداولة ، فهي محتاجة في إنتاجها ومعرفة خواصها إلى مختلف العلماء المتخصصين من نباتيين وكيميائيين

وجراحين ! . . وإن من أهم الأسباب القوية فى فشل الأبحاث الخاصة بالبنيسلين فى مصر هو عدم تهيئة الوسائل اللازمة لجمع شمل المتخصصين المختلفين للعمل معاً فى إنتاج هذا العقار السحرى العجيب ! .

٨

مواد فطرية أخرى

كانت الخطوات التالية لاكتشاف « البنيسلين » و « النوتاتين » فى المحاليل الغذائية التى ينمو عليها الفطر « بنيسليوم نوتاتم » ، هى العمل على دراسة الإفرازات المتشابهة التى قد تعطيها بعض الأنواع الأخرى من الفطر « بنيسليوم » ، وهذه الأنواع تبلغ فى كثرة انتشارها ووفرة عددها مبلغا عظيما . وقد تمكن العلماء من فصل مواد كثيرة من الأنواع المختلفة من فطر « البنيسليوم » مثل « الستربنين » و « الكلافيفورمين » و « الباتيولين » و « حامض البنيسليك » وهذه المواد جميعها تمتاز بقوتها المضادة للميكروبات فى المزارع الصناعية ، فهى تشابه

البنيسلين فى قوة مقاومتها وشدة تأثيرها . . ولكن لم يكن نصيب معظمها من النجاح ، مثل نصيب البنيسلين ، عنداختبار تأثيرها فى الأجسام الإنسانية . . والتجارب ما زالت مستمرة للتخلص من عيوبها والعمل على إمكان استعمالها ، وستثبت الأيام مقدار كفايتها أو انعدام فوائدها ! .

وقد وجد واكسمان وهورننج وسبنسر أن هناك أنواعاً من الفطر « اسبرجلس » لها القدرة على إفراز مواد مضادة لنمو الميكروبات ، فالنوع المسمى « أسبرجلس فيوميجاتس » يكون ثلاث مواد مختلفة هى «فيوميجاتين» ، و «فيوميجاسين» و «حامض الهلفوليك» ، والنوع المسمى «أسبرجلس كلاڤاتس» يفرز مادة « الكلاڤاسين » . . . وهذه المواد جميعها قد اختبر تأثيرها فى الميكروبات المختلفة فى المزارع الصناعية ، ووجد أن لها تأثيراً قوياً قاتلا فى كفاح هذه البكتريات ومقاومتها ، ولكنها تسبب دائماً بعض الأعراض السامة عند محاولة استعمالها لمقاومة هذه الميكروبات داخل الأجسام الإنسانية ! . . . والمادة الوحيدة التى ما زال الرجاء معقوداً على إمكان استعمالها هى « حامض الهلفوليك » ، فهذا الحامض لا يؤثر تأثيراً ساماً

شديداً فى خلايا الدم البيضاء أو فى غيرها من أنسجة الأجسام الإنسانية الحية ، ولكنه يسبب عند استعماله استعمالاً متواصلاً ، وبكميات وافرة ، ضرراً خطيراً بليغاً للكبد . . . ومن مميزات هذا الحامض الفريدة أن له تأثيراً مهلكاً قوياً فى السلالات القوية من الميكروبات العنقودية التى تقاوم مفعول البنيسلين !..

وقد وجد واكسمان ، وغيره من العلماء ، أن هناك أنواعاً من الفطريات الشعاعية — وهى كائنات لها صفات مشتركة بين الفطريات العادية والبكتريا — لها القدرة على إهلاك الميكروبات ووقف نموها ! . . . وهذه الكائنات تفرز مواد مختلفة متباينة منها « الأكتينومايسين » ومنها « البروتوأكتينومايسين »... والمادة الأولى لا تقل فى قوة تأثيرها فى نمو الميكروبات ومقاومتها فى المزارع الصناعية عن « البنيسلين » . . . ولكن كان مآلها الفشل والخذلان عند استعمالها فى تجارب الفيران ، إذ أثبتت هذه التجارب أن لها تأثيراً ساماً شديداً فى مختلف الأجسام الحيوانية والإنسانية ! . . . أما مادة « البروتو أكتينو مايسين » فلها ميزة فائقة عجيبة على صراع بعض أنواع الميكروبات السبحية التى تسبب مرض الالتهاب الرئوى (النيمومنيا) وإهلاكها ، فهى

تستطيع أن تحد من نمو هذه الميكروبات ونشاطها إذا كانت موجودة فى محلول مخفف بنسبة واحد إلى مليون وخمسمائة ألف مرة . . . ولكن كان مآل هذه المادة فى عالم الطب الوقائى مآل زميلتها السابقة « الأكتينومايسين » من عدم النجاح والرضى ، إذ وجد أن لها تأثيراً ساماً شديداً فى الفيران وعند اختبار مفعولها فى خلايا الدم البيضاء ! . . .

إن ذلك الفشل المستمر فى إيجاد أنواع جديدة من الإفرازات الفطرية ، المشابهة للبنيسلين ، والتى لا يكون لها تأثير سام فى الأجسام الإنسانية ، قد زاد بمرور الزمن من قيمة البنيسلين ورفع من شأنه . . . ولكن الآمال ما زالت مفتوحة أمام العلماء لإيجاد أنواع جديدة من الإفرازات الفطرية التى قد تفوق البنيسلين فى خواصها ، وتنتصر عليه فى سهولة استعمالاتها وطرق تحضيراتها ! . . . وهناك مئات الباحثين ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، يعملون مجدين ليل نهار للفوز فى هذا المضمار الإنسانى العظيم . . . ولم يكن قطرنا المصرى العزيز أقل من غيره فى المساهمة فى هذا المضمار الحيوى ، فهناك فى قسم النبات بكلية العلوم ، بجامعة فؤاد الأول ، نفر من العلماء

المختصين بالفطريات وفسلجتها يعملون على دراسة مختلف الفطريات المصرية ، واستنباط الوسائل اللازمة لنجاح نموها ، واختبار إفرازاتها المختلفة على الميكروبات التى تسبب الأمراض الإنسانية وآلامها ! . . .

٩

خاتمة

تختلف قصة البنيسلين عن سائر قصص الحياة بدوام حياة بطلها واستمرار فصولها ، فالبنيسلين مادة خالدة أزلية لا تعرف للحياة آجالاً ولا للأعمار زوالاً . . . وقصة البنيسلين هى قصة صراع مرير متواصل بين الكائنات من فطريات وميكروبات ... ذلك الصراع الذى يسود الحياة فى كافة مظاهرها ومختلف نواميسها . . . ويتمثل هذا الكفاح بأجل معانيه بين متعدد هذه النباتات ، لا فرق بينه وبين ما نراه اليوم ، وما رآه أجدادنا ، وما سيراه أحفادنا ، من كفاح خالد متواصل من أجل الحياة وحفظ كيانها . . . أما الضعيف من النباتات

فتطويه أيدى الأقدار القاسية . . . وأما القوى فتبقى له الشمس الزاهية ، والأرض الخالية ، والسماء الصافية ! . . . وهكذا فما أعجب الحياة بمظاهرها وأسرارها ، هى هى لا فرق فى ذلك بين نباتها وحيوانها وإنسانها ! . . . . وكان البنيسلين ثمرة ناضجة من ثمرات هذا الصراع ، فهو مادة تفرزها بعض أنواع الفطريات فى أثناء كفاحها الحيوى ضد كثير من الميكروبات ، فاتخذها العلماء وسيلة فعالة لمواساة آلام الإنسانية ومكافحة أمراضها ! . . . وإذا كنا فى حياتنا اليومية نتلمس مظاهر الكفاح عنيفاً قوياً بين الأحياء الآدمية سعياً وراء أرزاقها وتحقيقاً لمصالحها المادية ، وبين مختلف الشعوب إشباعاً لنزعات دفاعية أو جريا وراء أطماع استعمارية ، فلا بد لنا أن نتصور هذا الكفاح مراً شديداً بين الكائنات النباتية الدنيئة من فطريات وميكروبات ... فهذه الكائنات قد وهبها الله نعمة الذرية والتكاثر السريع ، فتستطيع أن تضاعف عددها ، وتنتشر انتشاراً كبيرا ، فى مدة قصيرة ودقائق معدودة ! . . .

والصراع بين هذه الكائنات الدنيئة وبعضها ، و بينها و بين الإنسان ، قصة متواصلة الحوادث متشابكة الحلقات ! . . . فقد

كان من سوء الأقدار أن جعلت الميكروبات الأجسام الإنسانية أحد أهداف كفاحها ومرامى صراعها ، لتستطيع بذلك ضمان أرزاقها واستدرار غذائها ... فالإنسان ماهو إلا مجموعة متباينة من المواد الغذائية ، اصطفاها الله بقبس من روحه القدسية ، فأمست بفضلها رائحة غادية . . . فإذا ما فارقت الروح هذه المجموعة العضوية أصبحت جسداً ميتاً خاوياً . . . وتتطفل الميكروبات على هذه الأجسام الإنسانية إبان حياتها و بعد موتها ! . . وتتخذ سنة الكفاح للحياة بين هذه الكائنات و بعضها ، و بينها و بين الأجسام الإنسانية ، مظاهر متعددة وطرقا متباينة . .. فبعض هذه الميكروبات ، يسودها حب النفس وعوامل الاستئثار ، فإذا اتخذت طريقها إلى الجسم الإنسانى منعت تطفل غيرها ، و بعضها يعمل على أن يجعل السبيل سهلا ممهداً لاستعمار مختلف أنواعها ، وتتباين الأجسام الإنسانية نفسها فى مقدار مناعتها وقوة مقاومتها !

و إذا كانت الوسائل الكاملة لمواجهة كفاح الحياة ، بمختلف مظاهرها ، هى المقياس الصحيح لتقدم الشعوب ومدى نجاحها ، فقد اختلفت آراء الباحثين والعلماء من جهة ، و بعض قادة الرأى والزعماء من جهة أخرى ، فى تهيئة السبل اللازمة لاستكمال

مظاهر هذا الكفاح . . . ولما كان المرض والفقر هما ألد أعداء الإنسان وسبب عجزه عن مقاومة شدائد الحياة و إيفاء مستلزماتها، فقد كانت الأبحاث العلمية تعمل دائماً على إمداد الإنسان بالسبل الكافية لصراع الميكروبات المسببة للأمراض ، وكان اكتشاف البنيسلين إحدى وسائل الكفاح فى هذا الاتجاه الإنسانى العظيم . . فهدف العلماء الأسمى هو العمل على إهلاك الميكروبات و إبادتها ليحدوا من شطط كفاح الحياة بين الإنسان وهذه الكائنات المؤذية ! . . ولكن هناك نفر قليل من قادة الفكر والزعماء ، يأبون الرضوخ لسنة كفاح الحياة بضحاياها ، و يريدون أن يخلقوا من شعوبهم أمما سليمة قوية لا أثر للمرض ولا للضعف فيها ، فقام لوك و بنتام فى أواخر القرن الثامن عشر بالدعوة إلى القضاء على الضعاف والمرضى لكى يظل المجتمع سليما قوياً . . . ثم عمل هتلر — عام ١٩٤٣ — على تعقيم المجانين والمرضى بأمراض معدية والمدمنين على المخدرات حتى لا يتوالدوا ، فيفسدوا نقاء أمته ، و يقللوا من سبل قوتها وطرق كفاحها . . . وتلك الأعمال التى تحرم الأبرياء نعمة الحياة والبنين لا تستطيع ، مهما زادت فى فظاعتها ودقة تنفيذها ، أن تزيل من الوجود هذا

الناموس الطبيعى — ناموس الكفاح للحياة ، فهو خالد الأثر أبدى المفعول ! ..

وإذا كان لكل قصة من قصص الحياة مغزاها ومرماها ، فمغزى قصة البنيسلين هو ذلك الصراع المستمر بين الكائنات من فطريات وميكروبات ... وهذا الصراع المتواصل بين العلماء للاستفادة من الإفرازات الفطرية فى سبيل مقاومة وإهلاك الميكروبات العدائية، اتقاء لشرورها وحداً من آلام أمراضها !.. والصراع بين هذه الكائنات هو مظهر عام من مظاهر الكفاح للحياة . . ولو كان الكفاح بمختلف مظاهره صراعا قويًا مستمرا لهلكت المخلوقات جميعها ، ولوجدت فى الموت خلاصا من متاعب الحياة ومصاعبها . . . ولكن هناك مظهر آخر جذاب من مظاهر هذا الكفاح ، هو مظهر التعاون المنفعى بين بعض هذه الكائنات ، فهى بمثابة معاهدات صداقة ومواثيق عدم اعتداء للمعيشة فى ظل ظليل من الطمأنينة ورغد الحياة . . وقد وصفنا فيما سبق التعاون المنفعى بين بعض النباتات ، وهناك نوع من التعاون بين الفطريات الأرضية وجذور النباتات الراقية ، وهذا النوع من التعاون

له أثر مفيد فعال فى نجاح إنبات المحاصيل الاقتصادية ، وفى زيادة إنمائها ووفرة محصولها . . .

وإذا كان الكفاح سنة الحياة وأحد نواميسها ، فقد امتدت آثاره إلى معشر العلماء والباحثين فى أرض الكنانة العزيزة ، وظهرت بين جميع الأوساط نزعات وثابة نحو تقدير العلم والعلماء .. ذلك التقدير الذى يحدو بالعاملين إلى مواجهة المصاعب والآلام فى سبيل الوصول بأبحاثهم إلى مرتبة النجاح والكمال .

فهرس

ص

(١) مقــدمة ٥

(٢) كائنات التربة ٨

(٣) الفطريات ١٠

(٤) فوائد الفطريات ١٥

« البنيسلين » و « الفيتامين » ٢٣

اللحم الصناعى ٢٥

الإنزيمات الفطرية ٢٨

كفاح ٤٠

(٥) البكتريا أو الميكروبات ٤٣

فوائد البكتريا ٤٥

صراع ٤٩

أمراض إنسانية ٦٦

الإلتهاب الرئوى أو النيمونيا ٧٣

الإلتهاب السحائى ٧٥

الدفتريا والسيلان ٧٧

ص

(٦) البنيسلين ٨٠

الأستاذ فلوري ٩٤

الخواص الأقرباذينية ١٠٠

تجارب الفيران ١١٤

الاستعمالات الانسانية ١٢١

تجارب أمريكية ١٣١

(٧) نوتاتين ١٤٢

(٨) مواد أخرى فطرية ١٤٥

(٩) خاتمـة ١٤٩

اقرأ

جائزة سنة ١٩٤٤

تختتم سلسلة اقرأ السنة الثانية من عمرها بعاطفة تبثها وأمنية تختلج فى صدرها أما العاطفة فشكر خالص تقدمه إلى اللجنة التى تعهدتها وإلى الكتّاب الأعلام الذين خصوها بنتاج قرائحهم وأما الأمنية فأن تمكنها الأحوال من مضاعفة الجهد فى خدمة القارىء العربى .

ولقد رأت إدارة مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر فى ختام السنة الثانية لهذه السلسلة أن تستأنس بآراء القراء فى معرفة الكتاب الذى ظفر باستحسانهم وكان له أوقع الأثر فى نفوسهم .

فوافنا أيها القارىء الكريم برأيك لعلك تربح إحدى الجوائز المالية المخصصة بالقراء واجعل ردك يصل إلينا قبل

٣١ من يناير سنة ١٩٤٥

أنظر البيان والشروط فى القسيمة التى تجدها طى هذا الكتاب

اقرأ

المؤلفات التي ظهرت فى السنة الثانية لهذه السلسلة

١٣	جميل بثينه	(أدب)	للاستاذ عباس محمود العقاد
١٤	من يوميات فتاة عصرية	(قصص)	للاستاذ حسين شوقى
١٥	بايرون	(ترجمة)	للسيدة أمينه السعيد
١٦	دمشق	(تاريخ)	للاستاذ محمد كرد على
١٧	شكسبير	(ترجمة)	للاساتذة محمد فريد ابو حديد وزكى نجيب محمود واحمد خاكى
١٨	قنديل أم هاشم	(قصص)	للاستاذ يحيى حقى
١٩	سيدة القصور	(قصص)	للاستاذ على الجارم بك
٢٠ ✡	الملك فاروق	(دراسة)	للاستاذ كريم ثابت بك
٢١	أبو نواس	(ترجمة)	للاستاذ عبد الحليم عباس
٢٢	جحا فى جانبولاد	(قصص)	للاستاذ محمد فريد أبو حديد
٢٣	صوت أبى العلاء	(أدب)	للدكتور طه حسين بك
٢٤	لافوازييه	(ترجمة)	للاستاذين : عبد الحميد يونس وعبد العزيز امين
٢٥	قصة البنيسلين	(علم)	للدكتور مصطفى عبد العزيز

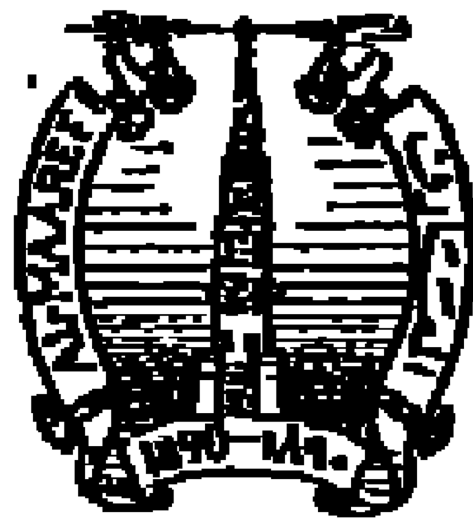
تصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

ظهر حديثاً

مـ		
٢٥	شجرة البؤس	للدكتور طـه حسين بك
١٥	مجمع الأحياء	للاستاذ عباس محمود العقاد
٢٥	قصة العرب فى أسبانيا	للاستاذ على الجارم بك
٢٥	أمريكا الضاحكة (طبعة ثانية)	للاستاذ مصطفى أمين بك
٥٠	الطريق إلى البرلمان	للاستاذ اسماعيل الأزهرى



ملتزم الطبع والنشر
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر



مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

المحل الرئيسي بالقاهرة : ٧٠ شارع الفجالة

فرع الاسكندرية : ٢ ميدان محمد علي

وكالة فلسطين وشرق الأردن : شارع مأمن الله بالقدس

ولها متعهدون ببيروت ودمشق وبغداد

اقرأ

سلسلة كتب شهرية للجيب يشترك في تأليفها
أشهر الكتاب في مصر وسائر البلاد العربية
تصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

آراء بعض كبار الأدباء

- «مشروع جليل القدر كبير الفائدة عظيم الأثر في تنشيط الأدب والثقافة» ...
- «زاد فكري في مختلف أبواب العلم والأدب يشبع نهم الجمهور ويرضى عنه الخاصة» ...
- «هذه السلسلة جهد في سبيل نشر الثقافة وترقية الشعب وإزالة الفروق بين الطبقات» ...

الثمن بالنسخة

مصر	٥٠ مليما	سوريا ولبنان	٦٠ قرشا
السودان	٥٥ مليما	العراق	٦٠ فلسا

فلسطين وشرق الأردن ٦٠ مـلا